العنوان	**آثار الأول في ترتيب الدول**
ترجمة العنوان	Athar Al-Awwal Fi Tarteeb Al-Dewal
المؤلفين	الحسن بن عبدالله العباسي
تاريخ النشر	1989
الناشر	دار الجيل العربي للنشر والتوزيع
الموضوعات	دينية
الكلمات المفتاحية	الثقافة الاسلامية | الدين الاسلامى | الديانات | الاسلام والسياسة
ISBN	N/A
المستخلص	يتناول هذا الكتاب بالتحقيق كتاب (آثار الاول فى ترتيب الدول) للحسن بن عبدالله العباسى . والذي وضعه مؤلفه في بداية القرن الثامن الهجري ليكون دستورا للحاكم ومنهجا لسياسة الدول ودليلا يلتقي فيه الحاكم والمحكوم ليتعرف كل منهما على حقوقه وواجباته تجاه الاخر فيكون من ذلك استتباب الامن واقامة العدل وحماية الثغور وحسن الجوار .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00027778-001*

آثار الأول في ترتيب الدول

للحسن بن عبد الله العباسي

المتوفى عام ٧١٠هـ - ١٣١٠م

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

آثار الأول في ترتيب الدول

قال تعالى:

﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾.

آل عمران ٢٦، ٢٧.

مُقدّمة المحقّق

مقدمة

سبحانك اللهم وبحمدك، بل أستعين، وعليك أتوكل، وإليك ألجأ، ومنك استنزل رحمتك، وفيك أجاهد أعداءك،الخير كله بيديك، وأشهد أنه هو الله لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، تبارك اسمه، وتعالى جده.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أنزل عليه الكتاب فرقاناً بين الحق والباطل، فأيد بالحق أهل طاعته، وخذل بالباطل أهل معصيته.

وأصلي وأسلم على محمد بن عبدالله ــ خاتم النبيين، وسيد المرسلين أرسله الله سبحانه وتعالى على فترة من الرسل، فهدى الى طريق الحق، ودعا الى كلمة التوحيد، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أقام العدل، ونشر الأمن، وأقام دولة الاسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجا. وبعد

هل كان للعرب قبل الاسلام معرفة باشكال الحكومات، وقوانين الدول، وقواعد الملك..؟

أم أنهم كانوا يعيشون قبائل متفرقة، وجماعات متباينة، لا تعرف الاستقرار، أو المكث في مكان، فهي تنتجع مع الكلأ، وتظعن حيث يوجد المرعى والأمان..؟

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن:

« كان في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير، وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفي سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المباني الضخمة، والنقوش الكثيرة، وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة، والأبهة التي وصلت اليها مملكة سبأ ».[1]

قال تعالى: **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** »[2].

« كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة، ومملكة الغسانيين. وكان في جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة، كان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقي.

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » في الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة ».

ومدينة الرسول ﷺ كانت قبل ذهاب الإسلام إليها تتهيأ لتتويج ملك عليها، وإذا قام الملك قامت حوله حكومة على أي شكل من الأشكال.

إذن فالبيئة التي نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق، وتجربة رائدة، وممارسة طويلة الأمد، مع الحاكم والحكومات.

« وهكذا لم يكن الإسلام يعمل في خواء، ولا يبدأ من فراغ، حين يدعو أتباعه لتأسيس حكومة، بل وحين يبدأ بالفعل في تأسيس دولة وقف على رأسها محمد بن عبدالله خاتم المرسلين.

وعندما توجد « أمه » تؤلف بينها وحدة اللغة، والجنس، والدين، وتوجد

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي جـ١

(٢) سورة النمل آية رقم ٢٢/٢٣.

الأرض أو « الوطن » الذي تقطنه هذه الأمة.. ثم توجد سلطة عليا تنظم شؤون هذه الجماعة فقد وجدت الدولة »[1].

يقول المستشرق « هاملتون جب »:

« بعد الهجرة قام في المدينة مجتمع قائم بذاته، منظم على قواعد سياسية، تحت قيادة رئيس واحد.

« وقد كانت فكرة الرسول ﷺ الثابتة عن هذا المجتمع الديني الذي أقامه، أنه سينظم تنظيماً سياسياً، ولن يكون هيئة دينية منفصلة، مندرجة تحت حكومة زمنية »[2].

وإذا كان ذلك كذلك فقد أقام الاسلام دولة، وجمع كيان أمة، وأنشأ حكومة.

وإذا كان قد حدث هذا فهل أخذت الحكومة الاسلامية أشكال الحكومات العصرية..؟

يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس:

« لم يكن هناك أية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها إنها سياسية من اعداد الأداة لتنفيذ العدالة، أو تنظيم الدفاع، أو بث للتعليم، أو جباية للمال، أو عقد معاهدات، أو انفاذ سفارات، إلا كانت هذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله ﷺ ».

والرسول ﷺ كان حريصاً كل الحرص على اقامة الدولة، وتنظيم شئون المجتمع، إذا فعل الرسول عليه السلام ذلك، فلا شك أنه جزء من رسالته التي كلفه الله بها، والأنبياء من قبله كذلك قال تعالى:

---

(١) الدولة في الاسلام — خالد محمد خالد ص ٢٢.

(٢) النظريات السياسية في الاسلام د. ضياء الدين الريس.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾(١).

بل إن الرسول ﷺ كان يعمل جاهداً على اقامة الحكومة العالمية التي تسوي بين الناس جميعاً في الحقوق والواجبات. اعتماداً على قوله تعالى في مخاطبة رسوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(٢).

وما الرسائل التي أرسلها الرسول ﷺ الى الملوك والرؤساء إلا بداية لهذه الحكومة العالمية التي تظل العالم كله تحت كلمة « لا إله الا الله ».

ولقد حدث هذا في فترة من فترات التاريخ حتى وقف أحد قادة الاسلام على شاطىء البحر وهو يقول: لو أعلم أن خلف هذا البحر قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بمحمد لخضت لهم بهذا الفرس ».

ومن قبل هذا قال قائد الجيوش الاسلامية خالد بن الوليد عندما عزله الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن القيادة وأراد أتباعه أن يعترض على هذا الوضع ويثيرها فتنة فقال:

« لقد حطمنا بيوت النار في فارس وتشربت قلوب أتباعها كلمة « لا إله إلا الله » ودمرنا القلاع على بطاح الروم، ودخل أصحابها في دين الله أفواجاً، ولم تعد هناك قوة ضاربة تقف حائلة بين الناس وبين اعتناق كلمة التوحيد وتحتاج لسيف خالد. الأمة الاسلامية الآن في حاجة الى عقل عمر أكثر من حاجتها الى قوة السلاح. لن تكون فتنة وابن الخطاب موجود »(٣).

---

(١) سورة ص آية رقم ٢٦.
(٢) سورة سبأ آية رقم ٢٨.
(٣) راجع هذا هو الطريق — للمحقق ص ١١٩.

وهذا دليل على ايجاد الحكومة العالمية التي اقيمت دعائمها على عهد الرسول ﷺ وكمل بنيانها على يد أتباعه من بعده.

واذا كان ذلك كذلك فما دستور الدولة في الاسلام..؟

دستورها القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ واجماع المسلمين.

وهو دستور لا يزاحم ولا ينافس، وليس أمام الدولة المسلمة أي خيار في أن تأخذ بعضه وتذر البعض الآخر.

قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ. فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾(١).

ودستور الدولة المتمثل في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ ليس من وضع بشر من البشر ولا هيئة من الهيئات ولم تشارك الأمة في وضعه، ولكن الأمة رضيت به، وآمنت ببنوده، واستشهد البعض في سبيله.

فهو ملزم لكل فرد آمن بهذا الدين، ودخل في دين الله. وهو ملزم لكل حاكم أن يحكم به ويطبقه على رعيته.

يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم.

﴿احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾(٢).

ثم يقول: ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾(٣).

واذا قال: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ(٤)﴾.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٨٥.
(٢) (٣) سورة المائدة آية رقم ٤٩.
(٤) سورة النساء آية رقم ١٠٥.

اتبعها بقوله:-

﴿بِمَا أراكَ اللهُ﴾[1].

ويؤكد الله تعالى على رسوله ألا يحيد عن ما أنزل إليه أو أن يفتن فيه.

قال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[2].

فالحكم بما أنزل الله وبما شرع لعباده أساس قيام الدولة المسلمة التي يرتضيها الله لعباده.

يقول الله تعالى:

﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[3].

ويقول:

﴿إِنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾[4].

ويقول أيضاً على لسان رسوله:

﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ﴾[5].

اختيار الحاكم والولاة...

والحاكم في الاسلام لم يتسلق الى الحكم بدعاية كاذبة أو أهواء مغرضة، ولم يطلب الحكم لنفسه.

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٥.
(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٩.
(٣) سورة الممتحنة آية رقم ١٠.
(٤) سورة الأنعام آية رقم ٥٧.
(٥) سورة يوسف آية رقم ٦٧

يقول الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة:

« يا عبد الرحمن، لا تسأل الامارة، فإنك إن سألتها وكلت اليها وإن أعطيتها بغير مسألة أعنت عليها ».

وإنما طُلِبَ له، لم يستلق الى السلطة اعتماداًعلى وجاهة قريب أو خدمة أريب.

والحاكم المسلم يكرس حياته لخدمة الأمة واصلاح حالها وأمرها وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها.. بل لا يغيب عن حاجة أي فرد من أفرادها.

يقول الرسول ﷺ:

من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته يوم القيامة ».

ويصف الإمام عليٌّ الحاكم المسلم فيقول:

« لا ينبغي أن يكون الوالي على الأعراض، والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين بخيلاً فتكون أموالهم نهمته، ولا جاهلاً فيقتلهم بجهله، ولا جافياً فيقطعهم بجفائه، ولا خائفاً من الدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا مرتشياً في الحكم، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا معطلاً للسنة فيهلك الأمة ».

إن حكام المسلمين يجب أن يكونوا من الرجال الأقوياء، الأقوياء في أبدانهم حتى لا يملأ الهلعُ نفوسَهم إذا أحاطت بهم الخطوب، والأقوياء في عقولهم حتى لا يلقوا ببلادهم ومصائرها في قبضة الأعداء، نتيجة لطفرة في الرأي أو عجالة في التفكير.

أقوياء في أرواحهم فلا تغرهم الدنيا، ولا يحرصون على حطامها الفاني.

الحاكم في الاسلام:

رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان في المجتمع.
رجل يصلي لنفسه ويؤم الناس في الصلاة.
رجل يخرج زكاة أمواله ويشرف على جمعها من الآخرين.
رجل يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء مملكته.

الحاكم في الاسلام:

يؤمن بأن الاسلام عقيدة في القلب، وقانون في الحكم، وقواعد في الأخلاق، ونظام في المجتمع، ورباط بين أتباعه.

الحاكم في الاسلام:

يعمل جاهداً على ألا تفترق السياسة عن الصلاة، ولا العمل عن العبادة.

مجتمع تتحول فيه الدنيا من غابة الشهوات الى واحة العبّاد.
ومن صراع الشياطين الى تعاطف المؤمنين.
ومن أماكن اللهو والفجور الى مساجد للتبتل يذكر فيها اسم الله تعالى.

الحاكم في الاسلام: يتزيا بسكوة الجندية فهو دائماً في حرب، أو على أهبة حرب.

والحاكم في الاسلام مسئول عن اختيار الولاة.

وهو ينحي الذين لا يلتزمون بأوامر الله عن مراكز القيادة، ومن مواقع العمل الجادة لأنهم لا يحتكمون الى ربهم بل الى شهواتهم.

وهذه حقيقة يجب أن ينتفع بها حكام المسلمين، وذلك بالنظر الى الأشخاص من خلال معرفتهم لربهم، ومن واقع إيمانهم، وذلك بوضع هذه المرشحات في المترتبة الاولى ثم يبحث معها عن العلم والخبرة التي ترشح لتلك الوظيفة.

لقد أراد بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أن يختار قائداً لجيشه في حرب الروم، وكان عمر بصيراً بأقدار الرجال. لقد انتدب أكفأ القادة وأحزم الولاة من خلال معرفتهم بربهم، ثم من خلال مواهبهم في الحياة، وإيمانهم فكأن الايمان والتقوى رشح هؤلاء لمناصب القيادة والإمارة. فالنعمان بن مقرن قائد معركة « نهاوند » المشهورة لم يكن عمر يعرف اسمه لكنه حين دخل المسجد رأى رجلاً يصلي صلاة خاشعة فامتلأ قلبه اعجاباً به، وامتلأت نفسه ثقة فيه.

وكان الرجل مفتول الذراعين، مرفوع القامة، قوي العضلات وسأل أمير المؤمنين عمر: من هذا..؟

فقيل له: هذا النعمان بن مقرن.

فقال: عليَّ به.

فلما مثل بين يديه قال له عمر: لقد انتدبتك لأمر عظيم.

فقال الرجل العملاق: يا أمير المؤمنين إن كنت تريدني لجمع الصدقات فإني لا أصلح لذلك، وإن كنت تريدني للجهاد والاستشهاد في سبيل الله فإني أصلح له..

فقال أمير المؤمنين: بل أردتك للاستشهاد ثم ولاه إمارة الجيش. الإيمان معيار البطولة، والتقوى والألمعية وسيلة الترشيح لمناصب الدولة، لأن المناصب القيادية في الدولة الاسلامية لن تكون لكل جريء العين فارغ القلب.

لن تكون لكل من يجيد فن التملق والوصول.

يقول الرسول ﷺ:

« من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين ».

وإذا كان ذلك كذلك فالحكم في دولة الاسلام عقد بين متعاقدين بين

الحاكم من جهة وبين الرعية من جهة أخرى، هو من قبيل التعاون على البر والتقوى لأن الحياة الانسانية في كل صورها لا تقوم إلا بالتعاون ولا تستقيم الا بهذا النظام.

ويرى الامام ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » أن الحكم أمانة وأن آية الأمراء في القرآن هي قول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٢).

قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات الى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، فإن خانوا الأمانة سلبت منهم الولاية.

ونزلت الآية الثانية في الرعية عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة إلا أن يُؤمروا بمعصية، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

واختيار الدولة لولاتها يجب أن يتم وفق مقاييس الاسلام المتمثلة في أن يكون الوالي كفوءاً وعدلاً وصادقاً وأميناً.

وولاة ينصحون الدولة ولا يغشونها، يواجهون الحاكم ولا يتملقونه، يخلصون للحق ويجعلون ولاءهم له من دون الناس.

---

(١) سورة النساء آية رقم ٥٨.

(٢) سورة النساء آية رقم ٥٩.

يقول الرسول ﷺ:

« إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق: إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه.

« وإذا أراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء: إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه ».

وإذا كان ذلك كذلك فما خصائص الدولة المسلمة؟

قواعد الدولة في الاسلام..

لا شك أن لها مجموعة من القواعد أهمها ما يأتي:

١ — وجوب الشورى.

٢ — مسئولية ولي الأمر أمام الأمة.

٣ — حرية الرأي وتبصير الحكام اذا اخطأوا، ومناصحتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نحيط بكل قواعد الدولة في الاسلام وإنما يكفي أن نشير إشارة موجزة الى أهم الأسس والقواعد.

أولاً: الشورى

وهي دعامة من دعائم الحكم في الاسلام، وقاعدة صلبة من قواعده، وهي بهذا التصور تعطي الأمة الاسلامية الحق في إدارة شئونها والاشراف عليها، وتمثل ضمانة أساسية تحول دون مخالفة الحاكم للقواعد والأصول، أو الانحراف في استعمال السلطة، لأن القرار الذي يقدم عليه الحاكم لن يخرج الى حيز التنفيذ إلا بعد بحث واستقصاء، وتحري المصلحة العامة،

ومشاوره المختصين. والله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالشورى لتكون شرعة ملزمة لمن بعده، وقد جعلها الله صفة للمؤمنين في قوله تعالى:

﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وعلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُم شُورَى بَيْنَهُم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

ويقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لهم وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِر لَهم وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[2].

ولهذا يقول أبو هريرة رضي الله عنه: لم يكن أحد أكثر مشورة من رسول الله ﷺ وضرب الرسول لأصحابه المثل الأعلى بنزوله على رأي الكثرة في كثير في الأمور الدينوية.

من ذلك أن الرسول عليه السلام في غزوة بدر، جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

فجاء الحباب بن المنذر بن الجموح وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة..؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم تفسد ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٦ ــ ٣٨.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩.

فقال رسول الله ﷺ.

« لقد أشرت بالرأي »[1].

وسار الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج الذي وضعه لهم رسول الله ﷺ بأمر من ربه.

والشورى في عصرنا الراهن « أن ينتخب الشعب نواباً عنه يمثلون إرادته ومشيئته، ويختارون أو يختار الشعب كله معهم الحاكم الذي يرأس الدولة ويقودها ويكون هؤلاء النواب حراساً على حقوق الأمة لدى الدولة يؤيدون الحاكم إذا صلح، ويقاومونه أو يعزلونه إذا زاغ وانحرف.

وهؤلاء النواب هم « أهل الحل والعقد » لا سيما إذا طعم المجلس النيابي في أمة ما ببعض الكفايات المتخصصة ولو « بالتعيين المحدود »[2].

ثانياً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تضافرت النصوص على تأكيد واجب الأمة في الرقابة على أعمال الحكام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. والأصل في ذلك كتاب الله تعالى قال تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[3].

ولم يكتف القرآن الكريم ببيان أهمية هذا الغرض بل نزل باللائمة على قوم أغفلوه وعطلوه في حياتهم قال تعالى:

﴿**لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم**

(١) راجع سيرة ابن هشام ٢: ٢٥٧.

(٢) راجع الدولة في الاسلام ٥٨، ٥٩.

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤.

ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[1].

ويقول الرسول :

« يا أيها الناس: إن الله تعالى يقول: مروا بالمعروف، انهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم وتسألوني فلا أعطيكم وتستنصروني فلا أنصركم ».

ان اجابة أمر الله تعالى مرون باجابة العباد لأوامر ربهم. نصرة الخلق موقوفة حتى ينفذوا ما أمره الله لهم، فإن لجوا في طغيانهم وركبوا رؤوسهم فلا إجابة لهم في أمر ولا انتصار لهم على عدو.

ونخلص من ذلك الى ما يأتي:

أولاً: الدولة الاسلامية تتطلب أن يوجد رأي عام قوي مستنير يستطيع كفالة هذا الواجب في الدولة الاسلامية ويعمل على تحقيقه وتوفر له القدرة على مراقبة التزام الأفراد من ناحية، والحكام من ناحية أخرى بالقانون الاسلامي.

فالمسلم الذي يترك هذا الواجب ولا يكفله عديم القيمة أو هو ميت الأحياء كما عبر عن ذلك البعض، وقد سئل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن ميت الأحياء ما هو..؟

فقال: الذي لا ينكر المنكر لا بيده، ولا بلسانه ولا بقلبه.

ثانياً: أنه يجب أن توجد في الدولة الاسلامية هيئة يكون عملها ممارسة

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٧٩.

الرقابة على أعمال السلطات الحاكمة تتشكل هذه الهيئة من علماء الأمة وفقهائها لكي تنظر في مشروعية الأفعال والتصرفات التي تقدم عليها السلطات الحاكمة وتنظر في مدى موافقتها للقانون الاسلامي وأصوله الشاملة وقواعده الكلية[1].

الكتاب والمؤلف..

وبعد فهذه كلمة أثارها هذا الكتاب القيم « آثار الأول في ترتيب الدول » الذي وضعه مؤلفه في بداية القرن الثامن الهجري ليكون دستوراً للحاكم، ومنهجاً لسياسة الدول، ودليلاً يلتقي فيه الحاكم والمحكوم ليتعرف كل منهما على حقوقه وواجباته تجاه الآخر. فيكون من ذلك استتباب الأمن، واقامة العدل، وحماية الثغور، وحسن الجوار. والقارىء لهذا الكتاب يشعر للوهلة الأولى أن مؤلفه عايش الملوك والحكام، وتربى على موائد الحكم والسياسة، وعرف خبايا القصور، ومهام الوزراء، ودسائس الحاشية، ودور الوصيفات وأساليب القادة، ورجال الجيش، وحياة الملوك الخاصة والعامة وتكتيكات المعارك، وأدوات القتال، وأساليب النصر ودواعي الهزيمة وكأن المؤلف قد سبق زمنه بعدة قرون، وتربى في أعلى « الأكاديميات العلمية ». ودرس أساليب الحكم على أساطير الساسة، ورجال الفكر. ويطيب لنا أن نقدم بين يدي القارىء موجزاً عن حياة المؤلف وكتابه، وكأنه لم يوضع منذ ثمانية قرون مضت بل وضع في قرننا هذا الذي يموج بالكثير من التيارات المتباينة في الفكر والسياسة، والنظريات الحديثة في الحكم وقيادة الشعوب.

---

(١)راجع هذا هو الطريق للمحقق ص ١٦٥.

أولاً: المؤلف. نسبه وحياته

هو الحسن بن عبدالله (أبي محمد) بن عمر بن محاسن العباسي، من نسل الخليفة هارون الرشيد.

تتجاهل كتب التراجم هذا الرجل تجاهلاً كاملاً فلا تتعرض لحياته من قريب أو من بعيد، فنحن لا نعرف شيئاً عن طفولته، ولا عن شبابه ولا أين عاش، وتعلم هذا العلم، واكتسب هذه المعرفة والتجربة. وكل ما عرف عنه هو ما سجله بنفسه على مخطوطة الكتاب الذي بين أيدينا والتي تحمل رقم ٤٢٦٨٩/٢٧٣٣ تاريخ عروس.

إن القارىء لكتابه الوحيد « آثار الأول في ترتيب الدول » لا يتصور مطلقاً أن هذا الرجل الألمعي، لم يصنف غير هذا الكتاب، لأن المادة العلمية، والخبرة الواسعة التي ضمنها كتابه، مع ما فيه من سلامة العبارة وقوة الألفاظ، وسلامة التركيب، تدل على أن هذا الرجل العملاق له أكثر من مصنف واكثر من كتاب وله باع طويل في مجال التصنيف والتأليف.

ولكن البحث والتقصّي وراء نتاج هذا الرجل لم يعد بفائدة تذكر وبقيت علامات الاستفهام حائرة أين نتاج هذا الرجل..؟

لقد ذكر المؤلف على هامش المخطوطة انه عاش في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري.

هذا القرن الذي لم يكن خيره عاماً بالنسبة للمسلمين، فالخطر يحدق بهم من كل جانب، وآثار الدمار والخراب التي أوجدها المغول في كثير من البلاد الاسلامية لا تزال ماثلة أمام أعينهم، لقد كانت تحيط بهم وتكاد تكتم أنفاسهم عوامل مضللة خانقة، يشنها عليهم أتباع الوثنية والزندقة، وكوكبة ضارية من جنود إبليس وفرق الضلال، ومع ذلك فإن هذا القرن قامت فيه نهضة علمية وثورة فكرية، واكبت ما عاشت فيه البلاد من فقر شامل وأوبئة فاتكة، وكأنَّ المسلمين الذين انهزموا في ميدان الحروب وطحنتهم

المعارك الضارية، وانهزموا أيضاً في المجال الاجتماعي، باجداب أرضهم وقلة مواردهم قد أرادوا أن يعوضوا ذلك في مجال العلم، العلم الذي يشمل كل جوانب الحياة، فنشطت الحركة العلمية نشاطاً ملحوظاً، شمل الانتاج الفكري جميع المعارف الإنسانية والعقدية، والفقهية. فإذا كان المسلمون قد هزمتهم سيوف المغول وسهام الصليبية فإن أقلام علماء المسلمين، قد صاولت فكرهم المنحط، ونازلت معتقداته المسفة في الضلال، وأصابت منها مقتلاً.

وإذا كانت الحروب قد أشاعت الفوضى، وأنزلت بالناس المجاعة وتحول الكثير من أفراد المجتمع الى لصوص وقطاع طرق، فإن فقهاء هذا العصر قد قعدوا القواعد، واصلوا الأصول، وقدموا لمجتمعهم الصورة المثلى لما يجب أن يعيش عليه المجتمع الاسلامي، إذا قلت موارده، أو ضاقت عليه سبل الرزق.

ان عصر الحسن العباسي صاحب كتاب « آثار الأول في ترتيب الدول » هو عصر عمالقة الرجال، وأفذاذ المفكرين الأبطال.

وإذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نتعرف على أبواب الكتاب وفصوله الذي يعتبر شاهداً على عصره. وعلى الله قصد السبيل.

ثانياً: الكتاب..

الكتاب قسمه المؤلف الى أربعة أقسام، كل قسم يحتوي على مجموعة من الأبواب والفصول.

القسم الأول
في الضوابط، والقواعد، والأصول.
وقسمه المؤلف الى عشرة أبواب

الباب الأول: في فضل الملك وشرفه والحاجة اليه. وقدم فيه الأدلة الكثيرة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية على فضل الملك من ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾(١).

وقوله تعالى: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(٢).

وقال تعالى حاكياً قول موسى عليه السلام: لبني إسرائيل **﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾**(٣).

وقول الرسول ﷺ: السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل ملهوف ».

الباب الثاني: في أركان الملك ودعائمه وقوانينه.

ويبدأه بمقدمة: تمسك الملك بالشريعة وتنفيذ تعاليم ربه حتى تتمسك به الرعية وتكون مطيعة لأوامره.

ويرى المؤلف أن يكون الملك منزهاً عن خمس خلال:

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٤٧

(٢) سورة آل عمران آية رقم

(٣) سورة المائدة آية رقم ٢٠.

١ ــ لا يكون غضوباً حديداً. لأن الغضب يمرض النفس ويفسد الفكر.
٢ ــ لا يكون بخيلاً.
٣ ــ لا يكون مخلفاً لوعده ولا وعيده.
٤ ــ لا يكون حسوداً فإن الحسود لا يسود.
٥ ــ لا يكون جباناً.

ثم يقدم الأدلة والبراهين من أقوال الحكماء والفلاسفة قديماً وحديثاً على صحة ما يدعو إليه.

الباب الثالث: في مجموع الملك وهيأته وخصاله وأبهته.

ويجمع فيه الكثير من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الملك وأن تكون عادته وديدنه في كثير من أحواله وصفاته، من ذلك: « أن يكون الملك كثير الوقار، قليل الكلام، قليل التلفت ليس بضحاك، ولا هزال، ولا دائم العبوس، ولا سريع الملال، يكفهر ويغلظ على أهل الشر والفساد، ويحنو ويلطف على الضعفاء والقصاد، ولا يكون في مجلسه إشارات ولا ترتفع عنه الأصوات ». ثم يفصل هذه العناصر، ويقدم مع كل منها اراء أهل الخبرة والتجارب، وجلساء الملوك وأرباب الفكر.

الباب الرابع: فيما يجب للملك على الرعية، وما للرعية على الملك يبدأ المؤلف هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[١].

وبناء على ذلك يطالب المؤلف الرعية ببذل الطاعة، والاستقامة لأمر الملك، والانقياد لحكمة، واجتناب نهيه.

اعتماداً على قول الرسول ﷺ : « السمع والطاعة إلا أن يؤمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة ».

(١) سورة النساء آية رقم ٥٩.

وقول الرسول ﷺ : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً الا مات ميتة جاهلية ».

ثم يعقد فصلاً مطولاً فيما يجب للرعية على الملك ويجملها في أربع خلال:

أحدها: الشفقة عليهم.

الثانية: العناية بهم.

الثالثة: لأنه يسوس جماعات قلوبهم متفرقة، وأغراضهم متباينة، فالتآلف يجمعهم ويأنس نافرهم.

الرابعة: الرفق لأنه أصل في السياسة، ولأن القسوة إذا أفرطت نفّرت، وكذلك الرقة إذا افرطت أطمعت، فخير الأمور الوسط.

ثم يعمل على حمايتهم، ورعايتهم، وحفظ ثغورهم، وتوفير مطمعهم ومسكنهم. وانصاف المظلوم من الظالم.

الباب الخامس: في سيرته مع الملوك المجاورين.

يرى المؤلف أنه من حسن سياسة الملك أن يحسن الى مجاورته من الملوك الذين حوله ويأمر ولاة أطرافه بكفّ المتعدين على حدودهم، والمتوغلين في تخومهم، ويرد عليهم الضالة والآبق ولا يحمي عنهم المفسد، ولا السارق.

وهذا ما تعمل الدولة جاهدة للوصول اليه في القرن العشرين، عن طريق القوانين الدولية، والمعاهدات الائتلافية، والمنظمات العالمية لهيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن وغير ذلك.

الباب السادس: في سيرة الملك مع الأمراء وأركان مملكته.

وفيه يقدم نماذج من سياسة الفرس لنظام الدولة، وتفضيلهم الجنود على سائر الرعية، وطريقتهم في تشكيلات الجيش، ثم يقدم النماذج الخاصة

بالتشيكلات التي وضعها الرسول ﷺ لجيشه، وما يتبع ذلك من عمليات الضبط والربط، واعداد القوة، ووسائل ارهاب العدو والسيطرة عليه وعوامل النصر.

الباب السابع: جعله في سياسة الملك مع أهل الشريعة والعلماء والفقهاء.

وأوجب على الحاكم احترامهم، والجلوس معهم، والاستماع الى نصائحهم، وقدم العديد من النماذج لسياسة ملوك وأباطرة الرومان في معاملة العلماء وعدم الشموخ عليهم أو التهاون بعلمهم وفقههم.

الباب الثامن :جعله في سيرة الملك مع العباد والنساك والزهاد ويرى المؤلف أن الله سبحانه وتعالى أمر بالاحسان إليهم والعمل على التقرب لمرضاتهم ولذلك وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾(1).

ووصفهم الرسول ﷺ بقوله: « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره ».

ويقدم في هذا الباب حكمة ملوك الفرس بقوله:

« اتلاف السياسة في ثلاث :

١ — تأخير عمل اليوم الى غد.

٢ — وتفويض الأمور الى غير الكفاءة.

٣ — العمل بالشهوات لا بالعقول ».

الباب التاسع: جعله في سيرة الملك مع ذوي الشرف والبيوتات العريقة.

وأوجب على الملك اعانتهم، والاستماع إليهم، وقضاء حوائجهم اعتماداً على قول الرسول ﷺ:

---

(1) سورة السجدة آية رقم ١٦.

« إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ».

وقوله عليه الصلاة السلام:

« ارحموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر ».

الباب العاشر: جعله في سيرة الملك مع التجار والقاصدين والصناع والمزارعين.

ويقدم أصحاب الحرف بقوله: هم أسباب عمارة البلاد، وترتيبها وتحسينها، وزيادة الخيرات فيها، وعليهم تقوم الزراعة، وتروج التجارة وتعمر المدن، وتشق الترع وتقام الجسور، وعلى الملك أن يحسن عليهم ويتفقد أحوالهم ويعمل جاهداً على حل مشاكلهم.

القسم الثاني
في ذات الملك وخواصه وخدمه، وقسمه الى ثمانية أبواب

الباب الأول: جعله في آداب الدخول على الملك وطريقة مخاطبته ومجالسته باعتباره ظل الله في الأرض.

والمؤلف يخاطب الرعية الذين يريدون مجالسة الملك أو التقرب إليه أن يتخلقوا بالأخلاق الملوكية، ويتحلوا بالشيم المرضية، من ذلك حفظ اللسان، وغض الطرف، وكتمان السر، وغير ذلك من الأشياء التي ترضي الملوك وتليق بهيبتهم ومقامهم.

الباب الثاني: جعله في أحوال الوزراء وما يجب لهم وعليه باعتبار أن الوزير تناط به أعمال كثيرة، ومهام عظيمة، قال تعالى: على لسان موسى عليه السلام:

﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[1].

ثم تكلم عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوزير من ذلك عدم اهتمامه بجمع المال لنفسه، لأن حب المال يغطي العقل عن مشاهدة المصالح.

وكانت الفرس تشترط في الوزير أن يكون حسن الهيئة والصورة، سالم الأعضاء من النقص والعيب، متوسط في الحلم والعقوبة، جيد الفهم، أصيل الرأي، متين الدين، فصيح العبارة، مطلعاً على تاريخ الأمم، وتجارب الأول، ثابت الجأش، بعيداً عن الحسد، والحقد، والغدر.

الباب الثالث: جعله في كتّاب الرسائل والدواوين، وما لهم من الرسوم والقوانين، ثم يقدم الأمثلة العديدة من تجارب الأمم والشعوب، ثم يتكلم باستفاضة عن ديوان الجيوش، وديوان الخراج، وديوان النفقات، وديوان الصدقات، وديوان بيت المال، وكأنه يعيش معنا في القرن العشرين، وقد درس هذه الأشياء في إحدى الجامعات التي تهتم بشئون السياسة والاقتصاد، وسياسة الدول، وما لها من قواعد وأسس في السياسة والحكم.

الباب الرابع: جعله المؤلف في ولاية المظالم.

ويرى المؤلف أن يكون هذا الديوان قريباً من الملك وأن يباشره بنفسه، أو أن ينيب فيها من يكون مقامه كنفسه والذي يتولى هذا الديوان يشترط فيه أن يكون صاحب سيف وسطوة، وتمكن من الدولة، ولا تأخذه في الله لومة لائم لا يحابي، ولا يجامل، ولا يجلس إلا وعنده قاض أو فقيه، يذكره إذا نسي، ويبصره إن أخطأ، ويأخذ بيده إن جار في الحكم أو جانبه العدل.

---

(١) سورة طه آية رقم ٢٩ — ٣١.

الباب الخامس: خاص بأصحاب البريد والأخبار ويرى المؤلف أن هذا الديوان له مهام جليلة وفائدة عظيمة، والتواني فيه، أو عدم انضباطه يعود على الدولة بخسائر فادحة، وويلات جسيمة.

الباب السادس: خاص بالحجاب والنقباء، والحرس والأعوان ويقدم المؤلف النماذج الكثيرة من تجارب الأمم والشعوب، ويرى أن هؤلاء هم ألصق الناس بالملك، فعليهم أن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وأن يراقبوا الله في كل أعمالهم فتهاونهم كبيرة، وزلتهم عظيمة.

الباب السابع: جعله المؤلف في رسل الملوك والصفات التي يجب أن تتوافر فيهم.

فهو يرى أن يكون الرسول : حسن الاسم، حسن الوجه، ذرب اللسان، قوي الحجة، رابط الجأش، ذو عقل وتدبير. ويتمثل المؤلف بحديث الرسول ﷺ.

« إذا أبردتم إليَّ بريداً، فأبردوه حسن الاسم، حسن الوجه ».

ورسل الملوك تشبه الى حد كبير السفارات في عهدنا الراهن، ولا شك أن للسفارات دوراً جليلاً ومهمة عظيمة في الذود عن الوطن، وتقريب وجهات النظر بين الدول. والعمل على تقوية العلاقات، وتوثيق أواصر الود والمحبة.

الباب الثامن: جعله في صحبة السلطان وشرائطها وما يحمد ويذم من ذلك.

ويقدم المؤلف قواعد الصحبة بعد أن يطوف في الآفاق ويجمع آراء الملك والحكماء في ذلك فيقول: من أراد صحبة الملوك فليدخل كالأعمى، وليخرج كالأخرس ويرى أن ذلك طريق السلامة.

ولا شك أن افشاء الأسرار، لما يحدث في مجلس الملوك يعود على صاحبه بأوخم العواقب، وأشد الجزاءات ويطرد من المجلس شر طردة.

القسم الثالث
جعله في الامور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته وقسمه الى عشرة أبواب

الباب الأول: في هيئة الملك ولباسه، وركبه، وجلوسه، وخصائص يتميز بها.

فذكر من ذلك حسن الصورة، وحسن العبارة، والفصاحة وأن يكون لباسهم أفخر الثياب مما تبيحه الشريعة وينسب لابسه الى الشهامة.

وذكر أيضاً ما يجب أن يكون عليه الملك من الاحتراز على نفسه في جميع حالاته.

الباب الثاني: جعله في أدب خواص الملك معه، وبطانته، وما يجب عليهم من أن يطبعوا أنفسهم لتلائم طباعه وتتلاءم مع أغراضه، وأن يكونوا ذوي صور حسنة وألفاظ عذبة، وفهم حاضر، وذكاء وافر.

الباب الثالث: جعله في أقارب الملك وأولاده. ولذا يتعين على الملك أن يجتهد في أن يكون له ولد صالح يخلفه في ملكه ويبقى ذكره من بعده، وما ينبغي له من انتخاب الأمهات وما يجب عليه من ضبط أقاربه وأهله. وألا يمكنهم من رقاب الناس وأعراضهم، وأموالهم.

الباب الرابع: جعله في أمر الحرم وسياستهن، وذكر ما قيل إن الملوك قد تعفو عن كل شيء الا عن ثلاث: القدح في الملك، وافشاء الاسرار، والتعرض الى الحرم، وتناول ما كتبه العلماء والمفكرون في أصناف النساء، واختيار الجواري وطرق معاملتهن

الباب الخامس: جعله في سيرة الملك مع مماليكه، وعبيده وخدمه وتفضيل بعضهم على بعض ووفاء البعض منهم وغدر البعض الآخر، ويرى المؤلف أنه ينبغي للملك أن يكون حصيناً في اختيار الذين يجاورونه في قصره،

يراقبهم عن طريق جواسيسه وشرطه حتى يطمئن الى اخلاصهم وتفانيهم في خدمته.

الباب السادس: جعله في اطعام الطعام ومد الموائد، وتقديم اللذيذ والطيب منها لمن يحضر هذه الموائد.

الباب السابع: جعله في المنادمة، والمسامرة، والأصدقاء، والشعراء ورجال الفكر والأدب.

الباب الثامن: جعله في مجلس السماع، وما يحدث فيه من طرب وفن وأنواع الجواري التي تقوم بالغناء، وجعل لهذا الفن آداباً يجب التزامها. وقدم الكثير من أسماء المغنيات اللاتي كانت تمتلىء بهم قصور ملوك الفرس، وخلفاء المسلمين، بداية من الدولة الأموية، الى نهاية العصر الذي عاش فيه المؤلف.

الباب التاسع: جعله في لعب الكرة، ويرى أنها رياضة حسنة تامة وإن كانت تختلف اللعبة في قواعدها الآن عن العصر الذي عاش فيه المؤلف، إلا أنه يعتبرها من الرياضيات المحببة التي تقوي الجسم وتصلب العضل، وتقدح الذهن وتضيف الى المشاهد نشوة كبرى ثم يتحدث عن الألعاب الأخرى كالشطرنج، والنرد وأقوال الفقهاء في حلها وتحريمها.

الباب العاشر: جعله في الصيد والقنص، وصفات الطيور الجارحة والكواسر منها وأمراضها وعلاجها. ويشعر القارىء لهذا الفصل أن المؤلف كان ملكاً مع الملوك عرف الصيد وخبره وتعرف على طبائع النسور والأسود والكلاب المعلمة. وغير ذلك.

القسم الرابع
في الحروب وقسمه الى عشرة ابواب

الباب الأول: في أجناس الناس واختلاف أصنافهم وأطوارهم وفيه يتكلم على الفرس، والعرب، والترك، والروم، والديلم، والكرد، والبربر، والأرمن، والحبش، والهنود وكأنه عالم نفساني وخبير اجتماعي عايش الناس جميعاً، وعرف طبائعهم، وأمزجتهم، وأفراحهم، وأتراحهم وما يسرهم وما يغضبهم.

الباب الثاني: جعله في الشجاعة، وحدها، وفضلها، وأنواعها ويقدم النماذج في شجاعة الغزاة في سبيل الله والشجاعة عند العرب بعامة والفرق بينها وبين التهور والشجاعة عند الهنود ومصاولتهم الحيوانات المفترسة والتغلب عليها.

الباب الثالث والرابع: جعله في الفروسية ولوازم الفارس من درع، وزرد وحراب، وقسي، وسهام، وسيوف ولا يكتفي بذلك بل يعقد للأسلحة باباً مستقلاً ويتكلم عن أشهر الأسلحة كصمصامة عمرو بن كلثوم، وسيف علي بن أبي طالب، وأنواع الدبابات التي استعملها المسلمون في حروبهم المتأخرة، وسلالم التسلق، والمنجنيق الذي يشبه الى حد كبير مدافع الهاون في عصرنا الراهن.

الباب الخامس: جعله في ولاية المدن والأمصار ويضع الشرائط والقواعد التي يجب أن يتحلى بها والي المدينة، وما هو مطالب به، من اقامة القناطر، وفتح المسالك، ومد الجسور، واقامة الفنادق، والبيمارستان (المستشفى) واقامة المنازل للفقراء، وتفقد الضعفاء، والعاجزين عن الكسب.

الباب السادس: جعله في ولاية الثغور وحفظها، والرباط فيها لقول الرسول ﷺ: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ».

وترى المؤلف يضع القواعد فيمن يجب أن يتولى حراسة الثغور —

وهو أن يكون من أهل الحمية والأنفة والدين وخبير بارسال الطلائع، وإرصاد العيون، وخبيراً بنفوس الأعداء وأساليبهم.

الباب السابع: جعله في الحروب وتكتيكاتها، ويقدم المؤلف نماذج من الوقائع التي تمت في الأمم الغابرة، والتاريخ المتقدم لأمة العرب وغيرها من الأمم، ويركز على معركة حطين، ومعركة عين جالوت، ويتكلم عن التخطيط، ورسم الخطط، ووضع الاحتمالات، وكأنه قائد حربي محنك.

الباب الثامن: جعله في الهزيمة وأسبابها، ونتائجها وما يترتب على هزيمة جيش وانتصار آخر، والأسلاب والغنائم والأسرى.

الباب التاسع: جعله في الحصار، وفتح القلاع، وما ينبغي أن يفعله الحاصر والمحصور.

الباب العاشر: جعله في حروب البحر، وتكلم فيه باسهاب ويذكر كلمة حكيم الفرس: إن الشطرنج وضع لتمثيل حرب البر، والنرد وضع لتمثيل حرب البحر.

ثم ختم الكتاب بالدعاء الى بيبرس المنصوري وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عبد الرحمن عميره

آثار الأول في ترتيب الدول

الجزء الأول

وقف

بسم الله الرحمن الرحيم وعليه توكلي

الحمد لله الواحد في عظمته، الماجد في قدرته
القديم في أزليته، العليم في أبديته، الفرد
في وحدانيته، الصمد في سرمديته، الحكيم
في عزته، الذي خلق الخلق بحكمته، وبسط
الرزق بقسمته، فأوجد الإنسان بلطيف صنعته
وصوره بأحسن تقويم في تكوينه وصورته، وجمع
فيه محامد العقل وفطرته، وفضله على سائر
الخلق من بريته، وسخر له ما في البر والبحر بإرادته
وقدر الآجال بمشيئته، وأوضح السبل بمعونته
فمن اهتدى فبرحمته، ومن ضل فإنما يضل على نفسه
لخيبته [أحمده على ما أسدى من جزيل نعمته وأزكى
من جميل صنعته [وأشهد أن لا إله إلا الله وحده

وقف

لا شريك له في ملكه وإلاهيته ولا ضد له في ربوبيته
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله من أشرف خليقته
فكان أعرفهم بحقيقته المخصوص بأفضل كرامته
المبعوث إلى كافة الناس برسالته لينقذهم من ظلمة
الضلال ببعثته ويوقظهم من سنة الغفلة
بنصيحته فأوضح لهم الأحكام بشريعته وبين لهم
الحلال والحرام بفصاحته وعرفهم الطريق إلى
الله بهدايته وبشرهم بما أعد لهم الرحمن الرحيم في جنته
وأنذرهم مما أعد لهم في ناره وعقوبته صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه وعترته فالسعيد السعيد
من كان في ذمته مقتدياً به في معاملته ملازماً على
فرضه وسنته تابعاً لآله وخليفته مستمسكاً
بحبل أثر صحابته ينسج على منوال العاملين من رفقته

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليهِ توكُّلي، الحمدُ للهِ الواحدِ في عظمتهِ، الماجدِ في قدرتهِ، القديمِ في أزليَّتهِ، العليمِ في أبديَّتهِ، الفردِ في وحدانيَّتهِ، الصَّمدِ في سرمديَّتهِ، الحكيمِ في عزَّتهِ، الَّذي خلقَ الخلقَ بحكمتهِ، وبسطَ الرِّزقَ بقسمتهِ، فأوجدَ الإنسانَ بلطيفِ صنعتهِ، وشرَّفهُ بأحسنِ تقويمٍ في تكوينهِ وصورتهِ، وجمعَ فيهِ محامدَ العقلِ وفطرتهِ، وفضَّلهُ على سائرِ الخلقِ[1] من بَريَّتهِ، وسخَّرَ لهُ ما في البرِّ والبحرِ[2] بإرادتهِ، وقدَّرَ الآجالَ[3] بمشيئتهِ، وأوضحَ السُّبلَ بمعونتهِ، فمنِ آهتدى فبرحمتهِ، ومن ضلَّ فإنَّما[4] يضلُّ على نفسهِ لخيبتهِ.

أحمدُهُ علَى ما أسدى من جزيلِ نعمتهِ وأزدَى من جميلِ صنعتهِ.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ سورة الاسراء (آية رقم ٧٠).

(٢) قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾. سورة الجاثية (آية رقم ١٢). وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمٰوَاتِ وما في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ سورة الجاثية (آية رقم ١٣).

(٣) قال تعالى: ﴿فَإِذَا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ سورة الأعراف (آية رقم ٣٤).

(٤) قال تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ سورة الإسراء (آية رقم ١٥).

وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ في ملكهِ وإلاهيَّتهِ، ولا ضدَّ له في ربوبيَّتهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ أرسلهُ من أشرفِ خليقتهِ فكانَ أعرفهمْ بحقيقتهِ، المخصوصُ بأفضلِ كرامته، المبعوثُ إلى كافَّةِ[1] النَّاسِ برسالتهِ لينقذهمْ منْ ظلمةِ الضَّلالِ ببعثتهِ، ويوقظهمْ من سِنةِ الغفلةِ بنصيحتهِ، فأوضحَ لهمُ الأحكامَ بشريعتهِ، وبيَّنَ لهمُ الحلالَ والحرامَ بفصاحتهِ، وعرَّفهمُ الطَّريقَ إلى اللهِ بهدايتهِ، وبشَّرهمْ بما أُعدَّ لهمُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ في جنَّتهِ[2]، وأنذرهمْ ممَّا أُعدَّ لهمْ في نارهِ[3] وعقوبتهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ وعترتهِ، فالسَّعيدُ السَّعيدُ من كانَ في ذمَّتهِ مقتدياً بهِ في معاملتهِ، ملازماً على فرضهِ وسنَّتهِ، تابعاً لآلهِ وخليفتهِ، مستمسكاً بحبلِ أثرِ صحابتهِ، ينسجُ على منوالِ العالمينَ العاملينَ من رفقتهِ، ويقفو أثرَ العافينَ العارفينَ من أُمَّتهِ، والشَّقيّ الشَّقيُّ من تفوَّهَ بمخالفتهِ، واغترَّ بإقبالِ الدَّارِ الفانيةِ لشقاوتهِ، وذلكَ إمهالاً لا إهمالاً منْ عالمِ سريرتهِ. فأعاذنا اللهُ من محنتهِ، ورزقنا الملازمةَ على طاعتهِ، والإخلاصَ في عبادتهِ، والانتقالَ إليهِ على فطرتهِ، وحشرنا مع سيِّدِ البشرِ وفي زمرتهِ وعصمنا من أبي مُرَّةَ، ونصرنا عليهِ وعلى ذرِّيَّتهِ.

وبعـدُ

فإنِّي لمَّا رأيتُ أنوارَ شعاعِ شمسِ الأيامِ السُّلطانيَّةِ قد بزغتْ على

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ سورة سبأ (آية رقم ٢٨).

(٢) قال تعالى: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ سورة محمد (آية رقم ١٥).

(٣) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ سورة فاطر (آية رقم ٣٦).

أقطارِ الأرضِ من فلكِ مركزِ الدّيارِ المصريّةِ، وتثبّتْ أركانُ دعائمِ الإسلامِ بالهممِ العاليةِ الرُّكنيّةِ، وتقوّمَ اعوجاجُ حظوظِ النّفوسِ الشّهوانيّةِ، وآشتدَّ أزرُ العصابةِ المحمّديّةِ، وتشمّختْ جبالُ أُحُدِ الشّريعةِ الأحمديّةِ، وتشرّفتِ المراكبُ بالمواكبِ الملكيّةِ المظفّريّةِ، مدَّ اللهُ ظلَّ إحسانِ مالكِها على الأُممِ، وملّكَ يدَ اقتدارِهِ رقابَ العربِ والعجمِ، وأعدمَ بوجودِ جودِهِ ما ذكرَ منَ العدمِ، ونصرَ بعزائمِهِ الإسلامَ حيثُ الغيومُ نقعٌ، والبروقُ سيوفٌ، والوبلُ نبلٌ، والدّيمُ دمٌ، ولا زالتْ ملائكةُ النّصرِ حافّةً بألويتِهِ، وملوكُ العصرِ متشرّفةً بعبوديّتِهِ، قائمةً بما يجبُ عليها من حقوقِ طاعتِهِ وخدمتِهِ، وقلوبُ الخلقِ مجبولةً على موالاتِهِ ومحبّتِهِ متفيّئةً بظلالِ فضلِهِ ونعمتِهِ وشأفةُ الاعداءِ مستأصلةً بسيوفِ سطوتِهِ ونقمتِهِ، ولا برحتْ أعلامُ نصرِهِ خافقةً في الخافقَيْنِ، متولّيةً يدُ أمرِهِ ممالكَ المشرقينِ والمغربينِ عاليةً هممُ إحسانِهِ على هاماتِ الفرقدَيْنِ جديدةً ملابسُ سعادتِهِ على ممرِّ الجديدينِ، مقتبسةً من أنوارِ مساعيهِ أنوارُ النيّرَيْنِ، متشبّهةً أيّامُ سيرتِهِ العادلةِ بسيرةِ العُمرَيْنِ[1]، فقبّلَ المملوكُ الأرضَ شكراً للهِ معفّراً خدَّيهِ في الثّرى، مستمسكاً بيدِ الآمالِ في الخدمةِ الشّريفةِ بأوثقِ العرى، مستمطراً من النّعمِ الوافيةِ أوفرَ ما عمَّ الورى، لأنَّ مواردَ سلطانِهِ للواردينَ صافيةٌ، وظلالَ آمتنانِهِ على الصّادرينَ متوافيةٌ وإقبالَ إحسانِهِ لمرضى الآملينَ معافيةٌ.

ترى النّاسَ في أبوابِهِ وَرحابِها كأنّهمْ منْ فرطِ كثرتِهِمْ نملُ
قدِ آزدحمُوا في موردِ الفضلِ والعطا وكلُّ امرىءٍ قدْ عمَّهُ ذلكَ الفضلُ

---

(١) هما عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ولد عام ٤٠ ق.هـ وتوفي عام ٢٣ هـ (راجع ابن الأثير ٣ : ١٩/ والطبري ١ : ١٨٧ ــ ٢١٧/ واليعقوبي ٢ : ١١٧. وعمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ ولد عام ٦١ هـ. وتوفي عام ١٠١ هـ راجع فوات الوفيات ٢ : ١٠٥/ وتهذيب التهذيب ٧ : ٤٧٥/ وابن الأثير ٥: ٢٢).

فرمتُ أن أُقدّمَ هديّةً لخزانتهِ الشّريفةِ، وتحفةً أتقرّبُ بها إلى مقامِ جلالته المُنيفةِ، وتعذّرَ أن يقدّمَ إليهِ إلاّ بقايا إنعامهِ، ولا تسقى كلُّ أرضٍ إلاّ بصيِّبِ غمامهِ، فإنّ خزانتهُ العاليةَ مجمعُ الأخايرِ وَالذّخائرِ، وراحتهُ المتواليةَ تشملُ المقيمَ والسّائرَ.

هذا مع ما خصَّهُ اللهُ به من الفطرةِ الزكيّةِ والفطنةِ الذكيّةِ، والدّينِ المتينِ وحسنِ اليقينِ، وجميلِ الظنِّ بزيارةِ المشائخِ والفقراءِ وجزيلِ برّهِ مع النّظرِ التّامّ في مصالحِ الأجنادِ والأمراءِ، والرّفقِ بالرعيّةِ والعملِ بالأحكامِ الشّرعيّةِ مضافاً إلى ما تكاملَ فيهِ من فضائلِ الشّجاعةِ والفروسيّةِ، وإحكامِ الأمورِ الحربيّةِ والضّوابطِ السّياسيّةِ، والهممِ العليّةِ والسّيرةِ العادلةِ المرضيّةِ، فضائل حباهُ الله بمجموعها، وخصائل حَسُنَ منظورها مع مسموعها، فلهذا رقّاهُ اللهُ ذروةَ المعالي أفضالا، وملّكهُ رقابَ عبيدهِ إنعاماً عليهِ وإجلالاً، فآفتخرَ على ملوكِ العصرِ وزادهُ نوالاً، فأضحتْ بدايتهُ نهاية غيرهِ هكذا وإلاّ فلا لا.

للهِ منْ ملكٍ إذا ما لامَسَتْ كفّاهُ بحراً صارَ ذاك زُلالاً
ملكٌ غدتْ كلُّ الملوكِ ببابهِ مستمطرينَ نوالهُ إفضالاً
مستمسكينَ بحبلِ عروتهِ الّتي أضحى غمامُ جميلِهَا هطّالاً
ملكٌ بدايتهُ نهايةُ غيرهِ كالبدرِ أوّلَ ما يكونُ هلالاً
كملَ الخصائلَ ذو المكارمِ والتُّقى فاللهُ يكفيهِ الزّمانَ كمالاً

أُلهمهُ اللهُ العدلَ والإنصاف، وعلّمهُ أن يتّصفَ بهذهِ الأوصاف، وفهّمهُ الطّريقَ الواضحةَ إليهِ، ووسمهُ بسِيَمِ الأولياءِ منّةً من اللهِ عليهِ، ورسمهُ برسمِ قالبِ الكرامة، وحكّمهُ في ملكهِ وخلقهِ في صحّةٍ منهُ وسلامة.

هذا بعدما أوضحَ له مالكهُ أحوالَ الرّعيّةِ عياناً، فأحاطَ بها ظاهراً وباطناً معرفةً وتبياناً، ولمْ يبقَ لهُ عذرٌ عن إزاحةِ عذرهِمْ وحسنِ النّصرِ الكريمِ في مصالحِ أمرهِمْ، فإنّهُ لم تنطوِ عليهِ الأحوالُ البرّانيّةُ ولمْ تعزبْ عنهُ

الأسرارُ الجوّانيّةُ، فلمّا اطّلعَ عالمُ سريرتهِ على حسنِ سَيْرهِ وسيرتهِ، فوّضَ إليهِ أمورَ بلادهِ وملّكهُ رقابَ عبادهِ، فركبَ في برجِ السّعادةِ أسرعَ من طرفةِ العينِ، ودانتْ لهُ البلادُ والعبادُ في البرّينِ والبحرينِ، وأيّدهُ بملائكةِ نصرهِ فترعرعتْ لركوبهِ أبطالُ الثّقلينِ، وألبسهُ من خلعِ الهيبةِ والوقارِ درعينِ حصينين، وقلّدهُ من سلاحِ العظمةِ في التّقليدِ بسيفيْنِ،وشرّفهُ منْ خزائنِ العزِّ بتشريفينِ، وتفاءلَ من تفاءلَ بهِ عندَ ركوبهِ، فطلعَ فألُهُ(*) غاية مطلوبه قوله تعالى في القرآنِ الكريمِ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُم وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيْزِ الحَكِيْمِ﴾[1].

فاستُبشرَ به وسكنتْ هيبتهُ ومحبّتهُ قلوبَ الخاصِّ والعامّ وأغدقَ على أربابِ دولتهِ بالتّشاريفِ والإنعام فكانَ قبولهُ لها دليل إقبالها، وتلقّيها بحولِ اللهِ وقوّتهِ أصلُ استقبالها، فكانتْ يومئذٍ هي أولى له وهو أولى لها، كما قيلَ:

فلـمْ تكُ تصلـحُ إلاَّ لـهُ ولـم يكُ يصلـحُ إلاَّ لهـا
ولـوْ رامهَـا أحـدٌ غيـرهُ لزلـزلتِ الأرضُ زلزالهـا

ادّخرها اللهُ له في قِدَمِ قِدَمِ قِدَمهِ وهيّأهُ لها كما كان في سابقِ علمهِ وحكمهِ، فلمّا آن وقتها نشرَ في الخافقينِ علمهُ، وأمضيَ في رقابِ الأعداءِ سيفهُ، وجرى بالأرزاقِ قلمهُ.

---

* هذا الفألُ لمّا رَكِبَ مَوْلانا السُّلطانُ الملكُ المظفر ودَخلَ الى دار الملك بقلعةِ الجَبَل فتح القاضي عز الدين بن مُيَسّر ناظر النظار بالديار المصرية فألهُ في ختمةٍ شريفةٍ أخذها من جلال الكُتبي بحضرة جماعة من العُدُول فخَرَجَ هذا فألهُ، ولله الحَمْدُ والمِنّة.

(1) سورة آل عمران (آية رقم ١٢٦) يقول ابن كثير: اي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج الى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

وقدْ قلتُ:

من شاءَ يسمعُ منّي أصوبَ الكلمِ فليجتلي درراً رصّعتها بفمي
ويجتني ثمراتٍ من مكارمِ منْ أحيا النّفوسَ بطامي جودهِ الشّبِمِ
خصائصٌ جمعتْ في سيّدٍ ملكٍ أضحى عنِ النّاسِ حقّا كاشفَ الغممِ
فاقتْ مآثرهُ كسرى وفاقَ على أمثالهِ نبأً بالسّيفِ والقلمِ
فهوَ الّذي خضعتْ أسدُ الحروبِ له ودانتِ الخلقُ طوعاً قبلُ في القدمِ
لأنّهُ ملكٌ كلُّ الملوكِ عدتْ في بابهِ طاعةً من جملةِ الخدمِ
همّاتهُ لمْ تزلْ فوقَ السّماكِ علاً وهكذا تبلغُ العلياءُ بالهممِ
قدْ مدَّ للعدلِ بسطاً غيرَ واحدةٍ ومدَّ إحسانهُ ظلاً على الأممِ
أجادَ بالعفوِ والمعروفِ أبنيةً بها من المجدِ قصراً عاليَ الهرمِ
راحاتهُ بخّلتْ سحَّ السّحابِ نداً فمنْ يكنْ حاتم الطّائيَ في الكرمِ
يُروي العفاةَ بخمسٍ من أصابعهِ فضلاً على النّيلِ مدراراً لمغتنمِ
لأنَّ ذا النّيلِ يروي في زيادتهِ من بعدِ ستٍّ وعشرٍ جُدْنَ بالعنمِ
والفرقُ بينهما لا شكَّ متّضحٌ معناهُ أشهرُ من نارٍ على علمِ
وحسبكَ الآنَ منْ أضحتْ مكارمهُ تمحو عنِ النّاسِ أصنافاً منَ العدمِ
فهوَ المظفّرُ بالتّأييدِ قدْ نشرتْ والنّصرِ راياتهُ والعزّ والحكمِ
وهكذا لمْ تزلْ آراؤهُ أبداً صوابها بحسابٍ غير منخرمِ
بالحزمِ والعزمِ مع ما أنّهُ ملكٌ ما زالَ واسطةً للنّاسِ كلّهمِ
أقام للملكِ أركاناً مشيّدةً نعمْ وللدّينِ ركناً غيرَ منهدمِ
صحّتْ لهُ في رضا الباري معاملةٌ معَ القبولِ بحبلٍ غيرَ منصرمِ
لمّا تواضعَ إجلالاً لعزّتهِ ذلّتْ لديهِ رقابُ العربِ والعجمِ
وعزّةً منّةً منهُ عليهِ وقدْ أعطاهُ ملكاً عزيزاً غيرَ متّهمِ
ما زالَ في صلْبِ الأجدادِ متّشحاً بالرُّشدِ والدّينِ والإيمانِ والعصمِ
حتّى إذا شرفَ المرّيخُ أظهرهُ في برجِ سعدِ المعالي بارىءُ النّسمِ
مؤيّداً برداءِ النّصرِ مشتملاً مطرّزاً بطرازِ الجودِ والنّعمِ

مجاهداً في سبيلِ اللهِ مجتهداً بسيفهِ الباترِ السفَّاكِ في القممِ
ما أضرمتْ نارُ حربٍ يومَ معمعةٍ إلاَّ وكانَ لها كالزَّاخرِ العرمِ
قدْ فازَ بالحجِّ مبروراً مناسكهُ معَ الجهادِ وبذلِ الخيلِ والنَّعمِ
فتارةً يستقي منْ زمزمٍ غدقاً وتارةً للعدى يسقي كؤوسَ دمِ
ولأمةَ الحربِ يوماً وهوَ لابسها ويلتقي يومَ بالإحرامِ في الحرمِ
وجامعاً لشتيتِ المكرماتِ فلمْ يدعْ بمعناهُ مفعولاً لمنْ يرمِ
وذاكَ إبداعُ سرٍّ فيهِ منْ صمدٍ أعطاهُ منْ أوفرِ التَّوفيقِ في القسمِ
فالحمدُ للهِ إذْ خصَّ الأنام بهِ لأنَّهُ حسنُ الأخلاقِ والشِّيم
واللهُ يبقي لنا أيَّامهُ أبداً ما دامَ يجلي صباحٌ غشوةَ الظلمِ

فخلَّد اللهُ ملكه ما اتَّصلَ ليلٌ بفجرهِ، وأعزَّ الإسلامَ ببقائهِ وتأييدِ نصرهِ، ونظمَ في سلكِ السَّعادةِ أيَّامَ دهرهِ، وأجرى الأقدارَ بنفاذِ نهيهِ وأمرهِ، وجمَّلَ الدُّنيا بامتدادِ زمنهِ وعصرهِ، وأدامَ في ملكوتِ السَّمواتِ والأرضِ علوَّ قدرهِ، فلمْ يكنْ بدٌّ من خدمةٍ تنبيء عن صدقِ الإخلاصِ في الولاءِ وصحَّةِ قصدِ الإشخاصِ والانتماءِ؛ فاستخرتُ اللهَ تعالى في جمعِ هذا الكتابِ وتأليفِ ما فيهِ من اللُّباب في قواعد المملكةِ ومبانيها وأسرارِ السِّياسةِ ومعانيها، وتدبيرِ الدَّولةِ الفاضلةِ وتقريرِ السِّيرةِ العادلةِ، وذلكَ على سبيلِ الإذكارِ وتنبيهِ الأفكارِ كما وردَ في الكتابِ المبينِ، قالَ اللهُ تعالى، وهو أصدقُ القائلينَ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وسمَّيتهُ كتابَ « **آثارِ الأُولِ في ترتيبِ الدُّولِ** ». وقدْ رتبتهُ على أربعةِ أقسامٍ كلُّ قسمٍ يشتملُ على أبوابٍ وفصولٍ وضوابطَ وأصولٍ.

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٥.

القسم الأوَّل

في الضَّوابطِ والأصولِ وقواعدِ المملكة، وهوَ عشرةُ أبوابِ

البابُ الأوَّلُ في فضلِ الملكِ وشرفهِ، والحاجةِ إليهِ.
البابُ الثاني في أركانِ الملكِ، ودعائمهِ وأُسّهِ وقوانينهِ.
البابُ الثالثُ في مجموعِ الملكِ، وهيئته وخصالهِ وأبهتهِ.
البابُ الرَّابعُ في ما يجبُ للملوكِ على الرَّعيَّةِ، وما للرَّعيَّةِ على الملوكِ.
البابُ الخامسُ في حسنِ السِّيرةِ مع الملوكِ المجاورينَ والقبائل الأوداءِ والمعاندين.
البابُ السَّادسُ في سيرةِ الملكِ مع أُمراءِ دولتهِ وأركانِ مملكتهِ.
البابُ السَّابعُ في سيرةِ الملك مع العلماءِ وحفّاظِ الشَّريعةِ والفضلاءِ.
البابُ الثَّامنُ في حسنِ سيرتهِ معَ النسّاكِ والمشائخِ وقبولِ نصائحهِمْ.
البابُ التَّاسعُ في سيرتهِ مع ذوي الشَّرفِ والبيوتاتِ وإعانتهِمْ.
البابُ العاشرُ في سيرتهِ مع التجّارِ والقاصدينَ والصُّنّاعِ والمزارعينَ.

القسمُ الثّاني

في ذاتهِ معَ خواصّهِ وخدمهِ، وهوَ ثمانيةُ أبوابٍ

البابُ الأوّلُ في أدبِ الدُّخولِ عليهِ، ومخاطبتهِ ومجالستهِ.
البابُ الثّاني في ذكرِ الوزراءِ واختيارهمْ، وما يجبُ لهمْ وعليهمْ.
البابُ الثّالثُ في الكتّاب وأرباب الدّواوين، وما لهمْ منَ الرُّسومِ والقوانين.
البابُ الرّابعُ في ولاةِ المظالم، وإنصافِ المظلومِ من الظّالمِ.
البابُ الخامس في أصحابِ البردِ والأخبارِ والعيونِ.
البابُ السّادسُ في الحجّابِ والنُّقباء والحرسِ والأعوانِ.
البابُ السّابعُ في الرُّسلِ واختيارهمْ، وهدايا الملوكِ وإتحافهمْ.
البابُ الثّامنُ في صحبةِ السُّلطانِ وشرائطها، وما يُحْمَدُ ويُذمُّ من ذلكَ.

القسم الثَّالثُ

في الأُمورِ المختصَّةِ بالملكِ وحاشيتهِ، وهوَ عشرةُ أبوابٍ

البابُ الأوَّلُ في هيئةِ الملكِ ولباسهِ وركوبهِ وموكبهِ وجلوسهِ، وآنفرادهِ وبخصائص يميَّزُ بها.
البابُ الثَّاني في أُدبِ خواصِّ الملكِ معهُ في جميعِ أحوالهِ.
البابُ الثَّالثُ في أُدبِ الأولادِ والأقاربِ، وحسن السِّيرةِ معهمْ.
البابُ الرَّابعُ في الحرمِ، وسياستهنَّ.
البابُ الخامسُ في سيرةِ الملكِ مع مماليكهِ والخدمِ، وتفضيلهمْ.
البابُ السَّادسُ في طعامِ الملكِ والأُدبِ فيهِ.
البابُ السَّابعُ في مجلسِ المنادمةِ والمسامرةِ، وسماعِ التلاوةِ.
البابُ الثَّامنُ في مجلسِ السَّماعِ وراحةِ النَّفسِ، وآختيارِ ذلكَ.
البابُ التَّاسعُ في الرِّياضةِ واللَّعبِ بالكرةِ والمطاردةِ.
البابُ العاشرُ في الصَّيدِ والقنصِ وصفاتِ الجوارحِ والكواسرِ وأمراضها وعلاجاتها.

القسم الرَّابعُ

في الحروبِ وهوَ عشرة

البابُ الأوَّلُ في وصفِ أجناسِ النَّاسِ، واختلافِ أطوارهِمْ.
البابُ الثَّاني في فضلِ الشَّجاعةِ وحدِّها.
البابُ الثَّالثُ في الفروسيَّةِ ورياضةِ الخيلِ والرُّكوبِ.
البابُ الرَّابعُ في اتِّخاذِ السِّلاح وصفةِ الرَّمي والطِّعانِ والثِّقافِ.
البابُ الخامسُ في توليةِ الأعمالِ والمدنِ والأمصارِ.
البابُ السَّادسُ في حفظِ الثُّغورِ والقلاعِ وما يجبُ من أمورها.
البابُ السَّابعُ في الحروبِ والمصافاتِ وتعبئةِ العساكرِ.
البابُ الثَّامنُ في وصفِ ما ينبغي أن يفعلهُ الهازمُ والمهزومُ.
البابُ التَّاسعُ في الحصارِ وما يفعلهُ الحاصرُ والمحصورُ.
البابُ العاشرُ في حروبِ البحرِ وصفاتهِ

ونبتدىءُ الآن بما سبق ذكرهُ على ترتيبه.

القسم الأوّل

في الضوابط والأُصولِ والقَّواعدِ،
وهوَ عشرةُ أبوابِ

الباب الأوَّلُ

في فضلِ الملكِ وشرفهِ والحاجة الدَّاعية إليهِ

فضل الملك وشرفه

اعلمْ أيَّدكَ اللهُ أنَّ المُلكَ فضلٌ إلهيٌّ ينعمُ اللهُ بهِ على من يصطفيهِ من خلقهِ قالَ اللهُ تعالى ﴿إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾[1] قالَ المفسِّرونَ اصطفاهُ بمعنى آختارهُ، والبسطةُ لها تأويلانِ أحدهما: سعةٌ في علمِ الدِّينِ.

والثَّاني زيادةٌ في علمِ الحروبِ وعظمٌ في خلقةِ الجسمِ.

وقالَ عزَّ منْ قائلٍ ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2] والإشارةُ في ذلكَ إلى الَّذينَ بهم الدَّفع ومنهمُ النَّفع ولولاَ ردعُ الملوكِ لتغالبتِ[3] النَّاسُ وتهارجتْ[4]، وطمعَ

---

(١) سورة البقرة (آية رقم ٢٤٧).

(٢) سورة البقرة (آية رقم ٢٥١).

(٣) غالبه مغالبةً وغِلاباً بالكسر، وتغلَّب على البلد: استولى عليه قهراً، والغلاَّب ـــ بالتشديد ـــ: الكثير الغلبة. والمغلَّب بفتح اللام وتشديدها (المغلوب) مراراً. وحدائق غُلْبٌ. والغَلَبَة والغُلُبَّة: القهر.

(٤) التهارج: الفتنة. والهرج: الفتنة والاختلاط، وبابه ضرب، وفسَّره النبيّ ـــ ﷺ في أشراط الساعة بالقتل.

بعضهمْ في بعضٍ، واستولى الأقوياءُ على الضُّعفاءِ وتمكَّنَ الأشرارُ من الأخيارِ، فيضطرُّونَ الى التشرُّدِ والتفرُّدِ، وفي ذلكَ خرابُ البلادِ وفناءُ العبادِ فإنَّ الجنسَ الإنسانيَّ مضطرٌّ الى التآلُفِ والتجمُّعِ في إتمامِ معيشتهِ وانتظامِ حال بَنِيَّتهِ، فيحتاجُ إلى سياسةٍ تقيمُ أمرهُ على الاستقامةِ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾(١) فقرنَ الملكَ بالعزَّةِ ونبَّهَ على فضلهِ وشرفهِ بهذهِ الإضافةِ.

وقال تعالى حاكياً عن فضلِ شكرِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيْلِ الأَحَادِيْثِ﴾(٢) قيلَ هوَ العلمُ بأحداثِ الزَّمانِ وقيلَ هو تعبيرُ الرُّؤيا.

وقال تعالى حاكياً عن موسى عليهِ السَّلامُ يا بني إسرائيل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذ جَعَلَ فِيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوْكاً﴾(٣) فهوَ نعمةُ اللهِ السَّابغةُ.

وقدْ شبَّهَ بعضُ الفضلاءِ الملكَ بالرُّوحِ والرَّعيَّةَ بالجسدِ، فلا قوامَ للرَّعيَّةِ إلاَّ بالملكِ كما لا قوامَ للجسدِ إلاَّ بالرُّوحِ.

ثمَّ فصَّلَ ذلك فنسبَ العيونَ إلى الحجَّابِ، ونسبَ الأذنَ إلى أصحابِ الأخبارِ والجواسيسِ، ونسبَ اليدَ والأصابعَ إلى الجندِ والأعوانِ، ونسبَ الرِّجلَ إلى المراكبِ من سائرِ الأصنافِ، ونسبَ الشَّعرَ إلى الزِّينةِ والجمالِ، ونسبَ الأحشاءَ إلى الحرمِ.

وقدْ شبههُ بعضهُم بالشمسِ التي بها نورُ العالِمِ وضياؤهُ وصلاحهُ ونماؤهُ.

---

(١) سورة آل عمران (آية رقم ٢٦).

(٢) سورة يوسف (آية رقم ١٠١).

(٣) سورة المائدة (آية رقم ٢٠).

وقالَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ[1]: « نحنُ الزّمانُ، فمنْ رفعناهُ ارتفعَ ومنْ وضعناهُ اتّضعَ ».

وقيلَ لبعضهِمْ هل ينتظمُ حالُ بلدٍ بغيرِ ملكٍ؟ قال: نعم إذا كانَ كلُّ من فيها حكيماً فاضلاً، وهذا نادر.

وقالَ الشّاعرُ:

لا يصلحُ النّاسُ فَوضَى لا سراة لهمْ   ولا سـراةَ إذا جهّالهـمْ سـادوا

ولوْ لمْ يكنْ في شرفِ الملكِ وعظيمِ خطرهِ إلاّ ما أشارَ إليهِ الحديثُ النّبويُّ في قولهِ عليهِ الصّلاةُ والسلامُ: « السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ في الأرْضِ يَأْوِي إلَيْهِ كُلُّ مَلْهُوفٍ »[2] لكانَ ذلكَ من أدلِّ الدّلائلِ على جليلِ خطرهِ وعظيمِ موقعهِ وشرفِ مرتبتهِ وأثرهِ.

ولمْ تزل الملوكُ تعظّمها الأممُ الخاليةُ المؤتلفةُ والمللُ المختلفةُ، وتشرّفها

---

(١) هو **معاوية بن أبي سفيان** « صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، مؤسّس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب الممتازين الكبار. كان فصيحاً حليماً وقوراً، ولد بمكة، وأسلم يوم فتحها سنة ٨ هـ. وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله ـــ ﷺ في كتّابه، ولما ولي أبو بكر ولاّه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن سفيان. توفي عام ٦٠ هـ. (راجع ابن الأثير ٤ : ٢/ ومنهاج السنة ٢ : ٢٠١/ واليعقوبي ٢ : ١٩٢/ والخميس ٢ : ٢٩١ و٢٩٦/ والبدء والتاريخ ٦ : ٥).

(٢) رواه ابن النجّار عن أبي هريرة، ورواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر رفعه بلفظ: « السلطان ظلّ الله في الأرض، يأوي إليه كلُّ مظلوم من عباد الله، فإن عدل كان الأجر وكان على الرعيّة الشكر، وإن جار أو خان أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر. وإذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر، وإذا أخفرت الذمّة أديل العدوّ ».

وقد ورد الحديث بألفاظ أخر، منها ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي بكر الصدّيق بلفظ: « السلطان العادل المتواضع ظلّ الله ورمحه في الأرض، ويرفع له عمل سبعين صدّيقاً ».

قال النجم: « وجمع السيوطي في ذلك جزءاً، وأقول وكذلك السخاوي جمعها في جزء وسماه: رفع الشكوك في مفاخر الملوك ».

وتدينُ بطاعتها سيما ملوكَ الفرسِ، فإنَّ الفرسَ تبلَّغُ في تبجيلِ ملوكها الغايةَ القصوى وطائفةٌ من الهندِ كانوا يتَّخذون الملوكَ أرباباً. وكذلك أهلُ مصرَ كفرعونِ موسى عليه السلام، واسمهُ الوليدُ بنُ مصعبٍ، وفرعونِ يوسفَ واسمهُ الرَّيَّانُ بن الوليدِ بنِ دومغٍ. في قولِ يوسفَ ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[1].

وقد روي عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ لرسولِ كسرى الَّذي وردَ إليهِ بحملهِ « أَخْبَرَنِي رَبِّي أَنَّ رَبَّكَ هَلَكَ الْبَارِحَةَ »[2] واستمهلهُ مسافةَ الطَّريقِ فكانَ كما قالَ عليهِ السلام.

فيجبُ على من أنعمَ اللهُ عليهِ بهذهِ النِّعمةِ وهذهِ الرُّتبةِ أن يزدادَ تواضعهُ للهِ تعالى وانكسارهُ وانقيادهُ للشَّريعةِ واجتهادهُ في تنفيذِ أحكامها بسببِ قربهِ منها.

وقالَ **أزدَشِيرُ بن بَابك**[3] في عهده: « الدِّينُ أُسُّ الملكِ والملكُ حارسُ الدِّينِ فما لا أُسَّ له فمهدومٌ وما لا حارسَ له فمعدوم » وقد ظهرَ ذلكَ في بيانِ قولهِ تعالى ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ

---

(١) سورة يوسف (آية رقم ٤٢).

(٢) يراجع في ذلك كتاب الطبقات لابن سعد الجزء الأول.

(٣) هو أزدشير بن بابك شاه بن ساسان بن بهاوند بن دارا بن ساسان بن بهمن بن اسفنديار ابن يستاسف بن بهراسف. زهد في آخر أيامه، ونصّب ابنه سابور لمملكته وتوّجه بتاجه، وأقام أزدشير اثنتي عشرة سنة يحارب ملوك الطوائف، فمنهم من يكاتبه فينقاد إلى ملكه رهبة من صولته، ومنهم من يمتنع عليه فيسير إلى داره ويأتي عليه.

وكان آخر من قتل منهم ملكاً للنبط بناحية سواد العراق اسمه بابا بن برديا، صاحب قصر ابن هبيرة ثم أردوان الملك، وفي هذا اليوم سمي شاهنشاه، وهو ملك الملوك.

وكان أفلاطونيّ المذهب على رأي سقراط وأفلاطون، وله كتاب يعرف بكتاب (الكرنامج) فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره في الأرض وسيره. راجع مروج الذهب ١ : ١٨٥ ــ ١٨٨.

وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾(١) فهذهِ إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ النَّاسِ يحامونَ عن البيعِ والمساجدِ أن تهدَّمَ ويقوَّى أمرُ الدِّينِ ويحملونَ النَّاسَ عليها وهم الملوكُ.

---

(١) سورة الحج (آية رقم ٤٠) وتكملة الآية ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

الباب الثاني

في أركانِ الملكِ
ودعائمه وأُسِّه وقوانينه

نبتدئُ أوَّلاً في مقدّمةٍ جميلةٍ تتضمَّنُ الضَّوابطَ السُّلطانيَّة إذا كان الملكُ محافظاً على الشَّريعةِ محسناً إلى متَّبعها معاقباً لمتجنِّبها، محصِّناً للأسرارِ، متخيِّراً للوُزرَاءِ والعمَّالِ، مهيباً في أنفسِ الرعيَّةِ، مثمِّراً للأموالِ، مقدِّراً لما ينفقُ، كان جديراً بثباتِ الملكِ وحسنِ الذكرِ وانقطاعِ أملِ من يرومُ الخللَ في دولتهِ، وأيُّ ملكٍ خالفَ الشَّريعة خالفتهُ الرَّعيَّةُ وأعانتْ عدوَّهُ عليهِ، وينبغي للملكِ أن يكونَ خلقهُ وسطاً بينَ الرِّقَّةِ والقسوةِ، لأنَّ الرِّقَّة تطمِّعُ فيتحرَّكُ أهلُ الفسادِ، والقسوةُ تنفِّر عنهُ فيأيس أهلُ الخيرِ والتَّائبُ من جرمهِ، والأوَّلُ من أخلاقِ البغاثِ[1] من الطُّيورِ، والثَّاني من أخلاقِ الكواسرِ من الطَّيرِ والوحشِ.

---

(١) قال الفرّاء: بغاث الطير — بفتح الباء وضمها وكسرها — : شرارها وما لا يصيد منها، ثم قيل: هو جمع (بغاثة) وهي اسم للذكر والأنثى مثل نعامة ونعام، وقيل: هو فرد وجمعه (بغثان) كغزال وغزلان.

وينبغي للملكِ أن يكونَ منزّهاً عن خمسِ خلالٍ:

أوّلها: لا يكونُ غضوباً حديداً فإنَّهُ مع الحدّةِ والقدرةِ يهلكُ الرَّعيَّةَ، والغضبُ مرضٌ من أمراضِ النَّفسِ إذا حدثَ بها فسدتْ معهُ الآراءُ، ولهذا يُنهى الحاكمُ في الشَّرعِ عن الحكمِ وهوَ غضبانُ[1].

الثانيةُ: لا يكونُ بخيلاً لأنَّهُ إذا بخلَ اختلَّتْ عليهِ أحوالُ أصحابهِ فعجزوا عن الوفاءِ بالخدمةِ ولم يناصحوهُ، ولا يصلح الملكُ إلاَّ بالمناصحةِ.

الثالثةُ: لا يكونُ مخلفاً لوعدهِ ولا وعيدهِ، فإنَّهُ إن كان كذلك لم يُرْجَ ولم يُخَفْ.

الرَّابعةُ: لا يكون حسوداً، فإنَّ الحسودَ لا يسودُ عنده أحدٌ ولا يشرفُ، ولا يصلحُ النَّاسُ إلاَّ بساداتهمْ وأشرافهمْ.

الخامسةُ: لا يكونُ جباناً فإنَّهُ إن كانَ كذلكَ أدَّى ذلكَ إلى جبنِ الأولياءِ واجتراءِ الأعداءِ.

وقال **بُزُرْجُمْهُر**[2] يحتاجُ الملكُ الى أجنادٍ يحفظونَ دولتهُ، وأعوانٍ

---

(١) الحديث رواه ابن ماجة في كتاب الأحكام ٤ باب لا يحكم الحاكم وهو غضبان ٢٣١٦، حدثنا هشام بن عمار، ومحمد بن عبدالله بن يزيد، وأحمد بن ثابت الجحدري، قالوا: ثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير، أنه سمع عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال: وذكره. ورواه الإمام مسلم في الأقضية ١٦، والترمذي في الأحكام ٧، والنسائي في القضاة ١٨، وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٦، ٣٨، ٤٦ (حلبي).

(٢) **بزرجمهر**: كان وزير أبرويز، والغالب عليه، والمدبّر لأمره. حكيم من حكماء الفرس، وهو بزرجمهر بن البختكان فلما خلا من ملكه ثلاث عشرة سنة، اتهمه بالميل إلى بعض الزنادقة من الثنوية فأمر بحبسه وكتب إليه:

« كان من ثمرة ونتيجة ما أدّاك إليه عقلك أن صرت أهلاً للقتل وموضعاً للعقوبة ».

فكتب إليه بزرجمهر: « أما إذ كان معي الجد فقد كنت أنتفع بثمرة عقلي، فالآن إذ لا جد معي فقد أنتفع بثمرة الصبر، وإذ قد فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير من الشر ». =

يخدمونهُ، ويحفظونَ مهجتهُ، وعلماءِ يحفظونَ دينهُ، ووزراءٍ يحفظونَ ملكهُ، وعمَّالٍ يحفظونَ مالهُ، وخطباءٍ يدعونَ إليهِ، وشعراءٍ يخلّدونَ ذكرهُ، وندماءٍ يجلبونَ أُنسهُ، وأطبَّاءٍ يحفظونَ صحَّته، ومنجّمين يختارونَ له الأوقات ويبشّرونهُ بالمسرَّاتِ، ومطربين يغذُّونَ روحهُ بالنغماتِ.

وسئلَ **الموبذانُ** عن سيرةِ أزدشير فقالَ إنّهُ لم يهزلْ في أمرٍ ولا نهيٍ، ولا أخلفَ في وعدٍ ولا وعيدٍ، وولّى للتُّقى لا للهوى، وعاقبَ للذَّنبِ لا للغضبِ، فاشربَتْ قلوبُ الرَّعيَّةِ بمحبَّتهِ من غيرِ جراءةٍ وأُودعتْ هيبتهُ من غيرِ ظلمٍ.

وقالَ **جاماسبُ** حكيمُ الفرسِ ينبغي للملكِ أن تكونَ همَّتهُ عاليةً، فيوطِّنُ نفسهُ على بلوغِ أقصى المراتبِ ونيلِ الغاياتِ، ثمَّ يقدرُ في نفسهِ حدوثَ النَّوازلِ وطروقَ النَّوائبِ وما يجبُ أن يقابلَ بهِ كلَّ حادثةٍ إن طرأتْ، فلاَ يستفزُّهُ الفرحُ بالبشائرِ الواردةِ، ولا تزعجهُ الحوادثُ النَّازلة؛ فيكونُ في المسرَّةِ كمنْ وعدَ بأمرٍ ثمَّ جاءهُ، ويكونُ في المضرَّةِ كمنْ وطَّنَ نفسهُ على ذلكَ، ومثالهُ كمنْ علمَ بوقوعِ آنيةٍ من الصفرِ من أعلا قصرٍ، فإنَّهُ عندَ وقوعها لا يرتاعُ كمن لم يعلم بها وهوَ غافلٌ عنها.

وقالَ **أرسطاليسُ**(١) من علمَ أنَّ الكونَ والفسادَ يتعاقبانِ للأشياء لم

= وأغرى أبرويز ببزرجمهر، فدعا به وأمر بكسر أنفه وفمه فقال بزرجمهر: فمي لأهل لما هو شرّ من هذا.

فقال أبرويز: ولِمَ يا عدوّ الله؟

فقال: لأني كنت أصفك لخواص الناس وعوامهم بما ليس فيك، وأُقرِّبك من قلوبهم. فغضب أبرويز وأمر بضرب عنقه.

ولبزرجمهر في أيدي الناس قضايا وحكم ومواعظ وكلام كثير في الزهد وغيره. (راجع مروج الذهب ١ : ٢٠٨ — ٢٠٩).

(١) تراجع ترجمته في موسوعة الفلسفة وأيضاً في الموسوعة العربية، و**أرسطاليس** حكيم اليونان، وهو واضع علم المنطق الذي يعتبر آلة يحكم به الذهن من الخطإ وإن كان علماء الإسلام قد انتقدوا هذا المنطق.

يحزنْ لورودِ الفجائعِ لعلمهِ ألاّ بدّ منْ كونها، وهانَ عليهِ لعجز الكلّ عن ذلكَ وقول المتنبي[1] في ذلكَ:

إذا استقبلتْ نفسُ الكريمِ مصابها   بحيثُ ثـنـتْ فاستدبرتـهُ يطـيـبُ

وذهبَ بعضُ الملوكِ إلى أنَّ الأصلحَ للمملكةِ أن يكونَ الخوفُ من الملكِ أكثر من الأمنِ منهُ.

وقالَ **كسرى**[2] **قباذ**: ينبغي للملكِ أن يكونَ كالأسدِ حولهُ الفوارس لا كالفريسةِ حولهُ الآسادُ، وما أسعدَ رعيَّةٍ تكاملَ في ملكها فضائلُ النَّفسِ والجسمِ، ومن اجتمعتْ لهُ الفضائلُ الجسميَّةُ وعدِمَ الفضائلَ النَّفسيَّة لا يستقيمُ له حالٌ في ملكهِ ولا تنتظمُ رئاستهُ، كما قال المتنبّي:

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شرفٌ لهُ   إذا لم يكـن فـي فعلـهِ والخلائقِ

ومن كان بالعكسِ انتظمَ أمرهُ، ومن اجتمعتْ له الحالتان فقدْ كملَ الشّرفُ واستحقّ الملكَ، وان لم يكن ملكاً فإنَّ السّعادةَ أمرٌ وراء الإحاطة

---

(١) هو **أحمد** بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة، وفي علماء الأدب من يعدّه أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة في محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ، وإليها نسبته. ونشأ بالشام ثم تنقل إلى البادية. وقال الشعر صبيًّا. وفد على سيف الدولة صاحب حلب سنة ٣٣٧، فمدحه ومضى الى مصر فمدح كافور الأخشيدي. ديوانه شرحه كثير من الشرّاح. توفي مقتولاً عام ٣٥٤ هـ. (راجع ابن خلكان ١ : ٣٦/ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٧/ ولسان الميزان ١ : ١٥٩).

(٢) هو **كسرى** بن قباذ بن أبرويز، وقيل إنه ابن لأبرويز، وكان بناحية الترك، فسار يريد دار الملك، فقتل في الطريق بعد ملكه ثلاثة أشهر.

ثم ملكت بعده ابنته (**بوران**) فكان ملكها سنة ونصفاً. ثم ملك رجل من أهل بيت الملك من ولد سابور بن يزدجرد الأثيم يقال له : « **فيروز خشنشدة** » فكان ملكه شهرين. ثم ملكت إبنة لكسرى أبرويز يقال لها: « **أرزمى دخت** » فكان ملكها سنة وأربعة أشهر.

والوصفِ، ومنْ دام تسبيبهُ أو تعليلهُ فقد غلط، ولقدْ تقاصرتْ عقولُ العلماءِ والحكماءِ عن علمِ ذلكَ. وأشارَ المتنبي بقولهِ:

وللهِ سرٌّ في علاكَ وإنما كلا   مُ العدى ضربٌ منَ الهذيانِ

فصلٌ في قواعدِ الملكِ وأركانهِ

أولاً: في ذكرِ العدلِ:

قال اللهُ تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[1] الآية. المرادُ بالخلافةِ هي الولايةُ على النَّاسِ ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

وقيلَ: المرادُ بهِ خلفٌ عن سلفهِ منَ الأنبياءِ والحكّامِ فاحكمْ بينَ النّاسِ بالحقِّ أي بالعدلِ.

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[3] في تفسيرهِ أقوالٌ أشهرها وأوضحها القضاءُ بالحقِّ والإنصاف في الحكمِ، حكاهُ الرُّمانيُّ. وقالَ تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[4] قيلَ معناهُ فأنصفوا، وقيلَ: فأصدقوا، وقيلَ لا تميلوا. وقال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾[5] قيلَ بالتأييدِ والنّصرِ، وقيلَ

---

(١) سورة ص (آية رقم ٢٦).

(٢) سورة الأعراف (آية رقم ١٢٩) وقد جاءت الآية محرّفة في الأصل حيث ذكرت (استخلفكم لينظر).

(٣) سورة النحل (آية رقم ٩٠) وتكملة الآية: ﴿وإيتاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

(٤) سورة الأنعام (آية رقم ١٥٢).

(٥) سورة ص (آية رقم ٢٠) وتكملة الآية ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾.

بالجنودِ والهيبةِ. ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ﴾[1] قالَ السّدّيُّ[2]: هيَ النبوَّةُ، وقالَ قتادةُ: هي الشَّريعةِ، وقالَ ابنُ أبي نجيحٍ: هيَ العدلُ والإنصافُ: ﴿وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾[3] هوَ علمُ القضاءِ بينَ النَّاسِ والعدلُ فيهم.

وفي صحيحِ مسلم عن ابنِ عُمَر عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: « كلُّكمْ راعٍ وكلُّكمْ مسؤولٌ عنْ رعيَّتهِ »[4]. وعنِ أبي هريرةَ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: « سبعةٌ يظلُّهمُ اللهُ في ظلِّهِ يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ »[5] وذكر باقي الحديث. والعدلُ هيئةٌ في الإنسانِ يطلبُ بها المساواة، وأمَّا بالفعلِ فهو التَّقسيط على الإستواءِ، ومنه عدلُ الميزانِ وهو استواء الكفَّتينِ.

وقيلَ هو وضعُ الشَّيء في محلِّه. وأمَّا إطلاقهُ في حقِّ الباري عزَّ وجلَّ

---

(١) سورة ص (آية رقم ٢٠).

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة. قال فيه ابن تغري بردي: « صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس. توفي عام ١٢٨ هـ ». (راجع النجوم الزاهرة ١ : ٣٠٨/ واللباب ١ : ٥٣٧، وفيه وفاته سنة ١٢٧ هـ).

(٣) سورة ص (آية رقم ٢٠).

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الجمعة ١١ باب الجمعة في القرى والمدن ٨٩٣ — أخبرنا يونس عن الزهري قال: أخبرنا سالم بن عبدالله عن ابن عمر — رضي الله عنهما أن رسول الله — ﷺ — يقول، وذكره.

ورواه أيضاً في الوصايا ٩، والعتق ١٧، ١٩، ورواه الإمام مسلم في الامارة ٢٠، وأبو داود في الامارة ١، ١٣، والترمذي في الجهاد ٢٧، وأحمد بن حنبل في المسند ٢: ٥، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١ (حلبي).

(٥) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الأذان ٣٦، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ٦٦٠، حدثنا يحيى عن عبيد الله قال: حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن النبيّ — ﷺ — قال، وذكره.

ورواه مالك في الموطأ عن خبيب فقال: عن أبي سعيد أو أبي هريرة على الشك، ورواه أبو قرة عن مالك بواو العطف فجعله عنهما، وتابعه مصعب الزبيري.

ورواه البخاري أيضاً في الزكاة ١٦ والحدود ١٩، والترمذي في الزهد ٥٣، والنسائي في القضاء ٢، وأبو داود في الأقضية ٣١.

فالمرادُ به التّصرُّف في الملكِ، كما أنَّ الظلمَ التّصرُّف في غيرِ الملكِ وأثرهُ يظهرُ في أنّ أفعالَ الباري تعالى واقعةٌ على نهايةِ الانتظامِ والاستقامةِ؛ فبالعدلِ قامتِ السّمواتُ والأرضُ، وبالعدلِ انتظمتْ أمورُ العالمِ واستقامتْ بقدرةِ الحكيمِ القديرِ.

قالَ الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالمِيزَانَ﴾[1] قالَ أهلُ التّفسيرِ المرادُ به العدلُ إذ هو الميزانُ على الحقيقةِ، ومن أثرِهِ هذا الميزانُ الحسّيّ الّذي يعرفُ به الرُّجحان والتّساوي.

وقال **حكيم اليونانِ**: العدلُ سنّةُ الحقِّ النّاظمةُ للأمورِ. وقالَ **أزدشيرُ**: الملكُ والعدلُ أخوانِ توأمانِ، يصلحُ أن لا يفترقا ولا غناءَ بأحدهما عن الآخرِ.

وقالَ **عبدُ الله بن المقفّع**[2]: يحتاجُ الملكُ إلى ثلاثةٍ: مالٌ مبذولٌ، وسيفٌ مسلولٌ، وعدلٌ غيرُ معلولٍ. وناهيكَ من فضيلةِ العدلِ أنَّ الجورَ الّذي ضدّهُ لا يتمُّ إلاَّ به، فلوْ أنَّ طائفةً من أهلِ الجورِ والغضبِ وقطعِ السّبيلِ اجتمعوا لذلك فلا بدَّ لهمْ أن يكون بينهمْ اتّفاقٌ على قضيّةٍ من العدلِ والإنصافِ بينهم، فإذا التزموها تمَّ لهم ما يرومونه من الجورِ، فإن أخلّوا بذلك النّوعِ من العدلِ فسدَ أمرهم.

---

(١) سورة الشورى (آية رقم ١٧) وتكملة الآية: ﴿وما يُدريكَ لعلَّ السّاعةَ قريبٌ﴾.

(٢) هو **عبدالله بن المقفع** من أئمة الكتّاب، وأول من عُني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) عام ١٠٦ هـ. وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفّاح). وولي كتابة الديوان للمنصور العبّاسي، وترجم له « **كتب أرسطو طاليس** » الثلاثة في المنطق، وكتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف بايساغوجي، وترجم عن الفارسية كتاب **(كليلة ودمنة)** وهو أشهر كتبه، ومنها: الأدب الصغير، والأدب الكبير. واتُّهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي عام ١٤٢ هـ. (راجع أمراء البيان ٩٩ — ١٥٨/ وأخبار الحكماء ١٤٨/ ولسان الميزان ٣ : ٣٦٦/ والبغدادي في خزانة الأدب ٣ : ٤٥٩ — ٤٦٠).

والعدلُ عامٌّ مطلقٌ وخاصٌّ مقيَّدٌ؛ فالمطلق هو الإحسانُ الى المحسنِ وكفُّ الأذى عمَّن كَفَّ أذاه، والمقيَّدُ فهو المنضبطُ بالأوامرِ الشَّرعيَّةِ والنَّواهي والتَّناصفُ بين أهلِ الملَّةِ وعقوبةُ أهلِ الخيانةِ وقهرُ أهلِ الكفرِ والعنادِ، وسلبهمْ وسبيهمْ، وعدلُ السُّلطانِ خيرٌ من خطبِ الزَّمانِ، وعدلٌ شاملٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ[1].

يحكى أنَّ بعضَ الملوكِ خرجَ إلى متصيَّدٍ له، فأدَّاهُ الطَّلبُ إلى قريةٍ صغيرةٍ، فنزلَ مستريحاً في منزلِ عجوزٍ بجانبِ القريةِ وقد أدركهُ الكلالُ والتَّعبُ، وانقطعَ عنه أصحابهُ سوى غلامينِ كانا معه ملازمينِ له، فبعثَ أحدهما في طلبِ أصحابهِ، ونزل معهُ الآخرُ؛ فقالتِ العجوزُ لابنتها: يا بنيَّة! قدّمي لضيفنا لبنَ البُقَيْرَةِ مع ما عندكِ من الخبزِ؛ فأتتْ بقصعةٍ فيها لبنٌ كثيرٌ؛ فقالَ لها هذا حلبُ بقرةٍ واحدةٍ؟ قالتْ: نعمْ هذا حلبُ الغداةِ، وبالعشيِّ تحلب مثلهُ، فاستكثرَ ذلكَ وقالَ: من عندهُ العشراتُ والمئين كيفَ تكون فائدتهُ؟ فأضمرَ في نفسه أن يوظِّفَ على أصحابِ البقرِ خراجاً يؤدُّونهُ في كلِّ سنةٍ، ثمَّ أقامَ إلى العشيِّ، فقامت ابنةُ العجوزِ فحلبتْ، فلم يحصلْ إلاَّ بعضُ ما كانت تحلبُ[2]؛ فجاءت إلى أمِّها متعجِّبةً من خلافِ العادةِ مع أنَّه لم يتغيَّرْ من حالِ البقرةِ ولا مرعاها شيءٌ؛ فقالتْ لها يا بنيَّةُ لعلَّ نيَّةَ الملكِ تغيَّرتْ فإنَّها تؤثِّرُ في الخصبِ والجدبِ[3]، فلمَّا سمعَ مقالتها أصلحَ نيَّتهُ وعاهدَ اللهَ على الإحسانِ إلى الرَّعيَّةِ، وتركَ التَّعرُّضَ لأموالهم،

---

(١) وَبَلَ المرتع بالضم يوبل (وَبْلاً) و (وبالاً) أيضاً فهو وبيل أي ثقيل وخيم. و (الوابل) المطر الشديد. وقد وبلت السماء من باب وعد. قال الأخفش ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾ أي شديداً، وضرب وبيل وعذاب وبيل أي شديد.

(٢) في (ب) تجلب بالجيم بدلاً من (الحاء).

(٣) في (أ) الحدب بدلاً من (الجدب).

ثم أقامَ ليلتهُ وقد تلاحقَ أصحابهُ، واعتبرَ حالَ البقرةِ فوجدها قد عادَ لبنها إلى ما كان عليهِ، فعلمَ أنَّ ذلك تنبيهٌ من اللهِ تعالى ليحسنَ سيرتهُ، فأنعمَ على العجوزِ وجهَّزَ ابنتها وانصرف.

وقيلَ: إن **الاسكندرَ** كانت بينَ يديهِ كرةٌ مثمَّنةٌ من الذَّهبِ، وضعها له الحكيمُ أرسطاطَاليسُ على كلِّ جهةٍ منها كلمةٌ سياسيَّةٌ[1]، تتعلَّقُ كلُّ واحدةٍ بالأخرى، لتكون بينَ يديهِ يقلِّبها في حركاتهِ ويعملُ بما فيها وهي هذه:

العالمُ بستانٌ سياجهُ الدَّولةُ. الدَّولةُ سلطانٌ تحفظها السُّنَّةُ. السُّنَّةُ شريعةٌ يحوطها الملكُ. الملكُ راعٍ تعضدهُ الجندُ. الجندُ أعوانٌ يكفلهمُ المالُ. المالُ رزقٌ تجمعهُ الرَّعيَّةُ. الرَّعيَّةُ خدَّامٌ يتعبَّدهمُ العدلُ. العدلُ مألوفٌ وبهِ صلاحُ العالم.

فحقيقٌ لمن قلَّده اللهُ أمرَ عبادِه وبلادِه أن يعطفَ عليهِمْ ويعدلَ فيهِمْ، وينصف ضعيفهم من قويِّهِمْ، ويساوي في الحقِّ بين شريفهِمْ ومشروفهِمْ، ويبتدىء أولاً بالإنصافِ من نفسهِ وولدهِ وأهلهِ وخاصَّتهِ؛ فالنَّاسُ على دينِ الملكِ كما قيلَ، بمعنى أنَّهمْ يتَّبعونهُ في أحوالهِ وأفعالهِ.

وأخبرَ الحافظُ[2] في تاريخهِ بدمشقَ بإسنادهِ إلى العبَّاس بن محمَّدٍ

---

(١) في (ب) حكيمة بدلاً من (سياسية).

(٢) هو **علي** بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي المؤرخ الحافظ الرحالة، كان محدِّث الديار الشامية ورفيق السمعاني (صاحب الأنساب) في رحلاته. مولده عام ٤٩٩ هـ ووفاته في دمشق عام ٥٧١ هـ. له تاريخ دمشق الكبير يعرف بتاريخ ابن عساكر، اختصره الشيخ عبد القادر بدران بحذف الأسانيد والمكرّرات، وسمى المختصر بتهذيب تاريخ ابن عساكر، وباشر المجمع العلمي بدمشق نشر الأصل، فطبع منه المجلَّد الأول ونصف الثاني، له في الحديث ثلاثة مجلدات، وكشف المغطَّى في فضل الموطا، ومعجم الصحابة، وغير ذلك كثير. (راجع ابن خلكان ١ : ٣٣٥/ ومفتاح السعادة ١ : ٢١٦/ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٩٤/ وطبقات الشافعية ٤ : ٢٧٣).

الهاشميّ قال: إني لواقفٌ بين يدي المأمون[1] إذ دخلت امرأةٌ متظلّمةٌ في أخريّاتِ النّاس، وعليها أطمارٌ باليةٌ، وقد أذّنَ المؤذّنُ الأولى وهمّ بالقيام؛ فقالتْ:

يا خيرَ منتصفٍ يهدى لهُ الرّشدُ	ويا إماماً بهِ قد أشرقَ البلدُ
تشكو إليكَ سليلَ الملكِ أرملةٌ	عدا عليها فلمْ يقوَ بهِ أحدُ
فابتزَّ منّي ضياعاً بعدَ منعتها	وقدْ تفرّقَ عنّي الأهلُ والولدُ

فأجابها المأمونُ ارتجالاً:

منْ دونِ ما قلتِ عيلَ الصّبرُ والجلدُ	منّي ودامَ بهِ في قلبي الكمدُ
هذا أوانُ صلاة الظهرِ فانصرفي	وأحضري الخصمَ في اليومِ الّذي أعدُ
والمجلسُ السّبتُ إن يقضَ الجلوسُ لنا	أنصفكِ فيهِ والا المجلسُ الأحدُ

قالَ: فجلسَ يوم الأحدِ، ودخلتِ المرأةُ، فقالَ لها: وأينَ الخصمُ؟ فقالت: هو بين يديكَ! وأشارتْ إلى ولدهِ العبّاس. فقالَ لأحمد[2] بن أبي خالدٍ خذْ بيدهِ فأجلسهُ معها، ففعلَ، فادعتْ عليه بالضيعةِ، وجعلتْ ترفعُ صوتَها عليه، فقالَ لها أحمدُ خفّضي من صوتكِ فإنّكِ بين يديْ أميرِ المؤمنينَ! فقالَ: اسكتْ فإنّ الحقّ أنطقها والباطل أسكتهُ. ثمّ ظهرَ الحقُّ معها، فقضى لها عليهِ، وأمرَ بردّ ضيعتها، وغرّمَ ولدهُ ما أخذَ من ريعها.

---

(١) هو عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه. ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ، واهتمّ بكتب العلم والفلسفة، أخذ من اليونان كتب أرسطو وأفلاطون؛ فترجمت، وحضّ الناس على قراءتها. وقرّب إليه العلماء والمحدثين والمتكلمين. توفي عام ٢١٨ هـ. (راجع تاريخ بغداد لابن الخطيب ١٠ : ١٨٣/ والمسعودي ٢ : ٢٤٧ — ٢٦٩/ وابن الاثير ٦ : ١٤٤/ ١٤٨/ والطبري ١٠ : ٢٩٣).

(٢) لم نعثر عليه في كتب التراجم على كثرة البحث والتقصي، ولعلّه أحد الحجّاب أو الوزراء الذين كان المأمون يستعين بهم في أموره.

فصلٌ في الكرمِ والجودِ

أحقُّ النَّاسِ بالكرمِ **الملوك**، وذلكَ لارتفاعِ أقدارِهمْ واجتماعِ أموالِهمْ وعظيمِ أخطارِهمْ. وحدُّ الكرم هو إعطاء المحتاجِ فوقَ ما يحتاجُ إليهِ، وللكرمِ أيضاً حدٌّ إذا زاد عليهِ انتهى إلى السَّرفِ، وإذا تناقصَ عنهُ انتهى إلى الشُّحِّ. قالَ اللهُ تعالى ﴿ولاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾[1] والكرمُ هي الحالةُ الوسطى المحمودةُ، والباري سبحانهُ وتعالى مع أنَّهُ هو الكريمُ الجوادُ المطلقُ. قالَ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا في الأَرْضِ ولَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾[2].

وقدِ اختلفَ أهلُ السِّياسة في وصفِ كرمِ الملوكِ، فقالتِ الفرسُ: الملكُ السَّعيدُ المصيبُ هو السَّخيُّ على نفسهِ السَّخيُّ على رعيَّتِهِ. وقالتِ الهندُ بضدِّها: بل يدَّخرُ المالَ لوقتِ حاجته: وقالتِ الرُّومُ: لا عيبَ على الملكِ أن يكونَ بخيلاً على نفسهِ سخيًّا على رعيَّتِهِ. وأجمع الكلُّ على أنَّ السَّخيَّ

---

(١) سورة الإسراء (آية رقم ٢٩) وتكملة الآية ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾.

(٢) سورة الشورى (آية رقم ٢٧).

يقول ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً. وقال قتادة: كان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث الرسول ـ ﷺ: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الدنيا».

على نفسهِ البخيل على رعيَّتهِ مخطئٌ غير مصيبٍ، مذمومٌ غير محمودٍ. فلمَّا استقرَّ أنَّهُ أليَق بالملوكِ وهم أحقُّ به حتَّى إنَّ بعضهمْ يفرطُ به محبَّةَ الكرمِ واختيارهِ فيغارُ من كرم غيرهِ منافسةً منهُ لهذهِ الفضيلةِ ليكون هو مختصًّا بها.

وقد ليم بعض الملوكِ على كثرةِ بذلهِ للأموالِ فقيلَ له لا خيرَ في السَّرفِ، فعكسَ القولَ(*) وأجابَ لا سرفَ في الخيرِ. وينبغي أن يكون كرمٌ غير مقصورٍ على خواصّ أصحابهِ ومنْ قربَ منهُ، فإنَّهُ كرمٌ خاصٌّ قليلُ الجدوى، وبه سُمِّيَت شجرةُ العنب كرماً، لأنَّها تتشبَّثُ وتتعلَّقُ بما قربَ منها وتلقي عليهِ ثمرها، بل يكونُ كالشمسِ يضيء على الآفاق ويعمُّ الأقاصي والأداني بالإشراقِ، كما قالَ المتنبّي:

كالبحرِ يقذفُ للقريبِ جواهراً   أبداً ويبعثُ للبعيدِ سحائبا

والشّعرُ في هذا المعنى كثيرٌ.

وقالَ **بِهْرَامُ جُوْر** في خطبتهِ الأُولى بلسانهِ ما معناهُ إنَّا نجمعُ الرِّجالَ لا الأموالَ، وندخرُ الذّكرَ لا الوفرَ، ونمهّدُ الآجلةَ لا العاجلةَ. وهكذا أوائلُ الدُّولِ ومباديها تؤلَّفُ بالكرمِ وفيضِ الجودِ.

قالَ **الصَّاحبُ**[1] **بنُ عبّادٍ**(*) لعَضُدِ الدَّولةِ إنَّما هو سيفك ودرهمك

---

* قوله : قال الصاحب الخ... أقول : ويؤيده أن إله الخلق سبحانه إنما تعرّف لهم بالإحسان فعرفوه حق العرفان.

(١) هو **إسماعيل** بن عباد بن العباس أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي، استوزره مؤيّد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوين) وإليها نسبته. وتوفي بالري عام ٣٨٥ هـ ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف جليلة منها المحيط، والكشف عن مساوىء شعر المتنبي، والإقناع في العروض، وغير ذلك كثير. (راجع معجم الأدباء ٢ : ٢٧٣ ــ ٣٤٣/ ومعاهد التنصيص ٤ : ١١/ وابن خلدون ٤ : ٤٦٦/ وابن خلكان ١ : ٧٥/ والمنتظم ٧ : ١٧٩).

* قوله : فعكس القول... الخ أقول ذلك من عين الشريعة ونور مشكاة الحقيقة.

ازرعْ يدًا من شكرَ واحصدْ يدًا من كفرَ. ومن اطّلعَ على أخبارِ الماضينَ وسيرِ المتقدّمينَ علمَ أنَّ بالجودِ تشمَّختِ الدُّولُ واستقرَّتِ الممالكُ؛ ومثالُ ذلكَ أنَّ دولةَ بني أميّةَ كان مبدؤُهَا معاويةُ بنُ أبي سُفيان وطدهَا على الكرمِ والحلمِ فاستقرَّتْ وتشمَّختْ لمنْ بعدهُ منه إلى مروان بنِ محمَّدِ[1] بنِ مروانَ إحدى وتسعينَ سنةً وتسعةَ شهورٍ ويومينِ. والدَّولةُ العباسيَّةُ أنشأها أبو مُسلم الخراساني[2] ممزوجةً بالرَّغبةِ والرَّهبةِ، فكانَ يقتلُ حتَّى يقالُ إنَّه لا يصفح ولا يُبقي ويبذلُ الأموالَ حتَّى يقالُ إنَّهُ لا يبقي على شيءٍ من أصنافِ الأموال، فاستقرَّتِ الدَّولةُ على الخوفِ والرَّجاءِ إلى الآن. وكانتِ المبايعةُ للسفّاحِ[3]، وهو أوّلُ الخلفاءِ العبّاسيّينَ رضيَ اللهُ عنهمْ، بالكوفةِ في شهرِ ربيعٍ الآخرِ سنة اثنتين وثلاثينَ ومائة.

---

(١) هو **مروان** بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي أبو عبد الملك القائم بحق الله، ويعرف بالجعدي وبالحمار. آخر ملوك بني أمية في الشام. ولد بالجزيرة عام ٧٢ هـ. وغزا سنة ١٠٥ هـ. فافتتح قونية وغيرها، وولّاه هشام بن عبد الملك على أذربيجان وأرمينية والجزيرة سنة ١١٤. يقال له الحمار لجرأته في الحرب. واشتهر بمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه (الجعد بن درهم) قتل عام ١٣٢ هـ. (راجع الكامل لابن الأثير ٥: ١١٩ و١٥٨/ واليعقوبي ٣ : ٧٦/ وابن خلدون ٣ : ١١٢ ــ ١٣٠/ والطبري ٩ : ٥٤ و١٣٣).

(٢) هو **عبد الرحمن بن مسلم**: مؤسس الدولة العباسية وأحد كبار القادة. ولد في ماه البصرة (مما يلي خراسان) عند عيسى ومعقل ابني إدريس العجلي، فربّياه إلى أن شبّ، فاتصل بإبراهيم ابن الإمام محمد (من بني العباس) فأرسله إبراهيم إلى خراسان ووثب على ابن الكرماني (والي نيسابور) فقتله واستولى على نيسابور وسلم عليه بإمرتها، فخطب باسم السفّاح العباسي (عبدالله ابن محمد) ثم سيّر جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فقابله بالزّاب وانهزمت جيوش مروان إلى الشام، وفرّ مروان إلى مصر فقتل ببوصير، وزالت الدولة الأمويّة الأولى سنة ١٣٢ هـ. وصفا الجو للسفاح إلى أن مات وخلفه أخوه المنصور. توفي عام ١٣٧ هـ. (راجع ابن خلكان ١ : ٢٨٠/ وابن الأثير ٥ : ١٧٥/ وميزان الاعتدال ٢ : ١١٧/ ولسان الميزان ٣ : ٤٣٦/ وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٠٧/ والمعارف لابن قتيبة ١٨٥).

(٣) هو **عبدالله** بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب أبو العباس: أول خلفاء الدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. ويقال له: « المرتضى » و « القائم ».

وهكذا الدَّولة السامانيَّة والدَّولةُ البويهيَّةُ والدَّولةُالمِصريَّةُ والدَّولةُ الأيُّوبيَّة حتَّى جاءت هذهِ الدَّولةُ المباركةُ السَّعيدةُ المنصوريَّة، نشأتْ بالعدلِ والكرمِ وبهِ بدأتْ واستمرَّتْ، وبالحزمِ والعزمِ تثبَّتتْ واستقرَّتْ؛ فإنَّ مولانا السُّلطان الملكَ المنصور سيف الدُّنيا والدِّينِ قلاوون[1] قدَّسَ اللهُ روحهُ ونوَّرَ ضريحهُ، لمَّا ملَّكهُ اللهُ الدِّيارَ المصريَّةِ، وظفرَ بخزائنها الكثيرةِ وذخائرها الأثيرةِ وأموالها المكنوزةِ وتحفها المحروزةِ، فرَّقَ من الأموالِ على الوجهِ الصَّحيحِ المشروعِ المقتصدِ ما جمعوهُ،وأحرزَ من الذِّكرِ الجميلِ بالبذلِ ما بالمنعِ ضيَّعوهُ، فجازاهُ اللهُ الجزاء الوافر ونصرهُ على العدوِّ الكافرِ، وكانتْ وقعةٌ مشهورةٌ بعدَ ما أنفقَ الأموالَ على العساكرِ المنصورةِ، وأثبتَ لذاتهِ الشَّريفةِ صفةَ الكرمِ والشَّجاعةِ، ودانتْ له البلادُ والعبادُ بالسَّمعِ والطَّاعةِ، وفتحَ المَرقبَ والأعمالَ الطَّرابلسيَّة، وجاءتْ إلى خدمتهِ رُسُلُ البرِّ والبحرِ والأقاليم الأندلُسيَّةُ، فسلكَ في طريقِ الحقِّ ونصرةِ الشَّرعِ أوضحَ سلوكهِ، فاستقرَّتْ من بعدهِ لأولادهِ ومماليكهِ، فسلكوا منهاجَ بيانهِ فأولاهمُ اللهُ من فضلهِ وإحسانهِ.

= ولد عام ١٠٤ هـ ونشأ بالشراة (بين الشام والمدينة) وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوّض عرش الدولة الأموية، فبويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ. وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد (آخر ملوك الأمويين في الشام) وكافأ أبا مسلم بأن ولّاه خراسان، وكان شديد العقوبة عظيم الانتقام. ولُقّب بالسفّاح لكثرة ما سفح من الدماء. توفي عام ١٣٦ هـ. (راجع ابن الأثير ٥ : ١٥٢/ والطبري ٩ : ١٥٤/ واليعقوبي ٣ : ٨٦/ وابن خلدون ٣ : ١٨٠/ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٢٤).

(١) **قلاوون** الألفي العلائي الصالحي النجمي، أبو المعالي سيف الدين السلطان الملك المنصور، أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر، كان من المماليك، قاتل التتار وانتصر عليهم، هاجم ملك النوبة مدينة أسوان ونهبها؛ فأرسل إليه قلاوون من هزمه وغنم منه مغانم كثيرة، واستمر إلى أن توفي بالقاهرة عام ٦٨٩ هـ. (راجع مورد اللطافة لابن تغري بردي ٤٢ ــ ٤٤/ وابن إياس ١ : ١١٤/ وخطط المقريزي ٢ : ٢٣٨/ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٩٢).

وكذلكَ ولدهُ الملكُ الأشرفُ[1] كانَ غزيرَ الكرمِ، حسنَ الأخلاقِ والشيمِ، حاصرَ القلاعَ السَّاحليَّةَ وفتحها، وطهَّرها منَ المشركينَ وأصلحهَا، وفتحَ قلعةَ الرُّومِ الَّتي ما فتحهَا وتملَّكها قبلهُ سواه، ثم بَهَسْنَا وأخذَ كُلَّ من فيهما أسراءَه قهراً بالسَّيفِ، وذلكَ من بعضِ فضلِ اللهِ وما أعطَاهُ.

وكذلكَ الملكُ النَّاصرُ[2] ولدهُ الثاني وملتقاهُ العدُوَّ المخذولَ بلا توانٍ، فنصرهُ اللهُ عليهمْ فولَّوا بينَ يديهِ وهم منهزمون، وكانوا مائةَ ألفٍ أو يزيدون وكذلكَ من تملَّكَ من المماليكِ المنصورية حتَّى وصلتْ إلى اللَّيثِ الغضَنْفَرِ مولانا السُّلطانِ الملكِ المظفَّرِ ركنِ الدُّنيا والدِّينِ سيدِ الملوكِ والسلاطينِ، فهوَ واسطُ عقدهمِ وكوكبُ سعدهم الَّذي كرمهُ غيرَ مقصورٍ وفضلهُ غيرَ محصورٍ.

وأمَّا **الملوكُ** فإنَّها تتفاوتُ على أصنافٍ: منهمْ من يغمرُ جودهُ القريبَ

---

(١) هو **خليل** بن قلاوُون الصالحي: الملك الأشرف صلاح الدين ابن السلطان الملك المنصور من ملوك مصر، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ. واستفتح الملك بالجهاد، فقصد البلاد الشامية وقاتل الإفرنج، فاستردَّ منهم عكة وصور وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبيسان وجميع الساحل، وتوغل في الداخل. وكان شجاعاً مهيباً، عالي الهمة جواداً، له آثار عمرانية، قتله بعض المماليك غيلةً بمصر عام ٦٩٣ هـ. (راجع فوات الوفيات ١ : ١٥١/ والنجوم الزاهرة ٨ : ٣/ والسلوك للمقريزي ١ : ٧٥٦ ـــ ٧٩٣).

(٢) هو **أحمد** بن محمد بن قلاوون شهاب الدين، الملك الناصر ابن الملك الناصر من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. ولد بالقاهرة عام ٧١٦ هـ. وأرسله أبوه إلى الكرك ليتعلم الفروسية فاستمرّ فيها أيام أبيه الناصر الأول وأخويه أبي بكر (المنصور) وتولى السلطنة عام ٧٤٢ هـ بعد خلع الأشرف، فانتقل الى القاهرة وتلقّب بلقب أبيه (الناصر) وقتل جماعةً من أمراء الجيش كانوا في السجن، وجمع أموالاً من الخزائن السلطانية وتحفها وعاد الى الكرك. واتهم بالانغماس في اللهو. خلع عام ٧٤٣ هـ مدة حكمه ٧٢ يوماً. وقتل عام ٧٤٥ هـ. (راجع ابن اياس ١: ١٧٩ و١٨٢/ والدرر الكامنة ١ : ٢٩٤/ والبداية والنهاية ١٤ : ١٩٣ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢١٣/ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٥٠).

والبعيدَ والمتعرضَ والمعرضَ، كما يُحكى عن الفضل[1] بنِ يَحيَى البَرْمَكي أنّهُ كان يكتبُ رقاعاً بخطِّهِ كثيرةً فيها امضِ إلى فلان الصيرفيّ وخُذْ منهُ كذا وكذَا دينارٍ، حسبَ ما يجريه اللهُ تعالَى على يدهِ ويركبُ في اللَّيلِ أو في القائلةِ ويتخرّقُ شوارعَ البلدِ وينثرُها فيها، فسُئِلَ عن ذلكَ، فقالَ: أردْتُ أن يصلَ برّي إلى من لا يصلُ إليَّ ولا أعرفهُ ولا يعرفني، فإذا وجدَ أحدٌ رُقعةً من تلكَ الرِّقاعِ مضى بها إلى ذلكَ الصَّيرفيّ، فيأخذُها منه ويعطيهِ ما فيها، وعندَ الصَّيرفي أمينٌ جالسٌ لِئَلا يصالحهُ على بعضها، ولا يعطي لأحدٍ غير رقعةٍ واحدةٍ ولا يسألُ عنهُ، ولا يثبتُ اسمهُ، وربُّما جاءت بيدِ الصَّبيّ والامرأةِ والذمّي، فيأخذُ ما فيها. وهذا تلطُّفٌ في الكرمِ وتنوُّعٌ في الجودِ.

ومنهمْ من يتكرّمُ على القريبِ منهُ والسَّائلِ على مقدارِ رتبهمْ والسَّعة وهو الكرمُ النَّاقصُ ويسمّى المقتصدُ، مثلُ: بَهرَاسَب وَكَيقَاوُس وأَرْدَشِير.

ومنَ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ مثلُ معاويةَ وهشام[2] من بني أُميَّةَ، ومن بني

---

(١) هو **الفضل** بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد العباسي وأخوه في الرضاع. كان من أجود الناس. استوزره الرشيد مدة قصيرة، ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨ هـ، فحسنت فيها سيرته وأقام إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ. وكان الفضل عنده ببغداد فقبض عليه وعلى أبيه يحيى وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما وأجرى عليهما الرزق. وتوفي الفضل في سجنه عام ١٩٣ هـ (راجع ابن الأثير ٦ : ٦٩/ ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٨/ والطبري ١٠ : ٦٢ و٦٩ و١٠٩/ وتاريخ بغداد ١٢ : ٣٣٤).

(٢) هو **هشام** بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان أبو الوليد. ثاني ملوك الدولة الأموية بالأندلس. ولد بقرطبة عام ١٣٩ هـ. وولاه أبوه ماردة. وبويع بعد وفاة أبيه سنة ١٧٢ هـ، فحسنت سياسته. وكان حازماً شجاعاً شديداً على الأعداء راغباً في الفتح، موفقاً بنى عدة مساجد، وتمم بناء جامع قرطبة، وكان أبوه قد بدأ به. وكان يبعث إلى الكور من يسأل أهلها عن سيرة عماله فيها. وأحبّه الناس لعدله. وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز. استمرّ إلى أن توفي بقرطبة عام ١٨٠ هـ (راجع البيان المغرب ٢ : ٦١/ ونفح الطيب ١ : ١٥٨/ وابن خلدون ٤ : ١٢٤/ وابن الأثير ٦ : ٤٩).

العَبّاس المأمون والمعتصم[1] وغيرهم.

ومنهمْ من يتكرَّمُ بالإقطاعِ والاطلاقِ، ويبخلُ بالمالِ إذا رآهُ وحضرَ بينَ يديهِ، كالمقتدر والمقتدي والمنصورِ من العبّاسيّين.

ومنهم من يكونُ كرمهُ بالمالِ وبخلهُ بالطعامِ، كما حكيَ عن الأمين أنّهُ وهبَ مجلسهُ غيرَ مرّةٍ بما فيهِ من فُرشٍ وبسطٍ وآنيةٍ وأسرَّةٍ، وكانَ اذا رأى أحداً يمعنُ في الأكلِ عنده مقتهُ.

ومنهمْ من يتكرَّمُ بالطّعامِ ويبخلُ بالمالِ، وهو الغالبُ على طباعِ العربِ.

وقدْ كانَ من ملوكِ الأُولِ من اشتهرَ بالكرمِ وعمَّ جودهُ أهلَ الموجودِ والعدمِ، مثل جُمشيد وأفريدونَ وبَشتاسُب منَ الفرسِ. ومن ملوكِ اليمنِ تبع الأوسطِ والشَّمر. ومن ملوك الروم: ثاوُسُش وقَيْصَر الأصغَر وصاحب رومة الّذي كانت نيرانُ قدورهِ لا تخمدُ، وكانَ يبعثُ بصدقاتهِ إلى البلادِ إذ لا يجدُ في مدينتهِ من يستعطي. ولو ذهبتُ إلى استقصاء حالِ الكرماء وعددِ أسمائهمْ ووصفِ أفعالِهم لطالَ الكتابُ. وهذا المولى السُّلطانُ الملكُ المظفَّرُ[2] أدامَ اللهُ أيّامهُ ونشرَ في الخافقينِ أعلامهُ، قد عمَّ جودهُ الخاصَّ

(١) هو **محمد** بن هارون الرشيد بن المهدي ابن المنصور أبو إسحاق المعتصم بالله العباسي: خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة. بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون وبعهد منه، وكان بطرسوس وعاد إلى بغداد بعد سبعة أسابيع في السنة نفسها. وكان قويّ الساعد، يكسر زند الرجل بين أصبعيه، ولا تعمل في جسمه الأسنان، وكره التعليم في صغره. وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقيّة في خبر مشهور. وهو باني مدينة سامرّا سنة ٢٢٢. خلافته ٨ سنين و ٨ أشهر. توفي عام ٢٢٧ هـ. (راجع ابن الأثير ٦ : ١٤٨ ـــ ١٧٩/ واليعقوبي ٣ : ١٩٧/ وتاريخ بغداد ٣ : ٣٤٢/ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٩ ـــ ٢٧٨).

(٢) هو **حاجي** بن محمد الناصر بن قلاوون سيف الدين، الملقّب بالملك المظفر من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. ولي بالقاهرة بعد مقتل أخيه الكامل « شعبان » سنة ٧٤٧ هـ. وشغل باللهو واللعب بالحمام لصغر سنه. وساءت سيرته، ففتك ببعض القوّاد وهمَّ بقتل آخرين، فعاجلوه بالقتل. ومدة سلطنته سنة وأربعة أشهر، وسمّي بحاجي لأنه ولد في طريق عودة

والعامُ، وتجمّلت بصفاتهِ الشُّهورُ والأعوامُ وتشرّفتْ بدولتهِ اللّيالي والأيّامُ فإنّه كثير البرّ والصّدقاتِ متنوّعٌ في وجوهِ الإنعامِ والإطلاقَاتِ يشملُ فضلهُ الدّاني والقاصي ويعمُّ عدله الطايع والعاصي مع ما خصّهُ اللهُ به من عمارةِ المدارسِ والخانقاةِ وتجديدِ الجامعِ الحاكميّ وحُسن ملتقاهُ وتباشرت بهِ سائرِ الملإ وانكسرَ ببركتهِ عن النّاس مُدّ الغلاءِ وتضاعفتِ البركاتُ واتّسعتِ الغلاّتُ وكثرت الأقواتُ وأُمنتِ العبادُ وتشتتَ من هيبتهِ أهلُ الفسادِ.

= أبيه من الحج عام ٧٣٢ هـ. وكان قتله عام ٧٧٨ هـ. (راجع الدرر الكامنة ٢ : ٣/ والبداية والنهاية ١٤ : ٢١٩/ وبدائع الزهور ١ : ١٨٧/ والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٤٨ — ١٧٤).

فصلٌ

ويتلو هذهِ الفضيلةَ الشجَّاعةُ فإنَّها من أركانِ الملكِ، وقد قيلَ: الكرمُ مقرونٌ بالشجاعةِ والبخلُ مقرونٌ بالجبنِ، وقد أخرتُ ذكرَها إلى قسمِ الحروبِ فإنَّها بهِ ألزمُ، وها هنا نذكرُ فضيلةَ الصدقِ والوفاءِ.

قال اللهُ تعالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] قيلَ هيَ العقودُ الَّتي بينَ الخلقِ من بيعٍ وصلحٍ ونِكَاحٍ.

وقيلَ هي التي بينَ العبدِ وبينَ رَبِّهِ من نذرٍ ويمينٍ.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[2] قيلَ إنَّ الإشارةَ فيهِ إلى أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما وقرىءَ الصَّادقِيْن. وقيلَ: المرادُ به الثَّلاثة[3] الذينَ خُلفوا، قالهُ السدّيُّ[4]. وقيلَ مَعناه كونوا مع صدقِ اللهِ في فعلهِ وقولهِ وعلانيتهِ وسرِّهِ، قالهُ قتادةُ.

---

(١) سورة المائدة (آية رقم ١) وتكملة الآية ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعامِ إِلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ﴾.

(٢) سورة التوبة (آية رقم ١١٩).

(٣) **الثلاثة** الذين تخلَّفوا هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار. فقال قوم: ﴿اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: مع محمد ــ ﷺ ــ وأصحابه. وقال الضحَّاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكفّ عن أهل الملة.

(٤) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾[1] فالصدقُ رأسُ الفضائلِ الإنسانيةِ، وهو للملوكِ والعظماءِ ألزم.

وللصِّدقِ مراتب: أوّلها: صدقُ الخبرِ، والثَّاني صدقُ الفعلِ وهو أفضلها، والثَّالثُ الصِّدقُ فيهما وهو التَّامُّ. وأمَّا من صدَّقَ أو صدقَ بلسانهِ ولم يوافقْ ذلكَ ضميرهُ وفعلهُ، فلاَ يكونُ معتبراً ويصحُّ أن يُسمَّى كاذباً لقولهِ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2] فمنْ لم يصحَّ صدقهُ لم يرجَ ولم يخفْ ولا يعتبرُ وعدهُ ولا وعيدهُ، وهذا يضرُّ بآحادِ الناسِ فناهيكَ بالعظماءِ.

واجمعَ أهلُ العلمِ على أنَّ الصِّدقَ المطلقَ من خصائصِ الأنبياءِ، وأن اللهَ تعالى يعصمُهمْ عن الكذبِ، فبالصِّدقِ انتظمتِ الشَّرائعُ، ونُقلتِ الكتبُ والأحكامُ، واستقرَّت في النفوسِ العلومُ الخبريَّةُ، وبه تمَّتِ السياساتُ، واعتمدتِ الرَّعيَّةُ على الملوكِ في وعدها وخافت من وعيدها، فما أنفع الصِّدق وأكثر فوائده.

ومنَ الكذبِ أنواعٌ رخَّصَ الشَّرعُ فيها والمصلحةُ لا تنافيها. وفي مسندِ النسائي عن أمّ كلثومٍ[3] بنت عقبةَ قالت: لم أسمع النبيَّ ﷺ يرخِّصُ

---

(١) سورة الأحزاب (آية رقم ٢٣).
(٢) سورة المنافقون (آية رقم ١).
(٣) هي **أم كلثوم** بنت عقبة بن أبي معيط الأموية، صحابية هي أول من هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي — ﷺ — أسلمت قديماً ولما علمت بهجرة الرسول — ﷺ — خرجت ماشية من مكة إلى المدينة تتبعه، ولحقها أخوان لها لاعادتها فلم ترجع، وكانت عذراء فتزوجها في المدينة زيد بن حارثة، واستشهد في غزوة مؤتة (٨ هـ)، فتزوجها الزبير بن العوام، فولدت له زينب، وفارقها فتزوجها عبد الرحمن بن عوف، فولدت له ابراهيم وحميداً، ومات عنها، فتزوجها عمرو بن العاص فمكثت عنده شهراً في المدينة. وماتت عام ٣٣ هـ. (راجع الإصابة رقم ١٤٧٥/ والاستيعاب بهامش الإصابة ٤ : ٤٨٨).

في شيءٍ من الكذبِ الاَّ في ثلاثة مواضع: في الحربِ أو الإصلاح بينَ الناس، أو حديثِ الرجلِ امرأتهُ، أو حديث المرأة زوجها؛ فهذهِ رخصٌ لا تقدح في صدقِ الصَّادق[1].

ومن ذلك ضربُ الأمثالِ والاستعارات والحكايات عن الحيوانِ الغير ناطقِ مثلَ قولهِ تعالى حكايةً عن مخاطبةِ داودَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[2] فإنَّ هذهِ الألفاظَ وان كان ظاهرهَا الكذب لكن الإصلاح العرفيُّ وقعَ على المرادِ منها والمعاني المقصودة بها، فلا يكونُ من الكذبِ ولا يُقدَحُ في صفةِ الصَّادقِ.

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب البر باب ١٠١: أخبرنا ابن وهب اخبرني يونس عن ابن شهاب أخبرني حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن النبي ـ ﷺ ـ أخبرته أنها سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقول، وذكره.

(٢) سورة ص (آية رقم ٢٣) وتكملة الآية ﴿وَلِي نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الخِطابِ﴾.

فصلٌ
في مضرَّةِ الكذبِ ونقضِ العهدِ

أجمعَ العقلاءُ على أنَّ الكذبَ رذيلةٌ تنحطُّ عن كلِّ رذيلةٍ وفي الحديثِ النّبويّ: « المؤمنُ لا يكذبُ »[1].

وأمَّا الغدرُ فمراتعهُ وخيمةٌ وعواقبهُ ذميمةٌ، من ارتقى في سلّمهِ كانَ السُّقوطُ إليهِ أقربُ، ومن توصَّلَ بسهولتهِ وقعَ في الأشدّ الأصعبِ، ومن تتبَّعَ شرحَ مصارعِ ذوي الغدرِ ومواقعَ أهلِ المكرِ وجدها تجلُّ عن الحصرِ: كانَ الرَّشيدُ قد سجَّلَ بولايةِ العهدِ من بعدهِ لأولادهِ الأمينِ[2] ثم

---

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في الكلام باب ٧ باب ما جاء في الصدق والكذب ١٩: وحدثني مالك عن صفوان بن سليم أنه قال: قيل لرسول الله ـــ ﷺ ـــ أيكون المؤمن جباناً...؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن كذّاباً؟ فقال: لا.

مرسل أو معضل، قال أبو عمر : لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت، وهو حديث مرسل.

(٢) هو **محمد** بن هارون الرشيد بن المهدي ابن المنصور، خليفة عباسي، ولد في رصافة بغداد، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣ هـ. بعهد منه، فولّى أخاه المأمون خراسان وأطرافها، وكان المأمون ولي العهد من بعده. فلما كانت سنة ١٩٥ أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فنادى المأمون بخلع الأمين في خراسان، وتسمى بأمير المؤمنين. وجهز الأمين وزيره (ابن ماهان) لحربه، وجهز المأمون طاهر بن الحسين؛ فالتقى الجيشان، فقتل ابن ماهان وانهزم جيشه، وانتهت المعركة بقتل الأمين عام ١٩٨ هـ. (راجع ابن الأثير ٦: ٩٥/ واليعقوبي ٣ : ١٦٢/ والطبري ١٠ : ١٢٤ و١٦٣ و١٩٦/ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٣٣).

المأمون[1] ثم المؤتمن[2]، واستحلفَ وأكّدَ في أيمانِ البيعةِ وأودعَ النُّسخَ الكعبةَ، فلمَّا ماتَ الرَّشيدُ وجالسَ الأمينُ أقواماً لا رأيَ لهمْ ولا صواب عندهمْ حسَّنوا له الغدرَ وأوقعوا بينهُ وبينَ أخيهِ حتَّى نقضَ العهدَ وردَّ البيعةَ إلى ولدِهِ، فجنى ثمرةَ بغيهِ وعادَ مقتولاً والقصَّة مشهورةٌ.

ومن ذلكَ ما ذكرهُ أهلُ التَّواريخِ أنَّ الخَيْشَوارَ ملكَ الهَياطلَةِ لمَّا أسرَ فيروزَ بنَ يزدجُرد ملكَ الفرسِ وأرادَ إطلاقَهُ منًّا عليهِ ورعايةً لبيتِهِ، أخذَ عليهِ العهدَ أن لا يغزوهُ أبداً ولا يقصدهُ بسوءٍ ولا يطرقَ بلادهُ بمكروهٍ، وكانتْ في أقصى بلادِهِ صخرةٌ عظيمةٌ شرطَ عليهِ أن لا يتعدَّاها ولا يأمر بذلكَ، فحلفَ له وأكَّدَ المواثيقَ فأطلقهُ، فحينَ عادَ إلى بلادِهِ ومملكتِهِ واستظهرَ بالعُددِ والعددِ، حسَّنَ في نفسهِ الغدرَ، فاستشارَ أصحابهُ، فخوَّفوهُ الغدرَ وحذَّروهُ من عاقبتِهِ، وقالَ له المؤبذانُ: «إنَّ ربَّ العالمِ يغارُ من ذلكَ ولا يمهل» فأبى وقالَ: أنا آمرُ بقلعِ الصَّخرةِ وتجذبها العَجَلُ أمامَ العسكرِ، فلا يجاوزُها أحدٌ. ثم جمعَ العساكرَ وسارَ في مائةِ ألفَ عنان فلمَّا قربَ من الصَّخرةِ أمرَ بقلعهَا وجذبها بين يديهِ، وتوغَّلَ في بلادِ الخَيْشَوارِ، وعاثتِ العساكرُ فيها، وسارَ فيروزُ راكباً هواهُ حتَّى انتهى إلى الخَيْشَوارِ، فخرجَ إليهِ في جماعةٍ من عسكرِهِ، فحينَ أطلَّ كلٌّ واحدٍ منهما على الآخرِ نزلَ الخَيْشَوَارُ عن فرسهِ وكشفَ رأسهُ وعفَّرَ خدَّيهِ في الثَّرى[3]،

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

(٢) هو القاسم بن هارون الرشيد العباسي أمير، هو أخو الأمين والمأمون، عهد إليه أبوه الرشيد بولاية العهد بعدهما، ولقبه «المؤتمن»، وأقطعه الجزيرة والثغور والعواصم سنة ١٨٦ هـ، وهو يومئذ فتى في حجر عبد الملك بن صالح، فكان المأمون ينظر في أمر هذه المقاطعات باسم المؤتمن إلى أن شبّ. توفي ببغداد في حياة المأمون، فلم يل الخلافة، عام ٢٠٨ هـ. (راجع الكامل لابن الأثير ٥ : ٥٧ و ٦٠ و٦٢ و٩٧ و١٣١/ وتاريخ بغداد ١٢ : ٤٠٢/ والنجوم الزاهرة ٢ : ١١٩).

(٣) في (ب) التراب بدلاً من (الثرى).

وقالَ: « يا ربّ أنتَ تعلمُ أنّ هذا عبدكَ فيروز قد خانَ عهدكَ ونكثَ بأيمانكَ، ولا طاقةَ لي به إلاّ بتأييدكَ، فلا تكلْني إلى نفسي ولا إلى أحدٍ من خلقكَ فانَّهُ عاصٍ لك مخالفٌ لامركَ » ثمَّ ركبَ وأمرَ اصحابهُ بصدقِ اللقاءِ وتمكينِ الحملةِ[1]، فلم يكن بأسرعِ من أن نصر اللهُ الخَيْشَوَازَ فبدَّدَ شملَ فيروزَ وفرَّقَ عساكرَهُ وكسرهُ، ثمَّ قتلَ فيروزُ وهو منهزمٌ. فهذه وأمثالها من ثمراتِ البغي والغدرِ.

وقيلَ ما حصلَ بالغدرِ والبغي إلاّ اليسير وفاتَ الكثيرُ، ولكلّ عاثرٍ راحم إلا الغادرُ فما لهُ راحم. وقالَ تعالى: ﴿فمنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[2].

---

(١) في (ب) بزيادة (على الأعداء).

(٢) سورة الفتح (آية رقم ١٠) وقد جاءت الآية محرفة في الأصل حيث ذكر « ومن » بدلاً من « فمن ».

الباب الثالث

في مجموعِ الملكِ وهيئته وخصاله وأبهتهِ

ينبغي أن يكونَ الملكُ كثيرَ الوقارِ، قليلَ الكلامِ، قليل التَّلفُّتِ الى الجهاتِ، ليسَ بضحَّاكٍ، ولا هزَّالٍ، ولا دائمَ العبوسِ، ولا سريعَ الملالِ، يكفهرُّ ويغلظُ على أهلِ الشرِّ والفسادِ، ويحنُو ويلطفُ على الضُّعفاءِ والقصَّادِ، لا يكونُ في مجلسهِ إشاراتٌ، ولا ترتفعُ عندهُ الأصواتُ، ولا صخَّابٌ ولا سبَّابٌ.

كما يحكَى عن بعضِ أشرافِ العربِ وقدْ دخلَ على كسرَى وهو محتجبٌ لا يراهُ أحدٌ فاستنطقهُ(١) فأعجبهُ كلامهُ، فأمرهُ الترجمان بالجلوسِ وأخرجَ لهُ وسادةً فوقفَ وجعلهَا على رأسهِ، فضحكَ كسرى، وقال له الترجمانُ ليسَ المرادُ منها ذلكَ بل لتجلسَ عليهَا، فقالَ قد علمتُ ذلكَ، ولكنّي رأيتُ أن أضعَ تشريفَ(٢) الملكِ على أشرفِ أعضائي، فأعجبَ كسرى كلامهُ وقال: أجلسوهُ مكرَّماً وارفعوا درجتهُ، فَفُعلَ به ذلكَ، فسجدَ فقيلَ لهُ: لم فعلتَ ذلكَ؟ قالَ لأني سمعتُ كلامَ الملكِ ورجوتُ أن أراهُ، قيلَ:

---

(١) في (ب) فكلمه بدلاً من (فاستنطقه).

(٢) في (ب) تكريم بدلاً من (تشريف).

ومن أينَ علمتَ أنّهُ كلامُ الملكِ؟ قالَ: سمعتُ كلاماً عالياً في موضعٍ لا تُرفعُ فيهِ الأصواتُ فعلمتُ أنّهُ كلام الملكِ؛ فقال كسرَى: زَه احشوا[1] فمه من الجوهرِ النّفيسِ.

وقد كانَ بعضُ الملوكِ يرى الاحتجابَ من العامةِ والرّعيةِ وكثيرٍ من الخاصّةِ وبعضهُمْ يرى التّبذُّلَ للجميعِ وخيرُ الأمورِ أوسطها فانّ الملك إذا ابتذلتهُ العيونُ نقصت هيبتهُ، وإذا اشتدّ حجابهُ استولتْ خاصّتهُ على المملكةِ فضاعتِ الرّعيةُ؛ فينبغي أن يجلسَ لخواصّهِ وأمراءِ دولتهِ وعلماءِ ملّتهِ كثيراً، حسبَ ما نشرحُهُ[2] فيما بعدُ، ثم يجلس للعامّة مجالِس مفردة وكذلكَ للمظالمِ بحيث لا يحتجبُ عنهُ أحدٌ، وينبغي أن يكونَ لمجلسهِ أميرٌ يعرف بأمير جاندار، يحفظُ مراتبَ النّاسِ ومجالسهمْ في مواضعَ تليقُ بهمْ. وعليه تأديبُ منْ تعدّى طورَهُ وزجر من أساءَ أدبهُ بحسبِ ما يليقُ بهِ؛ فليكن هذا الشّخصُ عارفاً بأحوالِ الملكِ وأغراضهِ ليكونَ ترتيبهُ لذلكَ سديداً، ولا يمكّن الناسَ من مفاجاتهِ بالأقوالِ، ولا مبارزتهِ بالسؤالِ سوى المتظلّمينَ.

وقد قيلَ: إن الرَّعيَّةَ إذَا قدرتْ أن تقولَ فعلتْ وإذا قدرتْ أن تفعلَ اختلَّ النظامُ. ويجبُ أن تكونَ للملكِ ميزةٌ في ملبسهِ ومجلسهِ ومركبهِ ولقبهِ ونعتهِ. وأمّا الطّعام والشّراب فلا ينبغي أن يتميَّزَ فيهِ عن مَنْ حضرَ مجلسهُ، فإنّهُ إلى الكرمِ أقرب. وكذلكَ يجبُ أن يسهّل حجابهُ عند حضورِ الطّعام، هذا إذا كان الملكُ ممَّنْ يؤاكل النّاس، فاذا كانَ لا يأكلُ معهمْ فلا بأس بتخصيصِ قومٍ بما يليقُ بهم.

وأمّا **الألقابُ** فكانتْ للملوكِ الأولِ ألقابٌ تنسبُ إلى الألوان مثل سَفيذكار، وألقابٌ تنسبُ إلى الألوال مثل جُمْشيدُ وَكيُومَرْد، والى الصّفات مثل بزَه كارْ

---

(١) في (ب) املأوا بدلاً من (احشوا).

(٢) في (ب) تبينه بدلاً من (نشرحه).

والأجْدِهَاقِ، ثمَّ لقِّبت الكَيَاكِية فقيلَ كيَقاوُس وكَيْقُبَاذ ثم القياصرةُ[1] في الرُّومِ، والأقيالُ[2] في اليمنِ، والتتابعةُ[3] في الحبشةِ. وجاء الإسلامُ فجرَى الأمرُ على ذلكَ الرَّسم في تمييزِ الإمام بنعتٍ يختصُّ به، وكذلك الملوكُ إلى الآن. فحقيقٌ على من نعتَ بنعتٍ يقصدُ به الشّرفَ والتمييزَ أن يجتهدَ في تكميلِ ذاتِهِ وحيازَة الشّرفِ بخصالِهِ، مثل من يُنعت بالكامل والعادلِ والجود وما أشبهَ ذلكَ فينبغي أن يبالغَ في بلوغِ غايةِ تلكَ الدَّرجة بالفعل لا بالقول لتصحَّ التّسميةُ وتتحقّقَ الفضيلةُ.

---

(١) (٢) (٣) **القياصرة**: لفظ كان يطلقه الروم على كل من يتولّى الملك، وكذلك الأقيال: هم ملوك اليمن والتابعة، ملوك الحبشة والفراعنة، ملوك مصر.

الباب الرابع

فيما يجبُ للملكِ على الرَّعيَّةِ وما للرَّعيةِ على الملكِ

قالَ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوْا الرَّسُوْلَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(١) وفي **أولي الأمر** أقوالٌ أحدها: أنهم الأمراء، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ(٢) والسُّديُّ وأبو هريرةَ(٣). والثَّاني: أنَّها نزلتْ في أُمراء النبيِّ عليهِ

---

(١) سورة النساء (آية رقم ٥٩).

(٢) هو **عبدالله** بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو العباس، حبر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة عام ٣ ق.هـ. ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ـ ﷺ ـ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين، وكفَّ بصره في آخر عمره، فسكن الطائف وتوفي بها عام ٦٨ هـ. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً. قال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس ينسب إليه كتاب في تفسير القرآن الكريم. (راجع الاصابة ت ٤٧٧٢/ وصفة الصفوة ١ : ٣١٤/ وحلية ١ : ٣١٤/ وتاريخ الخميس ١ : ١٦٧).

(٣) هو **عبد الرحمن** بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة: صحابي كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له. نشأ يتيماً ضعيفاً في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله ـ ﷺ ـ بخيبر فأسلم سنة ٧ هـ. ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً، نقلها عن أبي هريرة أكثر من ٨٠٠ رجل بين صحابيّ وتابعيّ. وولي إمرة المدينة مدة، ولما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين، ثم رآه لين العريكة مشغولاً بالعبادة فعزله. توفي عام ٥٩ هـ. (راجع تهذيب الأسماء واللغات ٢: ٢٧٠/ والإصابة والكنى ت ١١٧٩/ والجواهر المضيئة ٢: ٤١٨).

السَّلامِ، مثلُ خالد[1] وعمَّار[2]، قاله مجاهدٌ. والثالثُ أنَّهمُ العلماء، حكاهُ الزَّجَّاجُ[3]، وأظنُّهُ اختارهُ، والأوَّلُ هو الأشهرُ الأظهرُ.

فالرَّعيةُ عليهم: بذلُ الطَّاعةِ لملكِهِمْ، والاستقامةُ لأمرِهِ، والانقيادُ لحكمِهِ، واجتنابُ نهيِهِ. وليسَ للملكِ أن يطالبَ بمحبَّةِ القلوبِ وإخلاصِ الضَّمائرِ، فذلكَ أمرٌ ربَّانيٌّ لا يقدرُ عليهِ البشرُ ولا تملكهُ. وقد تحيَّلَ بعضُ الأكاسرةِ ورامَ أن يضبطَ القلوبَ، فقالَ في خطبةٍ له: أيُّها النَّاسُ إنَّ لنا عليكمْ حقَّ شمولِ النعمةِ، وعمومِ السكونِ والدَّعةِ؛ فمن طلبَ غايةً لم ينلها منَّا، أو رامَ فوقَ ما يستحقُّهُ ولم يقسمْ لهُ قاسمُ الحظوظِ شيئاً مما يرضيهِ، فإنَّه

---

(١) هو **خالد** بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، سيف الله، الفاتح الكبير الصحابي. كان من أشراف قريش في الجاهلية، يلي أعنَّة الخيل، وشهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وأسلم قبل فتح مكة (هو وعمرو بن العاص) سنة ٧ هـ، فسرَّ به الرسول ـ ﷺ. شهد أكثر المواقع في الشام وفارس. توفي عام ٢١ هـ. (راجع الإصابة ١ : ٤١٣/ وصفة الصفوة ١ : ٢٦٨/ وتاريخ الخميس ٢ : ٢٤٧).

(٢) هو **عمَّار** بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي العنسي القحطاني أبو اليقظان. صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي. وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به. هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان. وكان النبي ـ ﷺ ـ يلقبه: الطيب المطيب. وفي الحديث: «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما». وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام، بناه في المدينة، وسماه قباء. وولاه عمر الكوفة فأقام زمناً وعزله عنها. وشهد الجمل وصفين مع علي وقتل في الثانية عام ٣٧ هـ وعمره ثلاث وتسعون سنة. له ٦٢ حديثاً. (راجع الاستيعاب بهامش الإصابة ٢ : ٤٦٩/ والاصابة ت ٥٧٠٦/ والطبري ٦ : ٢١/ وحلية الأولياء ١ : ١٣٩).

(٣) هو **إبراهيم** بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج. عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. كان في فتوَّته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلَّمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدباً لابنه القاسم فدلَّه المبرد على الزجاج؛ فطلبه الوزير فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه؛ فجعله القاسم من كتَّابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه (معاني القرآن) والاشتقاق وخلق الإنسان والأمالي في الأدب واللغة. توفي عام ٣١١ هـ. (راجع معجم الأدباء ١ : ٤٧/ ونزهة الألباء ٣٠٨/ وآداب اللغة ٢ : ١٨١/ وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩/ وابن خلكان ١ : ١١).

يسخط ويمقُتنا، ويتمنّى زوالَ دولتنا، وما يدريه لعلّ الشقاء لهُ في ذلكَ أكثرَ، فإذَا دخلَ علينا اطّلعنا عليهِ، وظهرَ لنا ذلك في أساريرِ وجههِ وفلتاتِ لسانهِ، فنقابلهُ تارةً بالإعراضِ عنهُ، وتارةً بالإحسانِ إليهِ لنختبرَ حالتيهِ في ذلكَ. فإذا تحقّقنا ذلكَ أهملناهُ، فإن استقامَ استقمْنا لهُ، وإن زادَتْ حالهُ فساداً عاقبناهُ، وعقوبتنا ضربُ العنقِ. وفي هذا الكلام من دقائق السّاسةِ وضوابطِ الاستيلاء ما يحلُّ موقعهُ ويُعظمُ نفعُه.

وهكذا النبيُّ ﷺ كان يبايعُ أصحابهُ على السّمعِ والطّاعةِ في المنشطِ والمكْرهِ. وفي صحيحِ مسلم عن أُمّ الحصَين أنّها سمعتْ رسولَ اللهِ ﷺ، يخطبُ في حجّةِ الوداعِ، فقال: « ولو استعملَ عليكمْ عبدٌ يقودكُمْ بكتابِ اللهِ فاسمعوا له وأطيعوا » وفي طريقٍ آخرَ: عبداً حبشيًّا مجدَّعاً[1]، فعلى هذا لا يطاعُ في معصيةِ اللهِ.

وفي الصحاح عن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهمَا، أنّهُ قال في خطبتهِ: « على المسلمِ السّمعَ والطّاعةَ فيما حبَّ أو كرهَ إلاَّ أن يُؤمرَ بمعصيةِ اللهِ فلا سمعَ ولا طاعةَ »[2].

---

(١) الحديث رواه ابن ماجة في كتاب الجهاد ٣٩، باب طاعة الإمام ٢٨٦٢ — ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي عمران الجوني عن عبدالله بن الصامت عن أبي ذر، أنه انتهى إلى الربذة وقد أقيمت الصلاة، فإذا عبدٌ يؤمهم، فقيل: هذا أبو ذر فذهب يتأخر، فقال أبو ذر: أوصاني خليلي ﷺ — أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف.
ورواه الإمام مسلم في كتاب الحج ٣١١/ والترمذي في الجهاد ٢٨/ وأحمد بن حنبل ٤ : ٧٠، ٥ : ٣٨١، ٦ : ٤٠٢، ٤٠٣ (حلبي).

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ١٠٨، باب السمع والطاعة للإمام ٢٩٥٥ عن عبيدالله قال: حدثني نافع عن ابن عمر — رضي الله عنهما عن النبي — ﷺ وحدثنا محمد بن صباح حدثنا اسماعيل بن زكرياء عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر — رضي الله عنهما عن النبي — ﷺ — وذكره.
ورواه الإمام مسلم في إمارة ٣٨/ وأبو داود في الجهاد ٨٧/ والترمذي في الجهاد ٢٩/ والنسائي في البيعة ٣٤/ وابن ماجة في الجهاد ٤٠/ وأحمد بن حنبل ٢ : ١٧، ١٤٢ (حلبي).

وفي البخاري عن ابنِ عبَّاسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَأى من أميرِهِ شيئاً يكرهُهُ فليصبرْ، فإنَّهُ ليسَ أحدٌ يفارقُ الجماعةَ شبراً إلاَّ ماتَ ميتةً جاهليَّةً»[1] فعلَى هذا من أظهرَ العنادَ أو جاهرَ بالشِّقاقِ، فقدْ خالفَ واستحقَّ العقوبةَ.

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الفتن ٢، باب قول النبي ـ ﷺ ـ: سترون بعدي أموراً تنكرونها.

٧٠٥٣ حدثنا مسدد عن عبد الوارث عن الجعد عن أبي رجاء عن ابن عباس عن النبي ـ ﷺ قال: وذكره.

ورواه الإمام مسلم في الإمارة ٥٣، ٥٤، ٥٥/ وأبو داود في السنة ٢٧/ والترمذي في الأدب ٢٨/ والنسائي في التحريم ٦ : ٢٨/ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٣٢، ٢٩٦، ٣٠٦، ٤٨٨، ٣ : ٤٤٥، ٤٤٦، ٥: ١٨٠، ٣٨٧ (حلبي).

فصلٌ
فيما يجب للرَّعيَّةِ على الملكِ

قالَ عليهِ السلام: «كلُّكم راعٍ وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيَّتـهِ» فيـجبُ على الملك أن يلتزمَ لرعيَّتهِ بأربعِ خلالٍ: أحدها: **الشَّفقةُ** وهي تتألَّفُ من محبَّتهِ لهمْ وخوفٍ عليهمْ وحذرٍ كالوالدين.

الثانيةُ **العنايةُ** بهم وهي بإمعانِ الفكرِ في أمرهمْ وإنجاز ما صحّ الفكر في مصلحتهمْ.

الثالثةُ **التألُّف** من الملكِ أو من نائبهِ ممَّنْ يقوم مقامهُ في ذلكَ، لأنَّهُ يسوسُ جماعاتٍ قلوبهمْ متفرقةٌ وأغراضهمْ متباينةٌ فمتفعةُ التَّأليف جمعهم وتأنيس نافرهم وتقريب متباعدهم.

الرَّابعةُ **الرِّفقُ** فإنَّه أصلٌ في السياسة لأن القسوةَ إذا أفرطتْ نفَّرت، وكذلكَ الرقَّة إذا أفرطتْ أطمعتْ، فخيرُ الأُمورِ أوسطها.

وممَّا يجبُ لهمْ عليهِ حمايتهم ورعايتهمْ، وحفظ ثغورهمْ من الأعداءِ، والطرق يؤمنها منَ القطاعِ والحرامية، ومدنهمْ ومساكنهمْ من السُّرَّاقِ وأهلِ الفسادِ. فهذه وظيفةُ الملوكِ.

وأيضاً إنصاف المظلومِ من الظَّالم فإنَّ النُّفوسَ الأمَّارة بالسوءِ مشبهة لنفوسِ السِّباعِ وأخلاقِهَا، وطباعِ الحيَّاتِ والعقاربِ، فإنَّها تلتذُّ بالقهرِ وتستفري عليه وتتمرَّنُ. ومنشأ هذه الأخلاقِ من إفراطِ القوةِ الغضبيَّةِ من

وجوهٍ: إمَّا من حرمانٍ أو بطرٍ أو إخلافِ وعدٍ ووعيدٍ، فإذا بلي الملك بأصنافِ هذهِ الطَّائفةِ فيداويها بالزَّجرِ والنَّفي من الأرضِ أو دفعهم إلى الحروبِ والمصاعبِ.

كما قالت مَرَازِبَةُ الفرسِ لأردشيرَ: إنَّا قد أجمعنَا عليكَ وولَّيناكَ علينَا لتستبدلَ ما كنا فيهِ منَ الإساءةِ بإحسانكَ فقالَ لهم: احفظوا لي ثمرةَ الملكِ أحفَظ لكم سنَّةَ العدلِ، وأوفِ لكمْ بالقولِ والفعلِ. ففكَّرُوا فإذا هو قد جمعَ لهمْ في هاتين الكلمتينِ جميعَ الكلامِ السياسيِّ والحقوق الَّتي لهمْ وعليهمْ.

وينبغي للملكِ أن يتفقَّدَ أحوالَ رَعيتهِ، فيعطي الفقيرَ ويكمِّل الناقص، ويصل المنقطع، ويوَرِّث ذوي الميراث، ويقيل ذوي العثراتِ، لأنَّهُ كالعضوِ الرَّئيسِ الَّذي يوصلُ إلى كلِّ عضوٍ بعد عنهُ أو قرب من الغذَاء مقدارَ حاجتهِ حسبَ اللائق بهِ من ذلك.

وفي صحيح مسلم عن عبد الرَّحمن بن شماسةَ قال: أتيتُ عائشةَ رضيَ الله عنها أسألُها عن شيءٍ؛ فقالتْ: ممَّن أنتَ؟ فقلتُ: رجلٌ من أهلِ مصرَ؛ فقالَتْ: كيفَ كانَ صاحبُكُم لكم في غزاتكم هذهِ؟ فقلتُ: ما نقمنا شيئاً: إن كان ليموت للرَّجلِ منَّا البعيرُ فيعطيهِ البعيرَ والعبدُ فيعطيهِ العبدَ، ويحتاج إلى النَّفقةِ فيعطيهِ النَّفقةَ؛ فقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ في بيتي هذا يقول: « اللَّهُمَّ من ولِّيَ من أمرِ أُمَّتي شيئاً فشقَّ عليهمْ فاشقُق عليهِ، ومن ولِّي من أمرِ أُمَّتي شيئاً فرفَقَ بهم[1] فارْفُق به ».

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الامارة ١٩/ ورواه الامام أحمد في المسند ٦ : ٦٢، ٩٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠ (حلبي).
حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا وكيع قال ثنا جعفر بن برقان عن عبدالله البهي عن عائشة — رضي الله عنها، قالت قال رسول الله — ﷺ — وذكره.

ويجبُ أن ينظرَ في حالِ رعيَّتهِ، فيحسن إلى المحسنِ، ويردع المسيءَ المجرمَ، ويكفَّ يدَ جندهِ عن ظلمِ الرَّعيَّةِ والتَّعدّي عليهمْ.

ولهذا كانتِ الملوكُ تتخذُ منازلَهَا بمعزلٍ عن منازلِ الأَجنادِ، ومنازل الأَجنادِ بمعزلٍ عن منازل الرَّعيَّةِ، لئلاَّ يتأذَّى بعضهمْ ببعضٍ، ويقع بينهمْ مخاصماتٌ وشرورٌ بين النّساء والصِّبيانِ والغلمانِ. وكذلك يكونُ لهمْ جامعٌ مفردٌ، وحمَّاماتٌ مفردة، ولا يشاركُ الجندُ للرعيَّةِ في حرَفهمْ ومتاجرهمْ وزرائعهمْ فإنَّهُ إذا كان الجندُ زُرَّاعاً والجندُ تجاراً، ضعفت أحوالُ الرَّعيَّة من عدمِ التَّسبُّبِ، وضعُفَتِ بيوتُ أموالِ المُسلمين من تحصيلِ الزَّكاةِ وما وُجبَ، ويفسد حال الرعيّةِ المتسبِّبين والزراع.

وفي ذلك مما ذكرَ في فتوحِ مصرَ وأفريقية قال حدثنا مسلمة بن عبد الملك[1] عن ابن وهْبٍ[2] عن حيوةَ بن شريحٍ عن بكرِ بن عمرو عن عبدالله بن هُبيرةَ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ، أمرَ بنادرِهِ أن يخرُجَ

---

(١) هو **مسلمة** بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. أمير قائد من أبطال عصره. من بني أمية في دمشق يلقب بالجرادة الصفراء له فتوحات مشهورة. سار في مئة وعشرين ألفاً لغزو القسطنطينية في دولة أخيه سليمان، وبنى مسجد مسلمة «بالقسطنطينية» سنة ٩٦. وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين ثم أرمينية، وغزا الترك والسند سنة ١٠٩ هـ ومات بالشام. وإليه نسبة بني مسلمة، وكانت منازلهم في بلاد الأشمونيين (بمصر). قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته. توفي عام ١٢٠ هـ (راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ١٤٤/ ونسب قريش ١٦٥/ ودول الإسلام ١ : ٦٢).

(٢) هو **عبدالله** بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء المصري أبو محمد. فقيه من الأئمة من أصحاب الإمام مالك. جمع بين الفقه والحديث والعبادة. له كتب منها «الجامع» في الحديث مجلدان، والموطأ في الحديث كتابان: كبير وصغير.

وكان حافظاً ثقة مجتهداً. عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم منزله. ولد عام ١٢٥ هـ وتوفي عام ١٩٧ هـ. ووفاته بمصر. (راجع تذكرة ١ : ٢٧٩/ وتهذيب ٦ : ٧١/ والوفيات ١ : ٢٤٩).

إلى أمراءِ الأجنادِ يتقدَّمُونَ إلى الرعيَّة وأن عطاءهُم قائم وأرزاق عيالهم سائلٌ، فلا يزرعُونَ ولَا يُزَارِعونَ.

قال ابنُ وهبٍ وأخبرني شريكُ بن عبد الرَّحمن أنَّه بلغهُ أن شريكاً ابن أبي سُمّي العطيفي أتى الى عمرو بن العاص(1) فقال: إنكمْ لا تعطونا ما يحسبنا، أفتأذن لي بالزَّرع؟ فقال له عمرُو: ما أقدرُ على ذلك، فزرع شريكٌ من غير إذنِ عمرو، فلمّا بلغ عمراً كتب إلى عُمَرَ بن الخطَّابِ يخبرهُ بذلك: أن شريكَ بن سميّ العطيفي زرع بأرضِ مصرَ، فكتبَ إليه عمرُ بنُ الخطَّابِ أن أبعثْ إليَّ بهِ، فلمَّا انتهى كتابُ عمرَ إلى عَمرُو بن العاص أقرأهُ شريكاً، فقال شريكٌ لعمرو: قتلتني يا عمرو! فقال له عَمرُو: أنا قتلتُكَ! أنتَ صنعتَ هذا بنفسكَ، فقال لهُ إذ كان هذا من رأيكَ فأْذن لي بالخروجِ إليهِ من غير كتابٍ، ولكَ عهدُ اللهِ أن أجعلَ يدي في يدِهِ، فأذنَ له بالخروجِ، فلمَّا وقفَ على عمرَ قال: تؤمن يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن أيِّ الأجنادِ أنتَ؟ قال من جندِ مصرَ. قال: فلعلَّكَ شريكُ بن سُميّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لأجعَلَنَّكَ نكالاً لمن خلفكَ. قال: أوتقبلُ منّي ما قبلَ اللهُ من العبادِ؟ قال: أوتفعلُ. قال: نعم فكتب إلى عمرو أنَّ شريكاً جاءَني تائباً فقبلتُ منهُ.

ولمّا استولَى جوهرُ المعزّي(2) على مصرَ بنى لسيِّدهِ المعزيَّة القاهرة

---

(1) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبدالله، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام. وأسلم في هدنة الحديبية، وولاه النبي ــ ﷺ ــ إمرة جيش ذات السلاسل، وأمده بأبي بكر وعمر، ثم استعمله على عمان، ثم كان من أمراء الجيوش في الإسلام. فتح مصر. وكان مع معاوية في الفتنة، أخباره كثيرة. توفي عام ٤٣ هـ. (راجع الاستيعاب ٢ : ٥٠١-١٥٠١/ والإصابة ت ٥٨٨٤/ وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ٢٣٥ ــ ٢٤٠/ وجمهرة الأنساب ١٥٤).

(2) هو جوهر بن عبدالله الرومي أبو الحسن: القائد، باني مدينة القاهرة والجامع الأزهر، كان من موالي المعز العبيدي (صاحب أفريقية)، وسيره من القيروان إلى مصر بعد موت كافور

والقصور، ليكونَ هو وأصحابه وأجناده بمعزلٍ عن العامَّةِ، وكان ذلكَ في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وبنى الجامعَ الأزهرَ في سنة ستين وثلاثمائة، ووصلَ المعز إلى الدِّيارِ المصريّةِ ودخلَ قصرهُ في سنة اثنتين وستّين وثلاثمائة وكانَ من أمرهم ما كانَ وعلى هذه العادةِ ملوك بني عبدِ المؤمن[1] بالغرب فعلوا بمرّاكُشَ وَتِلْمَسانَ وغيرهما.

وينبغي أن ينظرَ في حالِ الحجّاجِ والزُّوّار، فيُصلح أحوالهمْ، ويوضح سبيلهم، ويختار دليلهُم، ويؤمّر عليهمْ من يرفق بضعيفهمْ، ويوسّع عليهم في الزّادِ والماءِ والمحمَل. وكثيراً ما كانتِ الخُلَفاء تباشرُ ذلكَ بنفوسِهَا أو تندُبُ من يقومُ مقامها، وتتكلّفُ النّفقاتِ الكثيرة لذلكَ.

وينظُرُ في حال أهلِ الذمّة والمُعاهدِين فيمنعُ من ظلمهِم ويشفقُ عليهم فإنَّهمْ كالعبيد المستضعفِ جانبهمْ، وكذلكَ يمنعهمْ من تعدّى طورهُ وخرجَ عمَّا يجبُ عليهِ منهمْ ويَحسمُ المادَّة في ذلك.

= الأخشيدي، فدخلها سنة ٣٥٨ هـ، وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها، ومكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز سنة ٣٦٢ هـ، فحلَّ المعزُّ محلَّه، وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها إلى أن توفي بالقاهرة عام ٣٨١ هـ. وكان بناؤه القاهرة سنة ٣٥٨ هـ وسماها «المنصورية» حتى قدم المعز فسماها القاهرة. وفرغ من بناء الأزهر في رمضان ٣٦١ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ١١٨/ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٨ وما بعدها/ وابن عساكر ٣ : ٤١٦/ وخطط مبارك ٢ : ٤٥/ ومعجم البلدان ٧ : ١٩).

(١) هو **عبد المؤمن** بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكومي، أمير المؤمنين، مؤسس دولة الموحدين المؤمنية في المغرب وأفريقية وتونس. نسبته إلى كومية (من قبائل البربر)، ولد في مدينة تاجرت عام ٤٨٧ هـ بالمغرب، ونشأ فيها طالب علم. تم له الأمر عام ٥٢٤ هـ ونهض للغزو والفتوح، وقاتل الملثمين (بني تاشفين) فاستأصلهم. استولى على إشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر والمهدية وطرابلس الغرب وسائر بلاد أفريقيا. توفي في رباط سلا عام ٥٥٨ هـ. (راجع ابن خلدون ٦ : ٢٢٩/ وابن الأثير ١٠ : ٢٠١ ثم ١١ : ٢٠٩).

الباب الخامس

في سيرتهِ مع الملوكِ المجاورين والقبائلِ الأوداءِ والمعاندينَ

قيلَ كانت ملوك اليونانِ والفرسِ إذا أرادتْ تأكيدَ انقيادِ الرَّعيَّةِ لهمْ وحُسنِ تأدُّبهم مع الملوكِ وتعظيمِهمْ، انقادَتْ هي لمن هو أرفع منها في الرُّتبةِ والملكِ، فإن العامَّة تحذُو حذْوَهَا، وتتبعُ أثرَهَا، ويزدادُ انقيادُها لملوكهَا، ولمْ تزلْ في كلِّ ملَّةٍ ومملكَةٍ وأهلِ بيتٍ من تعظّمهُ الملوكُ والنَّاسُ، أو مِن أهلِ العلْمِ والدّينِ كما كانت تفعلُ ملوكُ الفرسِ من تعظيمِ زرَادَشْت ومَاني[1]، وكان كسرَى إذا دخلَ إلى ماني قبَّلَ أسفلَ قدميهِ تواضعاً وخضوعاً. وكذلكَ كانت تفعلُ ملوكُ اليونانِ مع أسقِلِيَّاذوسَ وغيرِهِ. واستمرَّ

(١) هو ماني بن ماش، ثنوي تنسب إليه طائفة المانوية. كان في الأصل مجوسيًا فأحدث ديناً ودعا إليه، وزعم أن صانع العالم اثنان: أحدهما فاعل الخير وهو نور، وثانيهما فاعل الشر وهو ظلمة، وهما قديمان لم يزلا ولن يزالا، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادّان في الفعل والتدبير. وقد ظهر في أيام سابور بن أزدشير، وتبعه خلق عظيم من المجوس، وادعوا له النبوة، وما زال إلى أن قتل في زمان سابور بن بهرام. (راجع سرح العيون ص ١٥٥، والملل والنحل ١ : ٢٤٤)، وذكر أن قاتل ماني هو بهرام بن هرمز بن سابور، وقال : ماني بن فاتك.

الحالُ على ذلكَ، فكان للرُّوم الأرْكُن وهو الَّذي لا يلي الملوك الأمْرَ إلاَّ بإذنِهِ. وللفَرَنج البابا، وللمُسلمينَ الخليفة. وكذلك بعضُ طوائفِ الهندِ والصِّينِ، فكُلٌّ من حقَّقَ الطَّاعةَ لغيرهِ تحقَّقت طاعةُ غيرهِ لهُ، وقلَّما ظهرَ أحدٌ مِمَّن يتملك ويُنشيءُ دولةً ويدعو لنفسهِ أن ينتظمَ أمرُهُ أو تصير منهُ حالةٌ.

ثم يجبُ أن يكونَ الملكُ ديِّناً عالماً ناسكاً مشتغلاً بالعلومِ، منزّهاً عن شوائبِ النَّقصِ والمعائبِ في خَلقهِ وخُلقهِ، فإن انضافَ الى ذلك كرَمٌ وشجاعةٌ فقد كمل، ثم لا يخلُو إمَّا أن يكونَ حاضراً يراهُ النَّاسُ ويسمعونَ كلامهُ أو غائباً يشارُ إليهِ، فيجبُ أن يكونَ لَهُ نائبٌ قائم بأمرهِ ومترجم عنهُ على ما وصفنا من الدِّين والعفَّةِ والعدل وحسنِ السيرةِ والشّجاعةِ.

ويجبُ على الملكِ أن يحسنَ الى مجاوريه من الملوكِ الَّذين حولهُ، فيأمرُ ولاةَ أطرافهِ بكفِّ المتعدّينَ على حدودهِم، والمتوغّلين في تخومهم، ويردُّ عليهم الضَّالَّةَ والآبِقَ، ولا يحمي عنهم المفسدَ ولا السَّارقَ، ثم لا يمنعهمْ من الانتفاعِ من أرضهِ وبلادهِ بما لا يوهنُ المملكةَ ولا يضرُّها.

قيل لبعضهم: ما الرِّئاسةُ؟ قال: كفُّ الأذى وبَذْل النَّدَى.

ثمَّ ينبغي للملكِ ان ينزهَ سمعهُ من الغيبة وان تقال في مجلسه، فان سكتَ ففيهِ رضًى واقرارٌ، وإن أنكرَ وغيَّر ففيه البوارُ.

هذا على العموم، وأمَّا على الخصوصِ فيجبُ عليهِ أن يعاقب من يسبّ الملوك بين يديه، ولا يمكّن من ثليهم أصلاً.

وممَّا يحكى أن الاسكندر[1] أمرَ مناديه: معاشرَ النَّاس! من فيكم قاتلُ

(١) تنازع الناس فيه، فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره.
وتنازعوا أيضاً في ذي القرنين.
فمنهم من رأى أنه سمي بذي القرنين لبلوغه أطراف الأرض، وأن الملك الموكل بجبل قافٍ سماه بهذا الاسم.

عدونا دارا، فليظهر لنا فإنَّا نجازيهِ باستحقاقهِ، ونرفَع مكانهُ؟ فلمَّا ظهروا له وصحّ عنده ذلكَ، وكانوا من خواصّ دارا: أحدهُم صاحبُ شرابهِ، فقال لهمْ: هل كان محسناً إليكم؟ قالوا: نعم. قالَ: فهلْ كان مسيئاً إليكم بعد ذلك؟ قالوا: لا وإنَّما رفعَ غيرنا علينا، وأردْنا التقرُّب إليك بقتلهِ. فقال: تجرأتم على عظيمٍ، وجازيتُم الإحسان بالإساءة! ثم أمرَ بقتلهمْ وصلبهمْ على الجذوعِ، وقال: هذهِ مجازاتهمْ، وهذا ارتفاعُ مكانهم.

وسبَّ رجلٌ لصاحب طبرستان في مجلسِ السُّلطانِ محمود[1] وكان معاديه فأمر بضربهِ وعقوبتهِ، وقال: الملوك بعضهمْ لبعضٍ أقارب وإنْ تباعدتِ الأنسابُ، وكما يُسَبُّ في مجالسنا الملوكُ نُسَبُّ في مجالسهم.

فيجبُ على الملكِ المداراةُ والتواضُع لمجاوريه من الملوك؛ فمن كانَ أكبر منهُ سنًّا كان معهُ كالولد، ومن كان أصغر منهُ كان له كالوالدِ، ومن

= ومنهم من رأى أنه من الملائكة.

وهذا قول يعزى إلى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه.

وقد ذكره تبع في شعره وافتخر به. وأن ذا القرنين الذي هو الإسكندر من أولئك العرب.

وسار بعد ذلك إلى بلاد فارس فاحتوى على ملوكها، وتزوّج بابنة ملكها دارا بعد أن قتله، ثم سار إلى أرض السند والهند ووطيء ملوكها، وحُملتْ إليه الهدايا والخراج، وحاربه ملكها فور، وكان أعظم ملوك الهند، وكان له معه حروب، وقتله الاسكندر مبارزة.

ثم سار نحو بلاد الصين والتبت، فدانت له الملوك، وحملت إليه الهدايا.

وكان معلمه أرسطا طاليس حكيم اليونانيين، وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة.

(١) هو **محمود** بن سُبكتكين الغزنوي السلطان، يمين الدولة أبو القاسم ابن الأمير ناصر الدولة أبي منصور، فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدّت سلطته من أقاصي الهند الى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة بين خراسان والهند، وفيها ولادته عام ٣٦١ هـ. ووفاته عام ٤٢١ هـ. قبره في غزنة، وهو تركي الأصل مستعرب. كان حازماً صائب الرأي، يجالس العلماء ويناظرهم. وكان من أعيان الفقهاء، فصيحاً بليغاً، استعان بأهل العلم على تأليف كتب كثيرة في فنون مختلفة نسبت إليه. (راجع ابن الأثير ٩ : ١٣٩/ وابن خلكان ٢ : ٨٤/ وابن خلدون ٤ : ٣٦٣/ والجواهر المضية ٢ : ١٥٨/ والبداية والنهاية ٢ : ٢٧)

كان في سنّهِ كان معه كالأخ الشّفيق، وإن كان أوسعَ مملكة منهم فهذا يزيدُ قدرهُ ما ينقصه، ويحسنُ إليهم في المكاتباتِ، ويرفع أقدارهم، فهذا من جملةِ الأدبِ والمروءاتِ وهو بالملوكِ ألزَمْ.

فصلٌ
في مجاورة الأعداءِ والمعاندينَ

فيجبُ أن يقوّي احترازهُ منهمْ على ما هوَ مشروحٌ في قسم الحروبِ في آخرِ هذا الكتابِ، ويستعمل معهم المناصفةَ فيما بينهم لئلا يكونَ مبتدئاً بالتّعدّي، ومن اكتنفَهُ الأعداءُ لا يتهاونُ في التّدبيرِ فيهم إمّا بإصلاحِهم أو بِقَمْعِهِمْ.

وقال **بُزُرجُمْهُر**: « من ركِبَ الفيلَ الهائجَ أو الفَرسَ الجموحَ لا ينبغي أن ينعُسَ، وكذا من قارَبهُ العَدُوُّ أو قارنهُ لا ينبغي له أن يغفل ». وأمّا من كثُرَتْ عليهِ الخوارجُ والمنافِقُونَ والمخامرونَ فينبغي له في مبدإ الحالِ أن يُسَكِّنَ ولا ينفّرَ ويعفو، فإنّه إلى انتظامِ الحال وعودِ المعاندين إلى الرِّضى أقرب. ولا يغترّ الملك بالأعداء إذا تنافرُوا وتباغضوا وكانوا على دينٍ واحدٍ أو يجمعهم نسبٌ، فإنّهمْ إذا قصدهمْ أحدٌ عادوا بجمعهم عليهِ، كذلكَ السّباعُ والذّئابُ تتهارشُ مع بعضها بعض، ثمّ إذا قصدها من غير جنسها قصدتهُ بأسرها واصطلحت عليه.

ويجبُ أن يقابلَ الظّفرَ على الأعداءِ بالعفوِ، ويزيد في شكرِ اللهِ ويعرف قدرَ نعمةِ اللهِ عليهِ، هذا إذا كان مثلَهُ أو أرفع منهُ أو دونَهُ، ولا يُقابِلُ ذلكَ بالتّجبُّرِ والعُتُوِّ، بل بالخضوعِ والتّواضعِ، فإنْ أمكنهُ العفو فَلْيَعْفُ. وان لم تَقْتَضِ المصلحةُ ذلكَ فليجملِ الإمساكَ والحبسَ، وليوسّع عليهمْ

في الطَّعامِ والإلباسِ، ويمنعَ من الإهانةِ والإذلال، فإن الملوكَ ترتفع أقدارُها عن ذلكَ.

ولمَّا حاربَ السُّلطانُ طُغْرُلُ السَّلْجوقي لقزلِ أرسْلاَن في المرّة الأولى لمخامرةِ عسكرهِ عليهِ، انكسرَ وبقي السُّلطانُ أسيراً مع غلمانهِ راكباً على فرسهِ والجترُ على رأسهِ، وقد هربتْ عساكرهُ، وتفرّقت جموعهُ، ونهبتْ أثقالهُ، فتقدَّم قزل أرسلان وترجَّل عن فرسهِ وقبَّلَ الأرضَ بينَ يديهِ، وقال له يا خوَند أنتَ السُّلْطانُ ونحن عبيدٌ ومماليك وخواجةَ تاشية نتخاصمُ مع بعضنا بعضٍ، ونتقاتلُ ونصطلحُ، فارجعْ إلى همذانَ ونحن بين يديكَ، ففعلَ ذلكَ مدّةً، وهذا من جميلِ مقابلةِ النِّعم بالشكرِ.

ويُحكَى أن زبيدةَ(١) العبَّاسيَّة كانت جالسةً ذات يومٍ في قصرهَا، وقد دخلتْ عليها حاجبتُهَا تقولُ لها إنَّ امرأةً جميلةً عليها أطمارٌ رثَّةٌ تريد الدُّخولَ عليكِ، وتذكرُ أنَّ لها معرفةً قديمةً تُمتُّ بها، فأنكرتْ زبيدةُ ذلكَ وتوقَّفتْ فيهِ ثم سألها من حضرها من نسائها وجواريها في الإذن لها فأذنَت، فدخلت امرأةٌ تامَّةُ القامةِ، معتدلةُ الخلقةِ، جميلةُ الصورةِ، عليها أطمارٌ باليةٌ، ورداءٌ مرقَّعٌ، فجعلتْ تمشي على استحياءٍ، تلاصقُ حيطانَ الأروقَةِ حتَّى انتهتْ الى بابِ المجلسِ فسلَّمت؛ فقالت لها زبيدةُ: حُيِّيتِ، فمنْ أنتِ؟ قالت:

---

(١) هي زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية، أم جعفر، زوجة هارون الرشيد وبنت عمه. من فضليات النساء وشهيراتهن. وهي أم الأمين العباسي اسمها «أمة العزيز». وغلب عليها لقبها زبيدة، قيل: كان جدُّها المنصور يرقصها في طفولتها، ويقول: يا زبيدة! فغلب ذلك على اسمها وإليها تنسب عين زبيدة في مكة، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان شرقي مكة، وأقامت لها الأقنية حتى بلغت مكة. تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ، ولما مات وقتل ابنها الأمين، اضطهدها رجال المأمون، فكتبت إليه تشكو حالها، فعطف عليها وجعل لها قصراً في دار الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم. توفيت ببغداد عام ٢١٦ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ١٨٩/ وتاريخ بغداد ١٤ : ٤٣٣/ والنجوم الزاهرة ٢ : ٢١٣/ والدر المنثور ٢١٥).

أنا جريحةُ الزّمانِ، وطريحةُ الحَدثانِ، ذهبتِ الرّجالُ، واختلّتِ الأحوالُ، وجفانا الصّديقُ، وكِدنا أن نُلقى على الطّريقِ؛ فقالتْ لها: انتسبي؛ فقالت: أنا زينبُ ابنةُ مروان بن محمّدٍ(1)، فقالتْ لها: لا حيّاكِ اللهُ ولا سلّم عليكِ، ويلكِ أتذكُرينَ وقد دخلَ عجائزُنا وأنتِ في ملككِ وجبروتكِ يسألونكِ ويرغبون أن تسألي صاحبك يأذَنُ في إنزال ابرهيمَ(2) من خشبتهِ فما فعلت؟ فتغرغرتْ عيناها بالدُّموعِ وقالتْ: يا ابنة العمِّ، فأيّ شيء أعجبَك من ثمرةِ العقوقِ وقطعِ الرّحمِ وكفرِ النّعمة حتّى تتأسّينَ(3) السلام عليكُم ورحمةُ اللهِ ثمّ ولّتْ منصرفةً. فندمت زبيدةُ على بادرتها وأدرَكها رقّةُ قلبها(4)، وبعثت جواريها فلم ترجع؛ فقامَتْ تَعدُو خلفَها حتّى أدركتها في الدّهليز وردّتها واعتذرتْ إليها، فرجعتْ فأمرتْ جواريها يُدخِلنَها إلى الحمّامِ، وأحضرتْ لها أصنافاً من الثّيابِ والجِبابِ، فاختارتْ منها ما لبستْ وتطيّبتْ، وأقبلتْ كأنّها فلقةُ قمرٍ، فقامت إليها واعتنقتها ورفعت مجلسَها وواكلتها فلمّا دخلَ الخليفةُ قصّتْ عليهِ القصّةَ، فشكرَها على تدارُكِ فارطِها(5) وأمرها أن تُفرِضَ لها مَقْصُورةً وجواري يخدُمنها، ويسألها هل بقيَ لها من تَعْنُ بأمرٍ. ففعلتْ معها ذلكَ وهكذا ينبغي أن تقابلَ نعمة اللهِ ولا مقابلةَ لها.

---

(1) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي ت ١٣٢ هـ وسبقت الترجمة له. (وراجع الكامل لابن الأثير ٥: ١١٩/ واليعقوبي ٣: ٧٦/ وابن خلدون ٣: ١١٢).

(2) في (ب) بزيادة على (من على خشبته)

(3) في (ب) بزيادة لفظ (بذلك)

(4) في (أ) سقط لفظ (قلبها)

(5) فرط في الأمر: قصّر فيه وضيعه حتى فات. وفرط عليه أي عجل وعدا. ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾. وفرط إليه منه قولٌ سبق. وفرط القوم سبقهم إلى الماء فهو فارط، والجمع (فُرّاط). وأفرطه تركه، ومنه قوله تعالى: ﴿وأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي متروكون في النار أي منسيُّون.
وفي الحديث: ﴿أنا فرطكم على الحوض﴾ ومنه قيل للطفل الميت: « اللهم اجعله لنا فرطاً » أي أجراً يتقدمنا حتى نرد إليه. وأمر فُرُط ــ بضمتين ــ أي مجاوز فيه الحد، ومنه قوله تعالى ﴿وكان أمره فُرُطاً﴾.

الباب السادس

في سيرتهِ مع الأمراءِ وأركانِ مملكتِهِ

كانت ملوكُ الفرسِ تفضّلُ الجندَ على سائرِ أصنافِ[1] النّاسِ، ويحتجُّونَ لذلكَ بأنَّ النّاسَ يبذلُونَ منفعةَ جوارحهِمْ أو حواسّهم، والجندُ يبذلونَ نفوسهمْ ورؤوسهمْ ولا قُربَ[2] بين الحالتينِ. وكانت تجعل النّاسَ على أربعَة أقسامٍ الجندُ أوّلُها، ثم تقسم الجندَ على أربعة أقسامٍ، على كلِّ قسمٍ أميرٌ يُسَمّى ميرميرَان وكلّ أميرٍ معهُ أربعةٌ يسمّى كلٌّ واحدٍ منهمْ أصفَهبذ. ومع كلِّ أصفَهبذ أربعةُ مَرازبَة. ومع كلِّ مرْزَبَان أربعَةُ سالاريَّة. ومعَ كلِّ سالاَّر عشرةُ أساوِرَة وهُمُ الفرسانُ المفردَةُ، وخمسةٌ من الرِّجال وتُسمَّى البياذَةُ. فإذا أرادَ الملكُ إنفاذَ[3] أمرٍ خاطبَ بعضَ الأُمراءِ، فسهُلَ عليهِ وعلى من يخاطبهُ.

وكانتِ ملوكُ الرُّومِ ترتّبُ ذلكَ عشرة عشرة، ويسمُّونَ كُلَّ واحدٍ باسمٍ من لغتهم، ومثالُهُ في العربيَّة إنَّ مع الملكِ عشرة أمراء،مع كلِّ أمير عشرة

---

(١) سقط من (ب) لفظ (أصناف).

(٢) في (ب) وشتّان بدلاً من (ولا قرب).

(٣) في (ب) انخاذ بدلاً من (انفاذ)

نقباء، مع كلّ نقيب[1] عشرةُ عُرَفاء، مع كُلّ عريفٍ[2] عشرةُ قوّاد، معَ كلّ قائدٍ عشرةُ فرسان، ومعَ الرَّجّالةِ كذلكَ، وبعضهُم من يَجعَل عوض العريف زعيماً. هذا ترتيبُ الأوّل.

وكذلك لمّا كَثُر جيشُ النبيّ ﷺ، رتَّبَ عليهم نقباءَ وعُرفاء تكونُ مخاطبَتُهُ معهُمْ. وأمّا في زماننا هذا فإنّهُ ترتيبٌ حسنٌ إذا استقرّ الحالُ على ما هو.

يُذكَرُ أن يكون الملك لجيشهِ أتابك أتمَّ ما يكون في الشَّجاعَةِ والكرمِ والمعرفةِ، والنَّباهةِ والشَّهامَةِ والبَسطَةِ، والتجاربِ والدّينِ والعفّةِ، والمكْنَةِ في العُدَّةِ والعِدَّةِ، ثم من بعدهِ مقدّمي آلاف، على كلّ ألف فارِس مُقدّم كبير ومعهُ مقدّمين مُفاردة على كل خمسينَ فارس مقدَّم مفردي، ومع المفرَدِي خمسةُ مقَدمين دونَهُ، معَ كُلِّ مقدّم عشرةُ فرسان، وعلى الكُلّ نقيبٌ كبيرٌ، وتحت يدهِ نقباءُ رؤوس نُوَب، على الآلاف، كُلّ مقدّم ألف معهُ نقيب ألف في خدمتهِ، ومع النَّقيبِ نقباء صِغار على كل خمسين فارسٌ نقيب، فهذا أجملُ وأحوَطُ ما يكونُ من التَّرتيبِ.

فينبغي للملكِ أن ينظر في حالِ جيشهِ وإزاحة أعذارهم، وأن يحملهُم اتّباع الشَّرْعِ والانقيادِ للوازم الدّين مع التزامهِ هو لذلكَ، فإنّهُ إن لم يَكُنْ محافظاً على الشَّريعةِ لا يَستقيمُ التِزامُهُ كما قيل:

« وكيفَ استواء، الظلّ والعودُ أعوجُ »

ففي التزامِهِ لذلكَ التزامهُم على الطّاعاتِ يحصلُ خيرَ الدُّنيا والآخِرَةِ.

---

(١) في (ب) بزيادة لفظ (منهم).

(٢) العريف، والعارف بمعنى العليم والعالم، والعريف أيضاً النقيب وهو دون الرئيس، والجمع عرفاء وبابه ظرف إذا صار عريفاً، وإذا باشر ذلك مدة قلت عرف مثل كتب. والتعريف الإعلام، والتعريف — أيضاً — إنشاد الدابة. والتعريف — أيضاً — التطييب من العرف، وقيل في قوله تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طيبها لهم، والتعريف — أيضاً — الوقوف بعرفات.

ثمَّ يتفقَّدُ أحوالَهُمْ، فمنْ حَسُنَتْ سيرَتُهُ ومناصحتُهُ يُضاعِف الإحسانَ إليهِ حتَّى يَتشبَّهَ بهِ غيرُه، وتجتهِدُ الجندُ في الطَّاعةِ للهِ تعالى ولملكِهِمْ.

ويحكَى عن بعض ملوكِ العربِ أنَّهُ كانَ يخرجُ في بعضِ اللَّيالي البارِدَةِ فيُصلِّي الفجرَ وعشاءَ الآخرةِ في جامعِ قلعتهِ، وللجامعِ أبواباً مشرَّعةً[1] إلى البلدِ تُفتحُ في وقتِ الصَّلاةِ، فإذا سَلَّم الإمَامُ أمرَ بغَلْقِ الأبْوَابِ على النَّاسِ، ثمَّ يَأمُرُ لكُلِّ مَنْ حضرَ الصَّلاةَ بخمسةِ دنانيرَ أو بثمانية، وربَّما أمَرَ بعشرةٍ، وكذَلكَ يفعلُ في يوم عاشوراء المحَرَّم، والقَصْدُ بذلكَ التَّرغيب في الخير وَالمواظبة على الصَّلَواتِ[2].

ويجبُ للملكِ أن يحسنَ النَّظرَ في حالِ الأمراءِ وتقديمِهِمْ وارتفاعِ درجاتِهِمْ لمنْ تظهر منهُ النَّجابةُ والشَّهامةُ[3] والدِّينُ، ولا يفعلُ ذلكَ بالهوَى ومَيل النَّفسِ بلِ بالفكرة والمشورَةِ والتَّجربةِ، فإنَّ الخطأ في ذلكَ مُضرٌّ، فإنَّه ربَّما يُخفُّ على قلبِهِ شخصٌ ويثقلُ آخرُ، فيكون الخفيفُ غيرَ أهلٍ لما حصلَ لَهُ من التَّقدِمَةِ، والآخرُ أهلٌ لَها فيحصُل الخطأ وتتولَّد المضرَّةُ، كمنْ يتناولُ الحلْوَ الضَّار ويترُكُ المُرَّ النَّافِعَ. فليُشدّد الاحترازَ في ذلكَ، ويُفرقُ بين الشَّريفِ والمتَشرِّفِ، والجُنديِّ والمتجنّدِ، فإنَّهُ إن أهملَ ذلكَ[4] وقدَّمَ على غير نَسَقٍ صارَتِ الرُّؤوس أذْناباً، والأذنابُ رُؤوساً. وتحكيمُ الصِّغار شديدُ المضرَّةِ سريعُ الخللِ، ومن اعتبر سيرة من مضى في زمانِنَا هذا، وجدَ وقائعاً كثيرةً من هذهِ النِّسبةِ حصلَ بسببِهَا مَا لاَ استدْرِكَ فارِطُه.

---

(١) الشريعة مشرعة الماء وهي مورد الشاربة، والشريعة أيضاً ما شرع الله لعباده من الدين، والشارع الطريق الأعظم، وشرع في الأمر أي غاض فيه، وبابه خضع، وأشرع باباً إلى الطريق أي فتحه، وحيتان شرع أي (شارعات) من غمرة الماء إلى الجد.

(٢) في (ب) الطاعات بدلاً من (الصلوات).

(٣) في (ب) بزيادة لفظ (الفروسية).

(٤) سقط من (ب) لفظ (ذلك).

وقد يُوجَدُ في الصِّغارِ والوَسَط من تكونُ فيهِ نجابَةٌ وكفايةٌ كما يوجَدُ في أبناءِ ذوي الشَّرَفِ من فيهِ القصورُ والتَّخلُّفُ، فليوصِل كلَّ أحدٍ إلى موضعٍ يليقُ بهِ على التَّدريجِ.

ويجبُ أن يمنعَ الجندَ من الجلوسِ في الحوانيتِ والأسواقِ[1] للتجارةِ والصناعةِ، ومزاحمةِ الرّعيَّةِ في معايشهمْ[2]؛ فان في ذلك تضييق على الرعيَّةِ، ثمَّ يتفقَّدُ أحوالَ الجندِ ومن عَبَر إلى رَحمةِ اللهِ منهُم، ومن حصلَ له العطبُ في الغزاةِ أو الهرمُ في الخدمةِ فيُحسنُ إليهمْ وإلى مخلّفيهم، ويُطلقُ لهمْ ما يقومُ بأَودِهِمْ وإن كان في أولادِهِم من يقومُ مقامَهُمْ أَجْرَى لَهُمْ ما كان لَهُمْ جارياً، وكذلكَ كانت تفعلُ الملوكُ المتقدّمون[3].

وقالَ النبيُّ عليه السَّلامُ: «مَنْ تركَ كلاًّ أو ضياعاً[4] فإليَّ وعليَّ». وكذلكَ ينظرُ في حالِ من افتقرَ أو ركبتهُ[5] الديونُ وإقطاعهُ قليلٌ لا يقومُ بحالهِ، وينظرُ أيضاً في حالِ الجندِ البطّالين الّذينَ طلبوا منه استخدامهمْ فلم يستخدمهمْ أو أعطاهمْ إقطاعاً لا يرضيهمْ، فإنّهمْ يتربّصونَ له الدّوائرَ، وينتظرونَ رايةً يتّبعونها فيحترز منهمْ إذا كثروا إمّا بالإرضاءِ أو بالإبعادِ.

وصنفٌ آخر من الجندِ تركوا الجنديّة اختياراً وملالاً فإن اشتغلُوا بزهدٍ أو بتجارةٍ وصناعةٍ فتركوا وشأنهمْ، حصلَ منهمْ منَ الشُّرورِ ما لا يُمكن تداركهُ، فيجبُ أن يُشغَلُوا أو يُبعدُوا.

وصنفٌ آخر من الجندِ ذَوي بأسٍ شديدٍ وشجاعةٍ، أفرطَ اعتقادهمْ في

---

(١) في (ب) بزيادة لفظ (العامة).
(٢) في (ب) أرزاقهم بدلاً من (معايشهم).
(٣) في (ب) الأول بدلاً من (المتقدمون).
(٤) سقط من (ب) لفظ (أو ضياعاً).
(٥) في (ب) أو كان عليه ديون بدلاً من (ركبته).

حقَّ أنفُسهِمْ حتَّى ظَنُّوا أن انتظامَ[1] الدَّولةِ بهِمْ، واستقامة الملكِ بسببهِمْ، وأنَّهُ لا يستحقُّ العطاءَ والحباء غيرهمْ، ومتى أُعطي غيرهمْ أو أُكرم حنقوا، ومتى توقَّعُوا وطلبوا شيئاً لم ينالوهُ فقد بخسوا وكظَموا، فينبغي للملكِ العارفِ[2] أن يفكرَ في حالةٍ من أحوالِ الفروسيَّةِ يعلَمُ أنَّهُمْ مقصِّرُونَ في بلوغِ غايتِها فيندبهمْ لها ليتبيَّن لهم التَّقصيرُ ويعيِّرهم قومٌ بها، فيعرفوا مقدار نفوسهِمْ.

---

(١) قيام في (ب) بدلاً من (انتظام).

(٢) في (ب) العالم بدلاً من (العارف).

الباب السابع

في سيرتهِ معَ أهلِ الشَّريعَةِ والعُلماءِ والفقهاءِ والفضلاءِ

يتعيَّنُ على الملكِ أن يبذلَ اجتهادهُ في إظهارِ رونقِ الشَّريعةِ واحترامِ أهلِها وإكرامهِمْ، والإثابة[1] على تعليمها والمحافظةِ عليهـا، ويأمر أولادَ العُلماءِ بالاشتغالِ بالعلمِ، وكذلكَ يفعلُ مع جميعِ الطَّوائفِ سوى أهلِ الشُّرورِ والمهنِ الخسيسةِ، فيتركوا وشأنهمْ وما تصلُ وتنهضُ به هممُهُمْ إليهِ.

ولم يكنْ في الدُّنيا أعظمُ دولةً ولا أشمخُ مملكةً ولا أدومُ أياماً وذكراً من دولةِ الفرسِ ودولةِ اليونانِ، وسببُ ذلكَ تعظيمهمْ للعلومِ والحكمِ[2]، وتمكين من يشتغل بذلك، ورعايةِ جانبهِ، حتَّى كان أكثرُ ملوكهمْ علماءَ وحكماءَ.

وقديماً كانَ الأنبياءُ ملوكاً، وكانوا يشتغلونَ بالعلم واستنباطِ الحكمةِ حتَّى بلغوا في ذلكَ غايةَ المنتهي، وتعلَّمهُ نساؤُهمْ وصبيانهمْ، مثلُ أرزميذُخْت وَرَشَنَ الفارسيَّان، وَأيلاوْبَطْرَة بنتُ بطلميوس صاحبِ الحكمةِ

(١) في (ب) الحس بدلاً من (الاثابة).
(٢) سقط من (ب) لفظ (الحكم).

والتّصانيف، ومثلُ شوندير بن شُهلوقُ بن شُرتاق الأنطاكي اليوناني، الّذي ملكَ الدّيار المصريّة ووضعَ الحكمَ بعدَ أبويْه وقبلَ الطُّوفان، واشتغلوا في زمانِهِمْ بالعلومِ والاستنباطات، وعلمُوا بحادثةِ الطُّوفانِ، وكان سبب ذلكَ أن شَوَنْديرَ الملكَ رأى رُؤيا أهالتهُ وأفزعتهُ، وذلكَ أنّهُ رأى كأنَّ الأرضَ انقلبتْ بأهلها، والنّاس يهوونَ منها سفلاً على رؤوسهِمْ، وكأنَّ الكواكبَ تتساقطُ ويصدمُ بعضها ببعضٍ بأصواتٍ مختلفةٍ هائلة، فغمّهُ ذلك، ثم رأى رؤيا ثانية وثالثة، وفسّرها على عُلماءِ دولتهِ وسحرةِ[1] مملكتهِ؛ فأخبروهُ[2] بحادثةِ الطُّوفانِ.

والرؤيا الثّانيةُ بعد الأولى بسنةٍ وهي كأنّهُ في هيكلٍ لهُ يُعرَفُ بدِقْيانُوس، فرأى كأنّ خمسةً من الكواكبِ محصورة في عُقدةِ الذّنبِ، والجوزهرّ هابطاً، والشمس قد انكسفتْ ولم يبقَ منها إلاّ القليلُ، والقمر قد انحدرَ من السماءِ في صورةِ امرأةٍ باكيةٍ تَشكُو زوالها، فانتبه فزعاً، وكتم الرؤيا، وعلمَ أنّها معونة للأولى، فأمرَ بتنظيفِ الهياكلِ والمقاماتِ، والزّيادةِ في قربانها وذبائحهَا وبخُوراتها، وتعظيمِ أهلِ العلمِ والعبادةِ، وتفقّدَ مواضعَ الظُّلمِ وأزالهُ، وقصّر عن اللهوِ، وبقيَ مترقّباً ما يحدثُ حتّى رأى الرؤيا الثالثةَ وهي كأنَّ الكواكب الثابتةَ في صورِ طيورٍ بيضٍ، وكأنّها تخطفُ العالمَ، وكأنّ الكواكبَ النيّرة مظلمةٌ، والطيور تلقي العالمَ بينَ جَبليـنِ عظيمينِ، والجبلينِ قد انطبقا على العالمِ، فانتبهَ فزعاً أشدَّ من الأوليينِ، فالتجأ إلى هيكلهِ الّذي في بيتهِ وجعلَ يتضرَّعُ ويتمرَّغُ بخدّيْهِ على الأرضِ ويدعو ويبكي إلى أن أصبحَ، فأحضر رؤساءَ الكهنةِ وكانوا يومئذٍ مائةً وثلاثينَ كاهناً، رؤساء فضلاء، وعليهم رئيس كبير يقال لهُ أفليمون وقصَّ عليهم الرُّؤى الثّلاث.

---

(١) في (ب) سجرة بالجيم وهو تحريف.

(٢) في (ب) أحدهم بدلاً من (فأخبروه).

فذكرَ أفليمونُ أيضاً أنَّهُ رأى رُؤيا[1] وهو كأنَّهُ والملكُ واقفان على رأس المنارِ التي للملكِ بأمسُوس، وكأنَّ الفلكَ قد تطأطأ[2] ونزل حتَّى صار على سمتِ[3] رؤوسنا، وصار كالمكبَّةِ المحيطةِ بنا، وكأنَّ كواكبهُ قد خالطتنا في صورٍ شتَّى نورانيَّةٍ على قدرِ أجرامها، والنَّاسُ يستغيثونَ بالملكِ، والملكُ رافعاً يديهِ ليدفعَ عن نفسهِ الفلكَ إذ بلغَ رأسَهُ، وأمرني برفعِ يَديّ لمثلِ ذلكَ، وكأنّ صورةَ الشمسِ طالعة علينا ونحنُ نستغيثُ، فخاطبتنا أنَّ الفلكَ سيعودُ موضعهُ، فإذا مضى أربع مائة دورة أطبقَ إطباقاً شديداً على أهلِ الأرضِ، فحينئذٍ تُحرسُ الأصنامُ، وتبيدُ الأحكامُ، وتزول الأعلامُ، ويقومُ بالأمرِ واضعُ الزّمانِ. ثم تطأطأ المنارُ بنا إلى الأرضِ ورجعَ إلى موضعهِ فانتبهتُ فزعاً مرعوباً.

فقالَ له الملكُ: متَّى كانتِ الرؤيا؟ فأخبرهُ بليلتهِ، فوجدها موافقةً لليلةِ رؤيا الملك الأوّلة، فقالَ لهُ الملكُ: فعلى ماذا تأوّلتَ يا أفليمونَ؟ قال: حدثٌ عظيمٌ يحدُث بعدَ أربع مائة سنة، يضرُ بجميعِ العالمِ إلاَّ قليلَ من الناسِ، وهو عنصرُ الماءِ، فسأل: هل من حادثةٍ بعدها؟ فأخذوا طالعَ سؤالهِ وحقَّقوهُ وحرَّروهُ، فذكروا حادثةً ثانيةً[4] ضدّ الأولى، فقال: هل من حدثٍ ثالثٍ لهما؟ ففتَّشوا في خفيّ علومهمْ فقالوا: نعم، تحدث حادثةٌ عظمى وداهيةٌ دَهْيا، لم يبقَ على وجهِ الأرض متحرّكٌ إلاَّ تلفْ[5] ويتحلّلُ عقدُ الفلكِ بإذنِ القديم الأزلِ وهي السَّاعةُ.

فعندَ ذلك أمر ببناءِ الأهرامِ والافرونيّاتِ، وهي البرابي، لتكون قبوراً لهمْ،

---

(١) في (ب) وهي بدلاً من (وهو).
(٢) في (ب) هبط بدلاً من (تطأطأ).
(٣) في (ب) فوق بدلاً من (سمت).
(٤) في (أ) صد بالصاد بدلاً من الضاد وهو تحريف.
(٥) في (ب) بزيادة أصابه التلف بدلاً من (إلاّ تلف).

ومثوًى لأجسادهم، وكنزاً لأموالهمْ وكتبهمْ وذخائرهمْ؛ فاختاروا لها الأوقات الثابتةَ في مبدإ حفر أساسهَا وعمارَتِها، وتحرَّر حفرُ أساسها في ستِّ سنين، وتكملةُ عِمارتها في ستِّينَ سنةً، وكانَ فيها صُنّاعٌ وفعلةٌ سبعينَ ألف نفس، وارتفاعها بذراعهمْ مائة ذراعٍ، ورأسه عشرة أذرعٍ في مثلهِ.

فعاش شُوَنْدِيرُ دهراً طويلاً، ومات ودُفنَ في الهرمِ الشَّرقي، وكان عمرهُ لمَّا عمَّر الأهرام ستِّين سنةً. وتملَّك بعدهُ أخوه هرجيت، فملك وأقامَ على منهاجِ أخيهِ مائة وثلاثينَ سنةً، ثم ماتَ ودُفِنَ بالهرمِ الغربيِّ ثم ملك بعدهُ ولدُ اخيهِ أفروسُ بنُ شُونْدِير مائة وخمسَ عشرةَ سنة، ومات ودُفن بالهرمِ الصَّغير، وهذا ذكرهُ أبو معشَر[1] في كتاب الألوفِ، وسببهُ أنَّهُ وجدهُ في كثيرٍ من كتبِ الكهنةِ مثل كتاب أنطاجُس وباهونَة ومَنْسَبَه ومَياكِل وأُسْتِيْذُس، وفي كتاب مُحمَّد بن هارون العبَّاسي، ممَّا نقلهُ من كتابِ علي بن محمَّد[2] بن عبدالله بن حَنُّون الطَّبَري.

وكانَ السَّببُ في ذلكَ أنَّهُ وُجد لبعضِ أهلِ مصرَ، وهوَ رجلٌ من

---

(١) هو **جعفر** بن محمد بن عمر البلخي أبو معشر. عالم فلكي مشهور كان أولاً من أصحاب الحديث، وتعلَّم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، وضربه المستعين العباسي أسواطاً لأنه أخبر بشيء قبل حدوثه فحدث، فكان يقول: أصبت فعوقبت. قال القفطي في وصفه: عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم، وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار سائر الأمم. وعمَّر طويلاً، جاوز المئة. أصله من بلخ في خراسان. أقام زمناً في بغداد. ومات بواسط عام ٢٤٧ هـ. من تصانيفه: كتاب الطبائع، والمدخل الكبير، مواليد الرجال والنساء، وإثبات علم النجوم، وغير ذلك كثير. (راجع الفهرست لابن النديم ١ : ٢٧٧/ والقفطي ١٠٦/ وابن خلكان ١ : ١١٢).

(٢) هو **علي** بن محمد بن عبدالله أبو الحسن المدائني. راوية مؤرخ. كثير التصانيف من أهل البصرة. سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد، فلم يزل بها إلى أن توفي. أورد ابن النديم أسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفاته في: المغازي، والسيرة النبوية، وأخبار النساء، وتاريخ بغداد، والخلفاء، والشعراء، والبلدان. توفي عام ٢٢٥ هـ. (راجع ابن النديم ١ : ١٠٠ ــ ١٠٤/ وتاريخ بغداد ١٢ : ٥٤ وإرشاد الأريب ٥ : ٣٠٩.

القبط يقالُ له: أتِيمَت، كتاب بالقبطيَّةِ في قرطاسٍ على صدرهِ وهو ميّتٌ من تحتِ أكفانِه، فيهِ مكتوب علمِ الأوّل أن هذا انتخبهُ فيلبس اليوناني وهو أبو الاسكندر ذي القرنين، ونسخهُ من صحيفةِ ذهَب كتابتُها بالقبطيةِ مخرّقة منقورة، أخذها من أخوين قبط، يقالُ لأحدهما أملول، والآخر: وَرِيُرَتا. وسألهُما عن سببِ معرفتهما بهذهِ الكتابةِ، فذكرا أنّهما من ولد رجلٍ آمنَ بنُوح نبيّ الله عليه السلام من أهل مصر، ولم يُؤمن غيره معَ نوح عليه السلام، وحملهُ في السَّفينةِ، وورثا عنهُ علمَ الأولِ.

وكان تاريخ الصَّحيفَة منذ حين كُتبتْ وإلى حينَ أُخرجَتْ لفيلِبُّس ألفي سنةٍ وتسعَ مائة سنة وخمساً وثمانينَ سنةً الشمسيّة، ومن فَيْلِبُّس إلى هذا الكتاب وهو سنة ثمان وسبعَ مائة للهجرةِ النّبويَّةِ على صاحبهَا أفضل الصَّلاةِ والسَّلام ألفَ وسبعٍ مائة وثلاثاً وثمانين سنة يكون تاريخها إلى الآن أربعة آلاف سنةٍ وسبع مائة سنةٍ وثمان وستين سنة، ولو شرحنا ما في الصَّحيفةِ لطالَ الكتابُ، ويفوتُ الغرضُ، وهذا ثمرةُ العلمِ والاجتهادِ فيه.

ولقدْ أجادَ **كسرَى** أنو شَروان في قولهِ: أمّا أهلُ العلمِ والدّينِ فلهمْ علينا أن نسمعَ منهمْ، ونصدّقَ قولهُمْ، ونرفعَ مراتبَهُمْ، ونذُبَّ عنهمْ، ونوسّع لهم ما صحّ فقهُهُمْ، وظهرَ صلاحُهُمْ وثبتتْ نزاهتهم وعفّتهمْ.

وقالَ أيضاً: إنَّ من النّاسِ صنفٌ طلبوا الرئاسةَ بالدّينِ والتّفقُّه، فأشْهروا أنفُسَهُمْ لذلكَ، وربّما خالفوا بعضَ المخالفةِ ليتميَّزوا، ثمَّ استطالوا على النّاس وأذاعوا أسرار الشّريعةِ وحقيقةَ التّأويلِ والتّفسير، وغيَّرَ ذلكَ العوام والجُهّال حتّى مالوا إليهمْ.

وإنّنا لم نجدْ في ديننا فيما تقدَّمَ خلافاً بينَ السّلفِ ولا افتراقاً إلاَّ في عهدِ سابورَ بن سابور، فإنَّ أولئكَ المبتدعة أظهروا التّفسيرَ واختلافَ التأويلِ، وكانَ من عاقبةِ أمرهمْ ما كانَ من طلبِ الرّئاسةِ وإثارةِ الفتنِ حتّى أطفأها

اللهُ برأي سابور، وحرّمَ التّذكيرَ إلاَّ لمنْ يوثَقُ بعلمهِ ومعرفتهِ وأمانتهِ، ومن تعدّى ذلك عاقبهُ.

ثمّ ينظرُ في المتفقّهةِ الّذينَ ينتحلونَ البدعةَ ويدعونَ إليها، ويخالفون ما عليهِ الجمهور ويردعهمْ، ويفرّق جمعهم وكذلكَ يمنعُ من التعصُّب للمذاهبِ والمغالاةِ في ذلكَ، فإنّها تؤدّي إلى فتنٍ عظيمةٍ وخطوبٍ جسيمةٍ وقدْ خربَ كثيرٌ من بلادِ المشرقِ بهذا السّببِ.

ثمّ ينظرُ في حالِ من يتظاهرُ من العلماءِ بعلمِ الفقهِ والشّريعةِ، ويبطنُ الحكمةَ والفلسفةَ؛ فإذا وقعَ له حكْمٌ من أحكامِ الشّريعةِ لا يدركهُ عقلهُ، ولا يلحقهُ فهمهُ، أسرعَ إلى الطّعنِ فيهِ ودبّرَ فيه برأيهِ. وهذهِ الطّائفةُ وإن كانت قليلةً لكنّها ذميمةٌ ونكايتُها أليمةٌ. وربّما يزعمونَ ويوهمونَ أنّ الشرائعَ أمورٌ موضوعةٌ بإزاءِ العامّةِ دونَ الخاصّةِ الّذينَ أنّهُمْ منهمْ، وإنّ تفاصيلهُ لاَ تستقرُّ عندَ حاكم العقلِ، ولو صحّ نظرهُمْ وثبتَ عقلهمْ لعلموا أن رتبةَ النبوّةِ والشّريعةِ مستعلية على مراتبِ الحكمةِ، وأنّها تحصلُ بالأمرِ الإلهيّ لا بالكسبِ الاجتهاديّ، فمتى تنتهي العقولُ البشريّةُ الى معرفةِ المقاديرِ الرّبّانيةِ فينبَغي أن يحسمَ مادّةَ هذهِ الطّائفةِ، ويشغلوا بأنفسهمْ، فإنّهمْ إن تفرّغوا وضعوا للعامّةِ بدعاً متنوعةً يسمونها حكمةً، ثمّ يدّعونَ أنّهُمْ يطّلعونَ على أسرارِ الشّريعةِ وأغوارها. ومن تتبّعَ أخبارَ المتقدّمينَ علمَ أنّ أكثرَ البدَعِ والفرقِ بهذا السّببِ ظهرَتْ واشتهرتْ.

فأمّا العلماءُ وحفّاظُ الشريعةِ الّذينَ على السنّةِ فيجبُ على الملكِ احترامهمْ وإكرامهمْ، لأنّهُمْ يحفظونَ قواعدَ الشّرعِ الّذي هو يحرسهُ، ويذبُّ عنهُ، ويقاتلُ من يعاندهُ، فيرفع طبقاتهمْ على مقاديرهمْ من العلوم والتبحُّر فيها، فأوّل العلوم علوم الشّريعةِ علمُ القرآنِ، ومعرفَة تفسيرهِ وتأويلهِ، وناسخهِ ومنسوخهِ، ومُحكَمهِ ومتشابههِ، وأسبابِ نزولهِ.

ثمّ علومُ الحديثِ النّبويّ، ومعانيها ولغاتهَا وأسبابهَا ومعرفةِ رُواتها،

وجرحهم وتعديلهم، ومعرفةِ المرسلِ من المسندِ. ومن رَوَى الحديث رجعَ عنهُ أو تشكَّكَ فيهِ، ومن روى بضدِّ ما روى ومعرفةِ إجماعِ الصَّحابةِ، ومن روى منهم، ومن أفتى.

ثمَّ علمُ أصولِ الدينِ وإن كانَ مما يجبُ تقديمهُ لأنَّ شرف العلمِ بشرفِ معلومهِ، لكنَّهُ ينبني على الشَّرعِ الَّذي هو كتابُ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ؛ فينبغي أن يكونَ الأصوليُّ عالماً بالنُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، والأدلَّةِ البرهانيَّةِ العقليَّةِ، فيتبيَّن الحدودَ والرُّسومَ، ويذكر الأدلَّةَ على تفصيلِ العقائدِ الشَّرعيَّةِ، وهي العلمُ بذاتِ اللهِ تعالى وصفاتهِ وأسمائهِ، وما يجوزُ إطلاقهُ من ذلكَ وما لا يجوزُ، وتأويل ما يحتاجُ إلى التَّأويلِ، ومعرفةِ النبوَّةِ والرِّسالةِ، وحقيقةِ الوحي والخطابِ والكلامِ، ووصفِ المعجزةِ والفرقِ بينها وبين الكرامةِ والكهانةِ، ومعرفةِ الجائزِ والواجب والمستحيل، ومعرفةِ اليومِ الآخر وما وعدَتْ بهِ الأخبارُ الصَّادِقَةُ من عذابِ القبرِ والجنَّةِ والنَّارِ، ومعرفةِ الإمامة والخلافَةِ. كل ذلكَ من لوازمِ أُصولِ الدِّينِ.

ثمَّ أصول الفقهِ، فيكونُ عارفاً باللغةِ والنَّحو والاصطلاح، فيطَّلعُ على معاني النُّصوصِ، فإن تحريفَ الأحكامِ لم يكنْ إلاَّ من الجَهْلِ بذلكَ، فإذا عرفَ الناسخَ والمنسوخَ والمنطوقَ والمفهومَ والخاصَّ والعامَّ وأحكامَ ذلكَ، أمكنهُ أن يبني على ذلك الأحكامَ الشَّرعيَّةَ والأقيِسَةَ الصَّحيحةَ.

ثمَّ علم الفروعِ وهو معرفةُ فرائض العباداتِ وهيآتهَا وتكميلاتهـا، والمعاملات وعقودها وفسوخها، والمناكحاتِ ومُباحها ومحظورها، والجنايات وعقوباتِها، والأقضيةِ وحكوماتِها. ثم يخرج من ذلكَ علمُ الخلاف وعلم الجدل وهي علومٌ متأخِّرةٌ عنها في الرُّتبةِ ومستنبطَةٌ منها.

ومن ذلكَ علمُ اللُّغةِ والنَّحوِ، وهو علمٌ شريفٌ يُضطرُّ إليهِ في شرحِ الألفاظِ لتحقيقِ المعاني. ومِن العلومِ علومٌ شريفةٌ يُنتفَعُ بها ويُحتاجُ إليها، كعلمِ الطبِّ، وعلمِ الحسابِ والمساحةِ، وعلم الأوقاتِ والأزمانِ فمنْ تمامِ

رونقِ المملكةِ اشتمالُها على أئمةٍ في هذهِ العلومِ، فما أضيع دولةً قلَّ علماؤُها، فإنَّها ينقطعُ ذكرُها عند انقضاءِ أيَّامها.

وكان المعتضدُ[1] باللهِ لمَّا بنى قصورَهُ المعروفةَ بالشُّماسِيَّةِ، ورتَّبها له المهندسونَ، زاد في ذرعها فوقَ الَّذي اختطُّوهُ كثيراً، فسئلَ عن ذلكَ؛ فقال: أريد أن أتخذَ حولي مساكنَ وغرفَ، يسكنها رؤساءُ العلماءِ والفضلاءِ من كُلِّ فنٍّ، وأُجري عليهم الإدرارات وما يحتاجونَ إليهِ من النَّفقاتِ، وكُلَّ من أرادَ أن يشتغلَ بنوعٍ من العلومِ، قصدَ ذلكَ الإمامَ واشتغلَ عليهِ وحصَّلَ منه بغيرِ تعبٍ ولا مَؤونةٍ. وكان مقصودُهُ انتشارَ العلمِ والزِّيادةَ في الفضائلِ. ولو مُدَّ لهُ في العمرِ حتَّى يتمّ ذلكَ لكانَ قد خلَّدَ ذكراً باقياً، وجدَّدَ للعلومِ والفضائلِ رونقاً راقياً.

ألا ترى إلى المأمون لمَّا قالَ بالتَّشيعِ، قوي أمرُ الشِّيعَةِ في زمنهِ، وكادَ أن يُخرجَ الخلافةَ من بيتهِ، وكذلكَ كانَ يشتغلُ بعلمِ النجومِ، واتَّخذَ الرَّصدَ فصنَّفَ له الزِّيج المأمونيّ، وظهرَ في زمانهِ فضلاءُ من المنجّمينَ مثلَ أبي معشر وغيرِهِ. وقد قيلَ: «إنَّ النَّاسَ على دينِ الملكِ» فمتى عني الملكُ بأمرِ العلمِ والعلماءِ، أو بفنٍّ من الفنونِ، كثرَ في زمانهِ وذُكرَ في سيرتهِ.

---

(١) هو أحمد بن طلحة بن جعفر، أبو العباس المعتضد بالله ابن الموفق بالله ابن المتوكل، خليفة عباسي، ولد عام ٢٤٢ هـ. ومات في بغداد عام ٢٨٩ هـ. كان عون أبيه في حياته أيام خلافة المعتمد. وأظهر بسالةً ودرايةً في حروبه مع الزنج والأعراب وهو في سن الشباب، وبويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ، فحلَّ عن بني العباس عقدة المتغلبين، وظهر بمظهر الخلفاء العاملين، ثم جعل يتوجه بنفسه إلى أصحاب الشغب في البلاد، فيقمع ثائرتهم. وجعل أمراء الجند مسؤولين عن أعمال أتباعهم. وكان شجاعاً ذا عزم. قال ابن تغري بردي: المعتضد آخر خليفة عقد ناموس الخلافة. وأخذ أمر الخلفاء بعده في الإدبار. وكان عارفاً بالأدب، موصوفاً بالحلم إلا في مواضع الشدة. (راجع النجوم الزاهرة ٣: ١٢٨ / وشذرات الذهب ٢: ١٩٩ / وفوات الوفيات ١: ٤٥ / وابن الأثير ٧: ١٤٧ — ١٦٩).

وكانَ النَّاسُ في زمنِ يزيدَ[1] وسُلَيمانَ[2]، يلقَى أحدهُمْ صاحبهُ فيقولُ لهُ: كيفَ كانتْ ليلتكَ، وكيفَ غنَّتْ جاريتكَ، ومنْ كانتْ قينتكَ؟ ثم في زمنِ عمَرَ[3] بنِ عبدِ العزيزِ، يلقَى أحدهُمْ صاحبهُ يقول: كم صلَّيتَ البارحة، ومتى نمتَ، ومتى قمتَ إلى وردِكَ، وما الَّذِي قرأتَ من القرآنِ؟ ثمَّ في زمنِ مروانَ بنِ محمَّد، يقولُ هذا لهذا: كم أنفقْتَ على قصركَ، وما ارتفاعُ مجلسكَ، وجداركَ وأحجاركَ؟ كلُّ ذلكَ على الرَّسمِ في متابعةِ الملوكِ وإقتفاءِ آثارهم. فالملكُ السَّعيدُ الَّذي يتَّبع المحامدَ، ويقتفي النَّاس أثرهُ، فيخلَّدُ بالخيرِ ذكره.

---

(١) هو **يزيد** بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد بالماطرون. عام ٢٥ هـ. ونشأ بدمشق، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ، وأبى البيعة له عبدالله ابن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلى مكة، والثاني إلى الكوفة. وفي زمن يزيد فتح المغرب الأقصى على يد الأمير « عقبة بن نافع » وفتح مسلم بن زياد بخارى وخوارزم. ويقال: إن يزيد أول من خدم الكعبة وكساها الديباج الخسرواني. ومدته في الخلافة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أياماً. توفي بحوارين من أرض حمص عام ٦٤ هـ. (راجع الطبري حوادث ٦٤ / وتاريخ الخميس ٢: ٣٠ / ومنهاج السنة ٢: ٢٣٧ ـــ ٢٥٤ / وابن الأثير ٤: ٩٤).

(٢) هو **سليمان** بن عبد الملك بن مروان أبو أيوب، الخليفة الأموي. ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ وكان بالرملة فلم يتخلف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى، وأخلى السجون، وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس، وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح. جهز جيشاً كبيراً وسيَّره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية. وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانتا في أيدي الترك. وتوفي في دابق عام ٩٩ هـ. وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر. (راجع ابن الأثير ٥ : ١٤/ والطبري ٨ : ١٢٦/ وابن عساكر ١ : ١٧٧/ واليعقوبي ٣ : ٣٦).

(٣) هو **عمر** بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين. وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولِّي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ، فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيامه، فمنع سبَّ عليّ بن أبي طالب. ولم تطل مدته، قيل: دُسّ له السمّ وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به عام ١٠١ هـ. (راجع وفيات الأعيان ٢ : ١٠٥/ وتهذيب التهذيب ٧ : ٤٧٥/ واليعقوبي ٣ : ٤٤/ وصفة الصفوة ٢ : ٦٣/ وابن خلدون ٣ : ٧٦/ وتاريخ الخميس ٢ : ٣١٥).

الباب الثامن

في سيرةِ الملكِ مع العبّادِ والنُّسّاكِ والزُّهّادِ وقبولِ نصائحهمْ

ينبغي للملكِ أن يبلغَ الغايةَ القصوى في احترامِ النسّاكِ والعبّادِ والزهّادِ، الّذينَ تخلَّوا عنِ الدُّنيا وشواغلها، وأقبلوا على العبادةِ والتبتُّلِ؛ فإنَّهمْ ملوكٌ بالطَّبعِ، وهممُهم أعلا لاختيارهم وسعيهم لنيلِ الملكِ الأدوَمِ، وما زالتِ الملوكُ على هذا في الزّمنِ الأوَّلِ إلاَّ الدّوَل الظّالمةُ والجاهلةُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[1].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾[2] وغير ذلكَ من الآياتِ والأخبارِ الواردةِ في حقِّ الزُّهّادِ.

---

(١) سورة النور (آية رقم ٣٧) وتكملة الآية: ﴿وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصارُ﴾.

(٢) سورة السجدة (آية رقم ١٦).

وقالَ عليهِ السَّلامُ: «ربَّ أشعثَ أغبرَ ذِي طمرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لهُ لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ»[1].

وكذلكَ لم يزل في كلِّ ملةٍ طائفةٌ تلازمُ البيعةَ وبيوتَ العباداتِ، وتلازمُ أيضاً الزهدَ، وتكثر من التَّقليلِ على أنفُسِهمْ، وتزهدُ عن ما في أيدي النَّاس، وتترك الدُّنْيا وملوكُ العصرِ يحترمونهمْ والعامَّةُ يعظِّمونهمْ، ويتبرَّكُ بدعائهم، ويستسقى الغيثُ باستسقائهمْ. ومثالهمْ في الدُّنيا خدمُ الملكِ وخاصَّتهِ المشتغلينَ بأمورِ الخاصَّةِ، فيجبُ رعايتهمْ، والعنايةُ بهمْ، والخوفُ من تغيُّرِ خواطرهمْ ومودَّاتهمْ، وانصرافِ هممِهِمْ، وعلى هذا القياس.

ويجبُ على الملكِ الرَّشيدِ أن يقبلَ نصائحهمُ ويسمع مواعظهمْ، ويرجعَ إلى اشاراتهمْ وإذا كانَ فيهمْ صاحبُ رأيٍ وعقلٍ ومعرفةٍ وتجربةٍ، وقد تخلَّى عن الدنيا واشتغلَ باللهِ تعالى يسمعُ من إشارتهِ في أمورهِ ويرجعُ إلى رأيهِ. ومن صبرَ على خشونةِ الموعظةِ ومضضِ الزَّجرِ يحمدُ عاقبةَ ذلكَ.

دخلَ ابنُ السمَّاكِ[2] على المنصورِ[3] فقالَ له: عظني! فوعظهُ موعظةً

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٤، باب من لا يؤبه له ٤١١٥ عن زيد بن واقد عن بُسر بن عبيدالله، عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ وذكره.
ورواه الترمذي في المناقب ٥٤/ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٤٥، ٥ : ٤٠٧.

(٢) هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن غفير، أبو ذر الأنصاري الهروي. عالم بالحديث من الحفّاظ، من فقهاء المالكية، يقال له: ابن السماك. أصله من هراة، نزل بمكة ومات بها.. له تصانيف منها: تفسير القرآن، والمستدرك على الصحيحين والسنة والصفات، ومعجمان: أحدهما فيمن روي عنهم الحديث، والثاني فيمن لقيهم ولم يأخذ عنهم. توفي عام ٤٣٤ هـ. (راجع تبين كذب المفتري ٢٥٥/ وشجرة النور ٤-١/ وكشف الظنون ٤٤١ و١٦٧٢).

(٣) المنصور (الراشد بالله)، أبو جعفر ابن الفضل المسترشد ابن المستظهر. من خلفاء الدولة العباسية ببغداد. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٢٩ هـ. وكان المستولي على الملك في أيامة السلطان مسعود السلجوقي، نشبت فتنة بينهما فخلعه السلطان سنة ٥٣٠ هـ بفتوى فقهاء بغداد، وأمر بالقبض عليه، فرحل إلى مراغة ومنها إلى الري. اغتاله الباطنية على باب أصبهان عام ٥٣٢ هـ.

بليغةً. قالَ في آخرِها أسألُكَ لو عطشتَ يوماً حتّى أشرفَ بكَ العطشُ على التّلفِ، ومُنعتَ من الماءِ، إلاّ بنصفِ مُلككَ، أكُنْتَ تسمحُ بهِ؟ قال: نعم. قالَ: فلو شَربتَها فامتنعتْ أن تخرُجَ إلاّ بنصفِ ملكِكَ الثّاني، أكنتَ تسمحُ؟ قال: نعم. قالَ: فما الاغترارُ بِمُلكٍ قيمتُهُ بَوْلَةٌ؟!

ونقلَ أنَّ المنصورَ لمّا حجَّ طافَ بالبيتِ ليلةً، فسمعَ قائلاً يقولُ، وهو متعلّقٌ بأستارِ الكعبةِ: « اللّهمَّ إنّي أشكو إليكَ ظهورَ الفسادِ والبغيِ في الأرضِ وما يحولُ بينَ الحقِّ وأهلِهِ من الطَّمعِ ».

قال: فجلسَ المنصورُ في ناحيةٍ من المسجدِ، ثمَّ أرسلَ إلى الرَّجلِ يدعوهُ، فجاءهُ وسلَّمَ عليهِ بالخلافةِ؛ فقالَ لهُ: ما الّذي سمعتُكَ تقولُ في ظهورِ البغيِ والفسادِ، وما يحولُ بين الحقِّ وأهلِهِ من الطَّمعِ، فواللهِ لقد حشوتَ مسامعي ما أقلقني وأمرضني؟

فقال: يا أميرَ المؤمنينَ إن أمنتني على نفسي أنبأتُكَ بذلكَ، وإلاّ فالمعذرةُ إلى اللهِ، ثم إليكَ ولي في نفسي شغلٌ شاغِلٌ؟ قال: أنتَ آمن وهذهِ يدي.

فقالَ: إنَّ الذي داخلَهُ الطَّمعُ حتى حالَ بينهُ وبين إصلاحِ ما ظهرَ من البغيِ والفسادِ لأنت يا أميرَ المؤمنينَ! فقالَ: ويحكَ فكِّرْ فيما تقولُ، كيفَ يدخلُني الطَّمعُ والدُّنيا عندي؟!

قالَ: إنَّ اللهَ استرعاكَ أمرَ عبادِهِ أبشارَهُمْ وأموالَهُمْ، فجعلْتَ بينَكَ وبينَهُمْ حجاباً من الحصنِ بالجَصِّ والآجُرِّ والأبوابِ الحديدِ، وحُرّاساً معهمْ السّلاح ، ثمَّ سجنْتَ نفسكَ دونَهُمْ وبعثْتَ عُمّالكَ لجبايةِ الخراجِ والأموالِ، وضيَّقْتَ حجابَكَ فلمْ يدخُلْ عليكَ من الناسِ إلاّ فلانٌ وفلانٌ، ولم يصلْ إليكَ المَظلومُ والملهوفُ، ولا أحدٌ إلاّ ولهُ في بيتِ المالِ حقٌّ، فلمّا رآكَ

= (راجع الكامل لابن الأثير ١١ : ١٠ — ٣٤/ وتواريخ آل سلجوقي ١٧٨ — ١٨١/ ومرآة الزمان ٨ : ١٦٧).

هؤلاءِ النَّفَرُ الَّذينَ استخلصتهمْ لنفسكَ، وآثرتهمْ على رعيَّتكَ، وأمرتَ أن لا يُحجبوا عنكَ، ثم تُجْبَى الأموالُ إليكَ فتجمعها، فيقولُوا: هذا قد خانَ ولم يقسم الأموالَ كما أمرَ اللهُ ورسولُهُ، فما بالُنا لا نخونهُ، واتفقُوا على أن لا يصلَ إليكَ من النَّاس شيء إلاَّ ما أرادُوهُ، ولا يتقرَّب إليكَ أحدٌ إلاَّ من اختارُوهُ، ثم لم يتقرَّبْ إليك أحدٌ بأمانةٍ إلاَّ خوَّنوهُ، ولا بديانةٍ إلاَّ فسَّقوهُ، حتى سقطتْ منازلُ أهلِ الخيرِ عندكَ، وارتفعتْ منازلهمْ، فعظَّمهمُ النَّاسُ وهابُوهمْ وصانعوهُمْ، وكانَ أوَّلُ من صانعهُمْ عمالكَ بالهدايا والأموالِ، ليقْوَوْا بهمْ[1] على ظلمِ الرَّعيَّةِ، ثمَّ اقتدى بذلكَ ذو الثَّروَةِ من رعيَّتكَ لينالُوا ظلمَ من هوَ دونَهم، فامتلأتْ بلادُ[2] اللهِ بغياً وفساداً، وصارَ هؤلاءِ شُركَاؤُكَ وانتَ غافلٌ، فإن جاءَ متظلِّمٌ حيلَ بينهُ وبينكَ[3].

وأمَّا الشَّخصُ الَّذي ولَّيتهُ المظالمَ فإنَّهُ لا يقدرُ أن يكشفَ شيئاً يتعلَّقُ بهؤلاءِ المتقرِّبينَ إليكَ، ولا يمكنهُ أن ينهي[4] ظلمهُمْ إليكَ، فإذا ركبتَ وصرخَ بينَ يديكَ المظلومُ طردهُ الأعوانُ وأسكتوهُ، فإن رفقتَ بهِ وسمعتَ ظلامتهُ ردَدتَهُ إلى القاضي أو الوالي أو إلى نائبكَ، وسقتَ دابَّتكَ، فإن زادَ في قولهِ أو تبعكَ أو رامَ التَّقرُّبَ إليكَ ضربهُ الأعوان ضرباً مؤلماً[5] وما شكواهُ إلاَّ من الَّذينَ ردَدتهُ إليهمْ وقلَّةِ إنصافهمْ وإن بقاءَ الإسلامِ مع هذا الحالِ لقليلٌ أليسَ اللهُ مطَّلعٌ؟ أليستْ عقوبتهُ شديدةٌ؟

وقد كنتُ في حداثتي يا أميرَ المؤمنينَ أُسافرُ إلى بلادِ الصِّينِ، فاتَّفقَ أنَّ ملكهُمْ أصيبَ في سمعهِ ولم تنجَعْ فيهِ[6] الأدويَةُ، فبكا فسئِلَ عن

---

(١) في (ب) بذلك بدلاً من (بهم).
(٢) في (ب) بلادك بدلاً من (بلاد الله).
(٣) في (ب) وبين لقائك بدلاً من (وبينك).
(٤) في (ب) يوصل بدلاً من (ينهي).
(٥) في (ب) شديداً بدلاً من (مؤلماً).
(٦) في (ب) علاجه بدلاً من (فيه).

ذلكَ، فقال: حُزني على انقطاعِ سماعِ المظلومِ وإغاثةِ الملهوفِ، ولكن إن فاتني السَّمعُ فقد بقي البصرُ، ثم أمرَ مناديَهُ ينادي في النَّاس: من كان متظلِّماً فليلبس ثوباً أحمر. وكانَ يجلسُ في رَوشنٍ عالٍ مطلٍّ على العامَّةِ. فهذا يا أميرَ المؤمنين كافرٌ بلغتْ رأفتهُ بالمشركينَ هذا المبلغ، وأنتَ مؤمنٌ باللهِ مِن أهلِ بيتِ النُّبوَّةِ لا تَبْلُغُ رأفتُكَ بالمسلمينَ على شُحِّ نفسكَ، ثم تلاَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] فبكا المنصورُ وقالَ ويحكَ كيفَ أحتالُ لنفسي؟ دلَّني[2].

فقالَ: إنَّ للنَّاسِ أعلاماً من أهلِ الدِّينِ والخيْرِ، اجعلهمْ بطانـتكَ[3] واسمعْ نصائحهمْ، فقالَ: ويحكَ! قد طلبتهمْ فهربوا منّي. قال: خافوا أن تحملهمْ على طريقكَ أو يؤذيَهُمْ أصحابُكَ، ولكن افتحْ بابكَ، وسهِّلْ حجابَكَ، وأنصِفِ المظلومَ، وأقمعِ الظالمَ، وخذ الفَيءَ والصَّدقاتِ من حلِّها واصرفْها في أهلها[4]، وأنا ضامنٌ أن يأتوكَ ويساعدوكَ على صلاحِ الأُمَّةِ، وجاءَ المؤذِّنُ للصَّلاةِ، فقامَ إليها فصلَّى وعادَ، فطُلِبَ الرَّجُلُ فلم يوجَدْ.

أجمعَ الفرسُ على أن إتلافَ السِّياسَةِ في ثلاثةٍ: تأخير عملِ اليومِ إلى غدٍ، وتفويض الأمورِ إلى غيرِ الكُفاةِ، والعملِ بالشَّهواتِ لا بالعقولِ؛ فينبغي للملكِ أن ينظرَ في حالِ هذهِ الطائفةِ[5] ويميِّز محقَّهم من مبطلهمْ، ويفرِّقَ بينَ الزَّاهدِ والمتزَهِّدِ.

وفيهم أصنافٌ من أهلِ الغلطِ في طريقِ الزهدِ أو المغالطةِ لأغراضٍ أخر.

---

(١) سورة التغابن (آية رقم ١٦) وصدر الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

(٢) في (ب) ارشدني بدلاً من (دلّني).

(٣) في (ب) حاشيتك بدلاً من (بطانتك).

(٤) في (ب) مستحقها بدلاً من (أهلها).

(٥) في (ب) الأمة بدلاً من (الطائفة).

منهمْ صِنفٌ يغلبُ عليهمْ محبّةُ الرِّياسةِ والأمرِ، ويتّفقُ إعراضُ الملكِ عنهمْ وانقباضه لمخالفةِ طبعهِ لطباعهمْ، أو لاشتغالهِ بلهوهِ ولذَّتهِ، فيدْعوهُمْ ذلكَ إلى إحداثِ الطَّعنِ على أحوالِ الملكِ وإهماله لضوابطِ الشريعةِ، ويؤلِّفونَ لهمْ بذلكَ جماعاتٍ، وربَّما كثرَ عددُها، ويقصُّونَ عليهِمْ من القصصِ ما يحرّكونَ بهِ عزائمهمْ لتغيير المنكَرِ ونصرَةِ الحقِّ، فإنْ أهملَ الملكُ أمرهُمْ[1] عظُمَ وتفاخمَ، وكانَ منه خطرٌ عظيمٌ، وأكثر ما يطرأُ هذا في البلادِ العظامِ أو في الأطرافِ.

قال كسرَى: قَطُّ ما تنازعَ[2] رئيسُ دنيا ورئيسُ دينٍ، وتجاذبا وتنازعا على أمرٍ إلاَّ انتزعَ رئيسُ الدِّينِ ما في يدِ رئيسِ الدُّنيا، ومضتِ التجاربُ على ذلكَ.

وأقربُ ما جرَى في هذا المعنَى، لمَّا ظهرَ المهديِ بالمغربِ، وأظهرَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ، ومعهُ طائفةٌ يسيرةٌ من الزُّهَّادِ نحو العشرةِ، وكان لديه فضلٌ وعلومٌ جمَّةٌ ويُقالُ إنّهُ اشتغلَ على إمامِ الحرمَيْنِ[3]، ودخلَ إلى بلادِ المغربِ على زيِّ الزُّهَّادِ بالمرقَّعةِ والعكَّازِ، فلمَّا اشتهر خبرُهُ بالأمرِ بالمعروفِ، وإراقةِ الشَّرابِ المُسكرِ، والإنكارِ على

---

(١) في (ب) أمر هذه الجماعة بدلاً من (أمرهم).

(٢) في (ب) (تناطح) بدلاً من (تنازع).

(٣) **عبد الملك** بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين. أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور عام ٤١٩ هـ) ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء. له مصنفات كثيرة منها «غياث الأمم» و «العقيدة النظامية» ونهاية المطلب في دراية المذهب. توفي عام ٤٧٨ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧/ والسبكي ٢ : ٣٤٩/ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٠).

النِّساءِ المتبرّجاتِ، أمرَ الملكُ بإحضارِهِ، وهو عليٌّ بن يوسُفَ[1] بنُ تاشفين؛ فاستنطقه فرآهُ معَ الزُّهدِ عالماً متبحِّراً، فأحضرَ الفقهاءَ وعقدَ له مجلسَ مناظرَةٍ؛ فجادَلَتْهُ فقهاءُ عصرِهِ في كثيرٍ منَ المسائلِ كُلِّهَا يستظهرُ عليهِمْ ويُرجِّحُ قولهُ، ويأتي لهمْ بتقاسيم لا يمكنُهُمْ الخُرُوج منهَا، وهيَ مسطورَةٌ مُدَوَّنةٌ، فلمَّا عجزوا قالوا هذهِ عباراتٌ ما نعرفُها، وما أنتَ إلاَّ رجلٌ مبتدعٌ! وقالوا للملكِ من المصلحةِ قمعُ هذا أو حبسُهُ لئلاً تكونَ منهُ فتنةٌ. فقالَ بعضُ أُمراءِ الملكِ: ما أهوَنُ مثلَ هذا، وما عَسَى أن يكونَ منهُ لدولةٍ يكونُ خللُها من مثلِ هذا، فبذلَ له منَ المالِ شيءٌ فلمْ يقبلهُ، فنفاهُ من البلدِ، فخرجَ إلى مدينةِ أغمات، ثمَّ صعدَ إلى جبلِ البربرِ، واشتغلَ بالدَّعوةِ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، فلم يمضِ الاَّ مدةٌ يسيرةٌ حتَّى كثُرَتْ جموعهُ، واشتدَّتْ شوكتُهُ، وقويَتْ يده، وظهر وبنى المهديَّة، وكان من أمرِهِ ما كانَ من الاستيلاءِ على البلادِ وقيادَةِ الجيوشِ، وكانَ عبدُ المؤمن[2] بن علي أحد أصحابِهِ العشرة، فلمَّا ماتَ استخلف

---

(١) هو **علي** بن يوسف بن تاشفين أبو الحسن، أمير المؤمنين بمراكش، وثاني ملوك دولة الملثمين المرابطين. ولد عام ٤٧٧ هـ. وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ بعهد منه بمراكش. قال السلاوي: ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، لأن البلاد كانت ساكنة. والأموال وافرة والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة. قال ابن خلكان: كان حكيماً وقوراً صالحاً عادلاً. مدة خلافته ٣٦ سنة و ٧ شهور. توفي عام ٥٣٧ هـ. (راجع الاستقصا ١ : ١٢٣ — ١٣٦/ والحلل الموشية ٦١ — ٩٠).

(٢) هو **عبد المؤمن** بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكومي أمير المؤمنين، مؤسس دولة الموحدين. نسبته إلى كومية من قبائل البربر. ولد في مدينة تاجرت عام ٤٨٧ هـ بالمغرب قرب تلمسان. ونشأ فيها طالب علم، وأبوه صانع فخّار، وحجَّ والتقى بابن تامرت فتصادقا، وانتهى الأمر بأن ولي ابن تامرت ملك المغرب الأقصى ولقب بالمهدي، فجعل لعبد المؤمن قيادة جيشه، واختصَّه بثقته. ولما توفي المهدي اتفق أصحابه على خلافة عبد المؤمن، فتم له الأمر سنة ٥٢٤ هـ، ثم بويع البيعة العامة سنة ٥٢٦ هـ. وقاتل الملثمين وقتل آخرهم ابراهيم بن تاشفين. توفي عام ٥٥٨ هـ. (راجع الاستقصا ١ : ١٣٩/ وابن خلدون ٦ : ٢٢٩/ وابن الأثير ١٠ : ٢٠١ ثم ١١ : ٢٠٩).

على الأمرِ من بعدِهِ. وفتحَ البلادَ وأبادَ دولةَ بني تاشفينَ واستأصَلَهُمْ واستقرَّ الملكُ في عقبِهِ إلى الآنَ، وملوكُ الغربِ في هذا الأمرِ على غايةٍ من الاحترازِ من هذهِ الطائفةِ، وإذا رأوا منهمْ من كانَ يصلحُ للركوبِ والجهادِ أُشغلوا بهِ.

ومنهمْ صنفٌ بالغوا في التّعفُّفِ والزُّهدِ والعبادةِ، والبعدِ عن طعامِ الملوكِ وأبوابهمْ وصِلاتهمْ، ومقصودُهُمْ بذلكَ تبع العامَّةِ وظهور القبولِ سيما إنْ كانوا من أهلِ الوعظِ، ويرونَ كلَّ إكرامٍ دونَ حقِّهمْ، فمنْ أعرضَ عنهمْ، أو لم يحترمهمْ، أو لم يَزُرْهُمْ ويقبّل أيديهم، سبُّوهُ وذكروا أنَّهُ من عصاةِ أهلِ الدُّنيا وأربابِ الظُّلمِ، وطريق سياسةِ هؤلاءِ أن يلطّخوا بالدُّنيا بأيِّ طريقٍ أمكن، فإذا فعلوا ذلكَ فسدَ أمرُهُمْ، وانحلَّ اعتقادُ الناسِ فيهم.

ومن الفقراءِ صنفٌ يتستَّرونَ ويتَقنَّعونَ ويكرهونَ السُّؤالَ ولو هَلكُوا. قال اللهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً﴾[1]. فليكنْ بحثُ الملكِ عن هذا الصّنفِ، وسُرورهُ بالظَّفرِ بواحدٍ منهمْ كسرورِ الجاهلِ بمشكلةٍ انحلَّتْ وظلمةٍ تجلَّتْ، فليكنْ كثير الإحسانِ إليهم والتّوسعةِ عليهمْ.

---

(١) سورة البقرة (آية رقم ٢٧٣) وصدر الآية ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

قال البخاري: حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شريك ابن أبي نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: ليس المسكين الذي تردُّه التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفَّف اقرأوا إن شئتم ــ يعني قوله: ﴿ولا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحافاً﴾ وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن جعفر المديني عن شريك بن عبدالله بن أبي نمر عن عطاء بن يسار وحده عن أبي هريرة به.

وقد اشتهرَ عن نور الدين محمود[1] بن زنكي أنَّهُ في سنةِ تسع وستّينَ وخمس مائة، استحضرَ رُؤساءَ دمشقَ ومشائخها ومقدّمي حاراتها ودروبها، وقال أريدُ منكمْ أن تكشفوا عن أحوالِ مجاورِيكُمْ، فعرّفوني باليتامَى والأراملِ، ومن انقطعَ عن التّكَسُّبِ، ومن اختلّتْ أحوالُهُ، لأنْظُرَ في حالِهِمْ، ففعلُوا ذلكَ، فبعثَ إليهِمْ بالغلاّتِ والكسواتِ، ووظَّفَ لهمُ الوظائفَ. فهذا من محاسنِ الملوكِ ومزاياهم الّتي تنقلُ عنهمْ، وتحسن بها أيّامُهم وتؤرّخُ بها سِيَرُهُمْ.

وقدْ جبلَ اللهُ تعالى طباعَ المولَى السلطانِ الملكِ المظفّر ركن الدُّنيا والدّينِ عزّ نصرهُ على محبّةِ الخير والتنوّعِ فيهِ، ومحبّةِ الفقراءِ والإصغاءِ إلى نصائحهمْ، واتّخاذ الأيادي معهمْ، فبُشراً له بذلكَ! ولقد قيلَ: اتّخذوا معَ الفقراءِ أيادي فإنَّ لهمْ دولةً وأيُّ دولةٍ. ثمَّ إنّهُ نهضَ إلى تجديدِ الجامعِ الحاكمي وأصلحهُ بأدنَى إشارة، وعمَّرَهُ أسرعَ من البرقِ أحسنَ عِمارَة، ورتَّبَ فيه الفقهاءَ[2] للدَّرسِ والاشتغالِ بالعلومِ الدينيَّةِ ووظَّفَ عليهم الجاري وعلى المقرّبين السُّبعيَّة، ثم تقدَّم إلى عمارةِ القبّةِ والخانقاهِ[3]

---

(١) هو **محمود** بن زنكي (عماد الدين) أبو القاسم، نور الدين الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلّهم وأفضلهم، كان من المماليك، ولد في حلب عام ٥١١ هـ، وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه عام ٥٤١ هـ. وكان ملحقاً بالسلاجقة فاستقلّ وضمّ دمشق إلى مكة مدة عشرين سنة، وامتدّت سلطته في الممالك الإسلامية حتى شملت جميع سورية الشرقية، وقسماً من سورية الغربية، والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر، وبعض بلاد المغرب، وجانباً من اليمن، وخطب له بالحرمين. توفي عام ٥٦٩. (راجع كتاب الروضتين ١ : ٢٢٧ ــ ٢٢٩/ وابن الأثير ١١ : ١٥١/ وابن خلدون ٥ : ٢٥٣/ وابن خلكان ٢ : ٨٧).

(٢) في (ب) بزيادة لفظ (والعلماء).

(٣) الخانقاه: عبارة عن مكان يعد للفقراء والصوفية للسكنى وعبادة الله تعالى والتعليم. وكان في مدينة القاهرة ودمشق والزيتونة مجموعة من ذلك يقوم بإعدادها الموسرون والعلماء الأغنياء والأمراء وبعض الملوك.

المختارةِ، الّتي خرجَ أمره العالي بإنشائها في دارِ الوزارة، وأجرَى فيهَا الإدراراتِ على تلاوةِ الكتابِ العزيزِ، وتميَّزَ في فعلِ الخَيْراتِ أوفرَ تمييز وأدار فيها الأرزاقَ على السّادةِ: المتصوّفينَ والفقراءِ والأجنادِ البطّالينَ والأئمّةِ والمُؤذّنين ورواةِ الحديثِ والمقرئينَ، ما شاعَ ذكرها في الأقطارِ، ولم يُعمَل مثلُها في الأمصارِ.

ثمَّ لمّا أعطاهُ اللهُ من الملكِ العزيزيّ أوفره، قدَّمَ بينَ يديهِ من وجوهِ العدلِ والإنصافِ أسفَرَهُ، وسارعَ بمقابلةِ الشُّكرِ للهِ على ما أولاهُ من النّعمِ المُيسَّرة، فخرجتْ أوامرهُ المطاعةُ بإبطالِ مَظلمة نصف السّمسرة الّتي أحدثها مَن تقلّدَ وزرهَا، وكانَ زوالُها على يدِ الّذي غنمَ أجرهَا لأنّها كانتْ تُزاحمُ الصُّعلوكَ الدلاَّل في رزقهِ، وتضيّق على البائعِ والمشتري في خلقهِ. فهو أدامَ اللهُ أيّامَهُ ينبوعٌ في الخيراتِ يتأنّقُ في اقتناءِ أصنافِ المكرّماتِ.

الباب التاسع

في سيرتهِ مع ذوي الشَّرفِ والبيوتاتِ وإعانتهمْ

الشَّرفُ في أصنافِ النَّاسِ يعمهُم الانتسابُ إلى ذوي الفضائلِ الدّينيَّةِ أوِ الرّئاساتِ الدُّنياويَّةِ. فأشرفُ القسم الأوَّل من ينتسبُ إلى الأنبياءِ عليهم السلامُ، أو إلى أحدٍ من الصَّحابَةِ رضيَ اللهُ عنهمُ الأمثلُ فالأمثلِ، ثُمَّ ينتسِبُ إلى صاحبِ عِلمٍ أو كراماتٍ وزهدٍ. والقسمُ الثاني فأفضلهُمْ من ينتسبُ إلى ملكٍ عادلٍ أو فاضلٍ، فحقٌّ على منْ كانت نسبتهُ عليه أن تكونَ سيرتهُ مرضية ونفسهُ أبيَّة، ولقدْ أجادَ السَّموألُ[1] بنُ عادِيا في قولهِ:

إذا سَيّدٌ مِنَّا خلاَ قامَ سَيّـدٌ   قَؤولٌ لما قالَ الكرامُ فعـولُ
ونُنْكِرُ إن شئنا على النَّاسِ قولَهُمْ   ولا ينكرونَ القـولَ حيثُ نقـولُ

(١) هو السموأل بن غريض بن عاديا الأزدي، شاعر جاهلي حكيم، من سكان خيبر (في شمال المدينة) كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه «الأبلق». أشهر شعره لاميته التي مطلعها:
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكـــلُّ رداءٍ يرتديـــه جميـــل
وهي من أجود الشعر. وفي علماء الأدب من ينسبها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. وله «ديوان» صغير وهو الذي تنسب إليه قصة الوفاء مع امرىء القيس الشاعر. (راجع معاهد التنصيص ١ : ٣٨٨/ وشرح الشواهد ١٨٠/ وياقوت في معجم البلدان ١ : ٨٦/ والعين ٢ : ٧٦/ تاريخ العرب قبل الإسلام ٣ : ٢٦٩ — ٢٧٣).

فمن لم يكنْ تابعاً لطريقةِ أسلافهِ أو مقارباً لها، فإنَّهُ قد باينَ الشَّرفَ، وفارقَ السُّؤْددَ ولذلكَ أجابَ اللهُ تعالى نوحاً عليه السلامُ حينَ قال ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ بقولهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[1]. فالعملُ الصَّالحُ هو الشَّرفُ وبهِ يستقيمُ الانتماءُ وإلى هذا أشارَ بقولهِ عليهِ السَّلامُ: « العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ »[2] فمن اجتمعَ فيهِ العلمُ والعملُ وكانت له نسبةٌ إلى النبيِّ عليهِ السلامُ، استحقَّ رتبةَ الشَّرفِ، ويتعيَّنُ إكرامُهُ واحترامُهُ. وكذلكَ الانتسابُ إلى ذَوي الفضائلِ.

فينبغي للملكِ رعايةُ جانبِ الشَّرفِ في النَّسبِ قالَ عليهِ السلامُ: « منْ أكرمَ قريشاً أكرمهُ اللهُ، ومن أهانها أهانهُ اللهُ »[3] إشارة إلى رعايةِ حقِّ النَّسبِ وشرفِ البيتِ وكذلكَ من انتسبَ إلى الملوكِ والكرماءِ والعلماءِ والزُّهَّادِ والأُدباءِ والأعزَّةِ.

وقال عليهِ السلامُ: « إذا أتاكُمْ كَريمُ قومٍ فأكرموهُ »[4] وقال: « ارحَموا عزيزَ قومٍ ذلَّ وغنيَّ قومٍ افتقرَ »[5] . وهذا بابٌ متَّسعٌ والإشارةُ فيهِ تكفي.

---

(١) سورة هود (آية رقم ٤٥).

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري ١٠، باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم، « وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم من أخذه أخذه بحظ وافر ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة » ورواه أبو داود في العلم ابن وماجه في المقدمة ١٧/ والدارمي في المقدمة ٣٢/ وأحمد بن حنبل ٥: ١٩٦.

(٣) الحديث رواه الإمام الترمذي في كتاب المناقب ٦٥/ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٦٤، ١٧١، ١٨٣ (حلبي).

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأدب ١٩، باب إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه [٣٧١٢] عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ وذكره في الزوائد. في إسناده سعيد بن مسلمة وهو ضعيف.

(٥) رواه العسكري وابن حبّان بسند فيه منكر عن أنس، ورواه الخطيب بسند فيه مجهول عن أنس مرفوعاً مثله لكن بلفظ وفقيهاً يتلاعب به الصبيان الجهّال.

وينبغي للملكِ أن ينظرَ في حالِ من قعدَ بهِ الزّمانُ منهمْ، ومن ضاقت بهِ الأحوالُ فيعينهُ على أحوالهِ، ويؤهّلهُ لبلوغِ درجةِ أسلافهِ إن كانَ فما أكثرَ زيناً لدولةٍ كثرَ فيها أهلُ الفضلِ والشّرفِ وقلّ فيها أهلُ الجهْلِ والسَّفَهِ.

وكانت ملوكُ الفرسِ تضبطُ أهلَ البيتِ على ضوابطِ أسلافهمْ وتمنعهمْ في الابتذالِ والدخولِ في الصّنائعِ والحرفِ الّتي تزري بهمْ، وتمنعهمْ من مناكحةِ من لا يليقُ بهم، فإنّ جمال هذه الأصنافِ وكثرةَ مفاخِرها يزيد في رونقِ الدّولةِ.

وقالَ شيخُ الشّيوخِ ابن حمويْه الجويني(١): بلغني أنّهُ قيلَ لمعاوية بن أبي سُفيانَ(٢) بعدَ مقتَل أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ كرّم الله وجهَهُ: إنّ الخلافةَ قد استقرّتْ لكَ، فلو قتلْتَ الحسنَ(٣) والحسينَ وابن عبّاسٍ وعبدَاللهِ بن عمرَ وعبدَ اللهِ بن الزُّبير لاسترحْتَ منَ الفكرةِ في أمر

= ورواه القضاعي عن ابن مسعود رفعه بلفظ « وعالماً يلعب به الحمقى والجهّال ».
ورواه ابن حبان في تاريخه بسند فيه كذّاب عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ: « وعالماً يتلاعب به الصبيان ».
وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال: انما يعرف من كلام الفضيل بن عياض، وساقه من جهة الحاكم عن الفضيل بن عياض، انه قال: ارحموا عزيز قوم ذلّ، وغنياً افتقر، وعالماً بين جهّال. وقال في الدرر: وأخرجه ابن حبان في تاريخه من حديث ابن عباس والديلمي في حديث أبي هريرة بأسانيد واهية والسلماني في الضعفاء عن أنس وضعفه هذا، والمشهور على الألسنة إسقاط لفظ (من الناس ثلاثة).

(١) سبقت الترجمة له في هذا الجزء.

(٢) سبقت الترجمة له في هذا الجزء

(٣) هو **الحسن** بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو محمد. خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم. وثاني الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. ولد في المدينة المنورة عام ٣ هـ. وأمه فاطمة الزهراء بنت الرسول ــ ﷺ ــ وهو أكبر أولادها وأولهم. كان عاقلاً حليماً محبًا للخير، فصيحاً من أحسن الناس منطقاً. وبهدية توفي عام ٥٠ هـ. (راجع تهذيب التهذيب ٢ : ٢٩٥/ والإصابة ١ : ٣٢٨/ واليعقوبي ٢ : ١٩١/ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ١٩٩).

الملكِ وتزعزُعه، فقالَ: إذا قتلتُ هؤلاءِ فعلى من أتأمَّرُ، فما كانَ أسعد رأيه في هذا الكلامِ وما أتعَس رأيَ مَنْ أشار عليهِ بذلكَ.

وقدْ يكونُ من ذوي الشَّرفِ قومٌ من أولياءِ الدَّولةِ الماضيةِ وأعداءِ الدَّولة الحاضرةِ، فإن لم يخفِ الملكُ من الانتصار لهمْ أو من التألُّفِ عليهمْ، فمن واجبِ المروءَةِ إرغاد عيشهم والتَّوسعَة في النَّفقاتِ عليهمْ، من غيرِ ندبٍ لمهمَّاتٍ ولا تقديمٍ في ولاياتٍ، وإن كان منهم استشعارٌ فمنَ الحزم الاحتياطُ.

وكذلكَ القولُ في أولادِ الأمَراءِ والمتقدِّمينَ إن صَلَحوا الرتبةِ آبائهم قُدِّموا لها، وإن لم يصلحوا فلا يقطع عنهم البرُّ والإكرامُ والتلطُّف والإحسانُ.

الباب العاشر

في سيرته مع التجار والقاصدين والصُّنَّاع والمزارعين

لا شكَّ أن أصحابَ الحرفِ مثلَ التجّارِ والجلاّبينَ والثّناة، والصُّنّاعِ، هم أسبابُ عمارَةِ البلادِ وتزيينها وتحصينها وتكميلها؛ فإنَّ التجّار يجلبونَ البضائعَ والدقيقَ وسائرَ الأصنافِ، ويقرّبونَ ما بعُدَ من المنافعِ، قد سخَّرهُمُ اللهُ تعالى لذلكَ، وسهَّلَ عليهم المهالكَ، يركبونَ البحارَ، ويقاسونَ الأخطارَ، ويكابدُون عذابَ الأسفارِ، وينفَعونَ بيوتَ الأموالِ، فيتعيَّنُ على الملكِ أن يحنو عليهم ويحسنَ اليهم، ويرفق بهم في أخذِ ما أوجبتهُ الشريعةُ في أموالهم، ويُسامح بعضهم من مالهِ، فإنَّهُ بذلكَ يجلُبُ الرّفاق إلى بلادهِ من سائرِ الآفاقِ، ثم يعودُ عليهِ من الكثرةِ أضعاف ما فاتهُ منَ المسامحةِ.

ومثالُ ذلك أن يسامحَ بربحٍ يسيرٍ في بيعِ سلعةٍ، فإنَّهُ يبيعُ منها أضعافَ ما يبيعُ غيرهُ من المتشددينَ في ربحها، وإذا كان الملكُ مقتصداً، وكان من مذهبهِ الحقّ وترك المسامحة فليعاقب من تعدّى ذلكَ من نوّابهِ، أو زادَ عليهِ في الواجبِ أو أجحفَ بربِّ المالِ، فإنَّ ظُلْمَ الرّعيَّةِ على سائرِ الوجوهِ مغضبٌ للرَّبِّ عز وجلّ، مقبّحٌ للصّيتِ والسُّمعَةِ.

وينبغي للملكِ أن يترفَّعَ عن مزاحمةِ العامَّةِ في المتاجرِ والمكاسبِ،

لأنَّ علُوَّ الهمَّةِ ينافي ذلكَ. وكذلكَ يمنعُ أُمراءهُ وأجنادَهُ عن ذلك. ويجبُ عليه إذا استعملَ صانعاً أو أجيراً في جميعِ الصَّنائعِ والحِرَفِ أن يعجّلَ لهُ بأُجرتهِ على التّمامِ والكمالِ، فإنّهُ واضعُ الإنصافِ، فإذا تركهُ فقد أزرى بمنصبهِ، وأبطلَ معنى الإنصافِ وصورتهِ.

وينبغي للملكِ أن يجلسَ للعامَّةِ جلوساً يشملهمْ في بعضِ الأحايين بحيث يصلُ إليهِ الضَّعيفُ وذو الحاجةِ ومن لا وسيلةَ لهُ. ولم تزل الملوكُ العادِلَةُ تفعَلُ هذا. وأمَّا الأُكرَةُ والمزارعونَ فلهم حقوقٌ أكيدةٌ، وبسببهم يكونُ مادَّةُ النَّسلِ وأقواتُ الحيوانِ، فيجبُ أن يرفقَ بهم ويحسنَ إليهمْ، ويعانوا على ما همْ بسببهِ، وتزاح عللهمْ في جميعِ ما يحتاجونَ إليهِ، ولا يمكّنوا من البطالة فإنّها مفسدةٌ عظيمةٌ. ويستعمل بعض الشدَّةِ مع أهلِ الجبالِ، لأنَّ في طبعهم الخشونَة، ويستعمل الرّفقَ واللّينَ معَ أهلِ القُرَى الصَّحراويَّةِ.

وكان كسرى يقولُ أحقُّ النّاسِ بالإحسانِ إليهِ الأُكرة، لأنهمْ يتعبونَ لراحةِ غيرهمْ، وما من صنفٍ من الأصنافِ إلاَّ ويستغني أهلُ المدينةِ عنهمْ إلاَّ الأُكرَةَ فإنّهُ لا غناءَ لأحدٍ عنهم.

ويتقدَّمُ الملكُ إلى الرَّعيَّةِ بخروجِ أمرهِ بأن ينعكفُوا على شأنهمْ والاشتغالِ بصنائعهمْ وحرفهمْ وترك التَّعرُّضِ لأحوالِ الملكِ والخوضِ فيما يجري من ذلكَ، ثم يضبطُهُمْ حتّى لا يكون بينَهُمْ تعصُّباتٌ ولا أهويةٌ تؤَدّي الى القتالِ والفِتَنِ فيتولَّدُ من ذلكَ خرابُ البلادِ ولا سيّما الأرياف بل يكونُ هو الَّذي ينصف بينهمْ بنفسه أو من يأمرهُ ويندبهُ لذلك.

القسم الثاني

في أحوال الملكِ في ذاتهِ وخواصّهِ وخدمهِ
وهو ثمانيةُ أبوابٍ

الباب الأول

في أدبِ الدُّخولِ عليهِ ومخاطبتهِ ومجالستهِ

السُّلْطانُ ظِلُّ اللهِ في الأرضِ فطوبَى لمنِ استظلَّ بظلّهِ، وآستسقى بطلّهِ، ويا خيبة من تقلَّصَ ذلكَ الظلُّ عنهُ.

ويروَى عن النبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ ما معناهُ: «من ماتَ وليسَ في عنقهِ بيعة فكأنَّما ماتَ ميتةً جاهليَّةً»(1).

وصحبةُ السُّلطانِ تُعظِّمُ القَدْرَ، وتنوّهُ الذّكرَ، وتسمّي الحظَّ، وتعلي المنزلةَ، وترفعُ المناصبَ لكنّها كثيرةُ المعاطبِ رديّةُ الشّوائبِ، وخيمةُ العواقبِ، لأنَّ الملكَ كالبحرِ فيهِ الدُّرَرُ والغَرَرُ.

وقيلَ: الملكُ كالجبلِ الشّامخِ، فيهِ الثّمارُ والأنهارُ، والوحشُ والسّباعُ

(1) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الامارة عن زيد بن محمد عن نافع قال: جاء عبدالله ابن عمر إلى عبدالله بن مطيع، حين كان من أمر الحرة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادةً؛ فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً سمعت رسول الله — ﷺ — يقوله: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

والأخطارُ، فالوصولُ إليهِ صعبٌ لصعوبة[1]، والمقامُ فيهِ خطرٌ لأنَّ الملوكَ يغضَبونَ كغضَبِ الأطفالِ ويأخذونَ كأخذِ الأشبالِ، فيجبُ لمن يصحبُهُمْ أن يتخلَّقَ بالأخلاقِ الملوكيَّةِ، ويتحلَّى بالشِّيَمِ المرضيَّةِ وأفضل ما يلتزمُ فيها بحفظِ اللسانِ وغضِّ الطَّرفِ.

وقال علي بنُ عيسَى[2]: لا تَكُنْ صحبتكَ للسُّلطانِ إلاَّ بعد رياضةِ نفسكَ على طاعتهِ في المكروهِ عندكَ، وموافقتهِ فيما خالفكَ، وتقدِّرَ الأمرَ على هواه دون هواكَ، وكُنْ حافظاً إذا ولاَّكَ، أميناً إذا ائتمنكَ، حذراً إن قرَّبكَ، راضياً إذا أسخطكَ، ذليلاً إن هجركَ، قويًّا إن قدَّمكَ. تعلَّمهُ وكأنَّكَ تتعلَّمُ منهُ، وتدلُّهُ وكأنَّكَ تستدلُّ بهِ، وتشكرهُ ولا تُكلِّفهُ الشُّكرَ لكَ، وتقنع بقليلهِ، ولا تبطر بكثيرهِ، وإلاَّ فالبعدُ البعدُ والحذر الحذر.

وقالَ أبو زيد إذا قرَّبكَ السُّلطانُ فوازنْ بينَ حاجتكَ إليهِ وحاجتَهُ إليكَ، واجعلْ رغبتكَ إليهِ دونَ[3] . ولا تجعلْ جميعَ خلواتكَ معهُ بأمرِ قضيَّتكَ بل بإيناسهِ، واذكر ما تدعُو الحاجةُ إليهِ من أمورهِ، وتيقَّن أنكَ لستَ أكثرَ شغلهِ كما أنَّهُ أكثرَ شغلكَ ولا بكَ قوامُ أمرهِ. وتراه في كلِّ حالٍ أنَّهُ متفضِّلٌ عليكَ، واحذَر أن يدخلكَ العُجبُ والأنفةُ فإنَّهما مهلكانِ.

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) هو علي بن عيسى بن داود ابن الجراح أبو الحسن البغدادي الحسني وزير المقتدر العباسي والقاهر، وأحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد. فارسي الأصل. نشأ كاتباً كأبيه، وولي مكة. واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠ هـ. فولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة وحمدت سيرته. ثم عزله المقتدر سنة ٣٠٤ وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ هـ، ومنها إلى صنعاء، وأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢، فعاد وولي فيها الاطلاع على أعمال مصر والشام، ورجع إلى الوزارة عام ٣١٤ هـ. له مصنَّفات منها: « ديوان الرسائل » ومعاني القرآن، وجامع الدعاء وغير ذلك. توفي عام ٣٣٤ هـ. (راجع دول الإسلام للذهبي ١ : ١٦٤/ وتاريخ بغداد ١٢ : ١٤/ والمنتظم ٦ : ٣٥١).

(٣) كذا في الأصل.

وقالَ بعضُ الفضلاءِ من أدبِ مصاحبةِ السُّلطانِ أن لا تُضجِرَهُ[1] بكثرةِ الدُّخولِ عليهِ إلاَّ إذا كانَ شغلهُ يقتضي ذلكَ في مواظبتهِ. وكذلكَ إذا دخلتَ عليهِ فلا تطلِ المقامَ عندهُ. وللملوكِ قواعد في الدُّخولِ، والجلوسِ، والقيامِ، والسَّلامِ، والخطابِ.

منهمْ من يرَى من الأدبِ تركَ السَّلامِ تخفيفاً من تكليفهِ ردَّ الجوابِ، كما تركُوا التعزيةَ والتَّهنئةَ والتَّشميت في العطاس مما يحتاجُ إلى الجوابِ.

وأمَّا الخدمةُ فهم فيها على أصنافٍ منهم من يرى الخدمةَ تقبيلَ[2] الأرضِ إذا كانَ الملكُ راكباً، والعتبة إذا كانَ جالساً ومنهمْ من يرى تقبيلَ البساطِ، ومنهمْ من يرى الانحناءِ في الخدمةِ كالرُّكوعِ. ومنهمْ من لا يرى إلاَّ السَّلامَ والخطابَ بالنَّعْتِ الأتَمِّ الأكملِ والجلوسِ؛ فأمَّا تقبيلُ اليدِ[3] عند القدومِ وعندَ البيعةِ وعندَ العفوِ وعندَ تجديدِ الاحسانِ، فعادَةٌ مستويةٌ لم يمنعها شرعٌ ولا سياسةٌ.

ومن أدبِ مجالستهِ أن لا يتحدَّث مع غيرهِ في سرٍّ ولا جهرٍ في خدمةِ الملكِ، ولا يفاوضهُ بالجهرِ ولا يُلحَّ بالنظرِ إليه ولا بحوائجِ النَّاسِ لئلا تُكرههُ، ولا يُطوِّل عليه فيضجرهُ، ولا يُلاحظهُ فيمقتهُ، ولا ينقطعُ عن خدمتهِ فينساهُ، ولا يحدُّ عنهُ فتتمكَّن منه أعداؤه، بل يتوسَّطُ ولا يتورَّطُ ويوافق ولا يشاقق، ولا يخاطبهُ في حاجتهِ، ولا يتعرَّض بطلبتها ولو كانَ أقرب النَّاسِ إليهِ، بل يكتبُ إليهِ أو يتوسَّل بغيرهِ، ولا يدلّ عليهِ بسالفِ خدمة، ولا يمتُّ بحقوقٍ قديمةٍ وان اقتضى الحالُ ذلكَ فليكنْ بألطفِ اشارةٍ.

---

(١) في (ب) تقلقه بدلاً من (تضجره)
(٢) في (ب) الانحناء بدلاً من (تقبيل).
(٣) في (ب) اليدين بدلاً من (اليد).

وقالَ الحسنُ[1] بنُ سهلٍ إذا خاطبَ الملكُ غيركَ أو سألهُ عن شيءٍ، فلا تكُن المجيبَ عنهُ ولو عرفْتَ الجوابَ. وإذا تكلَّمَ فأصغِ إلى كلامهِ ولا تشتغلْ بغيرهِ. ولا تُكثِر الكلامَ بين يديهِ ولو أعجبهُ فآفاتُ الصَّمتِ قليلة وسقطاتُ اللِّسانِ كثيرةٌ، والملوكُ لا تُعزَّى بل يُقتصرُ على الدُّعاءِ بدوامِ الظَّفرِ والسَّعادةِ حسب ما يليقُ بهِ من غيرِ تطويلٍ. ولا يقالُ للملكِ كيفَ أصبحَ، ولا كيفَ أمسَى، ولا يسألُ عن حالهِ ولا يطنبُ في تحسين كلامهِ ولا أفعالهِ ففيهِ تخجيلٌ. ولا يستعادُ منهُ الكلامُ ولا يُستزادُ ولا تحسُن الإشاراتُ في مجلسهِ ولا يغامزُ. ولا يشتغلُ في حضرتهِ بتوديعِ راحلٍ ولا بسلامِ واردٍ.

وممَّا قالهُ شيخُ الشُّيوخِ تاجُ الدِّين بن حمويه[2] الجويني أنَّهُ كانَ جالساً عندَ بعضِ ملوكِ المغرب، وقد دخلَ عليهِ الشَّيخُ أبو سعيدٍ عثمانُ ابن عمرَ وهو من أكابرِ شيوخِ الدولةِ، وكانَ والي بلادِ افريقية نحو العشرةِ

---

(١) هو **الحسن** بن سهل بن عبدالله السرخسي أبو محمد، وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون). وكان المأمون يجلّه ويبالغ في إكرامه. وللشعراء فيه أماديح. أصيب بمرض السوداء سنة ٢٠٣ هـ. فتغيّر عقله حتى شدّ في الحديد، ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته سنة ٢١٠ هـ. وتوفي في سرخس من بلاد خراسان. قال الخطيب البغدادي: وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل، كان من أهل بيت الرياسة في المجوس، وأسلما هما وأبوهما سهل في أيام الرشيد. (راجع وفيات الأعيان ١ : ١٤١/ وتاريخ بغداد ٧ : ٣١٩/ وابن الوردي ١ : ٢١٧).

(٢) هو **محمد** بن حمويه بن محمد بن حمويه الجويني أبو عبدالله: شيخ الصوفية في خراسان. قرأ الفقه والأصوليين على إمام الحرمين، ثم انقطع للعبادة، وكان الملوك يزورونه ولا يغشى أبوابهم، ولا يقبل صلاتهم، ولا يأكل من الأوقاف، له قطعة أرض يزرعها خادم له. وصنّف «لطائف الأذهان في تفسير القرآن»، وسلوة الطالبين في سير سيد المرسلين، وأربعين حديثاً وكتاباً في علم الصوفية، وغير ذلك. توفي عام ٥٣٠ هـ. (راجع شذرات الذهب ٤ : ٩٥/ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٨).

أعوامٍ، فقالَ لهُ: اجلسْ بعدَ أن قامَ لهُ وأكرمَهُ والجماعةَ معهُ، فجلسَ إلى جنبِ أخيهِ عبدِ الواحدِ وهوَ الأكبرُ، فخاطبَهُ الملكُ فيما اقتضى الحالُ الخطاب، ولم ينظُرْ أحدٌ من الأخوين إلى صاحبِهِ ولا كلَّمهُ كلمةً، حتّى تقوّضَ المجلسُ وخرجا فتعانقا وتكلّما. ثم لقيتُ الشيخَ أبا سعيدٍ بعدَ ذلكَ، فقلتُ له لقد أعجبني ما رأيتُ منكُما، تغيب عن أخيكَ عشرةَ أعوامٍ ثم تجتمعُ به فلا تكلّمهُ! قال: نعمْ من الأدبِ أن لا يشتغلَ في مجلسِ الملكِ بغيرِهِ، كما قالَ. وقالَ بعضُ الفضلاءِ إن بليتَ بصحبةِ ملكٍ أو والٍ رَدِيءِ السيرةِ، فإنْ وافقتَهُ ضيّعْتَ الآخرةَ، وان خالفتَهُ ضيّعْتَ الدُّنيا، فلا ينبغي إلاّ البعدَ منهُ إن أمكنَ أو مسارقة نقلِ طباعهِ عمّا هي عليهِ، وتسديدَ رأيهِ وتحسينَ الحسنِ وتقبيحَ القبيحِ.

الباب الثاني

في أحوال الوزراء وما يجب لهمْ وعليهمْ

قال اللهُ تعالى حاكياً عن موسَى عليهِ السلامُ: ﴿واجْعَلْ لي وَزِيْراً مِنْ أَهْلِي هٰرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[1] فوضحَ أنَّ الوزيرَ من الأزرِ، واستزارهُ من الوزرِ كما قيلَ.

وفي سننِ أبي داودَ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بالأميرِ خيراً جعلَ اللهُ لهُ وزيرَ صدْقٍ، إن نسيَ ذكَّرهُ، وإن ذكَرَ أعانَهُ وإذَا أرادَ اللهُ بهِ غيرَ ذلكَ جعلَ لهُ وزيرَ سوءٍ، إنْ نسيَ لم يذَكِّرهُ وإنْ ذكرَ لم يعنْهُ»[2].

---

(١) سورة طه (آية رقم ٢٩ — ٣١).

قال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال نبيء هارون ساعتئذ حين نبيء موسى عليهما السلام، وقال ابن أبي حاتم ذكر عن ابن نمير حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول: أيّ أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوّة، قالت: فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا. قالت: فقلت: صدق، ومن هذا قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾.

(٢) الحديث رواه الإمام أبو داود في كتاب الامارة ٤، باب في اتخاذ الوزير ٢٩٣٢ — حدثنا

وينبغي أن يكونَ الوزيرُ جامعاً لخصالِ الخيرِ، حسنَ الخَلقِ والخُلقِ، يجمعُ بينَ البشاشةِ والوقارِ، والحلمِ والهيبةِ، والعفَّةِ والنَّزاهةِ، وعزَّةِ النَّفسِ سَديدَ الآراءِ، حسنَ العبارةِ، سريعَ الفهمِ، عالماً بالأمورِ السِّياسيَّةِ والنَّاموسيَّةِ، والضَّوابطِ السُّلطانيَّةِ، والأحوالِ الديوانيَّةِ، والأمورِ الحربيَّةِ. يجمعُ ويفرِّقُ، ويبعِّدُ ويقرِّبُ، ويشتِّتُ ويؤلِّفُ، فإذا انضافَ إلى ذلكَ أن يكونَ قد بلغَ أشُدَّهُ وكثُرتْ تجاربُهُ، وأُمنتْ خيانتهُ وتحقَّقتْ أمانتهُ، كتوماً للأسرارِ يسكتهُ الحلمُ وينطقهُ العلمُ، له حفظٌ وبلاغةٌ وإيجازٌ في العبارةِ، حسنَ التَّأتِّي في مخاطبةِ الملكِ، لطيفَ التَّوصُّلِ إلى نقلِ طباعهِ من الميلِ إلى الاعتدالِ. وليكُنْ مشتملاً برداءِ الصِّدقِ والوفاءِ معروفاً بصفاتِ الخيرِ من نفسهِ مُنصفاً، متبحِّراً في أنواعِ العلومِ، مالكاً لزمامِ المنثورِ والمنظومِ، جامعاً لشتيتِ المكرُماتِ، عارفاً بكتابةِ الإنشاءِ والتَّرسُّلاتِ، كافياً في حسنِ النَّظرِ والمباشراتِ، شافياً في العروضِ والمناقلاتِ، خبيراً بالحلِّي والمحاسبَاتِ، ماهراً في الاستيفاءِ والمُقابلاتِ، قويًّا في صناعةِ الحسابِ والتصرُّفاتِ، بليغاً في الفصاحةِ والكلامِ، حاذقاً في البراعةِ والاهتمامِ، وافي الذِّمامِ، شفوقاً بالإسلامِ، زكيُّ الفكرةِ، ذكيُّ الفطرَةِ، سريعاً جوابُهُ، كثيراً صوابُهُ، حسناً خطابُهُ، مفنَّناً في الحكَمِ والاستنباطاتِ، مطيقاً في أعمالِ المقترحَاتِ، متيقِّظاً في تدبيرِ الدَّولَةِ العادلةِ، مخلَّداً ذكرَ السِّيرةِ الفاضلةِ، جَيداً في علمِ التَّواريخِ والهندَسَةِ، محمودَ العواقبِ في الاشاراتِ والأَقيِسَةِ، مُعمِّراً للجهاتِ والأعمالِ مثمِّراً لأصنافِ الأموالِ، كتوماً للأسرارِ، هادماً للأوزارِ، مجتهداً في تحصيلِ الغلالِ، والأموالِ من جهاتها، مقتصداً في وجوهِ صرفهَا ونفقاتها. قد تجلْببَ في ذلكَ بجلبابِ التَّقوى وقدَّم اللهَ بينَ يديهِ حتَّى يقوى، فهذهِ صفاتُ الوزيرِ الكاملِ ذي الجلالتينِ، والأثيرِ الفاضلِ في الحالتينِ.

= موسى بن عامر المري، ثنا زهير بن محمد عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة، قالت: قال رسول الله — ﷺ — وذكره.

فإن اتّفق كونُ الملكِ على ما ينبغي أيضاً من الخصالِ المحمودَةِ، والوزير على هذه الصّفةِ، فقد أسعدَ اللهُ تلكَ الرّعيّة، وعمَّرَ تلكَ البلادَ وهي الدَّولَةُ التي يتجمَّلُ بها الزَّمانُ ويرضَى عليها الرَّحمنُ.

وقالَ حكيمُ الهندِ إذا كانَ الملكُ عادلاً حسنَ السيرَةِ ووزراؤهُ على مثلِ رأيهِ وأفعالهِ، كان شبيهاً بالنَّهْرِ العظيمِ الحلو، وهمْ كالسَّواقي المستمِدَّةِ منهُ، يسيحُ على الأرضِ فيعمرُها وينبتُها، ويستخرجُ المنافعَ ويوصلها إلى غايةِ كمالها. وإذا كانَ الملكُ عادلاً ووزراؤهُ ظلمة كانَ كالنَّهْرِ العذْبِ فيه التماسيحُ فلا يقدِرُ أحدٌ على الانتفاعِ بهِ ولا السّباحةِ فيهِ. وإذا كانَ الملكُ سيءِ السِّيرةِ ووزراؤهُ كذلكَ، كانوا جميعاً شبه البحرِ المالحِ الّذي لا راحةَ فيهِ. وإن كان ظالماً وهمْ بعكسهِ كان كالبَحْرِ الأعظَمِ فيهِ الدُّرَرِ والخطَرِ.

وقيلَ: أضَرَّ ما على الملكِ أن يكونَ وزيرهُ يجيدُ القولَ ولا يجيدُ العملَ، فيركنُ الملكُ إلى أقوالهِ ويختلُّ ملكهُ بإهمالهِ وقبيحِ أفعالهِ.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: إذا رأيتَ الوزيرَ يجمع المالَ لنفسهِ، فأبعدهُ فلا خيرَ فيهِ، لأنَّ حُبَّ المالِ يغطّي العقلَ عن مشاهدَةِ المصالحِ.

وقالَ: كانتِ الفرسُ تختارُ أن يكونَ الوزير حسنَ الهيئةِ والصُّورَةِ، سالمَ الأعضاءِ منَ النّقصِ والعيبِ، متوسِّطاً في الحلمِ والعقوبةِ والوقارِ والبشاشةِ، جيّدَ الفهمِ، أصيلَ الرّأي، متينَ الدّينِ فصيحَ العبارةِ، مليحَ الخطِّ، مطَّلعاً على تواريخِ الأممِ وتجارُبِ الأوَلِ، ثابتَ الجأشِ عندَ تزاحُمِ[1] الحوادثِ، فإنّهُ الوزيرُ المجموعُ الخصالِ. ولا ينبغي أن يكونَ الوزيرُ حسوداً ولا حقوداً ولا غادراً، ولا شرهاً في أكلٍ ولا شربٍ ولا نكاحٍ.

(١) في (ب) كثرة بدلاً من (تزاحم).

وقد اختلفَ أهلُ السّياسةِ في عددِ الوزراءِ فذهبتِ الهندُ إلى اتّخاذ سبعة، ويزعمونَ بذلكَ إلى تدبير الفلكِ بالسَّبعةِ السيَّارة، وبعضهم ذهب إلى خمسةٍ وهو رأيُ الرُّومِ، والفرسُ اختاروا ثلاثةً، والإسلامُ اختصروا على واحدٍ كافٍ[1].

فينبغي للملكِ أن يوسِّعَ على الوزراءِ في العطاءِ، ويفرِّغَ بالهمِّ عن مهماتهم بإزاحةِ أعذارهمْ لئلاّ يشتغلوا بأحوالهمْ عمَّا هم بصددهِ من الأمورِ السُّلطانيَّة، ويساوي بينهم في العطاءِ إذا كانت أنسابهمْ وأقدارهمْ متماثلة، فإنَّهم يتحاسدون فيغشون ولا ينظرُ الى التَّفاوتِ بين الأسنانِ، فرُبَّ شابٍ أصحَّ[2] رأياً من الشَّيخِ وبالعكسِ، وقد قيلَ إنَّ العقلَ يهرمُ بهرمِ الإنسانِ.

(١) سقط من (ب) لفظ (كاف).
(٢) في (ب) أحسن بدلاً من (أصح).

فصلٌ في المشورَةِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل عَلَى اللهِ﴾[1] الآيةُ. فحثَّ على المشورةِ وندبَ اليها وفيها من المصالحِ ما لا يخفَى وما ندمَ من استشارَ، كما قيلَ:

لا تحقرنَّ الـرَّأيَ وهـوَ موافِـقٌ حكمَ الصَّوابِ إذا أتى من ناقصِ
فالـدُّرُّ وهـوَ أجَـلُّ شـيءٍ يقتَنـى ما حطَّ قيمتَهُ هـوانُ الغـائصِ

والمشورةُ صناعةٌ شريفةٌ لأنَّها نفسانيَّةٌ متعلِّقةٌ بالفكرِ والقوَى، وذلكَ في غاية الشَّرفِ، كما أن حملَ الأثقالِ من الأعمالِ البدنيَّة البعيدة عن تعلُّقاتِ النَّفسِ وهو في غايةِ الخساسةِ وعلى مقدار نفاستهِ يكونُ الصَّوابُ، فيؤثِّرُ مصالحاً كثيرةً، وكذلكَ الخطأُ فيه يؤثِّر كثيراً من المفاسدِ والشرورِ، فكم

(١) سورة آل عمران (آية رقم ١٥٩).
ولقد شاور الرسول أصحابه في غزوة بدر فقالوا: «يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون».
وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حين أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم، وشاورهم في أحد أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدوّ.

من دماءٍ تباحُ بهِ وتحقنُ، وبلادٍ تعمَّرُ به وتخربُ؛ فينبغي للملكِ إذا عزمَ على المشورةِ في الأمورِ المهمةِ العظيمةِ أن يخلو معَ كلِّ واحدٍ ويستشيره، ثم يتفكَّرُ في الرأي، ويجمعُ بينهمْ بعدَ ذلكَ ويأخذُ رأيهمْ جميعاً، فكلُّ رأيٍ اقتصروا عليه الأكثر، يميّزَ الملكَ فيه ويراه بميزان عقلهِ، ثم يقيسهُ على آثارِ المتقدّمينَ، فما وافقَ يعتمدُ عليهِ، والقرائنُ تدلُّ على صحَّةِ بعضها بعضٍ، وان كانَ ممن يستشيرهمْ فرادَى فلا يجمعُ بينهمْ، فانَّ الانفرادَ فيهِ احتياطٌ على الكتمانِ واندفاعِ محذورِ منافقةِ بعضهمْ لبعضٍ أو مشاققتهِ.

ويجب على المستشار[1] أن يكتم ذلكَ عن الصَّبي الصَّغير والمرأة ومن لا يثق الى كمالِ عقلهِ، ولا يكتبهُ بما يُقرأ لغيرهِ، ولا يستشهدُ بما يدلُّ عليه، فكم قد ظهرَ من الأسرار بهذهِ الطرق ما أفسدَ الأحوالَ.

ومما جرَى في ذلك أنَّ بعضَ بني الفراتِ كانَ لهُ رَوْشَنٌ مطلٌّ على[2] الدَّجلةِ، وكانَ اذا جلسَ فيهِ لقضاءِ الأشغالِ وقراءةِ القصصِ، قطعَ ما يريدُ كتمانهُ ورمى بهِ في دجلة، وعندهُ أنَّهُ قد احتاطَ على الكتمانِ، وكانَ رجلٌ من أصحابِ الأخبارِ يجلسُ على طريقِ مائهِ، ويلتقطُ تلكَ الأوراقَ المقطَّعةَ ثم يمضي بها ويلفقها ويستخرجُ منها الأسرارَ الَّتي ظنَّ أنَّها كتمها، فاختلَّتْ عليهِ بذلكَ أحوالهُ. وأمَّا الحازمُ من الملوكِ فإنَّهُ كان يجلسُ وبين يديهِ طستٌ فيهِ الماء، وكلَّما قرأ رقعةً يُريد كتمانها غسلها بيدهِ لوقتها، فبلغَ بذلكَ مقاصدَ كثيرةً، ونجحتْ له مطالب غيره. وقال البلخي[3] ينبغي للملكِ

---

(١) يقول الرسول — ﷺ — «المستشار مؤتمن».
(٢) في (ب) بزيادة (نهر) بدلاً من (على الدجلة).
(٣) لعله محمد بن الفضل بن العباس أبو عبدالله البلخي صوفي شهير من أجلّة مشايخ خراسان، أخرج من بلخ فدخل سمرقند، ومات بها عام ٣١٩ هـ. من كلامه: ست خصال يعرف بها الجاهل: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وإفشاء السرّ، والثقة بكل أحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوّه. (راجع طبقات الصوفية ٢١٢ — ٢١٦/ وحلية الأولياء ١ : ٢٣٢).

إذا دهمهُ أمرٌ عظيمٌ فلا يضطربُ لهُ، ويتثبَّت ويتوقف في إشاعته، ولا يبادرُ الى المشورةِ، فإنه لا يزيد نظرةً في ذلكَ إلا بصيرةً، والأمرُ الصعبُ الا سهولةً، ثم يستشيرُ ويعمل فيه فقد تبدرُ من الشرور بوادرُ ليسَ لها أصلٌ، وهذا أخذَ من قولِ الحكيم أفلاطون حيث قال: كل عظيم يبدأ صغيراً ثم يعظم الا المصيبة فإنها تبدأ عظيمةً وتصغر.

وقد قيلَ استعينوا على نجاحِ[1] الحوائجِ بالكتمانِ وتستشار الوزراءُ في الحربِ، فإنَّهُ كالزِّنادِ يُصْليها ولاَ يصطَليها، ولا يستشار الجندُ فيها إلاَّ من كانَ كاملُ العقلِ غير متهوِّرٍ في شجاعتهِ، ولا جبانٌ، ولا بخيلٌ؛ فإنَ المتهوِّرَ يوقِعُ في الأخطارِ، والجبان والبخيل يفوِّتُ الفرصَ.

وينبغي للملكِ أن لا يجعلَ بينهُ وبين البريدِ وأصحابِ الأخبارِ واسطةً، ولا يجعلَ بينهمْ وبينَ الوزراءِ تعلُّقاً، لأنَّ ذلكَ يوهنُ المملكةَ ويُطوي الأخبارَ عن الملكِ، لأنَّ الوزيرَ لا يمكِّنُ أحداً من إيصالِ ما يكره إلى الملكِ، ويؤخِّرُ عنهُ ما يجبُ تقديمهُ.

يحكَى أنَّ المأمونَ لمَّا عزمَ على نقلِ الخلافةِ إلى الطَّالبيِّينَ، وبايعَ وهو بمرْوٍ لعلي بن موسى الرِّضا، بلغَ ذلكَ الى بني العبَّاسِ، فاضطرَبوا وشقَّ عليهمْ ذلكَ، ثمَّ نصبُوا إبرهيمَ المهديَّ وبايعوهُ، وأدَّى الأمرُ إلى أن حاربُوا الحسنَ بنَ سهلٍ وكسروهُ، والأخبارُ منطويةٌ عن المأمونِ بسببِ تمكّن

---

(١) الحديث رواه الطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رفعه، وكذا البيهقي، وابن أبي الدنيا والعسكري والقضاعي، بسند فيه سعيد بن سلام كذّبه أحمد، وأخرجه العسكري أيضاً من غير طريقه بسند ضعيف، وفيه انقطاع بلفظ (استعينوا على طلب حوائجكم بكتمانها فإن لكل نعمة حسدة ولو أن أمرأ كان أقوم من قدح لكان له من الناس غامز) وله طريق أخرى عند الخلعي في فوائده عن علي رفعه (استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان لها) ويستأنس له بما أخرجه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً (إن لأهل النعم حسداً فاحذروهم) وذكر الزيلعي في سورة الأنبياء من تخريجه جماعة روى الحديث عنهم، والأحاديث الواردة في التحدث بالنعم محمولة على ما بعد وقوعها فلا تكون معارضة لهذه. والله أعلم.

ابن سهلٍ من الأمورِ، وكان وزيرُ المأمونِ، فتحيَّلتْ زوجةُ المأمونِ في أن بعثتْ لهُ خلعاً من خزٍّ ووشيٍّ، وكتبتْ ما أرادتْ على بطاينها، وجعلتْ فوقَ البطاين بطايناً وسخةً خلقةً فلمَّا عرضتْ على الفضلِ[1] بن سهلٍ أمر بحملها إلى المأمون ولم ينتظرْ في ذلك، فلمَّا أرادَ المأمونُ لبسها نظرَ في رداءَة بطايتها فنزعها، فرأى الكتابةَ على البطاينِ الأصليَّةِ، فعظُمَ ذلكَ عليهِ، وعلمَ انطواءَ الأخبارِ عنهُ، فأخرجَ البريد عن تعلُّقِ الوزيرِ وتنكَّرَ ذلكَ من الفضلِ بنِ سهلٍ، فقالَ لهُ: أردْتُ أنْ أكفيكَ هذا الأمرَ ثمَّ أعلمكَ بهِ، فلمْ يقبلَ عذرَهُ ورجعَ إلى العراقِ من وقتهِ، وكانَ من أمرهِ ما هو مذكورٌ مشهورٌ.

(١) هو **الفضل** بن سهل السرخسي أبو العباس، وزير المأمون وصاحب تدبيره. اتّصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠ هـ. وكان مجوسياً وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً، فكان يلقب بذي الرياستين (الحرب والسياسة). ولد عام ١٥٤ هـ وتوفي عام ٢٠٢ هـ في سرخس (بخراسان). قتله جماعة بينما كان في الحمام. قيل إن المأمون دسّهم له، وقد ثقل عليه أمره، وكان حازماً عاقلاً فصيحاً من الاكفاء. أخباره كثيرة. (راجع وفيات الأعيان ١ : ٤١٣/ والكامل لابن الأثير ٦ : ٨٥ ــ ١١٨/ وتاريخ بغداد ١٢ : ٣٣٩/ واللباب ١ : ٤٤٥).

الباب الثالث

في كتّاب الرّسائلِ والدّواوينِ وما لهم من الرُّسومِ والقوانينِ

قيلَ إنَّ الخطَّ أحدُ اللّسانينِ، وكاتبَ الملكِ أحدُ الترجمانينِ؛ فيجبُ أن يختارَ الملكُ كاتبَ رسائلهِ من يكونُ حسن الفهمِ والذّكاءِ، وافرَ العلمِ والعقلِ، صحيحَ الرّأي والعبارةِ جزلها، مليحَ التّأتّي في نظمِ المعاني ونثرها، فإن اتّفقَ أن يكونَ حسنَ الخطِّ فهوَ كمالهُ، وإلاَّ فيكونُ هو المنشيء وغيرهُ الكاتبُ. ولقد عُيِّبَ على بعضِ الكتابِ كونهُ لا يُحسنُ البرايةِ للأقلامِ، فقالَ: ذاكَ من صنعةِ التّجارةِ وهو إليها أقربُ، ولكن فيه عيٌّ وعجزٌ من الكاتبِ.

وقيلَ الكلامُ جسدٌ والمعنى روحهُ، والخطُّ هيئتهُ وجمالهُ أو قبحهُ، ولا غناءَ لكاتبِ الإنشاءِ أن يكونَ ذا فنونٍ من العلمِ في فنّ البلاغةِ والبراعةِ، وعلم الشّريعةِ والتّاريخِ، والكتابِ العزيزِ والتّفسيرِ والاحاديثِ النبويّةِ، والآثار المرويّةِ وأشعارِ العربِ، وأمثالهم السّائرة والوقائعِ، حسنُ الخطِّ سريعهُ، جيّداً في النّحوِ والعربيّةِ، ويعرفُ الحججَ النّقليّةَ والعقليّةَ والبراهين، فربما أنّهُ احتاجَ إلى دعوةٍ إلى مذهبٍ أو مجادلةٍ في النزوعِ عن مذهبٍ أو

اعتقادٍ، فيبطلُ المذهب الممنوع ويثبتُ المذهب المدعوّ إليهِ وبالعكسِ، ويجبُ أن يكونَ عارفاً بالأمورِ السياسيَّةِ والقواعدِ الملكيَّةِ، فإذا عهدَ إلى نائبِ إقليمٍ أو والي حربٍ أو نائبِ ثغرٍ أو قاضٍ أو خطيبٍ أو حكيمٍ، أو كائنٍ مَنْ كانَ من أربابِ المناصبِ وغيرها، فيعرفُ مقاديرَ النّاسِ وطبقاتهمْ ومكانهم من الدّولةِ والملكِ، فيوفيهم حقوقهمْ في النّعوتِ والألقابِ والخطابِ.

ومن نظرَ في كتبِ أبي أيّوبِ الموريانيِ وأبي سلمةَ[1] الخلالِ وتأثيرهما في صدْرِ الدّولَةِ العبّاسيَّةِ، علمَ شرفَ موقعهَا، وكذلكَ الحالُ في بني برمكَ، ثم من بعدهم الصّاحبُ[2] بنُ عبّادٍ في الدّولةِ الدّيلميَّة وتمهيدها وتثبيتِ قواعدها وتشييدِ مبانيها، وكذلكَ الصّابي وغيرهِ من فضلاءِ الكتّابِ، ثم في الدّولةِ الأيّوبيَّةِ ومحاسن دررِ ألفاظِ الانشاءاتِ الفاضليَّةِ في الدّولةِ النّاصريَّةِ

---

(١) هو **حفص** بن سليمان الهمداني الخلّال أبو سلمة. أول من لقب بالوزارة في الإسلام. كانت إقامته قبل ذلك في الكوفة، وأنفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية، وكان يفد إلى الحميمة في أرض الشراة، فيحمل كتب ابراهيم الإمام ابن محمد إلى النقباء في خراسان، وصحبه مرة أبو مسلم الخراساني تابعاً له، ولما استقام الأمر للسفّاح استوزره، فكان أول وزير لأول خليفة عباسي، كان يسمر كلّ ليلة عند السفّاح وهو في الأنبار، والسفّاح يأنس به لما في حديثه من إمتاع وأدب، ولما كان عليه من علم بالسياسة والتدبير، واستمرّ أربعة أشهر واغتاله أشخاص كمنوا له ليلاً ووثبوا عليه وهو خارج يريد منزله، فقطعوه بأسيافهم. قيل: إن أبا مسلم الخراساني دسّهم له لشحناء بينهما عام ١٣٢ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ١٦٣/ والفخري ١١١/ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٧٧/ والبداية والنهاية ١٠ : ٥٥).

(٢) هو **إسماعيل** بن عباد بن العباس أبو القاسم الطالقاني. وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي، ثم أخوه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوين) عام ٣٢٦، وتوفي بالري عام ٣٨٥هـ، ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف جليلة منها: المحيط وكتاب الوزراء، والكشف عن مساوىء شعر المتنبي، والإقناع في العروض، وتخريج القوافي، وغير ذلك كثير. (راجع معجم الأدباء ٢ : ٢٧٣ ـ ٣٤٣/ ومعاهد التنصيص ٤ : ١١١/ وابن خلدون ٤ : ٤٦٦/ وابن خلكان ١ : ٧٥/ وإنباء الرواة ١ : ٢٠١).

الصَّلاحيَّة، وتلكَ المعاني البديعةِ والألفاظِ السَّهلةِ المنيعةِ. وأما الصَّابيُّ[1] فإنَّهُ كانَ على غيرِ دينِ الإسلامِ، وتجري ألفاظُ القرآنِ الحكيم والأحاديثُ النَّبويَّةُ في ألفاظهِ وكتابتهِ. ويستحبُّ من جميع ما ذكرَ ما قلَّ ودلَّ في رشاقةِ الألفاظِ، وحلاوةِ المعاني، وفصاحةِ الإعرابِ، وطلاوةِ السَّجعِ، وخفَّةِ الإشارةِ، وجودَةِ العبارةِ، وقُربِ المَعنى، وبلاغةِ الكلامِ، وحسنِ الخطِّ، وكفاية الجواب، ومقنعِ التَّوقيعِ.

وكانت للفرس وملوكها الأكاسرة تواقيعُ صحيحةُ المعاني جزلةُ العبارةِ بالفارسيَّةِ، وقد ترجمتْ بالعربيَّةِ فذهبت جزالتُها وبقيتْ معانيها، فمن ذلكَ توقيعٌ في رقعةِ شاكٍ من بعضِ الولاةِ ما معناهُ لا تقهرْ من دونكَ، فإنَّكَ الضَّعيفُ يقهركَ من فوقكَ فإنَّهُ القويُّ. ووقَّعَ لمحبوسٍ طالَ سجنهُ لو سجنتَ نفسكَ عن نيلِ الهوى لم يَطُلْ سجنُ جسمكَ.

وهذا مثلُ توقيعِ بعضِ وزراءِ بني العبَّاسِ تجرَّعَ مرارةَ الأدبِ كما أشعْتَ حلاوةَ الأربِ. ورُفِعَتْ قصَّةٌ إلى الصَّاحبِ[2] يسألُ فيها ولايةَ عملٍ، فوقَّعَ إن احتجنا إليكَ صرَّفناك، وإلاَّ أحسنَّا إليكَ وصرفناكَ. ووقَّعَ بعضُ الملوكِ في مؤامرةِ من طلبَ له الأمانَ يؤمَنُ ولا يؤمَّنُ. ووقَّعَ المنصورُ إلى عاملٍ لهُ شكا منهُ بعضُ الرَّعيَّةِ اكفني أمرهُمْ وإلاَّ كفيتهُمْ أمركَ. ومثلُ هذا كثيرٌ.

---

(١) هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني أبو إسحاق الصابي. نابغة كتّاب جيله، كان أسلافه يعرفون بصناعة الطبّ ومال إلى الأدب، فتقلّد دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليداً سلطانياً في أيام المطيع لله العباسي، ثم قلّده معزُّ الدولة الديلمي ديوان رسائله عام ٣٤٩ هـ؛ فكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة (ابن عم بختيار) بما يؤلمه، فحقد عليه ولما قتل معز الدولة وملك عضد الدولة بغداد، قبض على الصابيء سنة ٣٦٧ هـ وسجنه، وأمر بأخذ ماله، وكان صلباً في دين الصابئة. عرض عليه عز الدولة الوزارة إن أسلم فامتنع وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين في صوم رمضان. توفي عام ٣٨٤ هـ. (راجع ابن خلكان ١ : ١٢/ والإمتاع والمؤانسة ١ : ٦٧/ والنجوم الزاهرة ٣ : ٣٢٤).

(٢) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

وحُكيَ عن السُّلطان محمود[1] بن سبكتكينَ أنَّهُ بعثَ الى الخليفةِ يطلبُ أن يذكرَ اسمهُ في الخطبةِ ببغداد، وينقشَ اسمهُ في سكةِ الذَّهبِ والفضَّةِ، فامتنعَ الخليفةُ عن ذلكَ، فبعثَ كتاباً فيه تهديدٌ ووعيدٌ حتَّى قالَ في جملتهِ لو أردتُ نقلَ حجارةِ بغداد على ظهور الفيلةِ الى غزنة لفعلتُ، فبعثَ إليه الخليفةُ كتاباً مختوماً؛ فلمَّا فتحهُ لم يجد فيهِ بعدَ البسملةِ سوى ألفٍ ممدودةٍ، وفي وسطهِ لامٌ، وفي آخرهِ ميمٌ، والصلاةُ والحمدُ لله، فتحيَّرَ السُّلطانُ في ذلكَ وأهلُ مجلسهِ، حتَّى دخلَ عليهم أبو بكرٍ القُهَسْتاني[2]، فتفكَّرَ في ذلكَ وقالَ عندي شرحهُ، فقالَ اذكر ولكَ ما تريدُ! فقالَ: بعثَ إليهمْ السُّلطانُ يهدّدهمْ بالفيلةِ، فبعثوا له هذا الكتابَ وفيهِ ألفٌ ولامٌ وميمٌ اشارة إلى قولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾[3] الآية إلى آخر السُّورةِ؛ فارتاعَ لذلكَ، وأوقعَ اللهُ في قلبهِ الخوفَ والنَّدمَ، وعادَ إلى أحسن الأحوالِ من الرّضا والأدبِ. ومثلُ هذا كثيرٌ، وبلاغةُ الكلامِ لم تُحصَر، ولكن اختصرتُ كي لا يفوتَ الغرضُ وخشيَةً من المللِ. وهذا فنٌّ كثُرتْ فيهِ التَّصانيفُ[4] وإنَّما ذكرتُ هذا القدْرَ على سبيلِ الإشارةِ.

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة كبيرة في هذا الجزء.

(٢) هو **محمد** بن جمعة بن خلف أبو قريش القهستاني الأصم، من حفّاظ الحديث، قال ابن ناصر الدين: متقن ثقة مكثر رجال، له المسند الكبير، وحديث مالك وسفيان وشعبة، وكتاب في الحديث رتبه على الأبواب. توفي بقهستان في عشر التسعين عام ٣١٣ هـ. (راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٩٧/ وتاريخ بغداد ٢ : ١٦٩ وفيه قدم بغداد وحدث بها).

(٣) سورة الفيل (آية رقم ١).

(٤) في (ب) المصنفات بدلاً من (التصانيف).

فصلٌ
في ديوان الجيوشِ وعرضهمْ

يجبُ أن يكونَ ديوان الجيشِ من أعلا الناس قدراً وأوسعهمْ صدراً، وأحسنهمْ خَلقاً وخُلقاً، وأطيبهمْ أصلاً، وأجملهُمْ فعلاً، وأشرفهمْ نفساً، وأكثرهمْ أنساً، ويكونَ منهم كبيراً قدرهُ، نافذاً أمرهُ، رطباً لسانهُ، عظيماً شأنهُ، صالحةً فكرتهُ سليمةً فطرتهُ، يرجعونَ إليهِ، ويعتمدونَ في أمورهمْ عليهِ، ناظراً عليهمْ، مشيراً إليهمْ، خبيراً بالحُلاَ والعروضِ، ومعرفةِ الرِّجالِ ورتبهمْ وأقدارهمْ وموقعهم من الدَّولةِ، ويتْقن أمرَ الحلْيةِ فلا يشتبه عليهِ شخصٌ بشخصٍ وشياةِ الدَّوابِ والسِّلاحِ، ولتكُنْ لهُ هيبةٌ وحرمةٌ كبيرةٌ[1] حتَّى لا يجسُر أحدٌ على التَّدْليسِ ولا غيرهِ، ويحترز عندَ العروضِ فهوَ الأصل في انتظامِ[2] أمرِ الجيشِ.

يحكَى أنَّ الإسكندرَ كانَ لهُ جيوشٌ عظيمةٌ، وكانَ في عرضها يباشرُها بنفسهِ، ويتقن عرضَ الفارسِ وخيلهِ وعدَّتهِ، وكان أكثرُ عرضهِ في المضائقِ في السَّفرِ فما كان أحدٌ يجسرُ على التَّهاونِ في ما يحتاجُ إليهِ.

وكسرَى أنو شروان يحكَى عنهُ أنَّهُ أمرَ بعرضِ جيوشهِ لمَّا عزمَ على الحروبِ، وكان من رسمهمْ أن يمُرَّ الفارس الَّذي هو في الطَّبقةِ الأولى

---

(١) في (ب) عظيمة بدلاً من (كبيرة).
(٢) سقط من (ب) لفظ (انتظام).

على حصانهِ ومعهُ الغلامُ بجنيبهِ والدّرع والمغفر والكفوف الزرد والرّانات والتّجافيف للخيلِ، ويسمّى بركستوار، والآن بركصطوان، والترسُ والرُّمحُ والسيفُ والدّبوسُ والسّكينُ الكبيرةُ، والحبلُ والمخالي والسكك الحديد والمقاود وكبة خيوط، ومخصَف ومقصّ[1] ومطرقة، وكاز ومسَلّ وأبر وخيوط، وزناد وطرطُور ولُبّاد وقَوسين موتورّة، ووتَرين زايدَة لخوفِ الانقطاعِ، وجعبتينِ[2] للنُّشّاب أحدهُما معهُ، والأخرى معَ غُلامهِ. ومرَّ كسرى على العارضِ عند ذكرِ اسمهِ — كما جرتْ عادتهمْ — فافتقدَ آلاته، فوجدها ناقصة الوترين المعدّة للانقطاع، فلم يمضِ اسمَهُ حتّى بعثَ وأتى بهما وعلّقها وجازَ.

ولم تزل بنو أميّة تعرضُ الجيوشَ وتفصّلُ الطّبقات وفي وقتٍ يتشدّدونَ وفي وقتٍ يتساهلونَ، وكذلكَ ملوكُ المغربِ وغيرهم.

---

(١) سقط من (ب) لفظ (مقص).

(٢) في (ب) مخلاتين بدلاً من (جعبتين).

فصلٌ
في ديوان الخراجِ

رسْمُ هذا الديوانِ يشتملُ على خراجِ الضياعِ والجوالي والزكاة. والرَّعيَّةُ كالبستانِ للملكِ وصاحب الخراج أي واليهِ كالفلاّحِ المقيم بوظائفِ البستان ومصالحهِ، فكما يجبُ أن الفلاّحَ يتعهَّدُ الأشجارَ بالسَّقي والحرثِ والعمارةِ والحفظِ والرّفقِ في المجتَى، ثمَّ بأداءِ الأجورِ والأمانةِ، فكذا والي الخراجِ يتعهّدُ الرَّعيَّةَ بالتّقويةِ والإعانةِ والمساعدةِ في العمارةِ والحراسةِ والرّفقِ في الاستيفاءِ والصَّبرِ إلى حين اليسرةِ والإدراكِ. ومن لوازمِ هذا الدّيوانِ معرفة الحسابِ والمساحةِ والضَّربِ والقسمةِ والأمانةِ والعدالةِ ليأخذ الحقّ ولا يحيف ولا يضيّع، فإنَّ الحيفَ سريعُ المضرَّةِ وخرابِ البلادِ.

وقالَ كسرَى: مثلُ الملكِ الّذي يرَى بظلمِ رعيَّتهِ ويستوفي منهمْ فوقَ ما ينبغي الاَّ مثلُ الّذي يحفرُ التُّرابَ من أساسِ بيتهِ ليطيّن بهِ سطحهُ، فمضرّتهُ أكثرَ من منفعته.

وقالَ بعضُ الملوكِ لوالي الخراجِ: إذا أردْتَ أن يطولَ لسانكَ فلا تطوّل يدكَ.

وقالَ بعضُ ملوكِ الفرسِ علينا لولاتنا ودوابنا أن نوسِّعَ عليهمْ، ونُقوِّي أيديهمّ، ونزيح عللهم، وننفّذ أمرهم، ما عدلوا وكفُّوا ونصحوا وعفُّوا.

وقيلَ: أغنِ من ولَّيتَهُ عن السرقةِ تستغـنِ عن عقوبتهِ، فليسَ يكفيكَ من لم تُكفهِ.

كان أزدشيرُ بابكَ إذا عزلَ عاملاً لهُ من عملهِ، لم يعاقبهُ بالعذابِ بل يأمر بمحاسبتهِ وأخذَ ما ظهرَ عليهِ، ويقولُ: عقوبةُ الفقرِ أشدّ العقوبات. وإذا عزلَ من ظهرَ منهُ التّقصيرُ أو كراهيَّة ألقى عليهِ من الرِّزقِ ما يعيشُ بهِ، وقالَ نعاقبُ من كرهناهُ بالهجرانِ ولا بالحرمَانِ ويجبُ أن يبتدىء صاحبُ الخراجِ بجبايتهِ عندَ إدراكِ الغلالِ وصلاحِ الثّمارِ، وكان الرّسمُ الأوّلُ افتتاح الخراجِ من يوم النَّيرُوزِ، وهو من أوّل أفروردين ماه من شهورِ الفرسُ، وهو الثّالثُ من كيهك من شهور القبط، وهو الآن آخر شهر كانون الأوّل.

وكان أهلُ مصر يستخرجونَ الخراج في أوّلِ يومٍ من أمشير، ثم صارتِ المتأخّرة تجعل النوروز أوّل نزول الشّمس برج الحملِ ولمّا رأى المعتضد أنّ هذهِ الأوقاتِ هي زمانُ العسرةِ على الرعيّةِ نقلَ النوروز في جميعِ البلادِ إلى الحادي والعشرينَ من حزيران، وهو وقتُ اليُسرةِ وإدراك الغلاّتِ والثّمارِ وهو النّوروزُ المعتضديّ وترتّب الأمرُ عليهِ وليسَ الحالُ في كلّ المواضعِ بلْ يجبُ الرّفق على كلّ حالٍ.

فصل
في ديوان النَّفقاتِ وهو ديوانُ الأمانةِ والحاشيةِ

صاحبُ هذا الديوان ينبغي أن يكونَ جيِّد الحسابِ[1] والقسمةِ والضربِ والمكاييل والوزنِ والأسعار والضرائبِ، عارفاً بجميعِ الأصنافِ من الملابسِ والمطاعمِ والآلات والحيوان وقيمها[2]، ثم يعرفُ الرُّسومَ السُّلطانيَّة والوظائفَ والعطاء والوفد والأضياف والصِّلاتِ والرُّسل والهدايا.

وصاحبُ هذا الديوانِ يسمَّى مستوفي. وهو في الاسم الفارسيِّ أرفع الدواوينَ بعد الوزير والنُّظار لأنه إليه ترجعُ جميعُ أمورِ الدواوينِ ومعالمها عندهُ، وإليهِ ترفعُ حسباتها ليستوفي عليها ويطالب بالأموالِ وما يتعين من المصالحِ، وتحتَ يدهِ عدَّةُ دواوين، فيجبُ أن يوسَّعَ عليهِ في رزقهِ[3] ومعلومهِ ومراكبهِ وغلمانهِ، بحيث إنَّهُ تُملأُ عينهُ حتَّى لا يميِّلهُ الرُّشا عن المصالحِ فتضيع بهذا السَّببِ.

وهكذا رأسُ ديوانِ الإنشاءِ وهو صاحبُ ديوانِ الإنشاءِ والأسرارِ فيجبُ أن يكون الجاري عليهِ فوقَ كفايتهِ، خارجاً عن الأنعامِ والإطلاقِ والافتقادِ

---

(١) في (ب) بزيادة كلمة (الفهم).
(٢) في (ب) وأثمانها بدلاً من (وقيمها).
(٣) في (ب) راتبه بدلاً من (رزقه).

حسب الطَّاقةِ وطاقةُ الملوكِ عاليَة. وأمّا المملكةُ فإنَّها اذا كانتْ متَّسعةً فيتفرَّعُ لها دواوين ورجوع الكُلّ إلى المستوفي وسميّ الديوان لأنَّهُ بالفارسيَّةِ اسمهُ ديُو، فعربت بديوان.

فصلٌ
في الصَّدقات وديوانها

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾[1] الآية. فوالي الصَّدقات والسَّاعي في تحصيلها ينبغي أنْ يكونَ فقيهاً عارفاً بما أوجبَ اللهُ على عبادِهِ في أموالِهِمْ منَ الزَّكَواتِ، وكيفَ أوجبَهَا، ومتى تُؤْخذُ، ومقدار النِّصابِ من كلِّ صنفٍ، وأخذ القيم فيما يجوزُ الأخذ، والخرص[2] فيما يجوزُ الخرصُ فيهِ، وزكاةُ الخليطَيْنِ والرِّكازِ والمعدنِ والتِّجارةِ والفِطْرِ، ثم يأمُرُ الملكُ بجمعِ ذلكَ وتفرقتِهِ وقسمتِهِ على أهلِهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[3] الآية. فمن

---

(١) سورة التوبة (آية رقم ١٠٣).

(٢) الخرص: حزر ما على النخل من الرطب تمراً وقد خرص النخل. والخرص أيضاً الكذب وبابهما نصر، والخرّاص: الكذّاب، قال تعالى: ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ﴾. والخرص ــ بضم الخاء وكسرها ــ: الحلقة من الذهب والفضة.

(٣) سورة التوبة (آية رقم ٦٠) وتكملة الآية ﴿والعامِلِينَ عَلَيْها والمُؤَلَّفَةِ قُلوبُهُمْ وَفي الرِّقَابِ والغارِمِينَ وفي سَبِيلِ اللهِ وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال رسول الله ــ ﷺ ــ: لا تحلُّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مرة سوى، رواه أحمد وأبو داود والترمذي، ولأحمد أيضاً والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة مثله، وعن عبيدالله بن عدي ابن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبيّ ــ ﷺ ــ يسألانه من الصدقة، فقلَّبَ فيهما البصر فرآهما جلدين، فقال: « إن شئتما أعطيتكما ولا حظَّ فيها لغنيّ ولا لقويّ مكتسب » رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد قويّ.

أخذها بحقّها وقسمها على مستحقّها كان منصفاً لرعيّتهِ، عادلاً في سياستهِ، تابعاً لسنّةِ شريعتهِ وفرضهَا. وفي أخذِ الزّكاةِ من المصالحِ في الدينِ والدُّنيا ما لا خفاءَ لهُ؛ فمنْ ذلكَ أنَّ جامعَ المالِ ومانِعَهُ مقتّرٌ وذاكَ مذموم، ومكثر العطاء والإنفاقِ مبذّرٌ وهو مذمومٌ، وخيرُ الأمورِ أوسطُهَا. وإخراج ذلكَ القدر على الوجهِ المشروعِ فيهِ أجرٌ عظيم من سدّ حاجةِ الفقيرِ وإتمامِ معيشتهِ، وإبراءِ ذمّةِ صاحبِ المالِ وتثميرهِ وحفظهِ، فإنّهُ قد جُرّبَ أنَّ المالَ إذا جُمعَ وبخلَ بهِ حدثَ عليهِ ما يتلفُه أو يتلفُ صاحبهُ، كالماءِ إذا اجتمعَ في الحوضِ العظيمِ حتّى يمتلئَ ويفيضَ، فربّما يشقّ مكانهُ ويخرجُ منهُ.

وقالَ حكيمُ اليونانِ: السّياسةُ في تكثيرِ القليلِ وتقليلِ الكثيرِ. وهذا كلامٌ جامعٌ[1] ، فيجبُ على الملكِ تقوية يد هذا الوالي المباشر لهذهِ الجهةِ، وبسط يدهِ، وعقوبةِ مانعِ الزكاةِ ومن دافع عنها كما فعلَ أبو بكرٍ[2] الصّديقُ رضيَ اللهُ عنهُ بهوازن حينَ منعوا الزّكاةَ. ولا ينبغي له أن يتعدّى ما حدّهُ الشرعُ في ذلكَ، فيأثمُ في الآخرةِ وتقبحُ سمعتهُ في الدنيا.

---

(١) في (ب) حكيم بدلاً من (جامع).

(٢) عندما ارتد بعض المسلمين بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ وقف لهم الخليفة أبو بكر وقفة المسلم العارف بدينه، المقدر للمسؤولية التي يتحملها، وقال كلمته المشهورة: « والله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونها لرسول الله ـ ﷺ ـ لقاتلتهم عليها ».

فإنَّهمْ كالسِّباعِ والعقاربِ[1] والحيَّاتِ؛ فلا بدّ للملكِ من التَّسبُّبِ في قمعهمْ وكفِّ شرّهمْ، وهمْ أصنافٌ:

صنفٌ ذوو قوّةٍ في أجسامهمْ فضلُ قوّةٍ وشدّةٍ ونجدةٍ، فإنْ نقصَتْ حظوظهمْ كانوا أعداء الدّولةِ، فينبغي أن ينظُرَ في حالهمْ ويوسِّعَ عليهمْ ويشغَلُوا بالجهادِ[2] دائماً.

وصنفٌ ذوو فقرٍ وفاقةٍ تولدّ الشَّرُّ في طباعهمْ من مرارةِ الحاجةِ فكذلكَ ينظرُ في حالهم، ويحسمُ مادَّتهم، ويشغلهمْ فيما يليقُ بهم، ويجري عليهمْ ما يسدُّ قوتَهمْ[3].

وصنفٌ ذوو حميَّةٍ وجهلٍ، نالهمْ من بعضِ أصحابِ السُّلطانِ ذُلٌّ وظلمٌ، وشكوْا من ذلكَ للملكِ أو لنائبهِ فلم ينصفوهمْ، ولهوْا عن إقامةِ الحقّ في ذلكَ، فحملهمْ جهلُهُمْ وعدمُ إنصافهمْ إلى التَّعرُّضِ لأسبابِ الشَّرِّ على الدّولةِ، والمخامرة إنْ أمكنهُمْ، وقطعِ الطّريقِ وسفكِ الدّماءِ، فاستوحشُوا واستأنَسُوا بالعبثِ بالنّاسِ، وبعدُوا عن الوطنِ وتحرّموا، وربّما تألّف معهم طوائف عصبيّة على الفسادِ، فيهلَكوا ويُهلِكُوا، فينبغي للملكِ أن يتداركَ هذا[4] الدّاءَ ويحسم مادّتهمْ بإنصافهمْ، ويتقدّم أمرهُ إلى نوّابهِ بذلكَ وإيصالهمْ من العدل إلى غايتهِ، فإن انتهوا وإلاّ يستأصل شأفتهمْ[5].

وصنفٌ آخرُ أهلُ نعمةٍ وعافيةٍ أدّاهم البطرُ إلى الفكرِ الرّديَّةِ في استعمالِ مَا لا يليقُ من الشّرِّ وإيقاع الفتنِ، فيجبُ أن لا يرَفَّهُوا ويشغلوا بالتّجاريدِ واليزَكِ ولا يُترَكُوا والبطَرَ.

---

(١) في (ب) الذئاب بدلاً من (العقارب).

(٢) في (ب) بزيادة لفظ (والأعمال).

(٣) في (ب) نقصهم بدلاً من (قوتهم) وهو أسلم.

(٤) سقط من (ب) لفظ (هذا).

(٥) في (ب) جمعهم بدلاً من (شأفتهم).

وصنفٌ آخرُ لهمْ أرزاقٌ جاريةٌ على بيوتِ الأموالِ إمّا على تصرُّفاتٍ وأعمالٍ أو على سبيلِ العطاءِ والإطلاقِ، فقطعتْ عنهمْ إمّا لضيقةِ الأموالِ أو لقلّةِ غناهمْ في الدّولةِ، فأدّاهمْ ذلكَ إلى بغضِ الدّولةِ والتّآلفِ[1] على ما يضُرّها فإنْ كثُروا وتجمّعوا أفسَدُوا، وإن قلُّوا طعنوا وسَبُّوا ومتى ظهرَ معاندٌ أو خارجيٌ مالُوا إليهِ، وطريقُ حسمِ مادّتهِمْ[2] أنْ تُمَيِّزَ أصنافُهُمْ ويُلحَقَ كُلُّ صنفٍ منهمْ بصفتهِ، ويُرْزق معهمْ ويعان عليها ويُشغل بعضهمْ ببعضٍ. ومن كانَ من أصنافِ الفسادِ والشّرِّ خُلّدَ في السّجنِ وأُجريَ عليهِ قوتهُ.

وصنفٌ من المتعلّقينَ بخدمةِ السُّلطانِ أوْ ينتمونَ إلى خَدَمهِ يفعلونَ الجرائمَ ويركبونَ العظائم، فيجبُ عليهم الحدودُ، فيشفعُ[3] فيهم، فيتركونَ فيؤدّي ذلكَ إلى طمعهم وازديادِهمْ في ذلكَ، وطمع غيرهم، ودواء ذلكَ أن يقرِّرَ الملكُ في نفوسِ خواصهِ أن لا يفعلوا ذلكَ، ولا يشفعوا فيمنْ يفعل ذلكَ، فإنَّهُ حسم للمادّة وكفّ للضّررِ.

وصنفٌ من أهلِ الجبالِ والقبائلِ الّذينَ في طبعهمِ الظلمُ والقتلُ حتّى أنّهُ لا يلذُّ لهمْ غيره، ويحمونَ بعضهمْ بعضاً، وهو داءٌ صعبٌ قلّما ينفعُ فيهم الزّجرُ والتّأديبُ، فليُشغَلُوا بالجهادِ والأسفارِ.

وأصنافُ أهلِ الفسادِ كثيرةٌ، فيكونُ الملكُ أو الوالي فيه يقظةٌ ومبادرةٌ إلى حسمِ مادّتهمْ وقطعِ عاديّتهِمْ، ومن أصنافهمْ: أهلُ الضّعفِ من العامّةِ[4] الّذينَ يختلسونَ ويستلبونَ ويتسلّلونَ. وأهلُ الغشّ في الصّنائعِ

---

(١) في (ب) العمل بدلاً من (التآلف).

(٢) في (ب) قطع دابرهم بدلاً من (حسم مادتهم).

(٣) أين هذا من قول الرسول ـــ ﷺ ـــ «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

(٤) سقط من (ب) جملة (من العامة).

فصلٌ
في ديوانِ بيتِ المالِ

هذا الدّيوانُ يُعرفُ بالديوانِ السّامي، وهو أصلُ الدّواوين ومرجعُها إليهِ ووظيفتهُ أن يثبت في جرائدهِ جميعَ أصولِ الأموالِ السُّلطانية على أصنافِها من عين وغلال وفيء وغنائم وأعشار وأخماس، ويُثبتَ ما تحصّلَ من ذلكَ، ويتّخذَ بيوتاً لأصنافِ الأموالِ، ويجعل عليها دواوينَ وحُرّاس؛ فالأموال والقماش فلديوانِ الخزانةِ ويجبُ أن يكونَ مباشريه قُضاة المسلمين بأنفسهم بلا نوّاب عنهم ومعهمْ خزان داريّة أمَناء أكفياء أقوى الناس ديانةً، والغلال لهمْ ديوان الأهراء يجب أن يكون مباشريه من أكبر العدولِ الديّانين الأعفّاء، والأسلحة والذّخائر لهمْ ديوان خزائن السلاح، يجبُ أن يكونَ مباشر هذه الجهة محتسب البلد، لأنهُ يعرفُ أمورَ الاستعمالاتِ وأُجرَ الصنّاع وأسعارَ الآلاتِ.

وان شرحنا فُروع الدّواوين طالَ الكتابُ، فيجبُ لصاحب ديوانِ النّفقات أن يكونَ مباشراً لديوانِ بيتِ المالِ ليذخر عندَهُ التّواقيعَ الثّابتةَ الدّالّةَ على صحّةِ مصروفِ النّفقاتِ، ثم يرفَعُ من أصنافِ الجواهر(١) ما يختصُّ بالسُّلطان، ومنَ الأموال الخالصّة منَ الذّهبِ والفضّةِ بغيرِ غشٍّ إلى خزانةِ

---

(١) في (ب) المال بدلاً من (الجواهر).

الخاصّ. وأمَّا النُّحاسُ والحديدُ إن لَمْ يُتعهَّدْ[1] صَـدِىءَ وتلـفَ، واللؤلـؤ يصفَر، والزُّمرّدُ يتفطَّرُ إذا عزن ولم يفتقد، والياقوتُ الأحمرُ ثابتٌ لا يتغيَّر، فيجبُ إزاحةُ أعذارِها ولاءِ المباشرين والتَّوسعةُ عليهم بكلّ وجه من خيلٍ وملابس ونفقات وغلمان وعبيد وملء أعينهمْ.

---

(١) في (ب) بزيادة (ركبه).

البابُ الرَّابع

في ولايةِ المظالمِ

هذهِ ولايةٌ جليلةٌ، وهي متعيِّنَةٌ على الإمامِ أو السُّلطانِ أن يباشرها بنفسهِ، أو يستنيب فيها نائباً يكون مقامَ نفسهِ، ويكون عارفاً عاقلاً دَيّناً أميناً كما قالَ اللهُ تعالى تكون أفعالهُ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ﴾(1) وقد سبقَ القولُ في بابِ العدلِ من ذلكَ.

فأوَّلُ ما يجبُ على من انتصبَ لذلكَ، أن يبدأ بنفسهِ فينتصف منها، وينصف من ولدهِ وأهلهِ وخواصّهِ، كما يحكَى عن أهلِ الفضلِ والعدلِ من الخلفاءِ والملوكِ أنّهُم جلسوا بين يدَي القضاة ودانوا للحقّ، وقد نقلَ ذلكَ عن أبرَويْزَ وأنو شَروَان وبهرَام جُور ورستم، وعن عمَر بن الخطّابِ

---

(1) سورة النساء (آية رقم ٥٨) وتكملة الآية: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾. في حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: « أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: « لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتصّ للشاة الجماء من القرناء ».

وعلي بن أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهما، وعمرُ بن عبدِ العزيزِ والمأمونِ وكثير من الملوكِ آخرهم الملك الظّاهر[1] بيبرس من ملوكِ التّركِ.

فيجبُ أن يكونَ هذا المتولّي صاحب سيفٍ وسطوةٍ وتمكُّن من الدولةِ، والفرسُ تسمّي والي هذا المنصب ميرْدَاد. معناهُ أمير العدلِ، وهو نائبُ الملكِ. والآن في هذا العصر في الإسلامِ يُسَمَّى نائب السُّلطان ملك الأمراء، وينبغي أن لا يأخذَهُ في الله لومَةُ لائمٍ، ولا يحابي ولا يجامِل، ولا يجلِسُ إلاَّ وعندَهُ قاضٍ أو فقيهٍ متشرّعٍ يُذَكِّرهُ إذَا نسيَ ويَدُلُّهُ إن أخطأ. وليكُنْ عندهُ شهودٌ معدّلينَ يشهدونَ على الإقرارات ويحضرونَ المحاكمات.

ولا ينبغي له أن يسفكَ الدِّماءَ وتفويتَ الأرواحَ إلاَّ بالشرعِ. وإذا اشتبهتْ عليهِ الأمورُ راجعَ فيها وأمرَ. ويكونُ لهُ كاتبٌ وديوانٌ يثبّتُ فيهِ أربابَ الجناياتِ، وما يثبُتُ من حقّهِمْ، وكيفيَّة عقوباتِهِمْ. وينبغي أن لا يُمثِّلَ في القتْلِ ولا يهتكَ الأستارَ، ويقيل[2] ذوي المروءاتِ والهيئات عثراتهمْ ما لم يكنْ فيهِ منعٌ من جهةِ الشّرعِ، بل يقمعُ المفسدينَ ويردعُ العابثينَ؛ فإنَّ في النّاسِ قومٌ في طباعهم الشّرُّ والظُّلمُ واختيارُ ذلكَ، وهو يتولَّدُ من وجوهٍ،

---

(١) هو **الظاهر** بيبرس البندقداري الصالحي ركن الدين الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والأخبار والآثار. مولده عام ٦٢٥ هـ بأرض القبجاق، وأسر فبيع في سيواس ثم نقل إلى حلب ومنها الى القاهرة؛ فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ بيبرس فجعله في خاصة خدمه ثم أعتقه، ولم تزل همته تصعد به حتى كان « أتابك » العساكر بمصر في أيام المظفر قطز، وقاتل معه التتار في فلسطين، ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز فقتلوه، وتولى « بيبرس » سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨ هـ، وتلقب بالملك القاهر أبي الفتوحات، ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر، وكان شجاعاً جبّاراً يباشر الحروب بنفسه. توفي عام ٦٧٦ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ٨٥/ والنجوم الزاهرة ٧ : ٩٤/ وابن إياس ١ : ٩٨ و١١٢/ ودائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٣٦٣، وهو يذكر مولده عام ٦٢٠ هـ).

(٢) في (ب) ويأخذ بدلاً من (ويقيل).

والتَّدليسِ وهذه الطَّوائف ضعيفةٌ حقيرةٌ، والمحتسبُ يتولَّى زجرَها وتأديبها.

وينبغي للوالي أن يحسنَ إلى من أطلعهُ على أمرٍ أو نبَّههُ على سرٍّ ويعاقب من طوى عنه شيئاً[1] من القتلِ والفسادِ، أو آوى أهلَ الطُّغيانِ والعنادِ وينادي مناديه أن لا يعتمدَ أحَدٌ مثلَ هذا الاعتماد، ويعاقب من يخالفُ أمرَهُ في ذلكَ لئلاً تنطَوي أخبارُ المفسدينَ عنه، ثم يكونُ شديدَ العقوبةِ لأهلِ الشَّرِّ والشَّناعةِ، مستيقظاً مسرعاً في وعيدهِ حتَّى تنقهرَ أهلُ الفاغَةِ[2] ويركَب عليهمْ الحجَّةَ حتَّى يرتَدعُوا ويتَّعظ بهم من يحـذُو حَذْوَهُمْ[3]، ثم يجبُ أن يكونَ عندَ الوالي ذكاءٌ وفطنَةٌ وفراسةٌ وجودةُ قريحةٍ في استنباطِ القضايا واستخراجِ الحقوقِ.

كما يحكَى عن طائفةٍ من ملوكِ المتقدّمينَ الجاهليَّة والإسلامِ، فمنْ ذلكَ ما يُحكَى أنَّ رجلاً من أصحابِ المنصورِ[4] شكا إليهِ أنَّهُ قدِمَ من سفرهِ إلى منزلهِ بمالٍ، فادَّعتْ زوجتُهُ أنَّهُ سُرِقَ ولم يوجد في المنزل نقباً ولا كوَّةً ولا يتَّهمُ زوجتهُ، وقد فتحَ قماشَها فلم يجد في القماشِ[5] شيئاً ولا عُدِمَ منه شيئاً، فقالَ لهُ المنصورُ هي شابَّةٌ؟ قالَ: نعم. قالَ: بِكْراً

---

(١) في (ب) جريمة بدلاً من (شيئاً).

(٢) في (ب) الغوغاء بدلاً من (الفاغة).

(٣) في (ب) يسير سيرهم بدلاً من (يحذو حذوهم).

(٤) هو **عبدالله** بن محمد بن علي بن العباس أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفاً بالفقه والأدب مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء. ولد في الحميمة من أرض الشراة عام ٩٥ هـ. وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح عام ١٣٦ هـ. وهو باني مدينة بغداد. أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ هـ، وجعلها دار ملكه بدلاً من الهاشمية التي بناها السفاح. ومن آثاره مدينة المصيصة، والرافقة بالرقة، وزيادة في المسجد الحرام. وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس. وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً. توفي عام ١٥٨ هـ. يؤخذ عليه قتله لأبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ. (راجع ابن الأثير ٥ : ١٧٢/ والطبري ٩ : ٢٩٢ ــ ٣٢٢/ والبدء والتاريخ ٦ : ٩٠/ واليعقوبي ٣ : ١٠٠/ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٢٤ و٣٢٩).

(٥) سقط من (ب) لفظ (القماش).

تزوّجتها أمْ ثَيِّباً؟ قال ثيباً. قالَ: لها ولدٌ من غيرك؟ قالَ: لا ولا منّي. قالَ: فهي جميلةٌ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: فعدْ إليّ بعد أيّامٍ لعلّي أصلُكَ بشيءٍ تستعينُ بهِ، وخذ هذا الطيّبَ فتطيّب بهِ، فإنّهُ يذهِبُ الهمَّ[1] ويخفّفُ الحزنَ، فأخذَهُ وانصرفَ إلى منزلهِ، وبعثَ المنصورُ إلى بَوّابي المدينةِ وأمرهُمْ أن يتفقّدُوا من يمُرُّ بهمْ وعليهِ رائحةُ هذا الطّيبِ فيمسكوهُ، سوى فلان، وأعطاهُمْ منهُ وكان طيباً مركّباً يتّخذهُ الخلفاءُ، وأمرهُمْ بالكتمان؛ فانصرفوا. وأمّا الرَّجُلُ فإنّهُ انصرفَ بالطّيبِ إلى منزلهِ، وقالَ لامرأتهِ هذا طيبٌ يذهِبُ الهمَّ[2]، فاحتفظي بهِ. وكان المنصورُ عندَما سألهُ عن أحوالهِ حَدَسَ في نفسهِ أن للمرأةِ صاحباً[3] أعطتهُ المالَ، وأنّها ستعطيهِ ما يحصُلُ لها، فكانَ كما حدسَ أنَّ المرأةَ لها صاحبٌ أعطتهُ المالَ، وأنّها لمّا أخذَتِ الطّيبَ، لم يكن لها همٌّ إلاَّ أخذتْ من الطّيبِ فأرسلتْهُ إلى صاحبها، فتطيّبَ بهِ، فلم يكُنْ بعدَ أيّامٍ إلاَّ وقد قُبِضَ بباب البلدِ، وأحضروهُ إلى بين يدي المنصورِ، فسألهُ: مِنْ أينَ لكَ هذا الطيب؟ وَرآهُ شابًا حسناً فتلكّأ في كلامهِ، فأمرَ بتقريرهِ فأقرّ، وأحضرَ المالَ فأمرَ المنصورُ بصاحبهِ فأُحضرَ، وقالَ لهُ: حكّمني في زوجتكَ وَأرُدُّ عليكَ المالَ، ففعلَ، فأمرَ بتطليقِهَا وعقوبتها، وحدّثهُ قصّتها، وأخرجَ إليهِ المالَ، فأخذهُ وانصرفَ متعجّباً.

ويحكَى أنَّ صياداً طرحَ شبكتهُ في دجلةَ في أيّامِ المعتصمِ[4]، فأخرجَ

(١) في (ب) بزيادة لفظ (الحزن).

(٢) في (ب) بزيادة (ويشرح الصدر).

(٣) في (ب) عاشق بدلاً من (صاحب).

(٤) هو **محمد** بن هارون الرشيد بن المهدي ابن المنصور أبو اسحاق المعتصم بالله العباسي : خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة. بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون وبعهد منه. وكان بطرسوس ، وعاد إلى بغداد بعد سبعة أسابيع في السنة نفسها. وكان قويّ الساعد يكسر زند الرجل بين أصبعيه، ولا تعمل في جسمه الأسنان، وهو باني مدينة سامرا سنة ٢٢٢ هـ. توفي عام ٢٢٧ هـ. (راجع ابن الأثير ٦ : ١٤٨ ـــ ١٧٩/ واليعقوبي ٣ : ١٩٧/ وتاريخ بغداد ٣ : ٣٤٢/ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٩).

جراباً فيهِ آجُرَّتين بينهما كفٌّ مخضَّبٌ فيهِ خواتم ذهبٍ بفصوصِ زمرّدٍ وياقوتٍ، فارتاعَ الصَّيَّادُ لذلكَ وارتفعَ الخبرُ إلى الوالي ثم إلى المعتصمِ؛ فأحضرهُ فعظُمَ عليهِ وقالَ: يتمُّ مثلُ هذا ببلدٍ أنا فيهِ حاضِرٌ، ما هذا بمُلْكٍ! فسألَ عن الخواتمِ فقيلَ إنَّها ليسَتْ من صنعةِ[1] بغدادَ، فأحضرَ رجلاً لا يعرفُ بصحبةِ السُّلطانِ ودفعَ إليهِ الجراب، وقال له: اسألْ عن صانعِ هذا الجرابِ وتتبَّع الأثر فيهِ، فسألَ عنهُ فوجدَهُ[2] وقالَ: كثيراً ما أبيعُها للعطَّارينَ؛ فسألَ عن العطَّارِ فقالَ أشتريها وأبيعُ فيهَا ما يشترى من حانوتي. فتلطَّفَ في السُّؤالِ حتَّى قالَ اشترى منّي رجلٌ هاشميٌّ في هذه الأيّامِ عشرةً من هذه الأجربةِ ولمْ يأخذْ فيها شيئاً، وكان قد تقصَّى من الجُربيِّ والعطَّارِ فلم يجدْ في حاليهما ما ينكرهُ، فسأل عن الهاشميّ فقيلَ: إنَّهُ رجلٌ مشتغلٌ[3] في دارهِ بالشربِ والقصفِ وإحضارِ القيانِ، فلاصقَ جيرانهُ وتتبَّعَ أحوالهُ حتَّى قيلَ عنهُ إنَّهُ كانَ يهوى جاريةً لبعضِ المُغنياتِ، وأنَّهُ مسكها عندهُ ورامَ شراءهَا من سَيِّدتها، فاشتطَّتْ عليهِ في القيمة فحبسها عندهُ وأنكرها منها، وجاءتْ وتكرَّرتْ تطلبُها فدافعها وحلفَ لها أنَّها خرجَتْ من عندهِ إليها، وأدخلها في منزلهِ ففتَّشتهُ وانصرفتْ خائبةً[4] فمضى صاحبُ الخبرِ بذلكَ للمعتصمِ فسُرِّيَ[5] عنهُ ما كانَ قد أقلقهُ، ثمَّ أمرَ بإحضارِ سيِّدةِ الجاريةِ وسألها عن قصَّةِ جاريتهَا، فشرحَتْ له القصَّةَ، فأمرَ بإخراجِ الكفِّ[6] إليها، فحينَ رأتهُ بكتْ وقالتْ: واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ هذا كفُّ[7] جاريتي، وهذه خواتمُها الَّتي ابتعتُها من فلانٍ بالموضعِ الفلاني، كُلُّ ذلكَ

---

(١) سقط من (ب) لفظ (صنعة).
(٢) في (ب) فعرفه بدلاً من (فوجده).
(٣) في (ب) يعيش بدلاً من (مشتغل).
(٤) في (ب) يائسة بدلاً من (خائبة).
(٥) في (ب) فذهب بدلاً من (فسري).
(٦) — (٧) — اليد بدلاً من (الكف).

فِي اللَّيلِ؛ فبعثَ جماعةً من الحرسِ يقبضونَ على الهاشميِّ ويحتاطونَ على دارِهِ وما فيها، ويحضرُونهُ على الحالةِ التي هو عليها، فأُحضِرَ وهو سكرانُ بينَ منْ حضرَ عندَهُ من القيانِ؛ فقالَ لهُ: يا فاسِقُ يا عَدُوَّ اللهِ، تفعَلُ ما تفعل، ثمَّ ما تقنعُ بذلكَ حتَّى تقتلَ نفساً محرَّمةً، ثمَّ لا يرضيكَ حتَّى تمثِّلَ، ثم حبسهُ إلى الغدِ وأُمرَ بتقريرِهِ فأقرَّ، وأمرَ الصَّيَّادينَ بطرحِ الشِّباكِ في تلكَ النَّاحيةِ حتَّى استخرجوا بقيَّةَ الأعضاءِ، فطابَ قلبُهُ بظهورِ القضيَّةِ، ثم سلَّمَ الأعضاءَ إلى سيِّدتها فكفَّنتْها ودفنتْها، وسلَّمَ اليها من مالهِ أضعافَ قيمتهَا، وأمرَ بصلبِ الهاشميِّ على بابِ دارِهِ والجُرب معلقةٌ في نحرِهِ.

وما يُحكَى عن عضدِ[1] الدَّولَةِ، وكانت لهُ فراساتٌ عظيمةٌ سيما في استخلاصِ الحقوقِ، وذلكَ أنَّ شابًّا من الجندِ مرَّ ببعضِ أزقَّةِ بغداد فنظرَ إلى امرأةٍ في روزنَةٍ وكانت صبيَّةً مليحةً، فهويهَا وتعلَّقَ قلبهُ بها، فجعلَ يأتي كلَّ يومٍ ويقف بحذائها[2] ويمنعُها من غزلها، وخافتْ من اطِّلاعِ الجيرانِ عليها، وأنْ يبلغَ ذلكَ زوجهَا، فسدَّتِ الرَّوزنَةَ أيَّاماً وهي تنظرُ إليهِ من مكانٍ لا يراها، وهو يواظبُ ولا ينقطعُ، فشكَتْ ذلكَ إلى زوجهَا؛ ففتحَ الرَّوزنةَ وجلسَ حتَّى تحقَّقَ الحالَ، فقالَ لها: إذا جاءَ فكلِّميهِ وقولِي لهُ وقوفكَ هنا يفضحُ، ولكنَّ اللَّيلة يغيبُ[3] زوجي فتجيء إليَّ بعد العشاءِ

---

(١) هو عضد الدولة فناخسرو، الملقب عضد الدولة ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي أبو شجاع، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق، تولى ملك فارس، ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة، وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لقب في الإسلام « شاهنشاه ». عمَّر القناطر والجسور، وبنى سوراً حول مدينة الرسول ـــ ﷺ ـــ أخباره كثيرة. توفي ببغداد عام ٣٧٢ هـ. (راجع ابن الأثير ٨ و٩/ وبغية الوعاة ٣٧٤/ وابن خلكان ١ : ٤١٦/ والبداية والنهاية ١١ : ٢٩٩).

(٢) في (ب) أمامها بدلاً من (حذائها).

(٣) في (ب) يسافر بدلاً من (يغيب).

ولا يشعرُ بكَ أحدٌ، ثم عمدَ إلى دهليز دارهِ فحفرَ فيه حفرةً وسقفهَا بقصبٍ[1] ضعيفٍ، وغطّاهُ بتراب.

وفعلتِ المرأةُ ما قالَ لها زوجُها، فطمعَ الحائكُ وجاءَ لوعدِها، ففتحتْ لهُ البابَ، فدخلَ وهو لا يعلمُ، فوقعَ في الحفرةِ، وبادرَ إليهِ زوجها بحجارةٍ فقتلهُ، ثم طمّهُ بالتّرابِ وسوّى الأرضَ كما كانتْ.

وانتظرَ أهلُ الرّجل عودَهُ أيّاماً فلم يعُدْ، فحزنوا وبكوا، ثم اجتمعوا الى عضدِ[2] الدّولةِ فاستغاثوا إليهِ وقالوا عُدِمَ صاحبنا وما نعلمُ حالهُ، فسألهمْ عنهُ فقالوا غابَ عنّا ولم يظهر؛ فقال: هل كان معهُ مالٌ؟ قالوا: لا. قالَ فهلْ كانَ بينهُ وبين أحدٍ عداوةٌ؟ قالُوا: لا. قالَ: فزوجتهُ كارهة لهُ؟ قالوا: لا. قالَ: فكيفَ أعلمُ خبرَهُ؟ قالوا: كانَ لهُ مدّةٌ يغيبُ كلّ يومٍ من وسطِ النّهارِ إلى آخرهِ ويجيء، ولم نعلم فيماذا؟ قالَ: ففي أيّ دَربٍ أو حارَةٍ كان يذهبُ؟ فوصفوها لهُ، فقالَ: اطلبوا صاحبكمْ فلعلّهُ مسافرٌ وإلاّ فالغيبَ لا يعلمهُ[3] إلاّ اللهُ تعالى.

فلمّا انصرفوا بعثَ نقيبهُ عندَ العشيّةِ ومعهُ جماعةٌ منَ الأعوانِ، وقالَ: اكبسْ بيتَ المؤذّنِ قيّم الدّرب الفلاني، وأحضرهُ عليّ أزعج ما يكونُ، وإيّاكَ أن يُفلتَ منكمْ، ففعلَ ذلكَ، فلمّا مثلَ بين يديهِ أمرَ بأن يجلسَ حتّى يفرغَ من أشغالهِ ثم أدناهُ وقالَ لهُ: تعلم لمَ أحضرتكَ؟ فقاَل لهُ وهو يرْعُد: ما أعلمُ ولكنّني على آخر نفسٍ من الحياةِ ولستُ أدري كيفَ حال أولادي؟ فقال: طِب نفساً فلا بأسَ[4] عليكَ، فسُرّ بذلكَ وصبرَ حتّى سكنَ جأشهُ، ثمّ قالَ لهُ تلبّثْ عندي حتّى تعلمَ أنّ النّاسَ قد ناموا ويُشْتَهَرُ

---

(١) في (ب) سقف بدلاً من (بقصب).

(٢) سبقت الترجمة له في كلمة (واقية).

(٣) في (ب) بزيادة لفظ (أحد).

(٤) سقط من (ب) جملة (فلا بأس عليك).

أنّكَ محبوسٌ وانصرفْ، فإنْ وَجَدتَ على بابِ مسجدكَ منْ ينتظرُكَ لكشفِ حالكَ فأعرفهُ واعرفْ ما يقولُ، ثم نَمْ في بيتكَ، وقمْ قبلَ وقتِ عادَتكَ فأشعلْ قناديلكَ، وافتح بابَ مسجدكَ، وذكّرْ وسبّح ثمَّ اجلسْ، فأوّل من يدخُل عليكَ عرِّفني بهِ مع ما يجري لك معهُ، وإنْ ظهرَ ما جرى بيني وبينكَ لأحدٍ ضربتُ عنقكَ؛ فقالَ: نعم يا سيدي[1] وانصرفَ كما رسمَ لهُ، فوجدَ النَّاسَ قد يقُسوهُ وناموا، فلبثَ يسيراً وقامَ فسبَّحَ وذكَّرَ وأشعلَ[2] المسجدَ وجلسَ.

فأوّلُ من دخلَ عليهِ زوجُ المرأةِ، وذلكَ أنَّ الرِّيبةَ منعتْهُ النومَ كما قيلَ: «كادَ المريبُ أنْ يقول خذوني» فقال لهُ: أيُّها المؤذِّن قلبي عندكَ، فما الّذي طرأ عليكَ؟ فقالَ لهُ: ما كانَ إلاَّ خيرٌ اتّهموني بأمرٍ[3] وخلّصني اللهُ منهُ، فأخذَ معهُ في ذمّ الدَّولةِ وذكر الظُّلْم ثمَّ خرجَ واشتغلَ الرَّجُلُ بصلاتهِ.

فلمّا أصبحَ جاء المؤذّنُ إلى عضُدِ الدَّولةِ فأخبرهُ بالقصّةِ، وقالَ: لمّا انصرفْتُ لم أجدْ على بابِ المسجدِ أحداً، فلمّا قمتُ وفتحتُ وأسرجْتُ، أوّلُ من جاءَني فلانٌ الكِتّانيّ، وبعدهُ فلانٌ وفلانٌ وكلُّهُمْ يسألُ عن حالي ويتغمّمُ لي، فقالَ من فيهمْ له زوجةٌ مليحةٌ[4] أو جاريةٌ؟ فقالَ: الكتانيُّ، وهو الّذي ألحّ في الاستقصاءِ، فقالَ: ما يقالُ عن زوجتهِ؟ فقالَ: مستورةٌ وهو غيورٌ عليها، وأمّا فلانٌ فلا زوجةَ لهُ، وفلانٌ زوجتهُ عجوزٌ.

فحدسَ عَضُدُ الدَّولَةِ أنَّ الكتّاني هو قاتلُ الشَّخْص المطلوب، فأمرَ بإحضارِ الكتاني والشَّخْصين، ونظرَ في وجوههمْ فتغيَّرُوا واضطربوا، فقرَّرَهُمْ، فأقرَّ الكتاني، فبعثَ إلى أولياءِ القتيلِ فحضرُوا وبعثَ معهمْ من يثقُ إليهِ حتَّى

---

(١) سقط من (ب) لفظ (يا سيدي).

(٢) في (ب) وفتح بدلاً من (وأشعل).

(٣) في (ب) جرم بدلاً من (بأمر).

(٤) في (ب) زوجة جميلة بدلاً من (مليحة).

تبيَّنَ عن القتيل فاستخرجوهُ من حفرتهِ، وأمرَ بقتل الكتاني وعقوبةِ المرأةِ، وقالَ لها عجزتِ عن طردهِ إلاَّ في الحفرةِ وكانت هذهِ من غرائبِ استنباطاتِ عَضُد الدَّولةِ.

ويحكى عنهُ أنَّهُ كانَ يوماً في دارهِ يشرفُ على عمَّالينَ وصنَّاعٍ يبنُونَ فنظرَ إلى رجُلٍ من الفعلةِ وألحَّ بالنَّظرِ إليه ساعةً، واستخبرَ رفقاءهُ هل بهِ جنَّةٌ؟ فقالوا: لا. فقالَ: سكران هوَ؟ قالوا: لا. فقالَ: عليَّ بالمقارعِ فأُقيم بينَ الرِّجالِ للضربِ، وقالَ: أينَ المالُ الَّذي عندكَ؟ فلمْ يضربْ إلاَّ قليلاً حتَّى أقرَّ بألفِ دينارٍ، أنفقَ منها عشرةَ دنانيرَ، فقُرِّرَ على وصولها إليهِ، فقالَ: كنتُ وقَّاداً في الحمامِ الفُلاني، إذْ هجمَ عليَّ في بعضِ اللَّيالي رجلٌ تاجرٌ وقالَ: اصطنعني، فإنَّ عليَّ طلباً وخلقيَ من يقصدُني فخبأتهُ في زاويةٍ وغطَّيتُهُ بالزبل، ودخلَ الَّذينَ كانُوا خلفَهُ فسألُوني عنهُ فلمْ يروهُ، فخرجُوا يعدُونَ حتَّى لا يفوتهمْ وهمْ سُكارَى، فلمَّا أيستُ من عودهمْ، قمتُ إليهِ فوجدتهُ قدْ نامَ سكْراً، فحرَّكتهُ ولمستهُ فوجدتُ في وسطهِ كيساً فيه ألف دينار، فأخذتُها وقتلتهُ ثم طرحتهُ في الأتون حتَّى احترقَ في الأتون، فغضبَ المعتضدُ، ثم بعثَ معهُ من أحضرَ المالَ، ثم سألَ عنِ الشَّخصِ حتَّى عرفَ، فسألَ عن ورثتهِ، فقيلَ أنَّهُ غريبٌ وورثتُهُ ببلَدهِ، فأمرَ بأنْ يودَعَ المالُ ويُبعَثَ إلى ورثتِهِ ليحضُرُوا، وأمرَ أن يُطافَ بالوَقَّادِ ويُشْهَرَ ثُمَّ يُطرَحَ في الأتونِ حتَّى يحترق، ففُعِلَ بهِ، وتعجَّبَ النَّاسُ من فطنةِ المعتضدِ في ذلكَ، وسألَهُ خواصُّهُ فقالَ: رأيتُهُ يحملُ أكثر من فاعلين، ويعدُو ويجمزُ ويصعدُ السُلَّمَ درجتين درجتين، ولم يكُ في جسمهِ ولا قوَّتهِ ما يقتضي ذلكَ، فعلمتُ أنَّهُ ما قوي إلاَّ بالمالِ. ومثلُ هذا كثيرٌ.

الباب الخامس

في أصحابِ البريدِ والأخبارِ

وأمَّا الجواسيسُ فيذكرونَ في كتاب الحروبِ ولكن هُنا ألزَم، وسنذكرهُ إن شاء الله تعالى.

فأمَّا البريديَّةُ وما بعدهم من أصحابِ الأخبار والعيون فهمْ للملوكِ بمنزلةِ العيونِ الباصرةِ[1] والآذانِ السامعةِ[2]، فيجبُ أن يكونُوا أُمناءَ عقلاءَ نصحاءَ ويكونَ فيهم حُسنُ تأتٍّ ولطفُ توصُّلٍ وتحيُّلٍ وفكرَةٍ صالحةٍ، فيجبُ أيضاً أن تُجرَى عليهم النَّفقاتُ، ويوسعَ لهمْ في العطيَّاتِ، وتُزاح عللهمْ فيما يحتاجونَ إليهِ من أتباعٍ وأعوانٍ ومراكِب وطيور[3] ورواتب وغير ذلكَ. ويكونونَ في نقلهِمْ مُحقّقينَ صادقينَ فإنَّ الكَذِبَ في هذا والعملُ بهِ يؤدّي إلى خللٍ عظيمٍ لا يُستَدرَك فارطُهُ، فلهذا يجبُ الاحتياطُ في ذلكَ وشدَّةُ العقوبةِ لمنْ تجرَّأ على الكذبِ في خبرِهِ؛ فكمْ من التَّدابيرِ والسيَّاساتِ فسدَتْ بالكَذِبِ وسوءِ النَّقلِ، حتَّى إنَّ بعضَ الملوكِ يتحيَّلُ

---

(١) سقط من (ب) لفظ (الباصرة).

(٢) سقط من (ب) لفظ (السامعة).

(٣) في (ب) خيول بدلاً من (طيور).

بوضعِ الكتبِ واختلافها وتسليمها إلى من يظنُّ أنَّهُ سيُؤخذُ، فإذا ظهرتْ وقُبضتْ اعتقدَ صحَّتُها فعُملَ بها فلمْ يكنْ صواباً. وإنْ أهملَ الملكُ ذلكَ بالكُلّيَّةِ ولم يكشف عن حالِ أوليائهِ وأعدائهِ، انطوَت[1] عنهُ الأخبارُ ولمْ تستقمْ لهُ السِّياسَةُ، بل لا يحُسُّ بالشَّرِّ حتَّى يقعَ فيه.

كانَ النبيُّ ﷺ مع جلالةِ قدرهِ وتحقيقِ نظرهِ يبعثُ العيونَ والجواسيسَ لكشفِ أخبارِ المشركينَ، والاطِّلاعِ على تفاصيل أفعالهمْ وأحوالهمْ[2].

وفي صحيحِ البُخاريِّ وسنُنِ أبي داوُدَ عن علي بن أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجههُ، قالَ: بعثني رسولُ اللهِ ﷺ والزُّبيرَ والمقدادَ، فقالَ: انطلقُوا حتَّى تأْتوا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظعينَةً ومعها كِتابٌ، فخذوهُ، فانطلقنا تعادَى بنا خيلُنا حتَّى انتهينا إلى الروضةِ، فإذا نحنُ بالظَّعينةِ، فقُلْنا: أخرجي الكِتابَ، فقالت: ما معي من كتابٍ، فقُلنا لتخرجنَّ الكتابَ أو لتلقينَّ الثِّيابَ؟ فأخرجتهُ من عقاصها، فأتينا بهِ النَّبيَّ عليهِ السلامُ، فإذا فيه من حاطبِ ابنِ أبي بلتعةَ إلى أناسٍ من المشركينَ من أهلِ مكَّةَ، يخبرهُمْ ببعضِ أمرِ النبيِّ عليهِ السلامُ، وساقَ[3] باقي الحديث. وكذلكَ بعثَ العيونَ للاطِّلاعِ على حالِ أبي سفيانَ والأخبارُ في ذلكَ كثيرةٌ.

---

(١) في (ب) خبثت عنه بدلاً من (انطوت).

(٢) حدث ذلك في غزوة بدر وفي غزوة الخندق، ولقد كان للعيون التي أرسلها رسول الله ــ ﷺ ــ في تلك الغزوة أثر في تقريب النصر وسبب من أسبابه، وإن كان في الحقيقة ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾.

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ١٤١، باب الجاسوس ٣٠٠٧ ــ حدثنا عمرو ابن دينار سمعت منه مرتين قال أخبرني حسن بن محمد قال أخبرني عبيدالله بن أبي رافع قال: سمعت علياً ــ رضي الله عنه ــ يقول: وذكره. وتكملة الحديث:

« فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: يا حاطب ما هذا..؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. =

ولم تزلْ ملوكُ اليونانِ والفرسِ والنَّبطِ وغيرهم، والخلفاءُ من بني العبَّاس بالغوا في ذلكَ حتَّى نسبَ إلى بعضهمْ مباشرة ذلكَ بنفسهِ، واطَّلعَ على أحوالِ ولاتهِ ونوَّابهِ ورعيَّتهِ، وربَّما تطلَّعُوا على أحوالِ العَوامِ وآحادِ النَّاسِ، وفي ذلكَ من المصالحِ ما لا خفاءَ بهِ. لأنَّ الملكَ السَّائسَ للرَّعيَّةِ هو كالطَّبيبِ فإنْ لم يطَّلِعْ على أسرارِ الأدواءِ وخفايا العلَلِ، لم يوافقْ الدَّواءُ للألمِ إلاَّ نادراً ولا قياسَ عليهِ.

وقد رتَّبَ بعضُ الخلفاءِ ذلكَ ظاهراً فقرَّرَ معَ الوزيرِ صاحبِ خبرٍ من الثِّقاتِ يُنهي ما يجري في مجلسهِ، فلا يُحسنُ الوزيرُ لأحدٍ ولا يجتمعُ بهِ أحدٌ من النَّاسِ إلاَّ بحضورِ ذلكَ الشَّخص، وكذلكَ رتَّبَ معَ القاضي والنَّائبِ وجميعِ الولاةِ والعمَّالِ.

فينبغي أن يكونَ أصحابُ الأخبارِ يحضُرونَ مجامعَ النَّاسِ وولائمهمْ ومجالسَ الوعظِ والأسواقِ، فإنَّهُ يجري في هذهِ الأماكنِ ما يجبُ الاطِّلاعُ عليهِ، وكذلكَ يكشفونَ عن أحوالِ العامَّةِ وأراجيفهمْ وما يشتهرُ في كلِّ وقتٍ من أقوالهمْ وأفعالهمْ.

وقالَ محمَّدُ بنُ[1] عبدِ الملكِ الزَيَّات الأراجيفُ مقدِّمَةُ الكونِ.

= فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ: قد صدقكم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ورواه في التفسير سورة ٦٠/ وكتاب المغازي ٤٦/ ورواه الإمام مسلم في فضائل الصحابة ١٦١/ وأبو داود في الجهاد ٩٨/ والترمذي في تفسير سورة ١٠،٦٠/ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٧٩ (حلبي).

(١) هو **محمد** بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر المعروف بابن الزيات. وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والأدب، من بلغاء الكتاب والشعراء. نشأ في بيت تجارة في الدسكرة (قرب بغداد). ونبغ فتقدم حتى بلغ رتبة الوزارة، وعوّل عليه المعتصم في مهام دولته، وكذلك ابنه الواثق. مات ببغداد عام ٢٣٣ هـ. (راجع وفيات الأعيان ٢ : ٥٤/ وأمراء البيان ١ : ٢٧٨ ـــ ٣٠٦/ وخزانة البغدادي: ١ : ٢١٥ ـــ ٢١٦/ وتاريخ بغداد ٢ : ٣٤٢).

وينبغي أن يكونَ صاحبُ الخبرِ وصاحب البريد لا واسطةَ بينهُ وبينَ الملكِ، فإنَّ ذلكَ يوَقّف كثيراً من الأحوالِ، ولا يسمحونَ لهمْ في اطّلاعِ أحد على ما عندهُمْ قبلَ إنهائه إلى الملكِ، ليكون الملكُ هوَ الَّذي يُشيعُهُ، أو يكتمهُ حسبَ ما يراهُ.

وأمَّا ولاية البريد فإنَّها ولايةٌ جليلةٌ خطيرةٌ، ومتقلّدُها يحتاجُ إلى جماعةٍ كثيرةٍ، وإلى الموادّ الغزيرةِ والتَّوسعَةِ عليهِ، فمن جملةِ أعمالهِ حفظُ الطَّريقِ وبذْرَقتها وصيانتها من القطَّاعِ والسُّرّاقِ، وطرقِ الأعداءِ وانسلالِ الجواسيسِ في البَرِّ والبحرِ، وإليهِ تردُ كتبُ أصحابِ الثُّغورِ وولاةِ الأطرافِ وهو يوصلُها في أسرعِ ما يمكنُ من اختصارِ الطُّرُقِ واختيارِ المراكب والرَّاكب، والنَّاسُ في ذلكَ على تفاوتٍ.

وينبغي لهُ أن ينظُر في حالِ المراكزِ ومنازلِ البريدِ وافتقادِ خيل الشُّهر وعرضهم وإصلاحهمْ وإزاحةِ أعذارهمْ وأعذارِ رجالهمْ، وينظُر في حالِ القبائلِ والعشائرِ، ومن فيهمْ على الطَّاعةِ والمناصحةِ، ومن قدْ تغيَّرتْ طاعتهُ وفسدَتْ مناصحتهُ، فإن هذهِ الأحوالَ متَى علمَتْ في أوائلِ الأمرِ سهُل تدارُكُهَا، ومتَى انطوتِ الأخبارُ تفاقمَ الأمرُ وصَعُبَ التَّدارُكُ، كما جرى فيما تقدَّمَ من ظهورِ الخوارجِ[1] وقيامِ الأهويةِ والحشودِ والنِّفاقِ لغفلةِ النُّوَّابِ وإهمالهمْ واشتغالهمْ باللَّهوِ.

---

(١) يطلق بعض المؤرخين كلمة الخوارج على أولئك الذين اعتزلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما قبل التحكيم ورضي به، لأنهم في نظر هؤلاء نقضوا بيعة في أعناقهم وخرجوا عن إمامة شرعية، ويطلقها فريق من المتكلمين في أصول العقائد والديانات وهم يقصدون بها الخروج من الدين استناداً إلى قول الرسول ـ ﷺ ـ: إن ناساً من أمتي يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، وأما الفريق الثالث فيطلقها ويقصد بها الجهاد في سبيل الله استناداً الى قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ سورة النساء (آية رقم ١٠٠).

ولمّا كتبَ نصرُ[1] بنُ سَيَّارٍ إلى مروان بنِ محمَّدٍ وهوَ آخرُ خلفاءِ بني أُميَّةَ يخبرُهُ بقيامِ أبي مُسلم الخُراساني وظهورِ الدَّعوةِ العبَّاسيَّةِ، وهو يهملُ ذلكَ والأقدارُ تجري، فأنشدَ:

أرَى خللَ الرَّمادِ وميضَ جمرٍ	ويُوشكُ أن يكونَ لها ضرامُ
فإنَّ النارَ بالزندَينِ توْري	وإنَّ الحربَ أوّلُـهُ كلامُ
وإن لَمْ يُطفِها عقلاءُ قومٍ	يكونُ وَقُودُها جُثَثٌ وهامُ
أقولُ من التَّعَجُّبِ ليتَ شعري	أيُقَاظٌ أُميَّةُ أمْ نِيَامُ

حتَّى كانَ من أمرهِمْ ما كانَ.

وقدْ كانَ الرَّشيدُ والمعتصمُ والمتوكّلُ[2] والمعتضِدُ يبحثونَ عنِ الأحوالِ غايةَ البحثِ ويتلطَّفونَ في الاطّلاعِ على الأمورِ، وكذلكَ من وزرائهم وأُمرائهم

---

(١) هو **نصر** بن سيار بن رافع بن حرّي بن ربيعة الكناني، أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان ووالي بلخ، ثم ولي إمرة خراسان سنة ١٢٠ هـ بعد وفاة أسد بن عبدالله القسري، وولاه هشام بن عبد الملك ما وراء النهر، ففتح حصوناً وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو، وقويت الدولة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني أمية يحذرهم وينذرهم فلم يستمعوا له، فخرج نصر من مرو سنة ١٣٠ ورحل إلى نيسابور، توفي عام ١٣١ هـ (راجع ابن الأثير ٥ : ١٤٨ وما قبلها/ وخزانة البغدادي ١ : ٣٢٦/ وابن خلدون ٣ : ١٢٥ وما قبلها).

(٢) **المتوكل**: هو جعفر بن محمد (المعتصم بالله) ابن هارون الرشيد أبو الفضل، خليفة عباسي ولد ببغداد عام ٢٠٦ هـ. وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ. وكان جواداً ممدوحاً محبًّا للعمران. من آثاره (المتوكلية) ببغداد، أنفق عليها أموالاً كثيرة وسكنها. ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتاباً قرىء على المنبر بترك الجدل في القرآن، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه. ونقل مقرَّ الخلافة من بغداد إلى دمشق، فأقام بهذه شهرين فلم يطب له مناخها، فعاد وأقام في سامراء إلى أن اغتيل فيها ليلاً بإغراء ابنه (المنتصر) عام ٢٤٧ هـ. (راجع الدول الإسلامية ٢٠/ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٣٧/ واليعقوبي ٣ : ٢٠٨/ وابن الأثير ٧ : ١١ و٢٩/ والطبري ١١ : ٢٦ و٦٢/ ومروج الذهب ٢ : ٢٨٨).

والعامَّةِ، ومنهمْ: الأفشينُ[1] ومُؤْنِسُ الخادِمُ وابنُ رائقَ لكُلٍّ واحـدٍ مـن هؤلاءِ غرائب في ذلكَ وتدقيق في الكشفِ.

ومنهم أحمدُ بنُ طولون[2] كانَ مستشعراً مـن الخليفـةِ ومـنْ أحمـد الموفَّقِ، وانحاز بمصرَ وصار ضابطاً لها محتاطاً عليها، وهو حسنُ السِّيرةِ، تامُّ السِّياسةِ، مُطّلعاً على جميعِ أحوالِ جندهِ. وكان من جملةِ أُمرائهِ رجُلٌ من مقدّمي الأتراكِ، لهُ تقدُّمٌ ورئاسةٌ وفيهِ نجدةٌ وشجاعةٌ، إلاَّ أنَّ أخبارهُ انطوتْ عن أحمد بن طولونَ فلمْ يقدِرِ على الاطّلاعِ عليها وسببهُ قلّةُ معاشرتهِ. وكانتْ لهُ دارٌ حُرَمِيَّةٌ ليسَ فيها سوَى جاريَة لهُ مغنيَة ومَنْ يخدُمَها، ولا يُفتحُ بابُهُ إذا غابَ، ولا يدْخلُ عليها سِوَى خادمٍ صغيرٍ، يناوِلُ ويتناوَلُ ما يحتاجونَ إليهِ من طعامِهِمْ وشرابِهِمْ في اليومِ مَرّةً واحدةً، ثم يغلِقُ البابَ إلى الغدِ، فيخرُجُ فيركبُ مع أصحابهِ إلى خدمةِ أحمَد ويعود.

فلمّا عسُرَ على أحمد معرفَةُ أحوالِهِ، نَدَبَ[3] رَجُلاً من الأذكياءِ لذلكَ، وقالَ: تَلَطّفْ في تحصيلِ دارٍ إلى جانبهِ إمّا شراءً أو كراءً، واسكنْ فيها، واجتهدْ أن تَطَّلِعَ على أحوالِهِ[4] وتُعرّفني بها، ففعلَ ذلكَ، فكانَ يتجَسَّسُ

---

(١) هو محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد، المعروف بالأفشين، فاضل من أهل قرطبة. من كتبه طبقات الكتاب، وشواهد الحكم. توفي عام ٣٠٩ هـ. (راجع بغية الوعاة ١٠٨/ وابن الفرضي ١ : ٣٢٩ وفيه لقبه ابن الأشفين، ووفاته سنة ٣٠٧ هـ).

(٢) هو أحمد بن طولون، أبو العباس الأمير، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركيّ مستعرب، كان شجاعاً جواداً حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه، موصوفاً بالشدة على خصومه. بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة. ومن آثاره قلعة يافا بفلسطين. كان أبوه مولى لنوح ابن أسد الساماني (عامل بخارى وخراسان). تولى إمرة مصر عام ٢٥٤ هـ، وانتظم له أمرها مع ما ضمّ إليها، ووقعت له مع الموفق العباسي أمور. توفي عام ٢٧٠ هـ. (راجع الولاة والقضاة ٢١٢ ــ ٢٣٢/ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٧/ وابن خلدون ٤ : ٢٩٧/ وابن الأثير ٧ : ١٣٦/ وابن خلكان ١ : ٥٥).

(٣) في (ب) اختار بدلاً من (ندب).

(٤) في (ب) بزيادة لفظ (أفعاله).

عليهِمْ من شقٍّ أو كوَّةٍ صغيرةٍ، فيراهُ بعدَ الأكلِ معَ جاريتِهِ، فيَشرَبُ وتُغَنِّيهِ ساعةً ثمَّ ينامُ، فسمعهُ ليلاً وقد ارتفعَ صوتُهُ واحتدَّ على الجاريةِ وهو يقولُ من يكونُ هذا الفاعلُ الصَّانعُ يعني أحمدُ وأنا خيرٌ منهُ يستخدمني؟! واللهِ لأقومَنَّ إليهِ السَّاعةَ بسَيفي هذا فأضربُ عنقَهُ، والجاريةُ تُقَبِّلُ يديهِ ورجليهِ، وتتاطَّفُ[1] بهِ وتقولُ: يا سيِّدي نحنُ السَّاعة في عيشٍ طيِّبٍ، وما علينا مِنْ ذلكَ الرَّجُلِ وما نُبالي بهِ، فدَعْنا نشتغِلِ بلذَّتنا، وسقَتْهُ أقداحاً متوفِّرةً حتَّى غلبهُ السُّكرُ ونام، فاشتغلتْ بشُغلها[2]، وقد أبعَدَتْ عنهُ السَّيفَ. فلمَّا أصبحَ، أنهى صاحبُ الخبرِ ذلكَ، وجاءَ التُّرْكي على عادتِهِ إلى الخدْمَةِ، وأكلَ النَّاسُ وانصرفُوا؛ فأمرَهُ بالجلوسِ حتَّى لم يبقَ في المجلسِ أحَدٌ[3] قالَ لهُ: فلان ألَمْ يَكُ إقطاعكَ بالعراقِ كذا وكذا، وقد زدتُكَ ها هنا أضعافَهُ؟ قالَ: نعم. قالَ: ألم يَكُ قد وَفَّرْتُكَ عَنِ التَّعَبِ والتَّصَرُّفِ في البُعوثِ والتَّجاريدِ، وأقضي حوائجكَ وحوائج أصحابكَ؟ قالَ: نعم. ثمَّ شرعَ يُعَدِّدُ صنائعهُ عندهُ وإحسانَهُ إليهِ وهوَ يعترفُ[4] وكانَ تركيّاً غشيماً ساذجاً فقالَ لَهُ: ما الَّذي اقتضَى هذا؟ قالَ: فما كانَ ذنبي إليكَ حتَّى تشتُمني وتستنقصني، وسلَلْتَ السَّيفَ وقلتَ إنَّكَ تقصدني بهِ، ولقدْ أحسنَتْ إلينا جاريتُكَ في كَفِّكَ عنَّا وتَسكِينِكَ، فما الَّذي أوجَبَ منكَ هذا؟ فتحيَّرَ التُّركيّ وبَهُتَ وعلِمَ أنَّهُ لا يَطَّلعُ أحَدٌ على حالهِ، ثُمَّ رفعَ رأسَهُ إلى السَّماءِ على سلامةٍ منهُ، وقالَ: يا ربِّ ملَّكتَهُ البلادَ والعبادَ، ووسَّعْتَ لهُ الأموالَ، وحكَّمتَهُ علينا، وخوَّلتَهُ كلَّما أرادَ، ونحنُ وأمثالُنا عبيدٌ لَهُ، فما كانَ من هذهِ الكلمةِ حتَّى أوصلتَها إليهِ وأطْلَعتَهُ عليها، سُبحانَكَ يا ربِّ تَفْعَلُ ما تشاء، فضحكَ أحمَدُ وزالَ من قلبِهِ وعلمَ سلامةَ صدرِهِ وعفا عنهُ، وقالَ لهُ: كأنَّ اللهَ أطْلَعَني على

---

(١) سقط من (ب) لفظ (وتتلطف به).

(٢) في (ب) بعملها بدلاً من (شغلها).

(٣) في (ب) بزيادة (غيره) وقد سقطت من (أ).

(٤) في (ب) بزيادة (بكل ذلك).

ذلكَ؛ فقالَ: نعم. لأنَّهُ لم يطَّلعْ على هذا غيرهُ وجاريتي، وهذا خروجي من بيتي، والمفتاحُ معي، فمن أعلمك؟ فأمرَ لهُ بخلعةٍ نفيسَةٍ[1]، ووصلَهُ بمالٍ[2] وأمرَ لجاريتهِ بثيابٍ وجوهرٍ وطيبٍ جزاءً لها على حسنِ تأتيها، وبعثَهُ معَ خادمٍ أوصلهُ[3] إليها ولمْ يزل محسناً لها بقيَّةَ أيَّامهِ.

وينبغي أن يكونَ صاحبُ الخبرِ مزاجَ العُذرِ فيما يحتاجُ إليهِ من الخيلِ والنَّفقةِ والرِّجالِ وكانت الفُرسُ تتَّخذ الخيلَ الجِيَادَ لذلكَ، والعربُ النُّجُبَ من الجمالِ وهي أسرَعُ من الخيلِ وأصبَرُ على السَّيْرِ؛ وأهلُ العراقِ يتغالونَ في السُّعاةِ، وهُمْ رجالٌ خِفافٌ تَعَوَّدُوا الجَري والصَّبر على السَّيرِ لقطعِ ثلاث مراحل في مرحلةٍ؛ وكذلكَ بمصر وأهلُ البراري أنشط لذلكَ وأخفَ، ويُضربُ المثلُ في ذلكَ بالسُلَيْكِ والسُّلَكَةِ، وكذلكَ في الصَّحابةِ بسلمَة[4] ابنِ الأكوَعِ، وقصَّتُهُ مشهورةٌ حينَ أدركَ القومَ الَّذينَ استاقُوا الإبلَ، فسبقهُمْ وجلسَ على طريقهم، وجعلَ يرميهمْ ويقول:

أنـــــا ابـــــنُ الأكْـــــوَعِ   واليَـــوْمُ يـــومُ الرُّضَـــــعِ

وأهلُ الشَّامِ يتَّخذونَ الحمامَ لحمْلِ البَطايقِ، وذلكَ أسرعُ وأبلغُ لولا ما يُخافُ من العوارضِ عليها من سقوطِ البطاقةِ أو بللِها، أو اقتناصِ الطَّائرِ أو الكاسرِ من الجارحِ لهُ، ولأهلِ العراقِ بهِ عنايةٌ واهتمامٌ.

---

(١) في (ب) جميلة بدلاً من (نفيسة).

(٢) في (ب) بزيادة لفظ (كثير).

(٣) في (ب) حمله إليها بدلاً من (أوصله).

(٤) هو سلمة بن الأكوع، أسلم قديماً وشهد غزوات الرسول — ﷺ — قال ابن سعد: أخبرنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل قال: حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع قال: غزوت مع رسول الله — ﷺ — سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات حين أمرّه رسول الله — ﷺ — توفي بالمدينة سنة أربع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة. (راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٣٠٥ — ٣٠٨).

وأمّا كتاباً كتبهُ محمودُ[1] بن زنكي إلى ولاةِ بلادِهِ بحفظِ الجنس من المناسيب من الحمامِ ورعايتها وحمايتها من الأذى، والتّنبيهِ على جليلِ منفعتها وكثرةِ فائدتها.

وسمعتُ عن طائفةٍ منَ الهندِ تسكُنُ في غياضٍ وشِعاري، تجري فلا تُلحَقُ، وتصعدُ الأشجار فيقفزوا من شجرةٍ إلى شجرةٍ.

وقرأت في بعضِ الكتبِ أنَّ طائفةً من البربرِ من قبيلة كزولة، فيها رجالٌ نحافٌ خِفافٌ، دقاقُ السوقِ، خمصُ البطونِ، يجري أحدُهُمْ خلفَ الفارس فيلحقهُ ويركبُ خلفهُ منَ الأرضِ. وقيلَ إنَّهُمْ يَعدُونَ خلفَ الغِزلانِ فيقتنصونَهَا بأيديهم.

وإذا كانتِ البلادُ بحريَّةً فليكُنْ لصاحبِ الخبرِ مراكبُ خفيفةٌ سريعةٌ. وأصحابُ الجبالِ والحصونِ يتخذونَ المراقبَ والمَشَارِفَ والأعلامَ عليها النيرانُ بالّليلِ، والدُّخانُ بالنّهارِ، والطّلائعُ تحفظُها. وتقريرُ الإشارات بينهمْ بها كُلُّ هذا من فعلِ حزمةِ الملوكِ وهذا كلّهُ من وظائفِ صاحبِ البريدِ.

وأمّا الحزمَةُ من الملوكِ فإنَّهُمْ كانوا إذا سَيَّرُوا في أشغالهم أحداً سيَّرُوا معهُ آخرَ كُلُّ واحدٍ عَيناً على رفيقهِ بحيث لا يشعران بحسنِ سياسةٍ حتّى يعتقدَ كلٌّ منهما أنّهُ العينُ على صاحبهِ. فتوافق الأخبارُ فتصحُّ أو تتخالفُ فيُنظَرُ في أمرها.

ويجبُ أن يكونَ صاحبُ الخبرِ لهُ توصُّلٌ وتلطُّفٌ ودسائس من النِساءِ والصبيانِ والغلمانِ والحُرّاسِ والحمامات وأصحاب[2] الحرف والصنائع.

---

(١) هو **محمود** بن زنكي (عماد الدين) سبقت الترجمة له في هذا الجزء. (وراجع كتاب الروضتين ١ : ٢٢٧ ــ ٢٢٩/ وابن الأثير ١١ : ١٥١/ وابن خلدون ٥ : ٢٥٣/ وابن خلكان ٢ : ٨٧/ ومفرج الكروب ١ : ١٠٩).

(٢) سقط من (ب) جملة (وأصحاب الحرف).

والمستحبّ[١] أن يكونَ بينَ الملكِ وبين البريد وصاحبِ الخبر ترجمةٌ لا يطّلع عليها[٢] غيرهُ، أو لكلّ واحدٍ ترجمة مع صاحبِهِ. وإذا أرادَ الملك أن يحتاط في ذلكَ فلا يقنع في الأمورِ العظامِ إن كتبَ أو كُتِبَ إليه بالترجمةِ، ولا بخطِّ الكاتبِ ولا بالختمِ، فإنّ هذهِ رُبّما يجبَرُ عليها فاعلُها أو يشابهُ بهِ، بل يكونُ بينهُما علامةٌ لا يطّلعُ عليها غيرُهما. مثالهُ ما قرَّرهُ أبو مسلم[٣] الخُراساني معَ كاتبهِ لمّا طلبهُ المنصورُ[٤]، فلمّا قتلهُ أمرَ كاتبهُ أن يكتُبَ عنهُ كتاباً إلى نائبهِ على الجيشِ، ويُعَلّمَ علامتهُ وخُتمَ بختمهِ بأن تأتي بالثّقلِ والخزائنِ وتقدُمَ العراقَ؛ فلمّا انتهى الكتابُ إليه صاحَ وقالَ: ما هذا كتابُ سيّدي أبي مُسلم، وارتحلَ من وقتهِ إلى خُراسانَ، وكان قد قرَّرَ معهُ أن يَرد كتابي إليه وهو مختومٌ بنصفِ الخاتمِ. واقتراحاتُ الخواطرِ كثيرةٌ في ذلكَ وغيره[٥].

---

(١) في (ب) والواجب بدلاً من (المستحبّ).
(٢) في (ب) بزيادة لفظ (أحد).
(٣) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.
(٤) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.
(٥) سقط من (ب) كلمة (وغيره).

الباب السَّادس

في الحُجَّابِ والنُّقباءِ والحرسِ والأعوانِ

إعلمْ أيَّدكَ اللهُ أنَّهُ شُبِّهَ الحاجبُ من الملكِ بالعينِ من الجسدِ، فهو يرَى مصالحَ المملكةِ فيُبديها ومضارَّها فيقصيها، وكما أنَّ العينَ تُجلَى وتُقوَّى والسَّقيمةُ تُداوى، فكذلكَ الحاجبُ تُقوَّى بصيرتُهُ، وتُهَذَّبُ أخلاقُهُ، وتُزاح أعذارهُ، وتملى عينهُ بالأنعام والإقطاعِ والأموال وغير ذلكَ.

ويطلق اسمُ الحاجبِ على شخصين حاجبين: أحدُهُما معَ نائبِ المملكةِ وهو شاد ديوان الجيوش، والآخرُ في خدمتهِ ملازماً للملكِ، ويُسمَّى أمير جاندار، والحاشيَة والزَّردخانات ورجالها والعُدَد والآلات راجعةً تحت حكمهِ، فلا يدخلُ أحدٌ على الملكِ إلاَّ باستئذانهِ(1)، ولا يخرجُ في أشغالهِ سواه، ولهُ نُوَّابٌ. فيجبُ أن يكونَا عارفين بأخلاقِ الملكِ وطباعهِ(2)، فلا يُدْخَل عليهِ الناسُ عندَ ضجرهِ(3) وملالهِ، ولا ذوو الهيبة عندَ خلوتهِ وانبساطهِ،

---

(1) في (ب) إلا بأمره بدلاً من (استئذانه).

(2) في (ب) بزيادة لفظ (وأحواله).

(3) في (ب) غضبه بدلاً من (ضجره).

ولا الملهين عندَ نهيهِ وأمرهِ ووقارهِ، بل توضَعُ الأمورُ في مواضعها، ويُرَتّبُ النّاسُ في مراتبهِمْ، ويقرَّبُ من يجبُ تقريبهُ، ويُبعدُ من يجبُ إبعادُهُ. ويكونا حسنا الاعتذار لمن يحجُباه، والتّلَطُّفِ لمنْ يوحشاهُ، والرّفق بمنْ أُبعد، والوَعْد لمن بطلَ، والمساعدة له في صلةِ رزقِهِ للهِ تعالى، وأن يبذلا جاههما لمن لا جاهَ لهُ، فهي أفضل الصّدقةِ لقولِ النبي ﷺ: « إنَّ أفضلَ الصَّدَقَةِ أن تُعينَ بجاهكَ من لا جاهَ لهُ » وقالَ عليه السلامُ: « إن لكلّ شيءٍ زكاةً، وزكاة الجاهِ بذْلهُ للضُّعفاءِ » فيجبُ على هذين الشّخصينِ المساعدة في الله، وأن يقبَل الملكُ منهما، ويسمعَ شفاعتهُما ويقبلها ويضاعف في الإحسانِ إليهما، ويُطيِّب خواطرهُما، فإنّ نكايات الحُجّاب أليمةٌ وجناياتهم شديدةٌ، وليسَ في خدم الملوكِ أصعَبُ منها، فإن الإحسانَ والتّوَدُّدَ يتولّدُ بحسنِ سياستِهِما ورقّةِ طباعهما، والشُرور تنسبُ إليها والأحقادُ تتركّبُ بسببها، فكم من محنٍ وحقودٍ كانَ منشؤها قسوةُ الحُجّابِ وغلظتهم ونفرتهِمْ، وفي ذلكَ يقولُ الشاعرُ:

كَـم مـلكٍ تُحمـدُ أخلاقهُ وتـرغبُ الأحـرارُ فـي خدمتـهِ
قـد أكثرَ الحـاجبُ أعـداءهُ وسلّـطَ الـذّمّ علـى دولتـهِ

فينبغي للملكِ أن يبذلَ الاجتهادَ في اختيارهِمْ واختبارهِمْ، ولتكنْ فيهم الأمانةُ والنّزاهةُ، فلا يقبلونَ الرُّشا والهدايا، فيقرّبونَ بها من يجب إبعادُهُ وبالعكسِ، فيفسدُ نظامُ مجلسِ الملكِ، وتتوغَّرُ عليهِ الصُّدورُ، ويكونُ فيهم حسنُ تأتٍّ، فيحسنونَ الخطابَ والاعتذارَ، ويتلَطَّفونَ في ردِّ الجواب.

وقالَ كسرَى لحاجبهِ: لا تحجُب عنّي ثلاثةً[1] مظلوماً ملهوفاً، أو رَسولاً أتى من ثَغرٍ[2]، أو صاحب نصيحةٍ[3]، ففي منعِ هؤلاءِ وتأخيرهِمْ

---

(١) في (ب) بزيادة لفظ (أشخاص).
(٢) في (ب) بزيادة لفظ (بعيد).
(٣) في (ب) بزيادة لفظ (حكمة).

فواتُ مصالحِ الدُّنيا والآخرةِ. ومع هذا لا ينبغي للملكِ أن يحتجبَ عن النَّاسِ ولا يغلقَ بابهُ دونهمْ، فإنَّهُ منصوبٌ لذلكَ متَصَدٌ لقضاءِ حوائجهم، وإنْ عرضَ لهُ مهمٌّ أو مانعٌ ضروريٌّ، فلينَدُب رجالاً من ثقاتهِ نقباءَ قريبينَ من النَّاسِ، يرفعونَ إليهِ حوائجهم وشكاويهم وظُلاماتهم.

رَوَى أبو داوُدَ في سنَنِهِ عن أبي مريمَ قالَ: دخلتُ على معاويةَ فقالَ: ما أنعمنا بكَ يا أبا فلان، وهيَ كلمةٌ تقولُها العربُ. فقالَ حديثٌ سمعتُهُ أُخبركَ بهِ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «من وَلاَّهُ اللهُ شيئاً من أمورِ المسلمينَ فاحتجبَ دونَ حاجتهمْ وخلَّتهمْ وفقرهم، احتجبَ اللهُ دونَ حاجتهِ وخَلَّتهِ وفقرهِ»[1] قالَ: فجعلَ رجلاً على حوائجِ النَّاس. ولم تزل خلفاءُ بني أُميَّةَ[2] تفعلُ ذلكَ مع المباشرةِ بأنفسهَا في بعضِ الأوقاتِ وكذلكَ الخلفاء من بني العبَّاس. ثم استبدَّ الوزراءُ بأُمورهمْ والحُجَّابُ حسبَ اختلافِ الأحوالِ، وكانَ الرَّسمُ في دخولِ النَّاسِ الى الخلفاءِ والملوكِ إذا جلسُوا لذلكَ، أن يفتَح بعضُ البابِ، ويستَدعَى الأمثَلُ فالأمثَلُ، حتَّى يستقرَّ بهم المجلسُ، ثمَّ يؤذَنُ للجميعِ ممَّنْ يدخُلُ.

وكانت ملوكُ الفرس تفردُ لكلِ طائفةٍ يوماً تدخلُ فيه.

وقالَ كسرَى لحاجبهِ: قد ولَّيتُكَ بابي، وإنكَ عينٌ أنظرُ بها، وجُنَّةٌ استليمُ إليها، فانظُر إلى النَّاسِ بعيني، وأنزلهمْ على مقدارِ منازلهمْ عندي، وأحسن إبلاغَك عنهمْ وإبلاغهمْ عنّي ، وقرِّبْ اليَّ الفقيرَ والمظلومَ وذَا الحاجةِ، ولا تُقَدِّمَنَّ مُتَعَنِّتاً، ولا تضعَنَّ شريفاً، ولا تُسَهِّل حجابي على سفلةٍ أو

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الامارة ١٣/ ورواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٢٣٨ — ٢٣٩ — حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا حسين بن محمد ثنا شريك عن أبي حصين عن الوالبي صديق لمعاذ بن جبل قال: قال رسول الله — ﷺ — وذكره.

(٢) في (ب) بزيادة جملة (وبني العباس).

خسيسٍ إلاَّ أن يكونَ مظلوماً، ولا ترفعنَّ إليَّ طلبةَ من إن منعتُهُ بخَّلني وأن أعطيتُهُ ازدراني، إلا بمُؤامرتي في ذلكَ سرًّا.

وقالَ **زيادٌ**(1) لحاجبهِ: لا تحجُبْ عنّي خمسةً: المؤذِّنَ فالصَّلاةُ لا تؤخَّرُ، وطارقَ اللَّيلِ فإنَّهُ في مهمٍ، ورَسولَ الثَّغرِ فتأخيرهُ خَلَلٌ، والمتظلِّمَ فمنعهُ عن حقّهِ رديءِ العاقِبةِ، وصاحبَ الطَّعامِ فإنَّ الطَّعامَ إذا أُعيد فَسَد.

وكان معاويةُ وغيرهُ من أمراءِ العربِ المتَمَكّنينَ إذا حضرَ طعامُهُمْ شُرّعتْ أبوابُهمْ، ودخلَ كلُّ من حضر، وقد فعلهُ ملوكُ العجم.

وقالَ **خالدُ بنُ عبدِاللهِ**(2) **القسري** إذَا أخذتُ مجلسي فلا تحجبْ عنّي أحداً فإن الوالي لا يحتجبُ إلاَّ عن عيّ أو ريبةٍ أو بخلٍ.

---

(1) هو **زياد** بن أبيه، أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه فقيل: عبيد الثقفي، وقيل: أبو سفيان، ولدته أمه سمية (جارية الحارث بن كلدة الثقفي) في الطائف وتبناه، وأدرك النبي ـ ﷺ ـ ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر، وكان كاتباً للمغيرة ابن شعبة ثم لأبي موسى الأشعري، ثم ولاه علي بن أبي طالب إمرة فارس. ولما توفي امتنع زياد على معاوية وتحصّن في قلاع فارس، وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه (أبي سفيان) فكتب إليه بذلك، فقدم زياد عليه وألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ هـ، فكان عضده الأقوى، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق. توفي عام ٥٣ هـ. (راجع ابن خلدون ٣ : ٥ ـ ١٥/ وابن الأثير ٣ : ١٩٥/ والطبري ٦ : ١٦٢/ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٤٠٦/ وميزان الاعتدال ١ : ٣٥٥/ ولسان الميزان ٢ : ٤٩٣).

(2) **خالد** بن عبدالله بن يزيد بن أسد القَسْري، من بجيلة، أبو الهيثم: أمير العِرَاقَيْن، وأحد خطباء العرب وأجوادهم. يماني الأصل، من أهل دمشق. ولي مكة سنة ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك، ثم ولاه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥ هـ، فأقام بالكوفة، وطالت مدته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠ هـ، وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وأمره أن يحاسبه، فسجنه يوسف وعذّبه بالحيرة، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يُرمى بالزندقة، وللفرزدق هجاء فيه. (راجع: الأغاني ١٩ : ٥٣ ـ ٦٤/ وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٦٧ ـ ٨٠/ والوفيات ١ : ١٦٩/ وتهذيب التهذيب. والبداية والنهاية/ وابن خلدون ٣ : ١٠٥ وما قبلها/ وابن الأثير ٤ : ٢٠٥ ثم ٥ : ١٠١).

الباب السَّابعُ

في ذكرِ رسلِ الملوكِ وصفاتها وهداياها واتحافِها

في مُسندِ البزّار عن بُرَيْدَةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: « إذا أبرَدْتُمْ إليَّ بريداً فأبردُوهُ حسنَ الاسمِ حسنَ الوجهِ ».

وكتابُ الملكِ لسانهُ ورسولهُ ترجمانهُ، وقد شُبّهَ المتكلّمُ عن القومِ باللّسانِ المترجمِ عمَّا في النّفسِ، يُقالُ فلانٌ لسانُ القومِ فيجبُ اختيارهُ واختبارهُ. وقد قيلَ رسولُ المرءِ دليلُ عقلهِ، فلْيَكُنْ فيهِ معَ ما تقدَّمَ من حُسنِ صورَتهِ واسمهِ وشَكلهِ منَ الدّينِ ما لا يُميلُ معَ الهوى وما يفعلُ منَ المناكرِ ما يَزْري بصاحبهِ، ومنَ الأمانةِ والنّزاهةِ بحيثُ لا يقبلُ الرُّشا ولا يستغرُّه العطاءُ، فيقصرُ فيما يجبُ لصاحبهِ ويبالغُ فيما لا ينبغي لمن أُرسلَ إليهِ، وفي ذلكَ من الوهنِ ما لا خفاءَ بهِ، ويكون فيهِ منَ العقلِ والرُّزانةِ(١) ما لا يرتاعُ لتهديداتٍ مرهبةٍ ولا يتغيَّرُ بأطماعٍ مرغبةٍ، بل يضعُ الأمورَ مواضعها ويقابلُ كلَّ فصلٍ من ذلكَ بما يليقُ بهِ.

وكانتْ ملوكُ الأُولِ أبداً تبعثُ رسولينِ: أحدُهُما صاحبُ سيفٍ، والآخرُ

---

(١) في (ب) والحكمة بدلاً من (الرزانة).

من أهلِ الشَّريعةِ، وقد يُعَزَّزُ بثالثَ من الكُتَّاب؛ فصاحبُ الشَّريعةِ يُقرِّرُ ما يسوغُ فيها ويدفعُ ما لا يسوغُ، وصاحبُ السَّيفِ يُرَتِّب ما لا مضرَّةَ[1] فيهِ على الملكِ ولا جُندِهِ ولا حيفَ ولا مخاطرةَ، والكاتبُ يحفظُ قوانينَ السِّياسَةِ ورسومَ المكاتباتِ وأدبَ المخاطبات.

وفي هذا الوقتِ اقتُصِر على رسولينِ: صاحبِ سيفٍ، وصاحبِ قلمٍ، وفي إنفاذِ رسولٍ واحدٍ أمينٍ كفايةٌ سيما إذا كانَ كافٍ في أمورِهِ موثوقٌ بمحبَّتِهِ للدَّولةِ ومناصحتِهِ، فليستَخرِ اللهَ تعالى الملكُ وليُرسلهُ ويكتبْ معهُ الكتابَ ويكتُبَ له تذكرةً بما لا يكونُ في الكتابِ أو بما يحتاجُ إلى البيانِ ويشافههُ بذلكَ ليصحَّ إبلاغُهُ عنهُ، وإن كانتْ فيهِ أهليَّةٌ لتفويضِ سَماعِ ما يردُ عليهِ وردِّ الأجوبةِ حسبَ ما تقتضيهِ المصلحةُ فعلَ؛ فإنَّ النَّاسَ تتفاوتُ[2] أقدارُهُمْ وأخطارُهُمْ.

ويَحذَرُ أن يكونَ الرَّسولُ شاربَ خمرٍ[3]، وإن كان فليترُكَهُ في ذلكَ الوقتِ بالكُلِّيَّةِ؛ فإنَّ الخمرَ تفضحُ شاربها وتُطلعُ على ما في نفسهِ من[4] الأسرار؛ فقد كانت الحزمَةُ منْ ملوكِ الفرسِ تُحرِّمُ على الرُّسلِ شُربَهَا، وتضربُ عليهِ الأعناقَ عندَ المخالفَةِ وكانوا إذا وردَ عليهم رسولٌ من الهندِ أو التُّركِ أو الرُّومِ أقاموا له الضِّيافات والرَّواتب، وبعثوا لهُ بالخمرِ والأغاني والملاهي؛ فإنْ أجابَ إلى ذلكَ طمعوا فيهِ واطَّلعوا على جميعِ أسرارِهِ وهانَ عليهِمْ، وإن امتنعَ نبلَ قدرهُ عندهم وعلمَ سدادهُ. وإن كانَ الرسولُ من عندِ بعضِ الأعداءِ فينبغي أن يُشَدَّد حجابهُ، ولا يُؤذَن لأحدٍ أن يجتمعَ بهِ، فرُبَّما أفسدَ قلوبَ جماعةٍ من أركانِ الدولةِ ورعاياها.

---

(١) في (ب) ما لا خطر بدلاً من (ما لا مضرة).
(٢) في (ب) تختلف بدلاً من (تتفاوت).
(٣) في (ب) بزيادة (أو لاعب ميسر).
(٤) في (ب) بزيادة لفظ (الأخبار).

فصلٌ

وينبغي للملكِ أن يتقدَّمَ أمرهُ إلى جميعِ عمَّالهِ بالبلادِ الّتي تحتَ حكمهِ أن يعتنوا بأمرِ الرُّسلِ والقُصَّادِ من أطرافِ البلادِ، فيُنَزَّلون في مساكنَ تليقُ بهمْ ويُجَرى عليهم من النَّفقاتِ والأطعمةِ ما يُرغدُ بهِ عيشهُمْ، وكذلكَ تُقامُ لهمْ بوظيفةِ المراكبِ حسبَ ما تَدْعُو الحاجةُ إليهِ، وإن نفقَ لهمْ دابّةٌ عوّضوا عنها، ويكون ذلكَ معدًّا لهم في جميعِ البلادِ الّتي على أطرافِ الطّريق، وما يلزَم الطرقات لمثلِ هذا، وإن كانت الطُّرُقُ والمسالكُ تحتاجُ إلى مخفّرين، فكان أجود أن يُسَيَّر معهم الخفراء او الدلالاء.

وأما الحزمَةُ من الملوكِ فإنَّهُمْ كلما يسمعوا بأخبار الرُّسولِ إنهُ وصلَ إلى أطرافِ بلادهِ فيُجَهِّزُ لهُ جماعةً من الجيش معَ أكبرِ الأمراءِ يحتفظونَ بهِ وبمنْ معهُ، وتُرتَّب لهُ الإقاماتُ والمراكبُ وجميع ما يحتاجُ إليهِ، ويوعِّر بهِ في الطُّرُقاتِ ويُدار بهِ الطُرق البعيدة المعطشة المشقّة، ولا يمكن أحداً من الاجتماعِ بهم حتَّى ينتهُوا إلى الملكِ، فإن كان ممَّنْ ينبغي للملكِ الاجتماعُ بهِ وأن يستقبلَهُ بنفسهِ فعلَ ذلكَ وهوَ على مقدارِ المُرسلِ، وكل رَسول على مقدارهِ ومقدارِ مرسلهِ، ومنَ الرُّسلِ ممَّن يُعتبر حالهُ، وإن لم يُمكن الملك يلتقيه بنفسهِ بعثَ إليه أحداً من أركانِ دولتهِ على مقدار الرُّسولِ ومرسله[1] حسبَ ما يليقُ بحالهِ؛ فإن كانَ الرُّسولُ من صاحبِ

---

(١) في (ب) بزيادة (ومن أرسله).

ثغرٍ أو والي حربٍ جلسَ واجتمعَ بهِ لوقتهِ وسمعَ رسالتهُ، فربّما كان فيهِ مصلحةٌ وفي تأخيرهِ مضرّةٌ، وإن لم يكنْ كذلكَ فليُنْزَلْ في دارِ الضيافةِ ثلاثةَ أيّامٍ، ولا يمكّن أحداً من الاجتماعِ بهِ، ثم يُستدعى وقد رتّبت دارُ المُلكِ في ذلك اليوم، وتجتمع العساكرُ والجندُ، ويجلسُ الملكُ على سريرِ الملكِ في أحسنِ أُبهةٍ وَزيٍّ، وتصطَفُّ السّلاحَ دارية حولهُ بالسُّيوفِ والطّبردازية وغيرهم من أربابِ[1] السّلاحِ.

ثمَّ يُمَدُّ السّماطُ وتأكُل النّاسُ أكل خدمةٍ لا أكلَ نهمةٍ وتخمَةٍ وأركانُ الدّولةِ جلوسٌ على قدرِ مراتبهم وقيامٌ في الخدمةِ ويدخلُ الرّسولُ والحاجبُ معهُ والمهمُّ دارية تقدمُه، فإذا وصلَ بحيث يلمحهُ الملك يخدُم الرّسولُ، ثم يتقدّم إلى وسطِ[2] الدار يخدُم، ثم يتقدّمُ إلى المكانِ الّذي يليق بهِ لمخاطبةِ الملكِ، فيخدُمُ ويقفُ والحجّابُ والتراجمُ حولهُ، فيُبلِّغ سلامَ مرسلهِ، ويخدُمُ عنهُ الخدمة اللائقة بهما؛ فيُقابلُ الملكُ تلكَ التّحيّة بما يليقُ بهما من الجوابِ بالقيامِ أو الخدمةِ أو الكلامِ حسبَ ما يقتضيهِ حالُ المرسل والمرسَل إليهِ، ثم يخرجُ الكتبَ التي معهُ فيضعُها على وجههِ وعينيهِ، ثم يطرَحها بين يدي الملكِ، فإنْ أرادَ الملكُ[3] إكرامَ صاحبها فليَقُمْ لتناوُلها وليُشر بالخدمةِ عندَ فضّها وقراءَةِ اسم مرسلها، ثم يلبثُ قليلاً حتّى يشير إليهِ الملك بالجلوسِ فيتأخّرَ ويجلس حيثُ يُجلسهُ الحاجبُ، أو أميرُ مجلس وهو أحدُ الحُجّابِ، فإن سألهُ الملكُ عن شيءٍ من أحوالِ مرسلهِ، أجابَ عنها بما ليسَ فيه سرٌّ ولا كتمان، ويترُك ما عندَهُ من المُشافهة[4] والأسرارِ إلى مجلسِ الخلوة، ثمَّ يشيرُ الى حاجبهِ بانصرافهِ[5] إلى دار

---

(١) في (ب) أصحاب بدلاً من (أرباب).
(٢) سقط من (ب) لفظ (وسط).
(٣) سقط من (ب) لفظ (الملك).
(٤) في (أ) بزيادة لفظ (المشافهة).
(٥) في (ب) بأخذه بدلاً من (بانصرافه).

الضِّيافةِ للاستراحةِ، وإن كانت معهُ هديَّةٌ فليُخاطِب الحاجبُ عنهُ للملكِ أنَّ الملكَ الفلاني قد بعثَ هديةً يلتمسُ قبولها، فيشيرُ الملكُ بحضورِها وهي محصَّلَة عندَ أقربِ الأبوابِ، فتُعرَضُ عليهِ بما فيها من دواب وجوارح وثيابٍ، مع ثَبْتٍ يتضمَّنُ ذلكَ، إلاَّ الجواري فلا تُعْرَضُ بل يُمضى بها إلى دارِ الحرَم بعدَ استئذانهِ معَ الخُدَّامِ والقَهْرمانة يعرضُ ذلكَ.

ولو أوردنا ذكرَ الهدايا والتُّحف لطالَ الكتاب، ومن أعظمِها وأكثرها هَديَّةُ ملكِ الهندِ للمأمونِ، وهديَّةُ ملك الرُّومِ للمقتدرِ وتأهُّب للقائِها، وزُيِّنَتِ البلدُ والقصورُ لدخولِهَا. وهديَّةُ المعزِّ[1] بن باديس للمعزِّ الَّذي بَنى القاهرةَ وسُمِّيَتْ بهِ، وتفاصيلُ ذلكَ مشروحٍ في كتبِ التَّواريخِ.

وقد تتهادى الملوكُ بهدايا يُرادُ بها المعاني وهيَ ألغازٌ مثل نوعٍ من السِّلاحِ، وهو تهديدٌ وما أشبهَ ذلكَ.

---

(١) هو **المعز** بن باديس بن المنصور الصنهاجي من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية. ولد بالمنصورة من أعمال إفريقية وولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ. وأقرّه الحاكم الفاطمي صاحب مصر والمغرب ولقبه بشرف الدولة، وساد الأمن في أيامه، وبنى بنايات ومساجد أنفق عليها أموالاً وافرة، وقرّب العلماء وأكرمهم، ونشبت بينه وبين قبائل زناتة حروب انتصر في جميعها، وكانت خطبته للفاطميين فقطعها سنة ٤٤٠ هـ وجعلها للعباسيين. توفي عام ٤٥٤ هـ. (راجع ابن خلكان ٢ : ١٠٤/ وابن الأثير ٩ : ٨٧ ثم ١٠ : ٥/ وفي هدية العارفين ٢ : ٤٦٥).

الباب الثّامن

في صحبةِ السُّلطانِ وشرائطهَا وما يُحمَدُ ويُذمُّ من ذلكَ

فأمّا الملكُ فإنّهُ كالجبلِ الشّامخِ الوَعرِ[1] وفيهِ الثّمار والمياه والوحش والسّباع؛ فالوصولُ إليهِ صعبٌ لصعوبَةِ المُرتقَى والمقامُ فيهِ صعبٌ لما يتعرّضُ فيهِ من الاخطارِ والسّباعِ وغيرها. وقيلَ زائرُ السلطانِ كزائرِ اللّيثِ الكاسرِ. وصحبةُ السُّلطانِ ترفعُ القدرَ وتنوّهُ الذّكرَ، وتُبلّغُ الغاياتِ، وتُجمّلُ الأحوال إذا كانتْ على السّيرة المرضيّةِ، وإلاّ فهيَ رَديّةُ الشّوائبِ مؤذيةُ العواقبِ.

قالَ بعضُ الفضلاءِ إذا قرّبكَ السُّلطانُ فوازنْ بينَ حاجتكَ إليهِ وحاجتهِ إليكَ، واجعلْ رغبتكَ دونها، ولا تشغلْ جميعَ خلواتكَ معهُ[2] بأمرِ نفسكَ بل بأمرِ نفسهِ وأنفاسهِ، وذكر ما تدعوهُ الحاجةُ إليهِ. واعلمْ بأنّكَ لستَ بأكثرِ شغلهِ، ولا بكَ قوامُ أمرهِ، ولا نظامُ دولتهِ وملكهِ، فإنّهُ يرى في كُلِّ حالٍ أنّهُ يتفضّلُ عليكَ، فليكن اعتقادُكَ هكذا واحذرْ من طريق العجبِ والأنفةِ، وإيّاكَ في أوامرهِ ونواهيهِ عن الغفلةِ.

---

(١) سقط من (ب) لفظ (الوعر).

(٢) في (ب) بزيادة لفظ (في مجلسه).

وقالَ **الحسنُ بنُ سهلٍ**[1] إذا اتَّخذكَ الملكُ أخاً فاتَّخذهُ سيِّداً، وإن زادكَ فزدهُ.

وقالَ **عليُّ بنُ عيسَى**[2]: لا تكنْ صحبتكَ للملكِ إلاَّ بعد رياضةِ نفسكَ على طاعتهِ على المكروهِ عندكَ، وموافقتهُ فيما خالفكَ وقدِّرِ الأمورَ على هوائهِ دونَ هوائكَ، فإن كنتَ حافظاً إذا وَلاَّكَ حذراً إذا قرَّبكَ أميناً إذا ائتمنكَ، تُعلّمهُ وكأنَّكَ تتعلَّمُ منهُ، وتدُلُّهُ وكأنَّكَ تستدِلَّ بهِ، وتَشكرُهُ ولا تُكَلِّفهُ الشُّكرَ، تتضاءلَ إن هجركَ، وترضَى وتعتذر إن أبعدكَ، فإن وثقتَ من نفسكَ بهذهِ الأخلاقِ وإلاَّ فالبعد منهُ البعدَ والحذَرَ الحذَرَ.

وينبغي لِمن صحبَ الملكَ أن لا يُضجرهُ بكثرةِ الدُّخولِ إليهِ إلاَّ إذا كانَ لهُ شغلٌ يقتضي المواظبة، وإذا دخلَ إليه لا يكثرُ المقامَ عندهُ، ولا يتحدَّثُ مع[3] أحدٍ في مجلسهِ كلاماً خفيفاً، ولا يمزح ولا يوشوش ولا يولع، وإن اضطرَّ إلى الحديثِ فليبعدْ أو فليخرُج، ولا يلحُّ بالنَّظرِ إليهِ ولا إلى غيرهِ بحضرتهِ، ولا يجلسُ بين يديهِ على كرسيِّ ولا على مطرحٍ إلاَّ إذا وضعَ لهُ بأمرٍ تشريفاً لهُ، وإذا أنعمَ عليهِ بشيءٍ يقوم قائماً ويخدمُ كما يليقُ بهِ. وكذلكَ إنْ وصفهُ بجميلٍ أو أثنى عليهِ أو شكرهُ.

---

(١) **الحسن** بن سهل بن عبدالله السرخسي، أبو محمد: وزير المأمون العباسي وأحد كبار القادة والولاة في عصره، اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون). وكان المأمون يجله ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح، أصيب بمرض السوداء سنة ٢٠٣ هـ، فتغيَّر عقله حتى شدّ في الحديد، ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته (سنة ٢١٠ هـ). وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان). قال الخطيب البغدادي وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل، كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس وأسلما، هما وأبوهما سهل في أيام الرشيد. (راجع: وفيات الأعيان ١ : ١٤١/ وغربال الزمان — خ/ وتاريخ بغداد ٧ : ٣١٩/ وابن الوردي ١ : ٢١٧).

(٢) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.

(٣) في (ب) ولا يتحدث في مجلسه بحذف (مع أحد).

وينبغي لمُجالسِ الملك أن يكونَ فيهِ من التّواضُعِ وحسنِ التّأتي والأدبِ ما يفوقُ غيرَهُ، كما أنَّ الملكَ يفوقَ غيرهُ، ولا ينبغي للواقفِ والجالس في الخدمةِ أن يجلس أو يقف إلاَّ في الموضعِ الّذي يعلَم أنّهُ يستدنيهِ منهُ ولا يقصيهِ[1]، وإن رأى غيرَهُ قد سبقَ إليهِ فلا يزاحمهُ إلاَّ أن يتأدَّب الجالسُ فيؤثرهُ بهِ ويُوصله إلى حقّه، فمن أخَلَّ بشيء من واجباتِ الآدابِ يمهله أميرُ مجلس حتّى يخرُجَ، ثم يعلمُهُ فلا يعودُ إلى ذلكَ، وهذا شغلُ الحاجبِ، فإنّهُ يعرفُ طبقاتِ النّاس ويصلحُ ما اختلَّ من آدابهم.

وقيلَ من أرادَ صحبةَ الملوكِ فليَدخُلْ كالأعمَى وليخرُجْ كالأخرس، فهو طريقُ السّلامةِ.

وأمّا أهلُ الأقاليم فإنّها تختلفُ أحوالُها في الآدابِ والسّلامِ والخِطابِ، فليكُنْ للملوكِ أرفعُها لعلوّ أقدارهِمْ، وقد اصطلحَ أهلُ المشرقِ في هذه المُدَدِ القريبة على أن تكون تحيّةُ الملكِ الخدمة والدُّعاء دونَ السّلام الّذي فيهِ تكليفُ الرّدّ والجواب، ثمَّ إن الخدمةَ تختلفُ منها ما هو بالإشارةِ بالرأسِ والتّطامنِ والبلوغِ الى حدّ الرُّكوعِ، وما زادَ عليهِ السجودُ، ولا يجوز السجودُ لغيرِ اللهِ[2]. وبعضُهُم من يَرى النّزولَ من على الدّابّةِ وتعفير الوجهِ على التُّرابِ، ولم يكُنْ عندَ العربِ شيءٌ من هذا، وإنّما هي رسومُ الأعاجم. وأمّا ملوكُ المغربِ فإنّهُمْ على الرّسمِ الأوّلِ في صَدْرِ الإسلامِ من التّحيّةِ والسّلامِ وكراهةِ الخضوعِ والقيامِ، وهذا أمرٌ يختصُّ بالأجنادِ والرّعيّةِ وأمّا أهلُ العلمِ والدّينِ والنُّسكِ فلا يليقُ بهمْ ذلكَ، بل يدخلونَ وعليهم السّكينةُ والوقارُ، ويسلّمونَ على السُّنّةِ، فيرُدُّ عليهم الملكُ أحسنَ الرّدّ، وكذلكَ كانتِ تفعَلُ، ونجدهُ في وصاياهم.

---

(١) سقط من (ب) لفظ (ولا يقصيه).

(٢) يقول الرسول ـــ ﷺ ـــ: «لو كنت آمراً أحداً بالسجود لغير الله تعالى لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

يُحكى أنَّ المنصورَ عطسَ بحضرةِ مالكِ بنِ[1] أنسٍ فأوْمَتِ الجندُ والأعاجمُ إليهِ بالخدمةِ، فقالَ: مالكٌ: أُجيبُ بِسُنَّةِ اللهِ ورَسولِه أم بسنَّةِ الملوكِ؟ فقال: بل بسُنَّةِ اللهِ ورسولِهِ، فقالَ يرحمُكمُ اللهُ يا أميرَ المؤمنينَ، وممَّا حُكيَ عن الفتحِ[2] بن خاقان أنَّهُ قالَ للمتوكِّلِ[3] لمَّا عطسَ: يرحمنا اللهُ بكَ يا أميرَ المؤمنينَ، فصار ذلكَ من آدابِ الخلفاءِ.

وأمَّا الملوك إذا مرَّتْ أو ظهرتْ من مكانٍ بعيدٍ فليَقُم النَّاسُ لها أدباً وإكراماً، وقد وردَ في السنَّةِ ما يناسبُ ذلكَ. روَى البخاريُّ في صحيحهِ عن أبي سعيدٍ الخُدْري أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ إلى سعدِ بن معاذٍ[4] فجاءَ

---

(١) هو **مالك** بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبدالله إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية، ولد عام ٩٣ هـ، وتوفي بالمدينة ١٧٩ هـ. وكان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، وشي به إلى جعفر عم المنصور العباسي فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه، ووجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله، وسأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به، فصنف الموطأ، وكتاباً في الرسائل، ورسالة في « الرد على القدرية » وغير ذلك كثير. (راجع الديباج المذهب ١٧ ــ ٣٠/ والوفيات ١ : ٤٣٩/ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥/ وصفة الصفوة ٢ : ٩٩/ وحلية ٦ : ٣١٦).

(٢) هو **الفتح** بن خاقان بن أحمد بن غرطوج أبو محمد: أديب شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذكاء. فارسي الأصل من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له واستوزره، وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه، وكان يقدمه على جميع أهله وولده ألف كتاباً سماه « اختلاف الملوك » وكتاباً في « الصيد والجوارح » وغير ذلك كثير. (راجع ابن النديم ١ : ١١٦/ وفوات الوفيات ٢ : ١٢٣/ وابن الشحنة ١ : ١٧٧).

(٣) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

(٤) هو **سعد** بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأوسي الأنصاري. صحابي من الأبطال من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر، وشهد أحداً فكان ممن ثبت فيها، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسماً. ورُمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جرحه ودفن بالبقيع عام ٥ هـ، وعمره سبع وثلاثون سنة، وحزن عليه النبي ــ ﷺ ــ وفي الحديث: اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ. (راجع صفة الصفوة ١ : ١٨/ وطبقات ابن سعد ٣ : ٢ القسم الثاني/ والإصابة ت ٣١٩٧).

على حمارٍ، فلمَّا دَنا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ قوموا إلى سيِّدكُم[1]. وكذلكَ يقبِّلُ الناسُ يدَ الملكِ عندَ البيعةِ وعندَ تجديد العطايا وعندَ العفو وعند الوداعِ، وقد كانت الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهم تفعلُ ذلكَ مع النبيِّ عليهِ السلامُ، وكذلكَ استمرَّ الرَّسمُ معَ أكثرِ الخُلفاءِ، فصارَ التقبيلُ للأكمامِ والعتباتِ على حسبِ الأقدارِ. التمسَ مسلمُ[2] بنُ قتيبةَ تقبيلَ يد المهدي، فقالَ تصونُكَ عنها ونصونُها عن غيركَ، أرادَ تشريفَهُ بذلكَ.

وسمعتُ عن ملوكِ التركِ: والخطأ أنَّ الدَّاخلَ عليهم يقبِّلُ الترابَ بين أيديهِمْ لا يقنعُ منه بتقبيلِ البساطِ، بل يترك منهُ موضعٌ خالٍ لذلكَ. وملوكُ الهندِ يتقرَّبُ اليهم بتقبيلِ أسفلِ أقدامِهِمْ وهيَ عندهمْ من الرُّتبِ وإلاَّ بتقبيلِ النَّعلِ. وملوكُ الإفرنجِ يجثو على الرُّكبِ الدَّاخلِ عليهم ويكشفُ رأسهُ، ثمَّ يخدمُ واضعاً يديه على صدرهِ مراراً، ثمَّ يقفُ حتَّى يؤمر بالجلوسِ. وبلغني عن ملوكِ الودان صاحب غانة وغيره، أنَّ الدَّاخلَ عليهم إذا عاينهم يقعُ على الأرضِ ويتمرَّغُ على رملٍ هناك حتَّى ينتهي إلى الملكِ.

ولا غرضَ في تَعديدِ ذلكَ، وإنَّما اتَّفقَ بسياقةِ الكلامِ، وإنَّما أكملُ الأخلاقِ وأتم الآدابِ أخلاقُ النبي ﷺ وآدابُ الشَّريعةِ المُطَهَّرةِ، فإنَّهُ ﷺ قالَ: «بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ ومحاسنَ العاداتِ»[3].

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في مناقب الأنصار ١٢، باب مناقب سعد بن معاذ ٣٨٠٤ ــ حدثنا محمد بن عرعرة حدثنا شعبة عن سعد بن ابراهيم عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه أن أناساً نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل إليه فجاء على حمار، فلما بلغ قريباً من المسجد قال النبي ــ ﷺ ــ: قوموا إلى خيركم ــ أو سيدكم... الخ.

(٢) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.

(٣) الحديث رواه الإمام مالك في كتابه الموطأ كتاب حسن الخلق (١)، باب ما جاء في حسن الخلق ٨ وحدثني عن مالك أنه قد بلغه أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: وذكره.
قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

القسم الثَّالثُ

في الأمورِ المختصَّةِ بالملكِ وخواصّهِ وحاشيتهِ
وهو عشرةُ أبوابٍ

الباب الأوَّلُ

في هيئةِ الملكِ ولباسهِ وركوبهِ وجلوسهِ وخصائصَ يتميَّزُ بها

من كمالِ خصائصِ الملكِ وحالهِ أن يكونَ في بيتِ تقدُّمٍ ورئاسةٍ أو مُلكٍ وسياسةٍ، ففي النَّسبِ بعضُ الفخرِ كما قال بعضُ شعراءِ العجمِ في المعنى:

إنَّ أسيافنا العِضابُ الدَّوامي   صيَّرتْ ملكنا قرينَ الدَّوامِ
واقتسامَ الأموالِ من وقتِ سامٍ   واقتحامَ الأهوالِ من وقتِ حامِ[1]

وبعضهمْ أسقطَ النَّظرَ عن ذلكَ، كما قالَ المتنبِّي[2]:

لا بِقومي شُرفتُ بل شَرفوا بي   وبنفسي فخرتُ لا بجدودي
وبهمْ فخرُ كلِّ من نطقَ الضَّادَ   وعوذُ الجاني وغَوثُ الطَّريدِ

وفاخرَ بعضُ أولادِ الحكماءِ لأرسطا طاليس، وكانَ عريق النَّسبِ في المُلكِ

---

(١) المعروف أن سام وحام من أبناء نوح عليه السلام، وراجع تاريخ اليعقوبي فقد تناولهم بالحديث.
(٢) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.

والحكمةِ، ولم يكنْ أرسطا طاليس ذا نسبٍ فيهم، فقالَ الحمدُللهِ الّـذي ابتدأ نسبي بي وانتهى نسبكَ إليكَ.

ومن ذلكَ حسنُ الصورةِ وتمامُ جمالِ الخلقةِ فإنّهُ من النّعمِ السنّيّة والعطايا الإلهيةِ، وهوَ من دلائلِ جودةِ الأخلاقِ وحسنِ السّجايا، وإلى هذا أشار بقولهِ عليهِ السلام: « اطلبوا الخيرَ عندَ حسانِ الوجوهِ »[1]. وقلّما قيلَ عن صفاتِ الأنبياءِ عليهم السلامُ والملوكِ العظماءِ المعتدلي الطّباعِ السّليمي الأخلاق إلاّ وكانتْ صُوَرُهمْ جميلة وأعضاؤهمْ سليمة تامّة.

ومن ذلكَ القوّةُ والبطشُ والشّجاعةُ، فإنّها من تكملات هيئةِ الملكِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[2].

وقد كانت ملوكُ العجمِ في زمنِ أفريدون إلى آخر زمانهم توصفُ ملوكهمْ بتمامِ الخلقةِ وعظمِ القوّةِ والبطشِ، وكانوا يُصَوِّرُونَ وقائعَهُمْ الّتي يفتخرونَ بها في هياكلهمْ وجُدرانِ منازلهمْ تخليداً لذكرهمْ. من ذلكَ قصّةُ بهرام جُور في أخذهِ حلّةَ الملكِ والتّاجَ من بين يدي الأسدينِ، وسيأتي سياقةُ ذلكَ في بابِ الحروبِ، وما جرى لهُ مع خاقانِ الأكبر ملكِ التركِ.

وقد اعتبرَ أهلُ العلمِ في بابِ الإمامةِ أن يكونَ تامَّ الأعضاءِ سالم الحاسّةِ، ومن ذلكَ أن يكونَ جهير الصّوتِ، فخم الكلامِ، فهوَ أوقعُ في النّفوسِ

(١) هذه رواية الأكثر عن أنس وجابر وابن عباس وعائشة وغيرهم، وفي رواية للطبراني من حديث يزيد بن خصيفة مرفوعاً بلفظ « التمسوا الخير » ورواه الدار قطني في الافراد عن أبي هريرة بلفظ « ابتغوا الخير عند حسان الوجه » وفي رواية القسملي إذا طلبتم الحاجات فاطلبوها إلى حسان الوجوه، وفي لفظ اطلبوا الحوائج والخير، وفي آخر اطلبوا الخير، أو قال العرف، وكلاهما عند بعضهم من الزيادة فإن قضى حاجتك قضاها بوجه طلق.

(٢) سورة البقرة (آية رقم ٢٤٧).

وأهيَبُ. ومن ذلكَ حسنُ العبارةِ وَالفصاحةِ في لغتهِ، فالعَيُّ[1] والحصبُ عيبٌ وخجلٌ، فإن كانَ ذَكلَ فليُترجم عنهُ من يقومُ مقامهُ. وينبغي أن يكونَ فيهِ من الفطنةِ والذكاءِ ما يسرعُ إلى فهمهِ الإشاراتِ والحركاتِ والتّعريضات حتّى يفهمَ كلامَ المتصنّع، ويعرف إشارةَ المتكلّفِ، ولاَ بأسَ أن يغضي في بعضِ الأوقاتِ، ويُظهر كأنّهُ ما رأى ما جرى، ولا سمعَ ما طرأ لمصلحةِ الوقتِ، وهو التّغابي المحمود العاقبة. قالَ معاوية:

لـيسَ الغبـيُّ بسيِّـدٍ فـي قومـهِ   لكـنّ سيِّـد قومـهِ المتغابـي

(١) العيّ: ضد البيان وقد (عي) في منطقه فهو (عي) على فعل وأعياه أمره، وتقول في الجمع (عيوا) مشدداً، وأعيا الرجل في المشي فهو (معي) ولا يقال (عيّان) وأعياه الله كلاهما بالألف، والمعاياة أن تأتي بشيء لا يهتدى إليه.

فصلٌ

وأمَّا لباسُ الملكِ فليكُن من أفخرِ اللّباسِ ممَّا تُبيحهُ الشريعةُ، وينسبُ لابسهُ إلى الشّهامةِ، وليسَ لهُ حَدٌّ فيرجعُ إليهِ، ولا نوعٌ يقعُ الاختيارُ عليهِ إلاَّ بالنسبةِ والإضافةِ إلى العاداتِ، فإنْ تميَّزَ الملكُ بنوعٍ من اللّباسِ أو بلونٍ من الألوانِ فمنَ الأدبِ ألاَّ يلبسَ أحدٌ ذلكَ بحضرتهِ.

نُقِلَ عن معاويةَ، كان إذا ركبَ في موكبهِ وعليهِ رداءٌ أزرقُ أو أخضرُ، لم يبقَ أحدٌ عليهِ ذلكَ اللونُ إلاَّ غيَّر رداءَهُ سوَى البياض فإنَّهُ عامَّةُ لباسهمْ. وكانَ الحجَّاجُ[1] إذا لبسَ قلنسوةً لم يدخلْ عليهِ أحدٌ بقلنسوةٍ.

ولم تزل الخلفاءُ والملوكُ تختصُّ بنوعٍ من الّذي لا يشاركونَ فيهِ. فملوكٌ تركب بالجترِ على رأسها، وهي الّتي يسمُّونها بمصر المظلّة، ويجلسونَ

(١) هو **الحجاج** بن يوسف بن الحكم الثقفي أبو محمد، قائد: داهية سفّاك خطيب. ولد عام ٤٠ هـ، ونشأ في الطائف بالحجاز، وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك ابن مروان، فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلّده عبد الملك عسكره وأمره بقتال عبدالله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير، وقتل عبدالله وفرّق جموعه، فولاّه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد وقمع الثورة، وثبتت له الامارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة. وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين. مات عام ٩٥ هـ. (راجع معجم البلدان ٨ : ٣٨٢/ ووفيات الأعيان ١ : ١٢٣/ والمسعودي ٢ : ١٠٢ ـــ ١١٩/ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٠).

تحتها على التَّختِ، وكذلكَ الخلفاءُ، وملوكٌ تجلسُ على الكراسي وملوكٌ تجلسُ على نَطْعٍ[1] أو مُصَلًّى، لميلهمْ إلى التَّواضعِ.

وأمَّا المواكب فمنهمْ من يركبُ بالسُّنجق وراءهُ. وملوكُ المغربِ يركبونَ بمصحفِ عثمان رضيَ اللهُ عنهُ في قُبَّةٍ على ناقةٍ أمامهمْ وعلمٌ أبيَض، ويلبسونَ برنساً بنفسجياً لا يلبسهُ غيرهمْ راكباً في جميعِ بلادهم. وما تمّ زيّ ولا موكب ولاَ جيش أحسن ولا أظرفَ ولاَ أجوَلَ من جيشِ الإسلامِ بمصرَ والشامِ من أوّل دولةِ الأتراكِ وإلى هلُمّ.

ومن خصائصِ الملوكِ إدامة الدُعاء لهمْ في الخطبِ بالجوامعِ والأعيادِ والمواسمِ، بعدَ حمدِاللهِ، والصَّلاةِ على رسولِ اللهِ، والرّضىَ عن الصُّحابةِ، والدُّعاء لإمامِ العصرِ، ثم بعدهُ لملكِ ذلكَ العصرِ، وربّما ذكرَ من ينوبُ عنهُ على حسبِ ما يراهُ.

ومنْ ذلكَ اتّخاذ عصائب وأعلام خواصّ في لونها وصفتِها، ولا يُنشَرُ مثلهُ على رأسِ غيرهِ، والغرضُ في ذلكَ التَّمييزُ لا غيرُ. ولم تزل الملوكُ على هذا الرَّسمِ. وكانت للنبيّ ﷺ رايةٌ من صوفٍ أسوَد، وكانت له رايةٌ سوداء تسمَّى العُقاب وهي هذهِ، ويُروَى أنّها رُكّزَت على جبلِ دمشقَ على الثّنية، فسُمّيت بها. وهي ثنيّةُ العُقابِ. وكان لهُ عليهِ السلامُ ألويةٌ بيض. وكانت أعلامُ بني أُميَّةَ حُمراً. وكلّ من دعا إلى الدَّولةِ العَلَويّةِ فعلَمُهُ أبيضُ. ومَنْ دعا إلى بني العبّاس فأعلامهُ سود. وكذلكَ الخلفاءُ والملوكُ وملوكُ السَّلجوقيّة والمتقدّمون، يركبونَ بالجترِ على رؤوسهمْ وهو كالقُبَّةِ الصَّغيرةِ، مرتفعٌ في الهواءِ على رمحٍ يحملهُ من يسير قريب الملك، بحيث يظِلُّهُ من الشّمسِ، ويكون منَ الدّيباجِ والحَريرِ المُذهبِ.

---

(١) نطع: ــ النطع فيه أربع لغات: (نَطْعٌ) كطلع، ونَطَعٌ كنَبَع، ونِطْعٌ كدِرْع ونِطَعٌ كعِنَب. والجمعُ نطُوع وأنطاع. وتنطَّع في الكلام تعمق.

ومنَ الرُّسومِ السُّلطانيَّةِ نقش اسم الملك والخليفةِ على الدينارِ والدرهم، ويُكرهُ أن ينقشَ عليهِ كلمةُ التَّوحيد وهي: « لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ محمَّدٌ رَسولُ اللهِ» خشيةً من أن يقعَ في المراحيض وتحت الدَّوسِ والأوحالِ الوسخةِ. وكانت ملوكُ الفرسِ والرُّوم تنقشُ صورةَ الملكِ على الوجهِ الواحدِ والوجهِ الآخرِ فيه كلامٌ بخطِّهِمْ وهو اسمهُ وتاريخهُ. والفرسُ أيضاً تصوِّر صورة زرادشت، وبعضهُمْ صورةَ الشَّمسِ، والنَّصارى والفرنج يُصوِّرونَ الصُّورَ وينقشونَ الصَّليبَ.

وأوَّلُ من ضربَ السِّكَّةَ العربيَّة عبدُ الملكِ[1] بن مروان في سنةِ ثلاث وسبعين، وكتبَ على الدرهمِ سورةَ الإخلاصِ، وكانت معاملة بالدَّراهمِ الكسرويَّةِ والرُّوميَّةِ. والنبيُّ ﷺ كانَ يعطي الذَّهبَ والفضَّةَ للوفودِ وغيرهم وزناً بالأوقيةِ. وكذلكَ التَّبايعَ ومهورَ النِّساءِ.

---

(١) هو **عبد الملك** بن مروان بن موسى بن نصير اللخمي، آخر أمير ولي مصر في العصر الأموي، كان يلي خراجها قبل ذلك. ثم ولي الإمارة سنة ١٣٢ هـ لمروان بن محمد (آخر ملوك بني مروان) فأقام سبعة أشهر حمدت فيها سيرته، ولم يفحش في حق بني العباس، وظفر هؤلاء في الشام وفي غيرها. وفرّ مروان بن محمد من أبي مسلم الخراساني فدخل مصر، وطارده صالح بن علي العباسي وقتله وأسر ابن مروان صاحب الترجمة، ثم عفا عنه صالح بن علي وأخذه معه مكرماً حين رحل من مصر في شعبان سنة ١٣٣ هـ، وتوفي في نفس العام. (راجع ابن الأثير ٤ : :١٩٨/ والطبري ٨ : ٥٦/ واليعقوبي ٣ : ١٤/ وميزان الاعتدال ٢ : ١٥٣ وفيه سقك الدماء وفعل الأفاعيل).

فصلٌ

ولمَّا كانَ وجودُ الملكِ من المصالحِ الكُلِّيَّةِ وانتظام الأمور وصلاحِ الجمهور كذلكَ في فقدهِ من المضارِّ مثل ذلكَ، ولهذا كانت الملوكُ تعهدُ في حالِ صحّتها إلى من يقومُ بالأمرِ بعدها حرصاً على دوامِ الانتظامِ وقطع أملِ الأعداءِ من الطَّمعِ. فيجبُ أن يكونَ الملكُ كثيرَ الاحترازِ على نفسهِ في يقظتهِ ونومهِ وحركتهِ وسكونهِ، ويستوثق من الحرسِ والأعوانِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ مع جلالةِ قدرهِ حرَّسَ عليهِ يوم بدر حينَ نام في العريشِ سعدَ بن مُعاذٍ[1]، وحرسهُ ذكوانُ بن عبد قيسٍ، وحرسهُ بأُحد محمَّدُ[2]

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأوسي الأنصاري، صحابي من الأبطال من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر، وشهد أُحداً فكان ممن ثبت فيها، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسماً، ورُمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جرحه، ودفن بالبقيع وعمره سبع وثلاثون سنة، وحزن عليه النبي ــ ﷺ، وفي الحديث «اهتزّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ». (راجع صفة الصفوة ١ : ١٨٠/ وطبقات ابن سعد ٣ : ٢ القسم الثاني/ والإصابة ت ٣١٩٧).

(٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي أبو عبد الرحمن، صحابي من الأمراء من أهل المدينة، شهد بدراً وما بعدها إلا غزوة تبوك، واستخلفه النبي ــ ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة واعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر معداً لكشف أمور الولاة في البلاد. مات بالمدينة عام ٤٣ هـ. (راجع الإصابة ت ٧٨٠٨/ والتنبيه والأشراف للمسعودي ٢٠٩، ٢١٨، ٢١٩/ والكامل ٣ : ٢).

ابن مسلمةَ الأنصاريُّ، وحرسهُ يوم الخندق الزّبيرُ بنُ العوّام[1]، وحرسهُ سعدُ بن أبي وقّاص[2]، وحرسهُ بخَيْبَر أبو أيّوبَ الأنصاريُّ[3]، وحرسهُ بلالٌ[4] بوادي القُرَى فلمّا نزلَ عليه: ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[5] تركَ الحرسَ.

ولا ينبغي للملكِ أن يتنكَّرَ ويمشي في المواضعِ المجهولة، فربَّما اغتالهُ من عرفَهُ وآذاهُ من جَهِله، كما جرى في قصَّةِ سابُور ذي الأكتاف حينَ

---

(١) سبقت الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية.

(٢) هو **سعد** بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري أبو اسحاق، الصحابي الأمير فاتح العراق ومدائن كسرى وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ويقال له: فارس الإسلام. أسلم وهو ابن ١٧ سنة، وشهد بدراً، وافتتح القادسية، ونزل أرض الكوفة فجعلها خططاً لأرض العرب، وظل والياً عليها مدة عمر بن الخطاب. له في كتب الحديث ٢٧١ حديثاً. توفي عام ٥٥ هـ. (راجع الرياض النضرة ٢ : ٢٩٢/ وتاريخ الخميس ١ : ٤٩٩/ والتهذيب ٣ : ٤٨٣/ وصفة الصفوة ١ : ١٣٨).

(٣) **خالد** بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري من بني النجار. صحابي شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد. وكان شجاعاً صابراً تقيًّا محبًّا للغزو والجهاد. عاش إلى أيام بني أمية، وكان يسكن المدينة، فرحل إلى الشام. حضر غزو القسطنطينية أيام يزيد ابن معاوية، وتوفي بها عام ٥٢ هـ. له ١٥٥ حديثاً. (راجع طبقات ابن سعد ٣ : ٤٩/ والإصابة ١ : ٤٠٥/ وصفة الصفوة ١ : ١٨٦/ وحلية الأولياء ١ : ٣٦١).

(٤) هو **بلال** بن رباح الحبشي أبو عبدالله، مؤذن رسول الله ـ ﷺ، وخازنه على بيت المال من مولدي السراة وأحد السابقين للإسلام. وفي الحديث: «بلال سابق الحبشة». وكان شديد السمرة، نحيفاً طوالاً، خفيف العارضين، له شعر كثيف، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ ـ ولما توفي رسول الله ـ ﷺ ـ أذن بلال ولم يؤذن بعدها. توفي في دمشق عام ٢٠ هـ. له في البخاري ومسلم ٤٤ حديثاً. (راجع ابن سعد ٣ : ١٦٩/ وصفة الصفوة ١ : ١٧١/ وحلية الأولياء ١ : ١٤٧).

(٥) سورة المائدة (آية رقم ٦٧).

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من حدثك أن محمداً كتم

خرجَ مُتنكِّراً إلى بلادِ الرُّومِ في زيّ الفقراءِ، فعُرفتْ صورتهُ وقُبِضَ عليهِ، والقصَّةُ طويلةٌ مشهورةٌ.

وينبغي أن يحترزَ منَ الدُّخولِ إلى بلادِ العدُوِّ إمَّا بانفرادهِ أو بجماعةٍ يسيرةٍ على ظنِّ أنَّهُ يطَّلعُ على الأحوالِ ولا يُشعَرُ بهِ، فكمْ قد أعقبَ ذلكَ من النَّدمِ ما لا يُستدرَكُ فارطُهُ. ومن نظرَ في تواريخِ المتقدّمين رأى عجباً.

ويجبُ أن يحترزَ في طعامهِ وشرابهِ أن لا يباشرَهُ إلاَّ من يوثقُ به، ويتناولُ منهُ قبلهُ، وكذلكَ في الطِّيبِ واللّباسِ والغَسولِ والأدويَةِ والفَصدِ والحجامة والمراكب والمشموم وغير ذلكَ. وكلّ ذلكَ إذا كانَ مسموماً فلهُ علامات وفيه أنواعٌ من المُضرّات، فإن الملوكَ قد تُكادُ بمثلِ هذا.

ويُحكَى أنّ بعضَ ملوكِ الهندِ بعثَ إلى الإسكندَر بهديَّةٍ جليلةٍ في جملتِها جارية فائقة الجمالِ، رائعة الحسنِ، فعرضَ الإسكندرُ ذلكَ على أرسطا طاليس لسعادتهِ، فتفرَّسَ في الجاريةِ أنّها مسمومةٌ، وكانتْ قد غُذّيَتْ بالسُّمِّ من الصِّغَرِ على التَّدريجِ، ورُبّيَتْ على ما يلائمهُ حتَّى صارتْ في طبعِ الأفاعي، فكرهَ الإسكندرُ منها ودفعها لمن استحقَّ القتلَ، فلمَّا جامعها واختلطَ عرقُها بجسمهِ أورثَهُ حكّةً وبثراً وتهرّأ جسمهُ فمات.

فينبغي للملكِ أن يتّخذَ عندهُ ما يدلُّ على السّمومِ إن حضرتْ في الأطعمةِ وغيرها وما يبطلُها، أوْ يُنقص قُواها قبلَ تأثيرها، وما يدفعُ مضرّتها بعدَ تناولها.

= شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول: ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليْكَ مِن رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾.

وكذا رواه الإمام مسلم في كتاب الايمان، والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما من طرق عن عامر الشعبي عن مسروق بن الأجدع عنها رضي الله عنها.

وفي الصحيحين أيضاً أنها قالت لو كان محمد ـ ﷺ ـ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النّاسَ واللهُ أَحَقُّ أنْ تَخْشاهُ﴾.

قالَ بعضُ الحكماءِ: إنَّ الطَّاوُوسَ إذا نظرَ إلى طعامٍ مسمومٍ أو شمَّ رائحتهُ صاحَ، فإنْ قربَ إليهِ زادَ في الصّياحِ. وقالَ إنَّ الببغاء إذا مرَّ بها من معهُ سمّ صاحت واضطربتْ كالمخدَّرةِ منهُ. والقردُ إذا شمَّ رائحةَ السُّمِّ احمرَّت عيناهُ وهربَ من ذلكَ الموضعِ، ورُبَّما قرُبَ إليهِ كثيراً فتقيَّأ. واليَشم إذا غُلّي على الطَّعام المسمومِ عرِقَ. فيجبُ أن يتَّخذ بعض هذه الحيواناتِ في مجالسِ الملوك ومنازلها، وكذلكَ استعمال أواني اليَشْمِ والتختُّمِ بهِ وبالزُّمُرُّدِ، واتّخاذِ نُصب السّكاكين من اليَشْمِ والملاعقِ، وحجر الخُتُو الَّذي يُجْلَبُ من بلادِ الصِّينِ فإنَّهُ يظهر عليهِ عرقٌ إذا قُرِّبَ من الشَّيءِ المسمومِ. ويجبُ أنَّهُ لا يفارق الدِرْياق والفاروق الحجر البازهْرِ فإن طرأ أمرٌ لم يَطُلْ الأمرُ في إحضارهما. وأمَّا من سُقي شيئاً من السُّموم المعدنيَّةِ أو النباتيَّةِ أو الحيوانيَّةِ، فعِلاجاتُها مشروحةٌ في كتبِ الطِّبِّ فلا يليقُ إطالةُ الكتابِ بهِ ها هُنا.

فصلٌ

وإن مرضَ الملكُ أو شربَ دواءً مسهلاً أو افتصدَ، وأذنَ للعُوّادِ في عيادتهِ، فلا ينبغي أن يستوصفَ حالَهُ، ولا يُقالُ كيفَ أصبحَ ولا كيفَ أمسَى، وإنّما يُقتصرُ على الدُّعاءِ، وإنّما يُباشر ذلكَ ويبحثُ عنهُ خَواصُّهُ والأطباءُ، ولا يفارقهُ الطَّبيبُ ليلاً ولا نهاراً ليعرفَ أوقاتَ تنقُّلاتِ الأمراضِ وحركاتِ البحران، فيستَدِلَّ على التَّحقيقِ للأمراضِ وصحَّةِ العلاجِ بتحقيقِ المرضِ.

الباب الثاني

في أدبِ خواصِّ الملكِ معهُ في جميعِ أحوالهِ وبطانتهِ

لمّا كانت هذهِ الطّائفةُ أقربَ النّاسِ إلى الملكِ، وجبَ أن يكونوا أكثرَ النّاس ملاءمةً لطباعهِ، ومن المائلينَ إلى أغراضهِ، ليكونوا معهُ في محلِّ تقريبٍ وهو معهم في سرورٍ وأُنسٍ، ويَحسُن أن يكونوا ذوي صورٍ جميلةٍ، وألفاظٍ عذبَةٍ، وإشاراتٍ لطيفةٍ، وفهمٍ حاضرٍ، وذكاءٍ وافرٍ، ولتكُنْ بزّتُهمْ فاخرة، ويستعملونَ الطّيبَ ما يمكنُ. وليلتزمْ كلُّ واحدٍ بخدمتهِ ويواظبْ عليها في نوبتهِ، وليكنْ عليهم مقدّمينَ تجمعُ أمرهمْ وتصلحُ حالهمْ، ويزيحوا عللهُمْ ويكونوا خدّاماً متناوبينَ على الخدمَةِ لئلا يقعَ التّقصيرُ في وقتٍ من الأوقاتِ. ولا بأسَ بانبساطِ الملكِ مع خواصّهِ ليقعَ الأُنس وتوليفهمْ على محبّتهِ ومناصحتهِ.

قالَ **المأمونُ**[1] نحنُ أمناءُ على رعيّتنا، وخدمتنا أمناء علينا. فلا ينبغي أن يكونَ في قلوبهم غشٌّ ولا حقدٌ ولا ضغنٌ فإنّهم يقدرونَ على النِكاياتِ

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.

العظامِ من النّكباتِ. وكذلكَ على أصحابِ الملكِ والمتعلّقينَ بهِ يجبُ أن يحترزُوا من ضغائنِ(١) البطانةِ، فإنَّهمْ يتوصّلونَ في الخيرِ والشرِّ ما لا يتوصّلُ غيرهُ.

يُحكى أنَّ بعضَ الملوكِ كانَ لهُ وزيرٌ متمكّنٌ منهُ متصرّفٌ في الدّولةِ والمملكةِ، وأن بعضَ المماليك الخواصّ رأى بيدِ الوزيرِ منطقةً من ذهبٍ مجوهرةً حسنةَ(٢) الصّنعةِ، فأعجبتهُ فطلبها منهُ، فقالَ لهُ: ما تصلحُ لكَ، فألحَّ عليهِ فلمْ يدفعها لهُ وانتهرهُ، فخرجَ وهو مُغضبٌ، وقالَ لرفيقٍ لهُ: لأكيدَنَّ هذا الوزيرَ ولأجهدَنَّ في أمرهِ. فقالَ لهُ رفيقُهُ: ما عسَى أن تصنعَ؟ فقالَ لهُ: إذَا كانَ وقتَ نوبتنا عندَ الملكِ، وغمّضَ عينيه قبلَ أن ينامَ، فقلْ لي: ما الّذي كنتَ تقولُ عن الوزيرِ وأمرتَني بكتمانهِ من غيرِ أن أفهمهُ، فأقولُ رأيتُ منهُ ما أذهلني، وذلكَ أنّي رأيتُهُ منذ ليالٍ وقد خرجَ من عندِ الملكِ، وتبعتهُ فراغَ(٣) منَ الطَّريقِ وحدهُ إلى ناحيةِ بابِ الحُرَمِ، وخرجَتْ إليهِ جاريةٌ فتحدَّثتْ معهُ طويلاً، ولستُ أعلمُ ما وراءَ ذلكَ، ثم انصرفا ففعلا ذلكَ والملكُ يسمعُ وهو(٤) كأنَّهُ نائمٌ، فلمّا أصبحَ تغيّرَ على الوزيرِ وانقبضَ عنهُ، وزادَ تغيُّره حتّى طلبَ غيرهُ، واستكفى الملكُ بهِ وعزلهُ، ولا يعلمُ هوَ ولاَ غيرهُ سببَ ذلكَ، فلمّا كانَ بعدَ أيّامٍ مرَّ بهِ ذلكَ الغلامُ ورفيقهُ معهُ، فقالَ لهُ: أيُّها الوزيرُ لمن تَصلحُ المنطقةُ: لمَن فعلَ بكَ هذا أو لمنْ يَرُدُّكَ إلى ما كنتَ عليهِ، فعلم أنَّهُ قد دُهِيَ(٥) من جهتهِ، فتضرَّعَ إليهِ وبعثَ بالمنطقةِ وبهدايا معها وتُحف، فقالَ لهُ رفيقهُ: ويحكَ كيفَ تصنَعُ؟ فقالَ: إذا كانَ وقتُ نوبتِنا في خدمةِ الملكِ وتغميزِ أقدامهِ، فقُلْ

---

(١) في (ب) أحقاد بدلاً من (ضغائن).
(٢) في (ب) جميلة بدلاً من (حسنة).
(٣) في (ب) فذهب بدلاً من (فراغ).
(٤) في (ب) يتصنع بدلاً من (وكأنه).
(٥) في (ب) أصيب بدلاً من (دهي).

لي يا أخي ما خدمةُ الملوكِ إلاَّ عظيمةُ الخطَرِ، فقالَ لهُ ذلكَ كما علَّمهُ قبلَ أن يستغرقَ الملكُ في النَّومِ فقالَ لهُ الغُلامُ: مثل[1] ما قالَ لهُ، فقالَ: يا أخي هوَ كما ذكرتَ ولكنَّها كثيرةُ المعاطبِ، وإذا كانَ الإنسانُ على خطرٍ كانَ عيشهُ نكِداً، فلو كانَ أحدُنا لبعضِ السُّوقَةِ أو العوامِّ وغضِبَ عليهِ، ترضَّاهُ فرضي، أو طلبَ منهُ البيعَ فباعهُ، انتقلَ إلى غيرهِ واستراحَ، ألا ترى إلى وزيرِ سيِّدي الملكِ مع جودتهِ ومُناصحتهِ وشفقتهِ كيفَ غضِبَ عليهِ وأبعدَهُ وصارَ طريداً مُهاناً، ولعلَّ هذا يا أخي تأويلُ المنامِ الَّذي حكيتُهُ لكَ من ليالٍ، فلمَّا سمعَ الملكُ جلسَ وقالَ: ويلكَ أُعدْ ما تقولُ، ألستَ القائلَ كذا وكذا؟ قالَ: نعم يا سيِّدي رأيتُ ذلكَ في النَّومِ[2] فحكيتهُ لأخي، فعلمَ الملكُ أنَّ ذلكَ كان منهُ على غيرِ تثبيتٍ ولا تحقيقٍ، فشرعَ في إزالةِ الوحشةِ[3] بينهُ وبينَ الوزيرِ، ثمَّ لم تمضِ أيَّامٌ قلائل حتَّى أعادهُ إلى ما كانَ عليهِ. وهذهِ الحكايةُ وإن تعلَّقت بالمماليكِ إلاَّ أنها تتعلَّقُ بالخاصَّةِ كانُوا مماليكَ أو غيرَ مماليك.

وتظيرُ هذا ما يُحكَى أنَّ الأفشينَ لمَّا ظفرَ ببابكَ الخُرَّمي وحملهُ أسيراً إلى المعتصمِ بعدَ الحروبِ الشَّديدةِ والمصافاتِ المديدةِ، عظُمَ شأنهُ عند المعتصمِ وكبُرَ محلُّهُ، ولم يبقَ لهُ نظيرٌ في الدَّولةِ، وكان يتهاونُ بالقاضي أحمد[4] بنَ داوُدَ وبمحمَّدِ بن عبدِ الملكِ[5] الزَّيَّاتِ، وكانا خصيصين

---

(١) سقط من (ب) لفظ (مثل ما قال).

(٢) في (ب) في الحلم بدلاً من (النوم).

(٣) في (ب) الفرقة بدلاً من (الوحشة).

(٤) هو **أحمد** بن أبي داود بن جرير بن مالك الأيادي أبو عبدالله. أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن. قدم به أبوه وهو حدث من قنسرين (بين حلب ومعرة النعمان) إلى دمشق، فنشأ فيها ونبغ، ومنها رحل إلى العراق. وقيل: ولد بالبصرة عام ١٦٠ هـ.

كان شديد الدهاء محبًّا للخير، اتصل بالمأمون، فلما قرب موته أوصى به أخاه المعتصم، =

بالمعتصمِ، فأعملا الفكرَ في أمرهِ، وكانَ لهُ صديقٌ يُعرفُ بمحمَّد بن ابراهيمَ الظَّاهريّ، وكان بينهُ وبينَ الزَّيَّاتِ مُؤانسة فانتمى لهُ، ووعدهُ أن يوَلِّيهِ فارسَ والأهوازَ، ويرفَع عندَ المعتصمِ قدرَهُ على أن يتلطَّفَ في ايحاشِ الأفشين من المعتصمِ، فدخلَ محمَّد الظَّاهريُّ يوماً على الأفشينِ وأظهرَ لهُ الاغتمام والكآبةَ، فسألهُ عن شأنهِ فكتمهُ، فألحَّ عليهِ فتلجلجَ، فاستحلفهُ أن يكتُمَ ذلكَ، وقالَ: إنَّ المعتصمَ قد تغيَّر عليكَ وأخذَ في التَّدبير على قبضِكَ، فقالَ الأفشينُ: هذا باطلٌ لأنَّني عليهِ عظيمُ البركةِ، وقد فتحتُ لهُ الفتوحَ، وأرحتهُ من بابكَ، ولم يظهرْ منّي سوءٌ قطّ، فكيفَ يكونُ هذا؟! فقالَ لَهُ: قد بحثتُ لكَ بما في نفسي، وسيظهَرُ لكَ عن قليلٍ، فكثُرَ فِكرُ الأفشينِ واغتمَّ لذلكَ، واتَّفق أن دخلَ على المعتصمِ يوماً، فرآهُ ضجراً معبِّساً لبعضِ أحوالهِ، فظنَّ أنَّ ذلكَ بسببهِ، فحذِرَ على نفسهِ، وتحرَّزَ في منزلهِ، واستظهرَ بحرسهِ، واحتفظَ بأبوابهِ، فبلغَ المعتصمُ ذلكَ فأنكرهُ، ثمَّ قالَ لهُ ابنُ أبي داوُدَ يا أمير المؤمنينَ أنتَ منَّا بمنزلةِ الرُّوحِ من الجسدِ،

= فجعله قاضي قضاته، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلها، ولما مات المعتصم اعتمد الواثق على رأيه، ومات الواثق راضياً عنه، فلج ابن أبي داود في أول خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ. وتوفي عام ٢٤٠ هـ.

قال الذهبي: كان جهمياً بغيضاً، حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن. (راجع ابن خلكان ١ : ٢٢/ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤٤ ــ ١٥٦).

(٥) هو **محمد** بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أمير من بني أمية في الشام، له رواية للحديث، أخذ عنه الأوزاعي وآخرون. ولي الديار المصرية لأخيه هشام، وقال لهشام: أنا أليها على أنك إن أمرتني بخلاف الحق تركتها، فقال: لك ذلك، وأقام فيها شهراً سنة ١٠٥ هـ، فأتاه كتاب لم يعجبه فرفض العمل، وانصرف إلى الأردن، وكان منزله بها في قرية يقال لها « ريسون » ولما قتل الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك والي دمشق من قبل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ استقلّ محمد بالأردن. ذبحه عبدالله بن علي العباسي « الهاشمي » عام ١٣٢ هـ. (راجع تاريخ الإسلام للذهبي ٥ : ٢٩٧/ والنجوم الزاهرة ١ : ٢١٣/ والولاة والقضاة ٧٢ ــ ٧٣).

وهذهِ الأعاجمُ تدخلُ عليكَ وأنتَ في ثوبكَ، وتقربُ منكَ وبأيديها السُّيوف ومعها الخناجر، ولا مضرَّةَ في الاحتراز؛ فقالَ لَهُ: مَه الخلافَةُ أهيَبُ ممَّا تَظُنّ إلاَّ أنَّهُ أثَّرَ الكلامُ في قلبِ المعتصمِ وتوحَّشَ منَ الأفشين، ولم يزَلْ كُلّ واحدٍ منهما يدبِّر على الآخر حتَّى ظفرَ المعتصمُ بكتبٍ للأفشين إلى بَكجُور والي أذربيجان في التَّدبير عليهِ، فبادرَ إلى الأفشين وقبضَ عليهِ وقتلهُ، وكانَ سببَ ذلكَ السَّعي الخفيّ والتَّنميم. فينبغي للملكِ أن يتثبَّت فيما يُنقَلُ إليهِ ويتحقق صدقَ النَّقلِ ولا يَعجَل، وما أشبهَ هذا بحديثِ كليلة ودمنة.

الباب الثَّالثُ

في الأقاربِ والأولادِ

يتعيَّنُ على الملكِ أن يجتهدَ في أن يكونَ لهُ ولدٌ صالحٌ يخْلفهُ في ملكهِ ويُبقي ذكرَهُ من بعدهِ. قالَ النَّبيُّ عليهِ السلامُ: «إذا ماتَ الرَّجلُ انقطعَ عملُهُ الأ من ثلاثةٍ: من صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنتفعُ بهِ، أو ولدٍ صالح يدعو لهُ»[1] أخرجهُ مسلم في صحيحهِ عن أبي هريرةَ.

ثمَّ لاَ ينبغي للملكِ أن تكونَ رغبتهُ في تكثيرهمْ بل في تجويدهمْ؛ فأوَّلُ ما ينبغي لهُ أن ينتخبَ[2] الأُمَّهات ذواتِ الأصالةِ والصَّباحةِ والملاحةِ والسَّلامةِ في الأعضاءِ والحواسِّ وجودَةِ الأخلاقِ وكرائمِ الطِّباعِ، وليختَر لذلكَ زمن الرَّبيعِ وفي الأسحارِ وعندَ السُّرورِ والنَّشاطِ والانبساطِ، فإذا

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الوصية باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة (يعني ابن سعيد) وابن حجر قالوا حدثنا اسماعيل (هو ابن جعفر) عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: وذكره.

ورواه الترمذي في كتاب الأحكام ٣٦/ والنسائي في الوصايا ٨/ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٧٢ (حلبي).

(٢) يختار في (ب) بدلاً من (ينتخب).

جاءهُ الولدُ أحسنَ تسميته واختارَ لهُ المَراضِعَ لتعتدلَ طباعُهُ وتتكاملَ هيئتهُ، ثمَّ إذا ترعرعَ يُعلّمهُ الخطَّ والقراءةَ، ويُهذّبُ لسانَهُ على الفصاحةِ ويوكّلُ بتربيتهِ من يثقُ بأمانتهِ وشفقتهِ، ثمّ يعلّمهُ الرُّكوبَ والفُروسيَّةَ والرَّميَ والطّعانَ[1] وجميعَ ما يحتاجُ إليهِ أهلُ الحربِ.

وكانَ بعضُ الملوكِ يرى أن يُرَبّي ولدهُ في التّعبِ والشّقاءِ، وربّما يُسَفّرهُ لتتهذّب أخلاقه وطِباعه، ويمرّن على التّعبِ والنّصبِ[2]، فإذا وجدَ الرّاحةَ عرفَ قدْرها وأشفقَ على أهلِ الشّقاءِ، وفيهِ فائدةٌ أخرى وذلكَ ان طرأ عليهِ طارىءٌ من التّعبِ وما أشبهَهُ، وجدَ الولدُ عندهُ منَ الصّبرِ والاستعدادِ لهُ ما لا يُؤثّر ذلكَ عندهُ.

ولمّا ولِدَ للملك يزدْجُرْد ولدُهُ بِهرَام جُور، دفعهُ للنعمانِ[3] بنِ المنذرِ ملكِ العربِ ليكونَ في حضانتهِ، فاختارَ لَهُ المراضِعَ والدّايات، وعلّمهُ الفروسيَّةَ والمطاردات، ولمّا بلغَ وحذقَ وبرعَ في جميعِ آدابِ الملوكِ ماتَ والدهُ، ووُلّي بعضُ أقاربهِ لكراهةِ النّاسِ في والدهِ، فجمعَ النعمان جُموعَ العربِ وسارَ إلى بلادِ الفُرسِ حتّى خلّصَ لهُ الملكَ وأجلسهُ على سريرهِ، والقصّةُ مشهورةٌ.

وينبغي للولدِ أن يكونَ معَ الوالدِ كالعبدِ معَ السّيّدِ، يسابق إلى خدمتهِ ويبادرُ إلى إجابةِ دعوتهِ، ولا يهجمُ عليهِ في وقتِ خلوتهِ، ولا يُخاطِبُ أحداً في مجلسهِ، ولا يحدّقُ النّظرَ إليهِ، ولا يرفعُ صوتَهُ عليهِ، ويتتبّعُ أغراضَهُ، ويقتفي آثارَهُ ويأتمرُ بأمرهِ، وينتهي بزجرهِ، ولا يتصرّفُ في الأمورِ إلاّ

---

(١) في (ب) بزيادة لفظ (الحرب).

(٢) في (ب) بزيادة (خبرة الحياة).

(٣) هو **النعمان** بن عمرو بن المنذر الغساني، من ملوك آل غسان في الجاهلية، كانت له حوران وعبر الأردن وتلك الأنحاء وليها نحو سنة ٢٩٦ م، فبنى قصر السويداء بحوران وقصر حارب. (راجع تاريخ سني ملوك الأرض لحمزة ٧٩/ والعرب قبل الإسلام ١٨٦/ ودواني القطوف ٧٢/ والعقود اللؤلؤية ١ : ٢٣).

بإذنهِ، ويتلطَّفُ في برِّهِ، ولا يلحُّ عليهِ في الحاجاتِ، ولا يُزاحمهُ في بابِ العطاءِ والإطلاقِ إلاَّ أن يكونَ قدْ ندبَهُ لذلكَ، ولا يشفَعُ في عدوٍّ ولا مسخوطٍ إلاَّ بعدَ الإذنِ في ذلكَ أو بعدَ أن تلوحَ لهُ إشاراتُ الرِّضا.

وإذا رأى الملك فيهِ النَّجابةَ والكِفايةَ فَلْيُقَلِّدهُ ويكل الأشغالَ إليهِ ليتدرَّبَ ويتمرَّنَ، حتَّى إذا صارَ الأمرُ إليهِ يكون قد خبرَ وجرَّبَ، وإن كانَ فيهِ تقصيرٌ فَيعولهُ ولا يُوَلِّيهِ فيختلُّ أمرهُ بسببهِ.

وقالَ أهلُ السِّياسَةِ لا شيء أضرَّ على الملوكِ من تمكينِ الأولادِ والأقاربِ من بلوغِ الأغراض ونيلِ المطالبِ مع نقصانِ التَّدبيرِ وضُعْفِ التَّمييزِ، فإنَّهُ يُؤدّي إلى خللٍ عظيمٍ. فأمَّا من كانَ منَ الأولادِ والأقاربِ ممَّن فيهِ نجابَةٌ ورأى الملك أن يُفوِّضَ إلى أحدهمْ ولايةَ العهدِ فليكُنْ بعدَ فكرةٍ تامَّةٍ واختيارٍ ومشورةٍ، ثم إذا عزمَ على ذلكَ فليكتُب كتابَ العهدِ ويشهد فيهِ أهلَ المشورَةِ. ثم إن شاء كتمهُ وأوصاهمْ بكتمانهِ، وأودعَ الكتابَ حيثُ يثقُ، وإن شاءَ أظهرَ ذلكَ ومكَّنَ وليَّ العهدِ من التصرُّفِ والعطاءِ والاقطاعِ، ولم يستصوبْ رأيَ العُقلاءِ غير أحَدِ هذينِ القِسمينِ نَدِم، فإنَّهُ إن أظهرَ لهُ الولاية وحَجَر عليهِ التَّصَرُّف وضَيَّقَ عليهِ استطالَ حَياةَ أبيهِ وتَمنَّى فَقْدَهُ فَيَجبُ الحزمُ في مبادىء الأمورِ. وقد كانَ بعضُ أهلِ السِّياساتِ يرى تركَ ذلكَ.

ويجبُ على الملكِ أن يضبُطَ أقاربَهُ وأهلَهُ ولا يمكِّنهُمْ منَ الأمرِ، فإنَّ لهُمْ إذلال على الممالكِ يُورِّط في المهالكِ، فيفوِّض الأمورَ إلى الكُفاةِ منهُمْ، ويَكُفُّ مَنْ خافَ منهُ نوعٌ من أنواعِ التَّعدّي مع إرغادِ عيشهمْ والتَّوسِعَةِ عليهم.

الباب الرَّابعُ

في أمرِ الحُرَمِ وسياسَتِهنَّ

قيلَ إنَّ الملوكَ تعفوْ عن كلِّ شيءٍ إلاَّ عن ثلاثةٍ: القَدْحِ في الملكِ، وإفشاءِ الأسرارِ، والتَّعرُّضِ إلى الحُرَمِ. والملك على الحقيقةِ هوَ راعي الحُرَمِ والدَّافِعُ عنها بأسرها، فلتكُنْ حمايتهُ لحرَمِهِ أشدّ وأبلغ، ولتكُنْ حميَّتهُ وغيرَتُهُ أتمّ وأكملَ. وكانتِ الحزمةُ من الملوكِ لا يُكثرونَ من عددِ النِّساءِ، بل يخترنَ ويستجودنَ، واتِّخاذ العدد الكثيرِ منهنَّ بعيدٌ عن الإنصافِ، سريعٌ إلى ظهورِ الخللِ فيهنَّ والتلف؟.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1]

(١) سورة النساء (آية رقم ١٢٩).

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا ابن أبي شيبة حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن عبد العزيز بن رفيع عن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية في عائشة يعني أن النبي — ﷺ — كان يحبها أكثر من غيرها. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبدالله بن يزيد عن عائشة قالت: كان رسول الله — ﷺ — يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب. هذا لفظ أبي داود، وهذا إسناد صحيح.

وقد كانَ بعضُ الملوكِ يرى خلافَ هذا الرّأي فيُكثِر في العددِ حتّى بلغتْ عدَّتهنَّ عندَ بعضِ الأكاسرةِ سِتَّةَ آلافٍ واحدة. وكانت لجماعةٍ من خلفاءِ بني العبّاس الألفُ وما حَولَها، وكذلكَ لجماعةٍ من ملوكِ بني سامان، وللأميرِ تميم صاحب أفريقية عددٌ كثيرٌ، قيلَ إنَّهُ عُمِّرَ حتّى رأى من نسلهِ ألفَ ولَدٍ ذُكوراً وإناثاً، أكثرَهُمْ لصُلبهِ، ومنهمُ أولادُ أولادِهِ. وهذهِ إفراطاتٌ تُنافي الاعتدالَ وتخرجُ عن المصلحةِ.

وينبغي أن لا يُكثِرَ الجلوسَ مع النِّساءِ، ولا يُطيل الحديثَ معهُنَّ، فإنَّ فيهِ من التحليلِ للقوَّةِ التّميزيَّةِ والغضبيَّةِ كثيرٌ يظهرُ أثرهُ. وإنَّما ينبغي أن يكون عند كلالِ الجسدِ وملالِ الخاطرِ في وسطِ النّهارِ وبعضِ اللّيلِ والمختارُ منهُنَّ ما شَرُفَ جنسهُ وحسُنَ منظرهُ وكمُلَ أدبهُ.

وقد صَنَّفَ النّاسُ في أصنافِ النّساءِ واختيار الجواري من الكُتبِ ما إن شُرِحَ قدر الحاجةِ طالَ الكتابُ، وإنَّما أذكرُ شيئاً على سبيلِ الجُمَلِ.

قيلَ: من أرادَ النَّجابةَ فبناتِ فارسَ، ومَنْ أرادَ الخدمةَ فبناتِ قيصرَ، ومنَ أرادَ اللّذَّةَ فبناتِ بربرَ والمُوَلَّدات.

وقيلَ: الوجوهُ في التركِ، والأجسامُ في الرُّومِ، والشُّعور بالخطَا وفارس، والعيونُ بالحجازِ، والخصورُ باليمنِ.

وقيلَ: يختارُ التركَ للأولادِ، والرُّومُ للخدمةِ، والمُوَلَّداتُ لِلَّذَّةِ والاستمتاعِ والغناءِ لأنَّ طباعهُنَّ أعدَل، وأصواتَهُنَّ أندَى، والزنْجُ للزَّمرِ واليراعِ، لأنَّ في طبعهنَّ صِحَّةَ الإيقاعِ، وأكثرُ السُّودانِ لذلكَ، والحبشُ للحفظِ وخزنِ المالِ، والنُّوبَةُ للطَّبخِ، والأرمَنُ للتَّربيةِ والرَّضاعِ.

وقد كانَ في الرَّسمِ الأوَّلِ ظهورُ الجواري غيرَ السَّراري، وتصرُّفهنَّ في الخدمةِ بارزاتٍ غير مُستَّراتٍ، مثلَ الاستئذانِ عليهِمْ، والوقوف بين أيديهم للتَّرويحِ ومناولةِ ما تدعو الحاجةُ إليهِ من طعامٍ وشرابٍ، ثمَّ اتُّخذَ

لذلك الخصيانُ ليتناولوا ذلكَ من النّساءِ ويحْضِرُوهُ عنـدَ الرِّجالِ، ثمَّ اتّخذَ بعدَ ذلكَ الصِّغارِ من المماليكِ. وأمَّا السّماع فكانت الملوكُ المتقدمون والخلفاء الّذين يسمعونَ الغناء يحضرونَ النُّدماءَ في مجالسهِمْ والجواري يغنين من وراءِ السَّتائرِ، وكانت هذهِ منهمْ خُلّةٌ غير مَرضيَّةٍ، لكن يُستحبُّ ممَّن يحضرُ مجالس الملوكِ لذلكَ أو لغيرهِ أن يكونَ فيهِ من العفَّةِ والنزاهةِ والثّباتِ ما تُحمد عاقبتهُ وإلاَّ فهو على خطرٍ.

يُحكَى أنَّ بعضَ الملوكِ جاءتهُ هديَّةٌ سَنيَّةٌ فيها ثيابٌ فاخرةٌ وحُليٌّ وجوهرٌ نفيسٌ، وعندهُ جاريةٌ لهُ حظِيَّةٌ، فخيَّرها الملكُ الثّياب أو الحُليّ، فتحيَّرت ونظرَتْ إلى الوزيرِ وهو بينَ يديهِ كالمستشيرةِ لهُ، فغمزها على أخذِ الحُليِّ، وحانتْ من الملكِ التفاتةٌ إليهما فرآهما، فأخذتِ الثّيابَ حتَّى لا يَفطنَ لها، وأقامَ الوزيرُ مُدَّةَ عشرة أعوامٍ يكسرُ على عينهِ كُلَّما دخلَ على الملكِ حتَّى اعتقد الملكُ أن تلكَ عادةٌ، والوقائعُ في هذا المعنى كثيرةٌ، والكتبُ بذلكَ مشحونةٌ.

ولمَّا اجتمعَ مُحمَّدُ الباقِرُ[1] رَضِيَ اللهُ عنهُ بالحجَّاجِ[2] وجادَله وقهرَهُ، فأحضرَ لَهُ جاريَةً جميلةً وفرساً رائعاً سابقاً وألفَ دينارٍ، وقالَ لَهُ: اخترْ من هذهِ الثلاثةِ واحدةً، فتفكَّرَ في نفسهِ وقالَ: اخترْتُ الفَرَسَ، فغمزتهُ الجاريةُ تُريدُ أن يُنقذها من الحجَّاجِ، فأنشدَ محمَّد الباقر:

---

(١) هو **محمد** بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي أبو جعفر الباقر، خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان ناسكاً عابداً، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. ولد بالمدينة عام ٥٧ هـ، وتوفي بالحميمة، ودفن بالمدينة. وللجلودي (عبد العزيز بن يحيى) المتوفي سنة ٣٠٢ كتاب أخبار أبي جعفر الباقر. توفي عام ١١٤ هـ. (راجع تذكرة ١ : ١١٧/ وتهذيب ٩ : ٣٥٠/ ووفيات ١ : ٤٥٠/ واليعقوبي ٣ : ٦٠/ وصفة الصفوة ٢ : ٦٠/ وذيل المذيل ٩٦/ وحلية ٣ : ١٨٠).

(٢) سبقت الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية.

لَصَلْصَلَةُ اللّجامِ بِرَأسِ طِـرْفٍ ... أَحَبُّ إلـيَّ ممّـا تغمزيني
أخـافُ بـأنْ يَمُـرُّ بِنَا مَضيـقٌ ... فَيمنَـعُكِ الـرَّدَى أن تلحقيني

فقالَ الحجّاجُ: كأنّكِ غمزتهِ يا خبيثةُ، خُذْها فلا خيرَ فيها، فركبَ الفرسَ وأردفَ الجاريةَ فكأنّهُ طارَ في الهواءِ أو غاصَ في الأرضِ، لأنَّ الحجّاجَ طلبَهُ عقيبَ ذلكَ فلم يوجَدْ.

وينبغي للملكِ أن يُفردَ لكُلِّ جاريةٍ مكاناً ويجعلَ أقربَهُنَّ إليهِ أقلَّهُنَّ غيرةً عليهِ، فإنَّ الإفراطَ في الغيرةِ يحملُ على المكارهِ فيحترزُ من الاطّلاعِ بعضهنَّ على مكانةِ بعضٍ بل يُظهر لكلِّ واحدةٍ إنّها أحظى الجميعِ.

ويُروى في الصّحاحِ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقسمُ بينَ نسائهِ ويعدلُ، ويقولُ: « اللّهُمَّ هذا قِسمي فيما أملكُ، فلا تَلُمْني فيما تَملُكُ ولا أملكُ »[1] يعني القلبَ.

ويُروَى من غيرِ الصّحاحِ أنّهُ عليهِ السّلامُ أعطَى لكُلِّ واحدةٍ تفّاحةً سِرًّا، وأمرها أن تكتُمَ ذلكَ على صواحباتِها، ثمَّ قالتَ لهُ عائشةُ بمجمعٍ منهنَّ: أيُّ نسائكَ أحبُّ إليكَ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: « صاحبةُ التُّفّاحةِ » فسرَّ ذلكَ جميعهنّ ولم يشعُرنَ.

وحقٌّ على الملكِ أن لا يتعرَّضَ الى حُرَمِ جيشهِ ورَعيّتهِ، فإنّهُ إذا اشتغلَ بذلكَ معَ القدرَةِ لم يمتنعْ عليهِ شيءٌ، فيكونُ قد أساءَ المملكةَ، وضيَّعَ حقَّ السياسةِ، فيُوَغِّرُ عليهِ الصُّدورَ وينَفّرُ عنهُ الجمهورَ.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبدالله بن يزيد عن عائشة قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب. هذا لفظ أبي داود، وهذا إسناد صحيح لكن قال الترمذي رواه حماد بن يزيد وغير واحد عن أبي قلابة مرسلاً، قال وهذا أصح.

ويجبُ أن يكونَ غيوراً على حُرَمِ رعيَّتِهِ زايد الحدِّ، ولا سيما خواصّهُ، وإذا اطّلعَ على خللٍ من ذلكَ أزالهُ.

يُحكَى أن عضُدَ[1] الدَّولةِ بن بُويه كانَ ينامُ في منظرةٍ لهُ ببغداد مشرفةً على البلد، فسمعَ في بعضِ اللَّيالي صوتَ البَرّادَةِ نصفَ اللّيلِ ليلةً بعد أخرى، فبعثَ خادماً لهُ لكشفِ الحالِ وقالَ في نفسهِ: ليسَ هذا وقتُ شُربِ الماءِ المُبرَّدِ، ورُبّما أن يكون هذا علامة بين أحدٍ، ورصدَ ذلكَ، فحضرَ الخادمُ وأخبره أنْ شاباً من الغلمانِ الخاص، يتسوَّرُ كل وقتٍ الى منزلِ شيخٍ من التّجارِ، ولهُ زوجةٌ حسنةٌ، جعلت الإمارةَ بينهما حسّ البرّادةِ، فأحضرهُ واستقرّهُ فأقرّ، وضربهُ وسجنهُ حتّى شفعوا فيه، فأخرجهُ وزوَّجهُ بجاريةٍ لهُ، ونفَذَ إلى الشيخِ التّاجِر أن لكَ عليّ حقُّ الجيرةِ ولستُ أهتِكُ لك حرمةً، ولكن استبدلْ بزوجتك بمن تقنعُ بكَ، فدعا لهُ وشكرهُ، وفعلَ ما أمرهُ بهِ. فهذهِ من مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الشّيمِ.

ونظيرُ هذه ما جرى في زماننا أنّهُ بلغني عن أقجبا النّائب بغزّة كانَ ذات ليلةٍ في سطحِ دارِ السّلطنةِ بالقلعَةِ في الدَّولَةِ النّاصريَّةِ، في سنة خمس وسبع مائة، وهو سهرانَ إذ سمعَ نصفَ اللّيلِ حسّ امرأةٍ تصيحُ، فعلّم الموضعَ الّذي سمعَ منهُ الحسُّ إلى ثاني يومٍ، فلمّا أصبحَ استحضر

---

(١) فنّاخسرو الملقب عضد الدولة، ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي أبو شجاع، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة. وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة وأول من لُقب في الإسلام « شاهنشاه » قال الزمخشري (في ربيع الأبرار) وصف رجل عضد الدولة فقال: وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب. كان شديد الهيبة جبّاراً عسوفاً، أديباً عالماً بالعربية، ينظم الشعر. نعته الذهبي بالنحوي، وصنف له أبو علي الفارسي (الإيضاح) والتكملة، كما صنف له أبو إسحاق الصابي كتاب التاجي في أخبار بني بويه. توفي عام ٣٧٢ هـ. (راجع ابن الأثير ٨ و٩/ وبغية الوعاة/ وابن خلكان ١ : ٤١٦/ والبداية والنهاية ١١ : ٢٩٩/ ويتيمة الدهر ٢ : ٢).

المقدّمين وأصحاب الأرباعِ وطلعَ بهم إلى السطحِ وأراهم المكان فعرفوه، فقالَ: أريدُ المرأة الّتي كانت تصيحُ نصفَ اللّيلِ وأجزَم، فتلطّفوا في السُّؤالِ فوجدوا صبيانَ من البلدِ هجموا على امرأةٍ جميلةٍ حُرَّةٍ يغتصبونها على نفسها، فأدركَها الخُفراءُ فانهزموا ولم ينالُوا قصداً، وكتموا ذلكَ أن يطالعوا بهِ، فألزمَهُمْ بإحضار المرأةِ والصّبيانِ، وعملَ معَ الصّبيانِ السّياسة ونفاهُمْ وأحسنَ إلى المرأةِ وزوَّجَها والوقائعُ في مثل هذا كثيرٌ.

الباب الخامسُ

في سيرةِ الملكِ مع مماليكهِ وعبيدهِ والخدمِ وتفضيلهمْ

المماليكُ جمالٌ وحرسٌ في الحضرِ، وخدمٌ وأعوان في السَّفَرِ، يخرجُ منهمْ ما لا يخرجُ منَ الأولادِ والأقاربِ، ويحصلُ منهم الشَّفقةُ والإعانةُ ما لا يحصلُ من رفيقٍ ولا صاحبٍ، سيما مَن اعتدلَتْ أخلاقهُ وكملت آدابهُ ورأى من حُسن التَّعهُّد وجميلِ الرِّفقِ ما يزرعُ في قلبهِ المحبَّةَ، حتَّى أنَّهُ يؤثِرُ سيِّدَهُ بالحياة على نفسهِ.

بلغني أنَّ أحمدَ[1] بنَ طولون نزلَ عن فرسهِ في بعضِ متصيَّداتهِ لإراقةِ

---

(١) هو أحمد بن طولون أبو العباس الأمير — صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركي مستعرب، كان شجاعاً جواداً حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه، موصوفاً بالشدة على خصومه، وكثرة الإثخان والفتك فيمن عصاه. بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة. ومن آثاره قلعة (يافا) بفلسطين. كان أبوه مولى لنوح بن أسد الساماني (عامل بخارى وخراسان)، وأهداه نوح في جملة من المماليك إلى المأمون، فرقّاه المأمون، وولد له أحمد (صاحب الترجمة) في سامراء، فتفقه وتأدب وتقدم عند الخليفة المتوكل إلى أن ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم مصر سنة ٢٥٤ هـ، وانتظم له أمرها مع ما ضمّ إليها، ووقعت له مع الموفق العباسي أمور. توفي عام ٢٧٠ هـ. (راجع الولاة والقضاة ٢١٢ — ٢٣٢/ والنجوم الزاهرة ٣ : ١/ وبدائع الزهور ١ : ٣٧/ وابن خلدون ٤ : ٢٩٧/ وابن الأثير ٧ : ١٣٦).

الماءِ، فنهشهُ ثعبانٌ في إبهامِ رجلهِ، فسقطَ إلى الأرضِ، فبادرَ إليهِ مملوكٌ لهُ، فقطعَ الخُفَّ بالسّكّين عن إصبعهِ، وأدخلَها في فمهِ، وجعلَ يمصُّ موضعَ النّهشَةِ ويتفُلهُ مراراً، إلى أن أحضروا لهُ الدّرياقَ، فشربا جميعاً، وقدّرَ اللهُ سلامتهُما، فما عسى أن تكونَ قيمة هذا المملوكِ وبمَ يجازى؟!

ونظيرُ هذه ما تواتر عن نجاح الشّرابي عند الإمام النّاصر أنّهُما كانا على سطحٍ عالٍ وهما صغيران، فسقطَ النّاصرُ من أعلاه، فرمَى نجاح نفسَهُ على أثرهِ، وقالَ: لا حاجةَ لي في الحياةِ من بعدهِ، فقدّر اللهُ سلامتَهُما وتداويا فقاما، وأفضتِ الخلافةُ إليهِ وملّكهُ اللهُ، ففوّضَ أمورهُ إليهِ وأجلسهُ في أعلا المراتبِ ولقّبَهُ بالملكِ الرّحيمِ.

وقالَ نوح بنُ نصر(1) السّاماني اتّخذوا المماليكَ وأحسنوا تربيتهمْ، فهُمْ أولادٌ يريدونَ حياة والدهم.

وقالَ معاوية: التّسلّطُ على المماليك من عجز المقدرَةِ، والكلام الفجّ من لوم النّفسِ، وإنّما يجبُ الرّفْقُ بهم، والإحسانُ إليهمْ، والتّوسعَةُ في نفقتهمْ وإطعامهمْ ما تأكُلونَ، والنّهي عن ضربِ الوَجْهِ وعن المُثلَةِ في العقوبةِ، كلّ ذلكَ وردَتْ بهِ الشّريعةُ المطَهّرةُ واقتضتهُ المكارمُ الجميلةُ والأخلاقُ الرّضيّةُ.

وأمّا اختيارُ الأجناسِ وانتخاب الأصناف فذاك شرحٌ يطولُ بهِ الكتابُ، وبالجملةِ فإن الشّجاعةَ في التّرْكِ، والثّقَةُ في الرُّومِ والخدمةُ أيضاً، والوفاء والحنيّةُ في الجَركسِ والألفُ أيضاً، والخيانةُ في الأرمنِ، والشّفقةُ والأمانةُ

(1) هو نوح بن نصر بن أحمد الساماني أبو محمد: أمير، كان صاحب ما وراء النهر وليها بعد وفاة أبيه سنة ٣٣١ هـ. وأقام في بخارى (عاصمة الإمارة). وكانت في أيامه فتن واضطرابات بلغت به أن ذهبت منه الإمارة ثم عادت إليه. وفي أخباره ما يدلّ على أنه كان صبوراً على المضض، طويل الأناة في المعضلات. توفي في بخارى عام ٣٤٣ هـ (راجع ابن خلدون ٤ : ٣٤٥/ وحمزة ١٥٠/ وابن العبري ٢٨٧ : ٢٩٣/ وابن الأثير ٨ : ١٣١ — ١٦٨/ والنجوم الزاهرة ٣ : ٣١١).

فِي الحُبش، والغَدْرُ في الكُرج. ويجبُ على الملكِ أن لا يعجل على المماليكِ الصِّغارِ بإشراكهمْ في الملكِ وندبهمْ للأمورِ الجسامِ، بلْ على التَّدريجِ فإنَّ الغالبَ على هممهم القصورُ، وربما بهرتهمُ الولاياتُ الجسيمةُ فدهشوا، وربَّما غرَّتهمْ فبطرُوا، فيجبُ الاحتياطُ والتأنّي في ذلكَ، ولا يمَكِّنوا من الشَّفاعاتِ والعناياتِ، فكثيراً ما طرأ من الخللِ على الدُّوَلِ بهذهِ الأسبابِ لأنَّ النَّاسَ إذا علموا قُربَهُمْ منَ الملكِ وقضاءِ الحوائجِ على أيديهم معَ صغرِ سنّهمْ وقلّةِ تجربتهمْ، فيحسّنونَ لهم القبيحَ، ويُقَبّحونَ لهم الحسنَ، فيوقرونَ سمعَ الملك بما لا ينبغي، ويُبلّغونَهُ ما لم يَصحّ، وتجري الأمورُ على ذلكَ فتختلُّ الأحوالُ وتفسُدُ.

وإذا ظهرَ في بعضِ المماليكِ نجابةٌ وفضلُ رأيٍ وحُسْنُ تدبيرٍ وصحّةُ عقلٍ، فليُقرِّبهُ الملكُ ويُرتّبهُ فيما يَليقُ بهِ كما شَرطْنا في التّدريجِ، وليُظهر لمن حسدهُ من المماليكِ تقديمهُ بالشّهامةِ والنّجابةِ الّتي فيهِ ليقعَ التّنافُسُ في أسبابِ التّقدُّمِ لا في نفسِ التّدُّمِ.

كما يحكى عن بهرام جوبين، وكانَ من آحادِ العلماءِ إلى أن تقلّبتْ بهِ أحوال النّجابةِ والتّقدُّماتِ إلى أن صارَ من كبارِ الملوك. وكذلكَ في الدّولةِ العبّاسيّة عظُمَ شأنُ جماعةٍ منَ المماليكِ مثل: الأفشين ومُؤنِس الخادمِ، وابن طُغْج وتامُش، وتَوْزونَ وَأياذَ المسعودي، وكافورَ[1] وَلولو صاحب

(١) هو كافور بن عبدالله الأخشيدي أبو المسك، الأمير المشهور صاحب المتنبي. كان عبداً حبشيًا، اشتراه الأخشيدي ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه، واعتقه فترقى عنده، وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥). وكان فطناً ذكيًا حسن السياسة. أخباره كثيرة توسّع صاحب النجوم الزاهرة في بيانها، وقال: إن مدة إمارته عن مصر اثنتان وعشرون سنة، قام في أكثرها بتدبير المملكة في ولاية أبي القاسم ثم أبي الحسين ابني الإخشيد، وتولاها مستقلاً سنتين وأربعة أشهر، وكان يدعى له على المنابر بمكة ومصر والشام. توفي بالقاهرة عام ٣٥٧. (راجع دول الإسلام ١ : ١٧٣/ والولاة والقضاة ٢٩٧/ ووفيات الأعيان ١ : ٤٣١/ وابن خلدون ٤ : ٣١٤/ والنجوم الزاهرة ٤ : ١ — ١٠).

المَوصِل، ومن قبلهِ: قراقوشَ[1] النَّاصري، وذلكَ لما رَكَّبَ اللهُ فيهم من السرِّ الإلهي والعنايةِ الرَّبَّانيَّةِ مَلَّكهُمْ بلاده وعباده، وجعلهمْ حصنةَ بيتهِ وخُدَّامَ حرمهِ ونُصرةَ دين رسولهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلَّم، محافظينَ على كتابهِ وسنَّتهِ، مُنفِّذينَ أحكامَ شريعتهِ، ملازمينَ على طاعتهِ، خصَّصهُمْ بخصائص نالوا بها الحظَّ الأوفى، فتقرَّبوا بها إليهِ زُلْفَى ومنهم المماليك الصَّالحيَّة النَّجميَّة، مثل الملكِ المُعِز أيبَك[2]، والملك المظَفَّر قُطُزْ[3] واقطاي وكسرهُ للعدوِّ المخذولِ على عينِ جالوت، وفتحهُ الشَّام

(١) هو **قراقوش** بن عبدالله الأسدي أبو سعيد، بهاء الدين. أمير نشأ في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وناب عنه في الديار المصرية، كان هماماً مولعاً بالعمران، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج ولاه عليها، ثم عادوا واستولوا عليها، أسروه فافتداه السلطان صلاح الدين بعشرة آلاف دينار، وفرح به فرحاً عظيماً. وتوفي بالقاهرة عام ٥٩٧ هـ. (راجع النجوم الزاهرة ٦ : ١٧٦/ والوفيات ١ :٤٢٩).

(٢) هو **أيبك** بن عبدالله الصالحي النجمي عز الدين التركماني. أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام، كان مملوكاً للصالح نجم الدين أيوب، وأعتقه فصار في جملة الأمراء عنده، وجُعل مقدماً للعساكر بعد مقتل الملك المعظم تورانشاه وقيام زوجة أبيه شجرة الدر بالأمر، وتزوج بشجرة الدر فنزلت له عن الملك، وتولاه بمصر سنة ٦٤٨ هـ، وتلقب بالملك المعزّ، وانتظم أمره إلى أن علمت شجرة الدر بأنه خطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فتغيرت عليه، فبينما هو في الحمام جاءه خمسة من خدامها فقتلوه خنقاً. وكان شجاعاً حازماً له وقائع مع الإفرنج. توفي عام ٦٥٦ هـ. (راجع ابن إياس ١ : ٩٠/ والسلوك للمقريزي ١ : ٣٦٨ — ٤٠٤/ والنجوم الزاهرة ٧ : ٣ — ٤١).

(٣) هو **قطز** بن عبدالله المعزي، سيف الدين، ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام. كان مملوكاً للمعز «أيبك» التركماني، وترقّى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز (أتابك) العساكر، ثم خلع المنصور وتسلطن مكانه سنة ٦٥٧ هـ، وخلع على الأمير ركن الدين (بيبرس) البندقداري وجعله أتابك العساكر، وفوض إليه جميع أمور المملكة، ونهض لقتال التتار وكانوا بعد تخريب بغداد قد وصلوا إلى دمشق وهددوا مصر، فجمع الأموال والرجال وخرج من مصر، فلقي جيشاً منهم في عين جالوت بفلسطين فكسره سنة ٦٥٨، وطارد فلوله إلى بيسان فظفر بهم، ودخل دمشق في موكب عظيم وعزل من بقي من أولاد أيوب ورجع يريد مصر، وبينما هو في الطريق تقدم منه (أتابك) عسكره «بيبرس» ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش، =

جميعه من أيدي التّتار عسكر هُلاوُن، والملك الظّاهر بَيْبَرس(١) وفتوحاتهُ قلاعَ الإسماعيليَّةِ والحُصُونَ الفَرَنجيَّةِ، وخوضُهُ الفُرات وكسره التتار مرَّتين، ودخوله الرُّوم وقيساريَّة، وكسرهُ للمُغَل الخواص على البُلستَين، وما انفردَ بهِ من الأجرِ المذخورِ في إبطالهِ المُنكرَ وإراقةِ الخمورِ، وسيرتهِ المرضيَّةِ، وأيامهِ المضيئةِ، والمولَى الشّهيد السُّلطان المأجور الملك المنصور قلاوون(٢) تغمده اللهُ برحمتهِ، وكسرَ على حمصَ منكوتَمر وجيوشَهُ وهُمْ مائة ألف أو يزيدون، وفتحَ المرقَبَ وطرابلُس، وأبطلَ المظلمةَ المُتعِبة زكاة الدَّولية الّتي تسترق الأحرار، وتُخَلّد محدثها في الدَّرْكِ الأسفلِ منَ النّار،

= فتناولوه بسيوفهم، فقتلوه عام ٦٥٨ هـ، ودفن بالقصير، ثم نقل إلى القاهرة. (راجع ابن أياس ١ : ٩٦/ والسلوك للمقريزي ١ : ٤١٧ ــ ٤٣٥/ والنجوم الزاهرة ٧ : ٧٢/ ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٢).

(١) هو بيبرس العلائي البندقداري الصالحي ركن الدين الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والأخبار والآثار، مولده بأرض القبجاق عام ٦٢٥، وأسر فبيع في سيواس ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ بيبرس فجعله في خاصة خدمه، ثم أعتقه، ولم تزل همته تصعد به حتى كان « أتابك » العساكر بمصر في أيام الملك المظفر قطز، وقاتل معه التتار في فلسطين، ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز فقتلوه، وتولى « بيبرس » سلطة مصر والشام عام ٦٥٨ هـ، وتلقب بالملك القاهر في الفتوحات، ثم تلقب بالملك الظاهر. وكان شجاعاً جبَّاراً يباشر الحروب بنفسه. توفي بدمشق عام ٦٧٦ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ٨٥/ والنجوم الزاهرة ٧ : ٩٤/ والسلوك للمقريزي ١ : ٤٣٦ ــ ٦٤١).

(٢) هو قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي أبو المعالي سيف الدين، السلطان الملك المنصور، أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر، وكان من المماليك فيجاقي الأصل، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ هـ، فأخلص الخدمة للظاهر بيبرس. توفي عام ٦٨٩ هـ. (راجع مورد اللطافة لابن تغري بردي ٤٣ ــ ٤٤/ وابن إياس ١ : ١١٤/ وخطط المقريزي ٢ : ٢٣٨/ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٩٢/ ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٣).

وخلّف ولديهِ أولي الهِمَمِ العاليةِ والغزواتِ المشهورةِ المتوالية، فالملكُ[1] الأشرفُ الّذي فتحَ عكًّا وصور، وقبلهما عثليث ثم صيدا وبيروت، والسّاحل جميعهُ وقلعَة الرُّوم وبَهَسنَا، وحُرمتهُ الثّاقبة، والملكُ النّاصر وكسرةُ التّتار على مرجِ الصُّفَّر وكانوا عدداً لا يوصَف ومَدداً لا يُعرفُ. وبعدَهما المماليك المنصوريّةِ والملوك الكَسرَويّةِ فمنهمُ الملكُ العادلُ كَتبُغا، والملكُ المنصور لاجين، وملكُ العصر والزّمان صاحب الأمن والإيمانِ اللّيثُ الغَضَنفَر الملكُ المُظَفَّر بيبَرس[2]، ركن الدُّنيا والدّين، سيّد الملوك والسّلاطينِ، واسطَةُ عقدِهَا وكوكبُ سعدها، أدامَ اللهُ أيّامَهُ ونشرَ في الخافقينِ أعلامهُ.

وأمّا النُّجباءُ أولُو الأمرِ من المماليك المنصوريّة مثل طُرنطاي والشُّجاعي وبيدرا وأيبك الخَزنْدار وقراسُنقُر والأبو بكري وبيبَرس الدَّوادار وقطز وبَكتوت العلايي وبكتمر أمير جاندار وبكتوت الفتّاح وسُنقر الكمالي وأيبك البغدادي وبُرَلغي ونائب السّلطنة سَلاّر وأقشُ الأفرم وقبجقَ والخاصكيةِ والبرجيّة وهممهمُ العَليةِ، ولو شرحناهُمْ اسماً اسماً لطالَ الكتابُ، واللهُ الموفّقُ للصَّواب. وما زال السرُّ الإلهي متحرّكاً في تنقُّلاتِ الأحوالِ وتغيُّراتِ الأوضاعِ

(١) هو كجك بن محمد بن قلاوون، علاء الدين الملك الأشرف بن الملك الناصر من سلاطين الدولة القلاوونية بمصر والشام. نصبه الأتابكي «قوصون» بعد أن قتل أخاه المنصور أبا بكر سنة ٧٤٢ هـ، وكان الأشرف طفلاً فأجلسه قوصون على السرير بمصر، وتصرف هو في أمور المملكة فاضطربت أحوالها، وثار الأمير أيدغمش (ويلقب بأمير آخور كبير أي الرئيس الكبير) للإصطبل، فظفر بقرصون وسجنه وخلع الأشرف واعتقله في دور الحرم، فلبث بضع سنين ومات، ومدة سلطنته خمسة أشهر وأيام. (راجع ابن أياس ١ : ١٧٧/ والدرر الكامنة ٣ : ٢٦٥/ والبداية والنهاية ١٤ : ١٩٢ ــ ١٩٤/ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٢١ و١٢٢/ وكجك كلمة تركية معناها صغير، وقد تكون لقباً لصاحب الترجمة غلب عليه. أما ابن إياس فيقول: «إن والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلي بعده الملك وهو صغير، والملوك لهم فراسة في الأمور قبل وقوعها».

(٢) سبقت الترجمة له في هذا الجزء.

في استمرار الخيرِ على قومٍ والشرِّ على قومٍ فيعلو مستفل ويحطُّ عالٍ، ويكمنُ ظاهرٌ ويظهرُ كامنٌ.

قيلَ لبعضهِمْ: لِمَ زالتْ دولَتكمْ عنكمْ؟ قالَ: لأنَّها زالتْ عن غيرنا فانتقلتْ إلينا. وكما قلنا إنَّهُ ينبغي للملكِ أن يرفعَ من كان نازلاً[1] من المماليكِ إلى ما يليقُ بهِ منَ الرُّتَبِ على التَّدريجِ، فكذا ينبغي أن يَحُطَّ من العلوّ من كانَ مقصِّراً عمَّا هو بصددهِ حتَّى ينتهي إلى ما يليقُ بهِ، فهكذا[2] وضْعُ الدُّنيا وما فيها، وهوَ الَّذي أرادَ اللهُ منها.

وأمَّا أحمدُ بن طولون كانَ لهُ اعتناء بجمعِ العبيدِ السُّودِ والإحسانِ إليهمْ والتَّوسعةِ في نفقاتهِمْ، حتَّى إنَّه بنى لهمْ مساكن إلى جانبِ الفُسطاطِ، وجامعاً وهو إلى الآن. والمساكن إلى جانبه بقدرِ المدينةِ. وكان يزوّجهُمْ[3] ويكسوهمْ ويفتقد أولادهم، وانتفعَ بهم في حربهِ. ويُحكى أنَّهُ قدِمَ من سفرٍ فأهدَتْ إليهِ أختهُ عشرَ جوارٍ مُلبَّساتٍ مُحَلَّياتٍ، فاستحسَنَهُنَّ ودفعهُنَّ إلى عشر عبيدٍ من سودانهِ، وقال لأختهِ: أسودُ يحاربُ عنّي وعنكِ أحبُّ إليَّ من هؤلاءِ.

وأمَّا الخُدَّامُ فيُختارُ منهم من ظهرتْ حميَّتُهُ، وشرَستْ أخلاقُهُ في غيرتهِ، وحسُنَتْ آدابُهُ، فيُقدَّم على المماليكِ. وكانَ بعضُ الحَزَمةِ من الملوكِ تمنَعُ الخُدَّامَ الكبارَ من الدُّخولِ إلى الحُرَمِ، ولا سيما ذوي الجمالِ والصَّلَفِ[4] منهم. ويجبُ للملكِ الحازمِ أن يكثر تفقُّدَهُ لأحوالِ مماليكِه وخدمهِ وعبيدهِ، ويُرتِّبَ لهمْ من يتولّى تأديبهم ويباشر تعليمهم الأدبَ والخطَّ[5] وحسن التَّصرُّفِ،

---

(١) في (ب) هابطاً بدلاً من (نازلاً).

(٢) سقط من (ب) لفظ (فهكذا).

(٣) في (ب) ويعقد لهم بدلاً من (ويزوجهم).

(٤) في (ب) القوة بدلاً من (الصلف).

(٥) في (ب) الكتابة بدلاً من (الخط).

فإنَّهُمْ أقرب النَّاسِ إلى الملكِ ليكونوا أقربَ النَّاسِ إلى طباعهِ واختياراتهِ، وأبعدَهُمْ عمَّا يَسوءُهُ، وَلْيَكُنْ فيهمْ البِرُّ وحسن التَّصَرُّفِ واللقاء والأدب ما يَحسُنُ موقعهُ من خواص الملك ويشرحُ صدورهُمْ، وإن كان الأمرُ بالعكسِ أوحشَ الخاصَّة وأوغرَ صدورَها ونفَّرها، وظنَّت أنَّ ذلكَ من الملكِ، فسكنَتِ[1] الأحقادُ في قلوبها، وفي هذا كثيرٌ من المضرَّاتِ الَّتي لا يُستَدرَكُ فارطُها.

---

(١) في (ب) ملأت بدلاً من (فسكنت).

آثار الأول في ترتيب الدول

الجزء الثاني

الباب السادسُ

في طعام الملكِ والأدبِ فيه

قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيْناً وَيَتِيْماً وَأَسِيراً﴾[1] والآياتُ والأخبارُ الَّتي وردتْ في فضلِ الطَّعامِ وإطعامهِ كثيرٌ والحثُّ عليهِ جدًّا لأنَّهُ أشرفُ أصنافِ البرِّ وأنفعُ أنواعِ الجودِ لما فيهِ من قوامِ الأبدانِ ومادَّةِ الإنسانِ، قلَّما بذلهُ أحَدٌ إلاَّ وسادَ وزادَ ونالَ منَ الدَّارينِ المُرادَ. وللعربِ بهِ عنايةٌ عظيمةٌ حتَّى انَّ أكثرَ مفاخرها راجعة إليهِ وأكثرَ أشعارهم

---

(١) سورة الإنسان (آية رقم ٨).

روى البيهقي من طريق الأعمش عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية ـــ يعني امرأته ـــ فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل: السائل.

فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه.

فأرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل.

فقال ابن عمر أعطوه إياه، فأعطوه إياه.

فأرسلت صفية إلى السائل؛ فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به.

وفي الصحيح: أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر ».

في الأضيافِ وإكرامِهِمْ والبشرِ بهِمْ وإنزالِهِمْ، وفي وصفِ النّيرانِ ووقودها لدلالتهِمْ والذَّبائح لطُعْمتهِمْ، ولهمْ حقُّ الدَّخيل والنَّزيل وحماية الجار وهذا فَنٌّ بلغت العربُ فيهِ الغايةَ القُصوَى. ويُقالُ إنَّ بعضَهُمْ كانَ يَطرحُ في البَرِّيَّةِ اللُّحومَ الكثيرةَ لِقِرى السِّباعِ والطَّيرِ، وبعضهُمْ ينثرُ الحبَّ والزَّادَ لذلكَ المعنى حتَّى قيل:

رحَلْنا وخلَّينا على الأرضِ زادَنَا ... وللطَّيرِ في زادِ الكِرامِ نصيبُ

وكم وقعَ التَّشاجُرُ والحربُ على الضَّيفِ والانفرادِ بهِ.

والملوكُ أحقُّ ببذلِ الطَّعامِ من كلِّ أحدٍ، لأنَّهُم عليهِ أقدَر. وكانَ السَّلفُ من الملوكِ يتفاوتونَ فيهِ فبعضهمْ يأكل معَ النَّاسِ، وبعضهمْ يحضرُ ولا يأكلُ، وبعضهمْ يأمرُ بنصبِ الموائدِ(١) ولا يحضرُها، وبعضهمْ يُفردُ لكلِّ طائفة مائدةً وطعاماً(٢) يليقُ بهمْ على حسبِ طبقاتهمْ، فطائفةٌ ممَّا يُعجبهم الثَّريد واللَّين ولا يؤثرونَ عليهِ غيرهُ. والتُرك والبوادي يأكلون اللَّحمَ المسلوقَ والمَشوي واللَّبن والشُّورباة القمح لا تعجبهم سواه(٣). وكانت ملوكُ الفرسِ تفعلُ ذلكَ. وأمَّا طباعُ الملوك فمنهم من يبخل بالطعام ومنهم من يسمحُ بهِ، وينقلُ ذلكَ عن معاويةَ(٤) بنِ أبي سفيانَ وسُليمان بنِ عبدِ الملكِ(٥) وغيرهما من بني أميَّة وعن الأمين(٦) والمستكفي(٧) من بني

---

(١) في (ب) بإقامة الموائد بدلاً من (بنصب).

(٢) في (ب) بزيادة كلمة (خاصة).

(٣) في (ب) غيره بدلاً من (سواه).

(٤) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الأول.

(٥) هو **سليمان** بن عبد الملك بن مروان أبو أيوب الخليفة الأموي ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ. وكان بالرملة، فلم يتخلف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون، وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس، وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح. جهز جيشاً كبيراً وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانتا في أيدي الترك. وتوفي في دابق من أرض =

العبَّاس، مع أن الأمين وهبَ المجلسَ بما فيهِ غيرَ مرَّةٍ، وكانَ يَصْعبُ عليهِ أكلُ الطَّعامِ ويَكْرَهُ من ينبسطُ فيه.

وكانَ بعضُ ملوكِ الفرسِ يضعَ كلَّ يومٍ خمس مائة مائدة على كلِّ مائدة نصف شاةٍ إمَّا طبيخ وإمَّا شوى وجام حَلوى أو عسل وعشرةَ أرغفة وآنية من شرابٍ أو لبنٍ وسمكةٌ مصنوعةٌ. ونقل أن الحجَّاج[1] جرَى على هذا التَّرتيب مدَّةً من ولايتهِ وعلى مائدتهِ وأخوانهِ يوضَعُ في كلِّ يومٍ ألفُ حوتٍ. وفي زمان بني أيوب كان الملكُ الناصر صلاحُ الدين يوسف[2] بن العزيز صاحب دمشق أخوانهُ وراتبهُ في كل يومٍ خمس مايه رأس غنم والدجاج ما يعبِّر عنهُ وتوابل ذلكَ.

وينبغي للملك أن يفتحَ بابهُ ويشرِّعَ سرادقاته عند حضورِ الطعامِ وقال الشَّاعرُ:

وإذا أتـــاهُ طعامُـــهُ لِغَدائـــهِ رُفـعتْ لـهُ الأستـارُ والأبـوابُ
وتَهاتَـف الغُلمـانُ فـي جيرانـهِ فتسامَـعَ المُعتـرُّ والمُهتـابُ

وليُستحبّ أن يكون على سماطِ الملوكِ سائرُ أصناف الأطعمةِ ويتفقَّدُ

= قنسرين بين حلب ومعرة نعمان، وكانت عاصمته دمشق، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً. توفي عام ٩٩ هـ. (راجع ابن الأثير ٥: ١٤/ والطبري ٨: ١٢٦/ واليعقوبي ٣: ٣٦/ وابن خلدون ٣ : ٧٤).

(٦) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

(٧) هو **عبدالله** (المستكفي بالله) بن علي المكتفي بن المعتضد أبو القاسم: من خلفاء الدولة العباسية في العراق، بويع له بعد خلع المتقي لله سنة ٣٣٣ هـ. ولقب نفسه إمام الحق، فكان يخطب له بلقبين: إمام الحق والمستكفي بالله، ولم تطل مدته غير سنة وأربعة أشهر، وكان ضعيفاً، دخل آل بويه بغداد في أيامه واستولى معز الدولة بن بويه على الأمور، وكان والياً على الأهواز في أيام المتقي، خلع سنة ٣٣٤ هـ، وتوفي عام ٣٣٨ هـ.

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

(٢) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

الجاشنكيريَّةُ أحوالَ الطَّعام، وكُلَّما خلا مكان من طعامٍ يُكمّلهُ ويرفَع النَّوائل لأربابِ الأشغالِ على قدْرِ طبقاتهِمْ وينبغي لمنْ يأكلُ على طعامِ الملكِ أن لا يشرهَ فإنَّها أكلُ خدمة لا أكلُ تخمة بشرطِ أن يلزمَ الأدبَ في المؤاكلةِ، والجلوسِ على الرُّكبِ، وغضّ الطَّرف، والأكلِ ممَّا يليه، ولا يُدسّم الخُبزَ، وإن دسَّم شيئاً أكلهُ(١)، ولا يستدعي ما بعُد عنه، ولا يمسحُ يديهِ في الأخوانِ ولا في البَقلِ، ولاَ يغسِلُ يديهِ بحضرةِ الملكِ وإذا أرادَ ذلكَ فليُبعِدْ. ويُستحبُّ إحضار الكيزان(٢) الماء في السّماط خشيةً من الشَّرقةِ.

---

(١) أي لا يملأ الخبز بالطعام لأنه يأنف غيره من أكله وفي ذلك إسراف.

(٢) لقد تغير الوضع ولم تصبح هناك (كيزان) ولكن أصبحت الأدوات الصحية والحمامات النظيفة.

الباب السَّابع

في المنادمةِ والمسامرةِ

لا بُدّ للملكِ من ندماء ومسامرين وهمْ لهُ بمنزلةِ الأوْداءِ والأصدقاءِ إلاّ أنّهُ لشرفِ الملكِ وجلالةِ حالهِ يكونونَ لهُ كالعبيدِ، ومنفعتهمْ له كمنفعةِ الصّديقِ لأنّهُمْ يذهبونَ وحشتهُ وملالهُ، ويجلبونَ أنسَهُ ونشاطَهُ وهو كثيرُ الحاجةِ إلى ذلكَ، لأنّهُ يحملُ من أعباءِ المُلكِ وأثقالِ السّياسةِ ووُرودِ الأخبارِ المختلفةِ والأمورِ المُضطربةِ ما يُضْجِرُهُ ويَسأمُهُ، ورُبّما دهمتهُ قوادحُ تُبهِرُهُ وتُقَلْقِلُهُ فإذا جالسَهُمْ خفّفُوا عنهُ ما يجدُهُ وحكوا لهُ من أخبارِ المتقدّمين في ذلك الفَنّ الذي عرضَ لهُ ما يُكسبهُ تجربةً ويُحدثُ له تسليةً أو يخفّف عنهُ ثقلاً، فيعودُ إليهِ أُنسهُ ونشاطهُ فيستقيمُ عندَ ذلكَ خاطرهُ وتعتدلُ آراؤه.

فليكُنْ في النُّدماءِ من يعرفُ أخبار المتقدّمينَ وسير الماضينَ فيأتي بالأشياءِ في مواضعها، ويُشغل الوقتَ بما يليقُ بهِ، وليكُنْ فيهم من لَهُ نُكَتٌ ونوادرُ وأجوبَةٌ حاضرةٌ وفطنةٌ وذكاءٌ، يُضحكُ بنوادرهِ ويَشرحُ الصُّدورَ بغرائبهِ، وليَكُنْ فيهمْ صاحب رواياتٍ وأشعارٍ وفنونٍ من البلاغةِ والبراعةِ.

وأمّا المساخرُ والمضاحكُ والمُحكيينَ والملهيينَ فتلكَ طبقةٌ أخرى لا

ينبغي للملوكِ أن تجالسها ولا تحاورها إلاَّ في الشَّاذِ النَّادرِ في بعضِ الأوقاتِ والخلواتِ.

وينبغي للندماءِ ألا يتجاوزوا ما هم بصددهِ فلاَ يدخُلونَ في الشَّفاعاتِ وتقديم القصصِ والحديثِ في أمورِ المملَكَةِ والتَّعرُّضِ لأحدٍ من أربابِ الدَّولةِ إلاَّ لمَنْ أذنَ لهُ الملكُ في ذلكَ، فيكونُ قد رفعَ طبقتهُ ومن تبسَّط هو بنفسهِ وشرعَ في أمورِ المُلكِ فيصُدُّهُ الملكُ عن ذلكَ أو يشيرُ إلى أمير مجلس يكُفُّهُ ويأمرُ النُّدماء بالاقتصارِ على ما هُمْ عليهِ، فإنَّ عقولَهُمْ وأقدارَهُمْ تَصغُرُ عن ذلكَ في أمرِ المملكةِ، وأضرّ ما على الملكِ أن يشتهرَ عنهُ أنَّهُ يسمعُ من حاشيتهِ وبطانتهِ الكلامَ في أُمرائهِ وأركانِ دولتهِ، فإن النَّاسَ إذا علموا ذلكَ أقبَلُوا عليهمْ بالإكرامِ والهدايا والتُّحفِ، فيُمَيِّلُونَ آراءهم إلى أغراضهمْ، فيَصِفونَ بالكفايةِ من كان عاجزاً، وبالشَّجاعةِ من كانَ جباناً، وما أشبهَ ذلكَ لأنَّ كلَّ فنٍّ لا يعرفهُ إلاَّ الماهرُ فيهِ الخبيرُ بفنونهِ، فيُكَرِّرونَ ذلكَ على سمعِ الملكِ فيعملُ بحسبهِ فيقدّمُ من يجبُ تأخيرهُ، ويُؤخّرُ من يجبُ تقديمهُ، ويستكفي في العملِ بمن ليسَ بكفوءٍ، فتختلُّ أحوالُ الدَّولةِ ويفسدُ نظامُها، ولا يشعرُ بهِ، وإنَّما يشغل كُلٌّ بما يليقُ بهِ.

أوصَى ابرهيم[1] النَّديم لولدهِ فقالَ لَهُ: اعلمْ يا بُنيّ أن مجلسَ الملكِ

---

(١) هو ابراهيم بن ماهان (أوميمون) بن بهمن، الموصلي التميمي بالولاء أبو اسحاق النديم : أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان. شاعر من ندماء الخلفاء. فارسي الأصل، من بيت كبير في العجم، انتقل والده إلى الكوفة، فولد بها، ومات أبوه وهو صغير فكفله بنو تميم وربوه فنسب إليهم، ورحل إلى الموصل فأقام سنة يتعلم الضرب بالعود، فنسب إليها أيضاً، وأجاد الغناء الفارسي والعربي، وكانت له عند الخلفاء منزلة حسنة، وأول من سمعه منهم المهدي والعباسي، ثم حبسه لشربه النبيذ، فحذق القراءة والكتابة في الحبس، ولما ولي موسى الهادي أغدق عليه نعمه وكذلك هارون الرشيد من بعده، وجعله من ندمائه وخاصته، واستصحبه معه الى الشام، ومرض فعاده الرشيد فمات بعد قليل ببغداد عام ١٨٨ هـ. أخباره كثيرة جداً، كان ينظم الأبيات ويلحنها ويغنيها. (راجع الأغاني ٥ : ١٥٤، ٢٥٨/ ووفيات الأعيان ١ : ٩/ وتاريخ بغداد ٦ : ١٧٥).

لا يخلو من تحاسُدٍ وتضاغُنٍ، ويجري بين الجُلساءِ التشاجُرُ، فإذا تكلَّمتَ بشيءٍ واعترضَ معترضٌ ذو شأنٍ فإن أصابَ فاعترفْ لهُ بالحقِّ يحمدكَ الملكُ وتَنقُص من عداوتهِ، وإن هو أخطأَ فرُدَّ عليهِ برفقٍ واستدلَّ لكلامِكَ واقنَعْ بظهورِ حجَّتكَ وصحَّةِ قولكَ عندَ من حضرَ، ولا تُظهِر التَّشَفّي والتَّبكيتَ فإنَّهُ لا يَسُرُّ الملكَ، ذلكَ إذ ليسَ عندَهُ ما عندكُما من تحاسُدٍ، وإنَّما هو كالبحرِ تبتدىء منه الأنهارُ وتعودُ إليهِ. وإن سُئِلَ غيرُكَ فلا تُجِبْ أنتَ ولو أخطأَ المسؤولُ عنهُ فإن سألكَ فأجبْ وإن أمكَنكَ أن تعتذِرَ عن خطإِ صاحبكَ فافعلْ، وإن لم يكنْ لكَ فيهِ علمٌ، فإيَّاكَ من الدُّخولِ فيما لا تعلمْ.

ومن حقّ النُّدماءِ على الملوكِ اطِّراح التَكَلُّفِ وترك الأُبهة الَّتي تتعلّقُ بالملكِ والمساواة في المطعم والمشرَب والمسمع. وكانَ بعضُ الخلفاءِ يحتجبُ عن الندماءِ ويجلسُ خلفَ ستارةٍ أو شُبّاكٍ مخرَّمٍ يراهُمْ ويَسمعُهُمْ ولا يَسمَعونَهُ، وبعضُهُمْ يظهرُ لهمْ، وبعضُهُمْ ساواهمْ وواساهُمْ فكانوا في الشّتاء يجلسونَ في المجالسِ وبها مناقِلُ النّار ويُسجَرُ[1] فيها العودُ والنّدّ وعليهم الفراء اللائقةُ بالوقتِ على أشكالهمْ، وفي الصَّيفِ في القاعاتِ والبساتين والفساقي على سمتِ كلِّ أوانٍ والملكُ دائماً يتميَّزُ عليهم بملبوسهِ وتاجهِ، ثمَّ يُرَشّ عليهم الماورد، ويتناشدونَ الأشعارَ، ويتذاكرونَ الأخبار، فإذا كانَ وقتُ النّومِ والاستراحةِ دخَل الملكُ إلى منزلهِ وقامَ النُّدماءُ إلى مكانٍ مُعَدٍّ لهمْ أو ينصرفونَ إلى منازلهم ولا ينبغي لهم أن يجتمعوا بعدهُ بغيرهِ.

ويجبُ على الملكِ في غالبِ الأوقاتِ أن يُفَرِّغَ نفسهُ ويقبل على سماعِ تلاوةِ الكِتابِ العَزيزِ والإصغاءِ إليهِ، وتَدبيرِ الآياتِ واستفهامِ معانيها، وليكُنْ

---

(١) سجر التنور: أحماه، وسجر النهر: ملأه، ومنه البحر المسجور وبابهما نصر.
والسَّجور ـــ بالفتح ـــ : ما يُسْجَر به التنور. والساجور: خشبة تجعل في عنق الكلب يقال له: كلب (مسوجر).

عندَهُ مُقْرِئونَ لذلكَ عالمونَ بنصّ تفسيرِهِ حتّى أيّ آيةٌ أشكلتْ فسّرُوها لهُ وعرّفوه ذوقَهَا(١) ثم يجبُ عليهِ البحث في ذلكَ والسُّؤالُ حتّى يفهمَ ثمَّ يجبُ عليهِ وعلى الحاضرينَ إذا قُرِىءَ القرآنُ أن ينصطوا لهُ ولا يشتغلوا بغيرِهِ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ القُرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأنْصِتُوا(٢) لعلّكُمْ تُرحمونَ﴾.

(١) في (ب) تفسيرها بدلاً من (ذوقها).

(٢) سورة الأعراف (آية رقم ٢٠٤).

قال ابراهيم بن مسلم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة. قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية ﴿وإذا قُرِىءَ القُرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ﴾. والآية الأخرى ﴿أمروا بالإنصات﴾ قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن ﴿وإذا قُرِىءَ القُرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

الباب الثّامنُ

في مجلسِ السَّماعِ وراحةِ النَّفسِ واختيارِ ذلكَ

السَّماعُ من أشرفِ الرَّاحاتِ وأنفع اللَّذَّاتِ وأجملها موقِعاً إذا استُعمِلَ على الوجْهِ المرضي الَّذي ينبغي من جميعِ ملاذَّاتِ الدُّنيا الَّتي هيَ عائدةٌ الى المطعمِ والمشربِ والمنكحِ والمشمِّ والمنظرِ والملبَسِ والمسمَعِ، فهذهِ السَّبعةُ قانونُ راحةِ البدنِ فأمَّا السَّتَّة الأُولة أي شيءٍ حصلَ منها استعمالهُ زائداً إلا تكلَّفتْ لهُ الأعضاءُ وحصلَ الملَلُ الا السَّماعُ المُطرِبُ فإنَّهُ لا كُلْفَةَ فيهِ علىَ الجسدِ ولا مضرَّةٌ تلحَقهُ بسببِهِ، وكانتْ حُكماءُ الهندِ واليونانِ والفُرْسِ يجعلونَ الموسيقى واستماعهُ من بابِ الجدِّ لما فيهِ من تهذيبِ النُّفوسِ وتقويمِ الخواطِرِ وتصحيحِ الفِكْرِ وتعديلِ الأمزجةِ والجَذْبِ إلى الأخلاقِ الحميدةِ والانقيادِ إلى السُّنَنِ الصَّحيحةِ، فإنَّ منهُ ما يُشجِّعُ الجبانَ، ونوعٌ منهُ يُليِّنُ القاسي ويعودُ العاصي، وأنواعٌ تؤلِّفُ بينِ المتباغضينِ وتُذهِبُ التَّشاحُنَ بينَ المُتشاجرينَ، وأنواعٌ تَسُرَّ الحَزيْنَ وتُخفِّفُ كربَ الأنينِ حتَّى أنَّهُمْ كانوا يستعملونَها في الهياكلِ وبيوتِ العباداتِ وتلحَّنُ بها القراءات. والمشهورُ عن داؤُدَ النبي عليهِ السلامُ أنَّهُ كانَ إذا تنغَّمَ في مزاميرهِ ورجَّعَ

صوتَهُ تصطَفُّ الطَّيْرُ[1] على رأسهِ في الهواءِ وتكادُ أن تتساقطَ عليهِ طرباً من حسنِ صوتهِ وترنُّمهِ، وكانتْ لَهُ معزَفَةٌ يضربُ بها.

وللهندِ خاصَّة في هذا الفنِّ علوٌّ عظيمٌ يتَّخذونَهُ في بيوتِ عباداتهِمْ ويتقرَّبونَ بهِ إلى هياكلهِمْ وأصنامهِمْ، وإذا خرجوا إلى صيدِ الفيلةِ والسِّباعِ العاديةِ فيُخرجونَ معهم المعازفَ والملاهي ويتَّخذونَ ستائر من الشَّجرِ والوَرَقِ ويُمشُّونها أمامهمْ والمعازفَ خلفَها والفِيَلةُ تتقرَّبُ إليها حتَّى تقعَ في مصائدِها، ويزعمونَ في تواليفهمْ أنَّ الألحانَ اللَّذيذةَ والبخورات خواصٌّ في جذبِ الرُّوحانيَّاتِ.

واتَّخذَتِ الرُّومُ الأرغُنَ في الكَنائسِ. والفرسُ الزَّمزَمةَ على الموائدِ وعندَ القرابين وهيَ بألحانٍ مطربةٍ. وأهلُ الطبِّ يصفونَ الموسيقى لأمراضِ النُّفوسِ والرُّؤوسِ.

وكانَ جالينوس[2] يستعملُ العودَ في أمراضِ الماليخوليا والفكَرِ الرَّديَّةِ، يقصدُ بذلكَ ردَّ مزاجِ الدِّماغِ إلى الاعتدالِ وموقعُ الألحانِ للنفوسِ كموقعِ الأغذيةِ اللَّذيذةِ للأبدانِ، وتأثيرهُ في الأطفالِ وإصغائها إليهِ وقطعها البُكاء واشتغالها عن الأمَّهاتِ دَليلٌ على قوَّةِ تأثيرهِ. وكذلكَ الإبلُ وحملها الأثقالَ وقطعها المسافاتِ على نغمِ الحُداةِ معَ الكَلالِ، وكذلكَ أكثرُ الحيواناتِ

(١) **الطائر** :جمعه (طير) كصاحب وصحب، وجمع الطير (طيور) وأطيار مثل فرخ وفروخ وأفراخ. وقال قطرب وأبو عبيدة: (الطير) أيضاً قد يقع على الواحد، وقُرىء ﴿فيكونُ طَيْراً بإذنِ اللهِ﴾ وطائر الانسان عمله الذي قُلده. والطير أيضاً الاسم من التطير، ومنه قولهم: لا طير إلا طير الله كما يقال: لا أمر إلا أمر الله. وقال ابن السكيت: يقال: طائر الله لا طائرك، ولا تقل طير الله. والطيرة: بوزن العِنَبَة وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء، وفي الحديث: أنه كان يحب الفأل ويكره الطِّيرة، وقوله تعالى ﴿قالوا أطيرنا بك﴾ وأصلهُ تطيرنا فأدغم.

(٢) **جالينوس** (١٣٠ ـــ ٢٠٠) طبيب يوناني أتمَّ دراسته في اليونان والاسكندرية ثم أقام بروما واختاره ماركوس أوريليوس طبيباً لبلاطه. له ٥٠٠ مؤلف في الطب والفلسفة، بقي منها ٨٣. ترجم له الأطباء العرب وحافظوا على تراثه العلمي الذي بقي مرجعاً هاماً حتى القرن ١٦. (راجع الموسوعة الثقافية ص ٣٣٢).

وكُلُّ من عاني منَ النَّاسِ عملاً مُتعباً مثلَ القَطَّاعِ والقَصَّار والدَّقاق والعَتَّال، ومن يجُرُّ الأثقالَ فلا بُدَّ من نوعٍ من التَّنغيمِ والموسيقى يستعينُ بهِ على ما يعاني وإلاَّ عجزُوا وتألموا.

فأمَّا المُباح منهُ والمنهي عنهُ فلِلْفُقهاءِ فيهِ اختلافٌ، فمذهبُ الإمام الشَّافعي(١) رضيَ اللهُ عنهُ يُباحُ الدَّفَّ واليراع وهي الشَّبَّابَةُ. ومذهبُ مالكٌ(٢) يُباحُ الدَّفُّ في العرسِ ويندب إليهِ ويكفي عندَ الاشهارِ بضربهِ في ذلكَ. ويُكْرَهُ الدَّفُ واليراعُ عندَ أحمدَ بنِ حنبلَ(٣) ومذهبُ أبي حنيفةَ فإنَّهُ يكرهُ ذلكَ جميعهُ، ورُوِيَ عنهُ تحريمُ الغناء على الإطلاقِ أيضاً، ومذهبُ أهلِ الظَّاهرِ كذا. وداوُدُ الأصفهانيّ(٤) وطائفةٌ من أئمَّةِ السَّلَفِ يُبيحونَ

---

(١) هو **محمد** بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبدالله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد عام ١٥٠ هـ. وتوفي عام ٢٠٤ هـ. (راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٣٢٩/ وتهذيب التهذيب ٩ : ٢٥/ والوفيات ١ : ٤٤٧).

(٢) هو **مالك** بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبدالله إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. مولده عام ٩٣. ووفاته في المدينة عام ١٧٩ هـ. كان صلباً في دينه بعيداً عن الأهواء. (راجع الديباج المذهب ١٧ ــ ٣٠/ والوفيات ١ : ٤٣٩/ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥/ وصفة الصفوة ٢ : ٩٩).

(٣) هو **أحمد** بن محمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الوائلي إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة. أصله من مرو. ولد عام ١٦٤ ببغداد. وتوفي عام ٢٤١ هـ. (راجع ابن عساكر ٢ : ٢٨/ وحلية ٩ : ١٦١/ وصفة الصفوة ٢ : ١٩٠/ وابن خلكان ١ : ١٧).

(٤) هو **داود** بن علي بن خلف الأصبهاني أبو سليمان، الملقب الظاهري أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام. تنسب إليه الطائفة الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس.

وكان داود أول من جهر بهذا القول. وهو أصبهاني الأصل من أهل قاشان، ومولده بالكوفة عام ٢٠١ هـ. سكن بغداد، وانتهت إليه رياسة العلم فيها.

قال ابن خلكان: قيل: كان يحضر مجلسه كل يوم أربع مئة صاحب طيلسان أخضر. وقال ثعلب: كان عقل داود أكبر من علمه، وله تصانيف أورد النديم أسماءها في زهاء صفحتين. توفي ببغداد عام ٢٧٠ هـ. (راجع فهرست ابن النديم ١ : ٢١٦/ ووفيات الأعيان ١ : ١٧٥/ وتذكرة الحفاظ ٢ : ١٣٦/ وميزان الاعتدال ١ : ٣٢١).

الدُّفُّ والشَّبَّابَةَ والأوتارُ جميعها ويحتجُّونَ في ذلكَ بأنَّهُ لم يَرِدْ في القرآنِ العزيزِ ولا في الخبرِ الصَّحيحِ نصٌّ يدُلُّ على تحريمها ولهمْ في الأحاديثِ الَّتي رُوِيَتْ في تحريمِ ذلكَ وكراهيَّتِهِ مطاعن يطولُ شرحُها. وأكثرُ الخلفاءِ من بني أُميَّةَ وبني العبَّاسِ كانوا يشترونَ الجواري المغنِّياتِ ويحضرونَ بهنَّ مجالسهمْ بأنواعِ الملاهي والسَّماع لا يرونَ بذلكَ بأساً. وقد كانَ لعبدِاللهِ[1] بن جعفرَ جاريةٌ بعشرةِ آلافِ دينارٍ، وهي الَّتي دَسَّ عليهِ يزيدُ[2] ابنُ معاويةَ من يحتالُ في شرائها منهُ، وحملها منَ المدينةِ إلى دمشقَ فوجدَ يزيدَ قد ماتَ، فأعادَها إلى سيِّدها عبدِاللهِ بنِ جعفرَ، والقصَّةُ مشهورةٌ.

وقد اشتهرت أشعارُ يزيد بن عبدِ الملكِ[3] في سلامة وحبابَة وهما مغنِّيتانِ، ولمَّا ماتَتْ حَبابَةُ أُسفَ عليها ولَمْ يدْفِنْها أيَّاماً، وماتَ بعدَها بقليلٍ أسفاً وحزناً. ولو أوردنا ذكرَ من جلسَ في السَّماع واشتغلَ بالغناء لاحتاجَ إلى تاريخٍ كثيرٍ يتضمَّنُ ذلكَ من ذكرِ الملوكِ والخلفاءِ والرُّؤساء، ثمَّ لو أوردنا ذكرَ من كرِهَ ذلكَ وامتنعَ منهُ لكانَ عدداً يسيراً.

وطالَ ما غالى الملوكُ والخلفاءُ في أثمانِ القيناتِ وبذلوا فيهنَّ نفائسَ الأموالِ، منهنَّ من بلغت مائة ألف دينارٍ مثلُ قوت القلوبِ جارية هارونَ[4] الرَّشيد، وفريدة جارية المتوكّل[5] ومنهنَّ من زادت على العشرة آلافِ

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

(٢) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

(٣) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو خالد من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق عام ٧١ هـ، وولي الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك. وكانت في أيامه غزوات أعظمها حرب الجراح الحكمي مع الترك وانتصاره عليهم ـــ نقل الديار بكري في تاريخ الخميس أنه مات عشقاً، قال: ولا يعلم خليفة مات عشقاً غيره عام ١٠٥ هـ. (راجع ابن الأثير ٥ : ٤٥/ والنجوم الزاهرة ١ : ٢٥٥/ واليعقوبي ٣ : ٥٢/ والطبري ٨ : ١٧٨).

(٤) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الأول.

(٥) سبقت الترجمة له في كلمة وافية.

دينار مثل غريب المأمونيَّةِ، ودنانير[1] البرمكيَّةِ، وقبيحة جاريةُ المتوكّل. وهذا المعنى مستوعبٌ في الكتبِ المصنَّفةِ في هذا الفنّ.

---

(١) هي دنانير مغنّية، نسب إليها كتاب في الأغاني، كانت مولاة لرجل من أهل المدينة خرّجها وأدبها، واشتراها يحيى بن خالد البرمكي فبقت في بيته، وممن أعجب بها الرشيد.
فلما نكب البرامكة امتنعت عن الغناء لغيرهم، فأمرها الرشيد بالغناء بين يديه فعصته، فأمر بصفعها، ثم رقّ فأطلقها، وخطبت للزواج فأبت ولزمت حالها إلى أن توفيت عام ٢١٠ هـ.
(راجع مختار الأغاني ١٠ : ١٨٧/ والجواري لابن الجوزي).

فصلٌ
في أدبِ السَّماعِ

لا ينبغي أن يُشتغلَ في وقتِ السَّماعِ بأكلٍ ولا بشربٍ ولا حديثٍ إلاَّ الكلمة والكلمتينِ في معنى ما همْ فيهِ فإنَّهُ غِذاء نفسانيٌّ يتشوَّشُ بالاشتغالِ بغيرِهِ، ولقد أجادَ بعضُهُمْ حيثُ تمنَّى أن يسمعَ بجميعِ جوارحِهِ فقالَ:

يَـودُّ وِداداً أنَّ أعضـاءَ جسمـهِ ... إذا أنشـدَتْ شوقاً إليها مسامعُ

وقالَ آخرُ:

جـاءَتْ بوجـهٍ كأنَّـهُ قمـرٌ ... علـى قـوامٍ كأنَّـهُ غصـنُ
غـنَّتْ فلـمْ يبـقَ فـيَّ جارحَـةٌ ... إلاَّ تمـنَّتْ لَـو انَّهـا أُذُنُ

ولابنْ القَيْسَراني(1) في وصفِ مُطربٍ ومستمعينَ:

---

(1) هو محمدبن نصر بن صغير بن داغر المخزومي الخالدي، أبو عبدالله، شرف الدين ابن القيسراني. شاعر مجيد له، « ديوان شعر » صغير، أصله من حلب. مولده عام ٤٧٨ هـ بعكة، ووفاته بدمشق عام ٥٤٨ هـ. تولى في دمشق إدارة الساعات التي على باب الجامع الأموي، ثم تولى في حلب خزانة الكتب، والقيسراني نسبه « قيسارية » في ساحل سورية، نزل بها فنسب إليها، وانتقل عنها بعد استيلاء الإفرنج على بلاد الساحل.
ورفع ابن خلكان نسبه إلى خالد بن الوليد، ثم شك في صحة ذلك، لأن أكثر علماء الأنساب والمؤرخين يرون أن خالداً انقطع نسله. وللدكتور محمود إبراهيم كتاب صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني. (راجع وفيات الأعيان ٢ : ١٦/ وإرشاد الأريب ٧ : ١١٢/ والروضتين ١ : ٩١).

تاللهِ لَوْ أنصفَ الأقوامُ أنفُسَهُمْ　　أعطوكَ ما ادَّخرُوا منها وما صانوا
ما أنتَ حينَ تغنّي في مجالسهمْ　　إلاّ نسيمُ الصَّبا والقومُ أغصانُ

وللسّريّ(1) الرّفاء في راقصٍ:

إذا اختلَجتْ أناملُهُ لِرقصٍ　　تَنزت حُبُّ القلوبِ إليه نزوى
حبيبي أنتَ أحسنُ من تثنّى　　على وتَرٍ وأحسنَ من تلوَّى

ولبعضهم في دفّافةٍ:

لمّا تبدّتْ بينَ أترابِها　　مُطربةٌ عيلَ بها صبري
شبّهتُها والدّفُ في كفّها　　شمسُ الضُّحى تلعبُ بالبَدْرِ

ولغيرهِ في عوّادةٍ:

وكأنّهُ في حجرِها مسترضِعٌ　　ضمّتهُ بينَ ترائبٍ وليانِ
طوراً تُدَغدِغُ بطنَهُ فإذا هفا　　عركت لهُ أذنٌ من الأوذانِ

وممّا يُنقشُ على العودِ:

سقى اللهُ أرضاً أنبتتْ عودَكَ الذي　　زَكتْ منهُ أعراقٌ وطابتْ مغارسُ
تُغنّي عليهِ الطَّيرُ والعودُ أخضرٌ　　وغنّى عليهِ النّاسُ والعودُ يابسُ

وفي وصفِ ضربهِ:

في كفِّ جاريةٍ كأنَّ بنانها　　من فضّةٍ قد قمّعتْ عنّابا
وكأنَّ يمناها إذا نطقتْ بها　　ألقتْ على يدها الشّمالِ حسابا

---

(1) هو السري بن أحمد بن السري الكندي أبو الحسن: شاعر، أديب من أهل الموصل، كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بها، فعرف بالرفاء، ولما جاد شعره، ومهر في الأدب قصد سيف الدولة بحلب فمدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد ومدح جماعة من الوزراء والأعيان. مات ببغداد عام ٣٦٦ هـ. من كتبه (ديوان شعره)، والمحب والمحبوب، والمشموم والمشروب. (راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠١/ ويتيمة الدهر ١: ٤٥٠ ـــ ٥٣٠/ ومعاهد التنصيص ٣ : ٢٨٠/ وتاريخ بغداد ٩ : ١٩٤/ وكشف الظنون ١٦١١).

وهذا بابٌ كثرتْ فيهِ التّصانيفُ وانبسطتْ فيهِ الخواطرُ، وإنّما ذكرنا هذا القدرَ على سياقةِ الكلامِ.

الباب التّاسعُ

في لعبِ الكرةِ والكرِّ والفرِّ والرياضةِ والمطاردةِ

اللّعبُ بالكرةِ هو رياضةٌ حسنةٌ تامّةٌ وصفتها الحكماءُ والفضلاءُ من الملوكِ لرياضةِ الجندِ ورياضةِ الخيلِ واللّعبِ بالكرةِ والجوكان، واستعمالهما بالغدواتِ من أتمّ الرّياضاتِ وأكملها وأنفعها، لأنّ من الرّياضات ما يختصُّ بالكفوفِ والسّواعدِ مثل الشّباكِ وتناول الطّابةِ أيضاً، وما يختصُّ بالرّجلِ مثل المشي والسّعي، ومنها ما يختصُّ بأنواع البدنِ مثلَ الصّراعِ وحمل الأثقال. وهذه تعمّ البدن جميعهُ وهو يتحرّك لها حركاتٍ مختلفة، والبصرُ يتبعها، والرأس يلتفت إليها، والأصواتُ والضجاتُ تُرفعُ فيها، والخيلُ ترتاضُ وتلينُ رؤوسُها للجوالِ والكرّ والفرّ، وفيها تحريكُ القوّة الغضبيّةِ لما فيها من طلبِ المغالبةِ.

وأمّا منفعةُ الرّياضةِ بالجملةِ فظاهرٌ معلومٌ لما جعلهُ اللهُ في الأبدان من الأخلاط المتغايرةِ المتخالفةِ الّتي موادّها من الأغذية المختلفةِ وجعلَ لكلّ خلطٍ مقرّ تأوي إليهِ فضلاته وهيّأ لهُ من المنافذِ والمجاري ليخرج من الجسد ما لا حاجةَ بهِ إليهِ، وكانَ موجباً لتقريرِ الأخلاطِ السُّكون حيثُ حلّت من الجسدِ ودوامهُ مع الزّيادة والنمُّو في ذلكَ. فيوجبُ ذلكَ إمّا تعفّنهُ واستحالتهُ إلى ما يؤدي لخروجهِ من الاعتدالِ. وأمّا غلبةُ أحدِ الأخلاطِ

على غيرها وتأثيرها واضطراب حالِ الجسدِ وخروجهِ عن حالةِ الصحّة.

وكانتِ الحركةُ توجبُ التّحليلَ والتّنفيذَ وتعينُ الطبيعةَ على أفعالها وتحفظُ الصحّةَ على دوامها فاقتضتِ الحكمةُ استعمال الحركةِ الرّياضيّةِ، فاتّخذ لكلّ نوعٍ من النّاسِ نوعٌ من الرّياضةِ، وهذه رياضةٌ مُلوكيّةٌ وفيها فوائد كثيرةٌ، منها التّدرُّبُ على ركوبِ أصناف الخيلِ والأثقالِ والخفّةِ والرّشاقةِ، ومنها السُّرورُ والفرحُ بالظّفرِ والاستيلاء مع مباشرةِ التّألّم من العجز والغلبةِ، فإنَّ بذلك يعرفُ مقدار لذّةِ الغلبةِ، ومنها تعوُّد الاجتماع والتحزُّب ومساعدة الأصحاب بعضها بعضٌ، وتعاضد الأولياءِ وتعاوُنها على الخصومِ والأعداءِ.

يُحكى أنَّ المعتصمَ[1] قسمَ أصحابَهُ للعبِ الكُرةِ يوماً، فجعلَ الإفشينَ[2] في جهةٍ وهو في جهةٍ، فقال: يُعفيني أميرُ المؤمنينَ من هذا، فقالَ: ولم؟ قالَ: لأنّي ما أرى أن أكونَ على أمير المؤمنين في جدٍّ ولا هزلٍ، فاستحسنَ ذلكَ منهُ وجعلهُ في حزبهِ.

وكلّ رياضةٍ مليحةٌ لما فيها الحركات وما شرحناه أوّلاً، لكن يُخشى منَ الوقعِ والتّقنطُرِ والسقوط والعثار والمصادمةِ وإصابة الجوكانِ والكرةِ وغير ذلكَ ممّا لا يمكنُ الاحترازُ عنهُ غالباً، ويجبُ أن لا يفرط فيها ولا يُطوّل في اشتغالها، بل يكونُ عندَ ابتداءِ بواكرِ النّهار والعشيّاتِ عند خلوّ المعدةِ من الأكلِ وتقطَعُ عند ابتداءِ العرقِ والنّفسِ المتتابعِ، وإن أمكنَ الدُّخول بعدها الحمّامَ لإخراجِ ما تحلّل من الفضلاتِ وإزالةِ ما خرجَ من العرقِ بتلك الحركةِ، ثم بعدَ الحمّام يتناولُ من الشّرابِ الموافق

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الأول.

(٢) لعله محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد.
والمعروف بالأفشين فاضل من أهل قرطبة من كتبه طبقات الكتاب وشواهد الحكم.

لمزاجهِ ثمَّ التّغذّي بعدَ ذلكَ. وأما من يتعاناهُ في زماننا هذا في وقتِ القائِلة من الظُّهرِ إلى العصرِ فمُضرٌّ بالفارسِ والفرسِ، ويتولَّدُ منهُ أنواعُ المضارِّ المختلفة لكن على قدرِ العوائدِ وما تمرّنتْ عليهِ البشريَّةُ.

فصلٌ

وأمّا الشّطرَنجُ فتُدخلُها في هذا الباب لكونه وضعَ لصفةِ الحرْبِ ولما فيهِ من قصدِ المغالبةِ، وهو ينهَضُ القوَّة الغضبيَّة وهيَ من وضعِ الهندِ واقتباساتهمْ مثالهُ في سياسةِ الملكِ وتدبيرِ الحربِ، ويشيرونَ أنّ بالتّدبيرِ والفكرةِ في المصلحةِ ينالُ الظّفرُ ويدفعُ الضّررُ. والفرسُ وضعتِ النّردَ على البختِ والرزقِ، يشيرونَ إلى أنَّ الأمورَ بالتّقديرِ لا بالتّدبيرِ وبالسّعادةِ لا بالإرادةِ. فأمّا ما يتعلّقُ بالشّرعِ فالنّردُ محرّمٌ بإجماع ، والشّطرنجُ مختلفٌ فيهِ، والأظهَرُ من مذهبِ الشّافعي[1] إباحتهُ إذْ لم يثبتْ فيهِ نصٌّ، ونقلَ أنَّ الصّحابةَ كانت تلعبُ بهِ كعبدِ اللهِ[2] بن جعفرَ وغيرهِ.

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.

(٢) هو عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي صحابي، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها، وهو أول من ولد بها من المسلمين، وأتى البصرة والكوفة والشام، وكان كريماً يسمى بحر الجود، وللشعراء فيه مدائح، وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفين. ومات بالمدينة عام ٨٠ هـ. (راجع الإصابة في تمييز الصحابة ت ٤٥٨٢/ والجمع ٢٣٩/ وفوات الوفيات ١ : ٢٠٩/ وذيل المذيل ٢٣/ والمحبر ١٤٨/ والجمحي ٥٣٣/ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ٣٢٥).

فصلٌ

والّذي ينبغي لمن يلعبُ بالشّطرنجِ أن لا يحلفَ عليها بصدقٍ ولا بكذبٍ، ويتركَ المراء ويتجنّب المكابرة، فإنّهُ لعبٌ لا ينبغي أن يُوصل بهِ إلى الجدّ والغضبِ، ولا يراهنُ عليها فإنّهُ حرامٌ، وفيهِ موادّ الحقودِ وإن كانَ ولا بدّ من ذلكَ فيُتوصّل إليهِ بطريقِ الهبةِ أو النّذرِ، ولتكنْ على المأكولِ والأشياءِ اليسيرةِ دونَ الأموالِ، فإنّهُ قمارٌ وهو رَدِيءٌ غير محمودٍ لا شرعاً ولا عقلاً.

ومن لعب مع الملكِ أو معَ من هو من العظماء فليصبر حتّى يبتدىء هو باختيار أحدِ الصنفين، ثم يصبر حتّى يبتدىء باللعب ويحترز أن يمثّلَ عليها بالأمثال القبيحةِ والأشعارِ السّخيفةِ، فكثيراً ما يُجرَي مثل ذلكَ من اللُّعّابِ، ولا يقالُ للملكِ غلبتَ ولا قهرتَ، ولا شاه مات، وإنّما يقالُ: شاه بلا بيتٍ أو شاه ويَسكتُ، وإذا فرغَ من اللّعبِ فلا يطرح الشُّطرنجَ في وسط الرُّقعةِ بل يبقى مكانهُ حتّى يشرعَ في صفّهِ، واذا حضرت بحضرةِ من يلعبُ فلا تُديدِب لأحدهما على الآخرِ ولا يشيرُ إليهِ فيشتغل صاحبهُ ويشنأكَ الخصمُ.

ويحكَى أن أميرين جلسا بحضرةِ عضُدِ[1] الدّولةِ يلعبانِ بالشّطرنجِ،

---

(١) هو فنّاخسرو، الملقب عضد الدولة ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي أبو شجاع، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق، تولى ملك فارس ثم =

فأشارَ إلى أحدهما يعَلّمهُ على الآخر وهما متراهنين، فقالَ لصاحبهِ: غلبتني يا فلانُ. قال: وكيفَ ذلكَ؟ قالَ: لأنَّ الملكَ عضُد الدَّولة يُدَبدبُ لكَ عليّ، ومن كانَ عليهِ فإنَّهُ مغلوبٌ لا محالةَ، فدعني أربح التَّعبَ فأعجبَ بأدبهِ وسكتَ عنهُ، فاتّفقَ أنّهُ غُلبَ كما قالَ، فوفى عنهُ عضُد الدَّولةِ.

ولعليِّ بن جهم[1] في وصفِ الشّطرنج:

أرضٌ مُرَبَّعـةٌ حمـراءُ مـن أدمِ	ما بينَ جيشينِ مصفوفينِ بالكرمِ
تذاكرا الحربَ فاحتالا لها شيهاً	من غير أن يأثما فيها بسفكِ دمِ
هذا يكرُّ على هـذا وذاكَ على	هذا يكرُّ وعينُ الحربِ لـم تنمِ
فأنظر إلى فِطَنٍ جاشتْ بفكرهما	بعسكرَيْنِ بـلا طَبـلٍ ولا علـمِ

ولابنِ بكري فيها:

إنّمـا لعـبُكَ بالشّطرنـجِ رياضـة	فاهجرَ الهجر لديها لا تردْ يوماً حياضَهْ
وتجنَّب صاحبَ الجهلِ ومن فيهِ فظاظه	لا تُجالسْ غيرَ ندبِ زانهُ العقلُ وراضَهْ

= ملك الموصل وبلاد الجزيرة، وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لقب في الإسلام « شاهنشاه » قال الزمخشري (في ربيع الأبرار) وصف رجل عضد الدولة فقال: وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب كان شديد الهيبة جباراً عسوفاً أديباً عالماً بالعربية ينظم الشعر. نعته الذهبي بالنحوي. وصنف له أبو علي الفارسي الإيضاح والتكملة. أخباره كثيرة أتى على معظمها ابن الأثير في الكامل. توفي ببغداد عام ٣٧٢ هـ. (راجع ابن الأثير الجزءان ٨ و٩/ وبغية الوعاة ٣٧٤/ وابن خلكان ١ : ٤١٦/ والبداية والنهاية ١١ : ٢٩٩).

(١) هو **علي** بن الجهم بن بدر أبو الحسن من بني سامة من لؤي بن غالب شاعر رقيق الشعر، أديب من أهل بغداد، كان معاصراً لأبي تمام وخص بالمتوكل العباسي، ثم غضب عليه المتوكل فنفاه إلى خراسان، فأقام مدة وانتقل إلى حلب، ثم خرج منها جماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بني كلب فقاتلهم وجرح ومات من جراحه، له ديوان شعر. توفي عام ٢٤٩ هـ. (راجع الأغاني ١٠ ـــ ٢٠٣ ٢٣٤/ وابن خلكان ١ : ٣٤٩/ وطبقات الحنابلة ٢٦٤/ وتاريخ بغداد ١١ ـــ ٣٦٧).

وأحسنُ ما سمعتهُ من الشَّيخِ رشيدِ الدِّينِ الفارقي رحمهُ اللهُ بيتاً مفرداً في كيفيَّةِ لعبِها أنَّهُ من حفظَهُ وعملَ بهِ لم يُغلبْ وهوَ:

حقّق مقاصدَ كُلِّ نقلٍ وآتهِ   عنهُ ولاحظ ما على الشَّاهَيْنِ

الباب العاشر

في الصَّيدِ والقنصِ وصفاتِ الجوارحِ والكواسرِ وأمراضها وعلاجاتها

قال اللهُ تعالى: ﴿وإذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[1] وقال عزّ من قائلٍ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِين تُعَلِّمُونَهُنَّ مِما عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكُرُوْا اسمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾[2].

وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن عديّ بن حاتمٍ[3] قالَ: سألتُ النبيَّ ﷺ

---

(١) سورة المائدة (آية رقم ٢).

(٢) سورة المائدة (آية رقم ٤).

(٣) هو عدي بن حاتم بن عبدالله الطائي، يكنى أبا طريف، وينسبونه عدي بن حاتم بن عبدالله ابن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي.

قال الواقدي: قدم عدي بن حاتم على النبي — ﷺ — في شعبان سنة عشر، وخبره في قدومه على النبي — ﷺ — خبر عجيب في حديث حسن صحيح، من رواية قتادة عن ابن سيرين، ثم قدم على أبي بكر الصديق بصدقات قومه في حين الردة. وكان سيداً شريفاً في قومه خطيباً حاضر الجواب.

وحديث الشعبي أنّ عدي بن حاتم قال لعمر بن الخطاب إذ قدم عليه ما أظنك تعرفني، =

فقلتُ إنَّا قومٌ نصيدُ بهذهِ الكلابِ، فقالَ: « إذا أرسلْتَ كلابكَ المعلَّمةَ وذكرتَ اسمَ اللهِ عليها فكلْ ما أمسكنَ عليكَ وإن قتلْنَ إلاَّ أن يأكلَ الكلبُ، فإنْ أكلَ فلا تأكلْ فإنّي أخافُ أن يكونَ إنَّما أمسكَ على نفسهِ وإن خالطهَا كلابٌ غيرُها فإنَّما سَمَّيتَ على كلبكَ ولمْ تُسَمِّ على غيرهِ »[1] وفي الترمذيّ عن عدي بن حاتمٍ[2] قالَ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن صيدِ البازيّ فقالَ: « ما أمسكَ عليكَ فكُلْ »[3] وفي الصَّحيحين عن عديّ بن حاتمٍ قالَ: قلتُ إني أرمي بالمعراضِ فقالَ عليهِ السلام: « إذا رميتَ بالمعراضِ فخرقَ فكلْهُ، وإن أصابهُ بعرضهِ فلا تأكلْهُ »[4] في الشَّرحِ أنَّ المعراضَ سهمٌ كبيرٌ لا ريشَ عليهِ والعصا في معناهُ. وفي صحيحِ مسلم قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: « إذا رميتَ سهمكَ فاذكر اسمَ اللهِ فإنْ وجدتَهُ

= فقال: كيف لا أعرفك؟ وأول صدقة بيضت وجه رسول الله ــ ﷺ ــ صدقة طي، أعرفك: آمنت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا.

مات بالكوفة سنة سبع وستين في أيام المختار. (راجع الاستيعاب ٣ : ١٠٥٨).

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصيد والذبائح (١) باب الصيد بالكلاب المعلمة (٢) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا ابن فضيل عن بيان الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ــ ﷺ ــ وذكره.

ورواه الإمام البخاري في كتاب الذبائح ٢، ٣، ٧، ١٠/ والتوحيد ١٣ ورواه ابن ماجة في كتاب الصيد ٣/ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٣٢ (حلبي).

(٢) سبقت الترجمة له في هذا الجزء.

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب الصيد ٣ باب ما جاء في صيد البزاة ١٤٦٧ ــ حدثنا نصر بن علي، وهناد وأبو عمار قالوا: حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد الشعبي عن عدي ابن حاتم قال: سألت رسول الله ــ ﷺ ــ وذكره.

قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مجالد عن الشعبي، والعمل على هذا عند أهل العلم لا يرون بصيد البزاة والصقور بأساً.

(٤) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصيد والذبائح (١) باب الصيد ١ ــ ١٩٢٩ بسنده عن عدي بن حاتم وذكره.

قد قتلَ فكلْ إلاَّ أنْ تجدهُ قد وقعَ في ماءٍ فإنَّكَ لا تدري الماءُ قتلهُ أو سهمكَ»[1].

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصيد والذبائح (١) باب الصيد بالكلاب المعلمة حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبدالله بن المبارك أخبرنا عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ــ ﷺ ــ عن الصيد قال: وذكره.
ورواه الإمام الترمذي في كتاب الصيد ٥ باب ما جاء فيمن يرمي الصيد فيجده ميتاً في الماء ١٤٦٩ بسنده عن عدي بن حاتم وذكره.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فصلٌ
فيما يُباحُ وما لا يُباحُ وما يُكْرَهُ

رویَ البخاريّ عن أنسٍ قالَ نفحنا أرنباً بمرِّ الظهرانِ، فسعوا عليها حتّى لغبوا فسعيتُ عليها حتّى أخذتُها فجئتُ بها إلى أبي طلحةَ، فبعثَ إلى النبيّ ﷺ بفخذِها وورِكِها[1] فقبلهُ.

وفي سننِ أبي داوُدَ عن ابنِ عمرَ قال: جيءَ بها إلى النبيّ عليهِ السلامُ فلمْ يأكُلْها ولم ينهَ عنها، وقيلَ[2]: إنّها تحيضُ. وفي سننِ أبي داوُدَ والنّسائي عن خُزيمةَ بن جريرٍ قالَ: سألتُ النبيّ ﷺ عن أكلِ الضّبعِ فقالَ: أو يأكلُ الضّبعَ[3] أحدٌ. وعن يزيد بنِ عمرو بنِ شُعيبٍ عن أبيهِ عن جدّهِ قالَ: أكلتُ مع النبيّ ﷺ لحمَ حبارَى.

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصيد والذبائح (٩) باب إباحة الأرنب ٥٣ (١٩٥٣) حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن هشام بن زيد عن أنس ابن مالك قال وذكره.

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأطعمة باب في أكل الأرنب ٣٧٩٢ حدثنا يحيى بن خلف، ثنا روح بن عبادة، ثنا محمد بن خالد قال: سمعتُ أبي خالد بن الحويرث يقول: إن عبدالله ابن عمرو كان بالصفاح قال محمد: مكان بمكة، وإن رجلاً جاء بأرنب قد صادها وذكره.

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأطعمة باب في أكل الضبع ٣٨٠١ حدثنا محمد بن عبدالله الخزاعي، ثنا جرير بن حازم عن عبدالله بن عبيد، عن عبد الرحمن بن أبي عمار عن جابر بن عبدالله قال سألت رسول الله — ﷺ — عن الضبع وذكره.

وفي الصِّحاحِ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن أكلِ ذي نابٍ من السِّباعِ وأكلِ ذي مخلبٍ من الطَّيرِ(١).

وفي البُخاريِّ والنَّسائي عن أسماء بنتِ(٢) أبي بكرٍ قالت: ذبحنا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فرساً ونحنُ بالمدينةِ فأكلناهُ(٣).

وفي النَّسائي عن خالدِ بن الوليدِ أنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ لا يحلُّ أكلَ لحومِ الخيلِ والبغالِ والحميرِ والأوَّلُ أصحُّ، وإن صحَّ(٤) هذا فهوَ منسوخٌ بالأوَّلِ. وفي الصِّحاحِ كثيرٌ من ذلك وفيما أوردناهُ كفايةٌ.

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأطعمة باب النهي عن أكل السباع ٣٨٠٣ — حدثنا مسدد، ثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: وذكره.

(٢) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر من قريش، صحابية من الفضليات آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وهي أخت عائشة لأبيها وأم عبدالله بن الزبير، تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عدة أبناء بينهم عبدالله، ثم طلقها الزبير فعاشت بمكة مع ابنها عبدالله إلى أن قتل، فعميت بعد مقتله. وتوفيت بمكة عام ٧٣ هـ. شهدت اليرموك مع ابنها وزوجها.

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الصيد والذبائح ٢٧ باب لحوم الخيل ٥٥١٩ حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا هشام عن فاطمة عن أسماء قالت: وذكره.

(٤) الحديث رواه النسائي في كتاب الأطعمة باب تحريم أكل لحوم الخيل أخبرنا اسحاق بن ابراهيم قال: حدثنا بقية بن الوليد، قال: حدثنا ثور بن يزيد عن صالح بن يحيى بن المقدام ابن معد يكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد أنه سمع رسول الله — ﷺ — يقول: لا يحلّ أكل لحوم الخيل والبغال والحمير.

فصلٌ
والصَّيدُ نزهةُ الملوكِ وقناعةُ الصُّعلوكِ

أمَّا الملوكُ فإنَّها تتدرَّبُ على الفروسيَّةِ وتمرُّن على الصَّبرِ في السَّفرِ والجوعِ والعطشِ، وتقوى على شدَّةِ التَّعبِ ويُسَرُّ بحلاوةِ الظَّفرِ، ومن كانت قوَّتهُ الغضبيَّة خاملةً تحرَّكت، أو ناقصةً تكمَّلتْ، فإنَّ أربابَ السِّياسةِ يحتاجونَ إلى تعهُّدِ القوَّة الغضبيَّةِ حتَّى يستقيمَ الأمرُ. وأمَّا الصعلوكُ فيخرجُ من منزلهِ وقد تركَ أطفالهُ جياعاً يتصارخونَ، إلى الصَّحراءِ بكلبهِ فيعودُ وقد حصلَ لهمْ ما يقوتهمْ، ولعلَّهُ يحصلُ أكثرَ من ذلكَ. وفيهِ من النَّشاطِ والانبساطِ وحسنِ التَّصرُّفِ في ركوبِ الخيلِ ورياضةِ البدنِ على التَّعبِ، ولا ينبغي أن يواظبَ على ذلكَ ولا يكثر منهُ ولا يفسدَ بسببهِ الزَّرعَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[1] قيلَ هو إتلافُ الزَّرعِ والإكثارُ منهُ ليسَ بمحمود وكثيراً ما يطرأ فيهِ الخطأُ والسُّقوطُ والجراحُ وغيرُها، والتَّوسُّطُ في ذلكَ خيرٌ من الإفراطِ.

﴿ولا ينبغي أن يتوغَّلَ في طلبِ الصَّيدِ في أرضٍ لم يخبرْها فربَّما كانت فيها مسايل وأودية ومواحل ومهالك، وكذلكَ لا يدخل الأجمةَ[2] ومواضعَ

---

(١) سورة الأعراف (آية رقم ٥٦، ٨٥).

(٢) الأجمة من القصب، والجمع: أجمات وأجم وآجام وإجام وأجم، والأجم: موضع بالشام بقرب الفراديس.

السِّباعِ ولا يجري بفرسهِ على الجندلِ. وبالجملةِ لا يغرِّر بنفسهِ ولا يصطادُ في أرضِ العدوِّ ومواضع يُخافُ فيها المكامنُ وكثيرٌ من الملوكِ ظفر بهم العدوُّ في الصَّيدِ، وإذا تدبَّرت هذا الأمر تجدهُ أكثرَ ما دخل الدَّخيلُ على الملوكِ في الصيدِ وتمكَّنت منهمْ من في قلوبهم الأحقادُ الكامنةُ مثل أمر قطُز[1] والملك الأشرف[2] وغيرهما. وأمَّا ما جرى لبهرامَ جوبين ملكِ الفرسِ مع جودة فروسيَّتهِ كان كثيرَ الغرامِ بالصَّيدِ وفيهِ هلكَ، وذلكَ أنَّهُ تبعَ حمارَ وحشٍ فغابَ عنهُ في ضبابٍ وأطلق فرسهُ خلفهُ، فوقعَ في سبخةٍ غاصَ فيها بفرسهِ وهلكَ ولم يَقدرْ على إخراجِ جُثَّتهِ إلاَّ بتعبٍ شديدٍ.

ويحكَى عن بعضِ ملوكِ السلجوقيَّةِ أنَّهُ عملَ حلقةً على الصَّيدِ فجمعَ فيها كلَّ صنفٍ من الأصنافِ وضايقها وضغطها فجعلتْ تلهثُ من شدَّةِ الحرِّ والعطشِ وألم الجراحِ، فرفعتْ رؤوسها إلى السَّماءِ وصاحتْ كالمُستغيثةِ صياحاً منكراً بأصواتٍ مختلفةٍ، فأصابَ الملك القولنج، فسقطَ عن فرسهِ لوقتهِ، فانحلَّ الجمعُ لاشتغالِ النَّاسِ بهِ، وشردَتِ الوحوشُ منطلقةً في البريَّةِ ثم أفاقَ الملكُ.

---

(١) هو **قطز** بن عبدالله المعزي سيف الدين، ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام، كان مملوكاً للمعز « أيبك » التركماني، وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز (أتابك العساكر ثم خلع المنصور وتسلطن مكانه سنة ٦٥٧ وخلع على الأمير ركن الدين (بيبرس) البندقداري وجعله أتابك العساكر، وفوض اليه جميع أمور الدولة، ونهض لقتال التتار وكانوا بعد تخريب بغداد قد وصلوا إلى دمشق وهددوا مصر، فجمع الأموال والرجال وخرج من مصر فلقي جيشاً منهم في « عين جالوت » بفلسطين فكسره سنة ٦٥٨ هـ وطارد فلوله إلى « بيسان » فظفر بهم ودخل دمشق في موكب عظيم. قتله (بيبرس) عام ٦٥٨ هـ. (راجع ابن إياس ١ : ٩٦/ والسلوك للمقريزي ١ : ٤١٧/ وفوات الوفيات ٢ : ١٣٢).

(٢) هو **أحمد** بن سليمان بن غازي الأيوبي أبو المحامد الملقب بالملك الأشرف، صاحب حصن كيفا وأعمالها، وليها بعد أبيه سنة ٨٢٧ هـ وحمدت سيرته، وكان شاعراً له ديوان. قتله بعض التركمان غيلة عام ٨٣٦ هـ. (راجع الضوء اللامع ١ : ٣٠٨).

فصلٌ
في ذكرِ الصَّيدِ وصفةِ الجوارحِ منَ الطَّيرِ والكواسرِ من الفهودِ[1] والكلاب

فأمَّا أهلُ التَّجاربِ فيذكرونَ أنَّ اتِّخاذَ الفهدِ مباركٌ مسعودٌ وأنَّ البركةَ تظهرُ من حين دخولهِ إلى منزلِ صاحبهِ، وهوَ حيوانٌ صلفٌ يحتاجُ إلى مُداراةٍ، ويضرُّهُ الحرُّ الشَّديدُ والبردُ الشَّديدُ والموضعُ النَّديُّ، وحليَةُ الجيد منهُ ما صَغُرَ سنُّهُ واتَّسعَ صدرهُ وصغر رأسهُ وطالَ عنقهُ واتَّسعتْ عيناهُ واستدارتْ.

(١) الفهد واحد الفهود، وفهد الرجل أشبه الفهد في كثرة نومه وتمرده، وفي حديث أم زرع إن دخل فهد، وزعم أرسطو أنه يتولد بين نمر وأسد ومزاجه كمزاج النمر وفي طبعه مشابهة لطبع الكلب في أدوائه ودوائه، ويقال إن الفهدة إذا أثقلت بالحمل حنّ عليها كل ذكر يراها من الفهود ويواسيها من صيده فإذا أرادت الولادة هربت الى موضع قد أعدته لذلك.

وسئل الكيا الهراس الفقيه الشافعي عن يزيد بن معاوية هل هو من الصحابة أم لا..؟ وهل يجوز لعنه أم لا..؟ فأجاب أنه لم يكن من الصحابة لأنه ولد في أيام عثمان — رضي الله عنه، وأما قول السلف ففيه لكل واحد من أبي حنيفة ومالك وأحمد قولان تصريح وتلويح ولنا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو المتصيد بالفهد، واللاعب بالنرد، ومدمن الخمر. ومن شعره في الخمر:

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنم

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكل وإن طال المدى يتصرم

وأهلُ الشَّرقِ يختارونَ ما ضاقتْ عينهُ، ويزعمونَ أنَّهُ أبصَرَ، ويُختارُ فيهِ دقَّةُ الخصرِ ولُطفُ الكَفِّ واعتدالُ القدِّ وبُعْدُ ما بينَ الأذنينِ.

والفهدُ الصَّغيرُ السنِّ علامتهُ أن تكونَ أسنانهُ بيض حادَّة، والهرمُ تكونُ أسنانهُ صُفر كالَّة. وفي الفهودِ الأبيضُ والأصفرُ والأحمرُ؛ فالأبيضُ والأصفرُ أحسنُها وأطيبُها خلقاً، والأحمرُ شرسُ الخلقِ زعرٌ، والأنثى أخفُّ وألطفُ للصَّيدِ، والذَّكَرُ لا يكادُ يصطادُ إلاَّ طلقينَ أو ثلاثة، والأنثى ربَّما تصيدُ عشرةَ أطلاقٍ. والفهدُ الجبلي ينبغي أن يطرحَ في مكانهِ حجارةٌ وحصى ليألفَ إليها ولما يعتادُ، وكذلكَ السَّهليُّ يجعلُ لهُ التُّرابُ والرَّملُ لذلكَ.

وأمَّا الكلابُ(١) ففي طبعها الوفاء والمحافظةُ، وكلابُ الصَّيد أبلغُ في ذلكَ. وهي أصنافٌ كثيرةٌ. وصفةُ الجيِّدِ في السُّلوقيَّةِ أن يكونَ صغيرَ الرَّأسِ، قصيرَ العُنقِ، عظيمَ المقلتينِ، ناتيء الجبهةِ عريضها، غليظَ المشفرِ، قصيرَ

---

(١) الكلب: حيوان معروف وربما وصف به فقيل للرجل كلب، وللمرأة كلبة والجمع أكلب، وكلاب وكليب مثل أعبد وعباد وعبيد.

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات أن بقرية من أعمال حلب بئراً يقال لها بئر الكلب إذا شرب منها من عضه الكلب برىء وهي مشهورة.

وفي كتاب (فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب) لمحمد بن خلف المرزباني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهُ: قال رأى رسول الله ﷺ رجلاً قتيلاً فقال ـــ ﷺ ـــ ما شأنه؟ قالوا: إنه وثب على غنم بني زهرة فأخذ منها شاة فوثب عليه كلب الماشية فقتله.

فقال النبي ـــ ﷺ ـــ: قتل نفسه، وأضاع دينه وعصى ربه وخان أخاه، وكان الكلب خيراً منه.

وقال ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ كلب أمين خير من صاحب خؤون. قالَ: وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم. فخرج في بعض متنزهاته ومعه ندماؤه، فتخلف منهم واحد فدخل على زوجته فأكل وشرب ثم اضطجعا فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين، فعرف الأمر فأنشأ يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني ... ويحفظ عرسي والخليل يخون
فواعجباً للخلّ يهتك حرمتي ... ويا عجباً للكلب كيف يصون

اليدينِ، طويلَ الرجلينِ، عريضَ الظهرِ، دقيقَ الخصرِ، في ظهرِهِ طولٌ، وفي ركبتيهِ انحناءٌ. والأنثى كلّما لطُفَتْ كانَ أجود والذَّكرُ كُلّما كبرَ كان أبهى. وقد يوجَدُ في بعضِ الكلابِ ما على أحدِ ساقيهِ مخلبٌ أو عليهما، وذلكَ من العلاماتِ الجيِّدةِ في الصَّيدِ والفراهةِ. وينبغي أن يُقطعَ منها كُلّما طالتْ لكيلا تجرحهُ. وسودُ الكلابِ أفرهُ، وزُرقُها أبصرُ، والسُّلوقيَّةُ الذُّكورُ تعيشُ أكثرَ من الإناثِ، وإذا هرمَ الكلبُ فيُطعَمُ السَّمنَ فإنَّهُ يُقوّيهِ ويُنشّطهُ، وإذا حفي يمسحُ يديهِ ورجليهِ بالقطرانِ، ويُدهنُ تحتَ أذنيهِ وذنبهِ وأفخاذهِ بالسَّمنِ فيزولُ عنهُ العياء والتَّعبُ. وممَّا قيلَ في وصفِ الفَهدِ والكَلْبِ:

كـأنَّ الرِّيحَ حيـنَ يلـوحُ سـربٌ	أعارتـــهُ معالجـــةَ الهبـــوبِ
يغيـــرُ فيجعـــلَ النَّـائي قريــاً	ويسـلبُ مهجـةَ الظَّبـي الرَّبـيبِ
يُلاحظ منهُ حيـنَ يَحـولُ جسمـاً	تـدرَّعَ حاليــاً حبَّ القلــوبِ

وفي صفةِ وجهِ الفهدِ:

وجـهٌ كـأنَّ البـدرَ حالـةُ تمِّـهِ	أهـــدَى لـهُ تدويـرَهُ وكمالـــهُ
وجناتـــهُ منموشـــةٌ فكأنّمـــا	ألقـى عليـهِ كـلُّ خـدٍّ خالـــهُ

وفي جودةِ صيدِهِ:

يَشُدُّ على الطَّريدةِ ثمَّ يهـوي	فليسَ يُـرى بـهِ إلاَّ التماحـــا
فيُدريهــا معالجــةً كــأنْ قــد	تضمــنَ كفُّـهُ القــدرَ المُباحـــا

وفي صفةِ كلابِ الصَّيدِ:

شَمَــردلاتٌ واسعـــاتُ الحـــدقِ	ســودُ الزَّلاليـمِ وشُهـلِ الأحــداقِ
غُلبٌ مهـاريبُ طـوالُ الأعنـاقْ	قبٌّ شـواظٌ شرسـاتُ الأخـلاقِ
يلثمنَ تربَ الأرضِ لثْمَ المشتاق	كأنّهـــــنَّ يستمحــــنَ الأرزاق
للوحشِ مـن سُلطانهـنَّ أفـراق	لا عاصـمٌ منهـا ولا مــن واقْ

فصلٌ
في ذكرِ الجوارحِ

أصولُ الجوارحِ من الطَّيرِ أربعةٌ: البَازُ[1] والشاهينُ والعُقابُ والصَّقرُ. وتحت كلِّ جنسٍ منها أنواعٌ تناسبُها في الفعلِ والطَّبعِ والحركاتِ؛ فمن أنواعِ البُزاةِ الصقرُ والطُّغرُل والبازُ التامّ والبازُ النيم والبازُ الزُّرّق والباشِقُ، فأجودُها الطُّغرل وهو عزيزُ الوجودِ ومواضعهُ بلادُ الخزرِ وبلادُ خوارزم[2]

(١) البازي: أفصح لغاته ويقال في التثنية بازيان وفي الجمع بزاة، كقاضيان وقضاة، ويقال للبزاة والشواهين وغيرهما مما يصيد صقور، ولفظه مشتق من البزوان وهو الوثب وكنيته أبو الأشعث وأبو البهلول وأبو لاحق، وهو من أشد الحيوان تكبراً وأضيقها خلقاً، قال القزويني في عجائب المخلوقات: قالوا: انه لا يكون إلا أنثى وذكرها من نوع آخر كالحداء والشواهين، ولهذا اختلفت أشكالها، وروينا عن عبدالله بن المبارك أنه كان يتجر ويقول: لولا خمسة ما اتجرت: السفيانان وفضيل وابن السماك وابن علية. أي ليصلهم، فقدم سنة فقيل له قد ولي ابن علية القضاء فلم يأته ولم يصله بشيء فأتى إليه ابن علية فلم يرفع رأسه إليه، ثم كتب إليه ابن المبارك يقول:

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعدما ... كنت دواء للمجانين
أين رواياتك في سردها ... لترك أبواب السلاطين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عوف وابن سيرين
إن قلت أكرهت فذا باطل ... زلَّ حمار العلم في الطين

(٢) خوارزم: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة، هكذا يتلفظون به، وهكذا ينشد قول اللحام فيه: =

وأطرافُ أرمينيَّة وجبالها، وهو شديدُ القوَّةِ خفيفُ الطَّيرانِ يصيدُ صيدَ البازِ والشَّاهين ينقضُّ على طيرِ الماءِ، فان مشقهُ وإلاَّ علا ثم انحطَّ عليهِ فيضربهُ ضربةً يصرعهُ، ومخلبهُ مسمومٌ إن جرحَ شيئاً لا يكادُ يبرأ، ولذلكَ ينبغي لحاملهِ أن يحتاط على يدهِ بالدُّستبانات القويَّةِ من الجلودِ واللُّبودِ. وقيلَ يليهِ السُّنقرُ وهو طيرٌ عزيزُ الوجودِ، وقيلَ قيمتهُ ألف دينارٍ، وأكثرُ ما يكونُ بجزائرِ الفرنجِ وسكناهُ في شعاري جبالها وبعدهُ البازُ التَّامُّ وأجودهُ الأشهبُ، وقد سُمّي ملكَ الجوارحِ لكثرةِ ما فيهِ من الخصالِ الملوكيَّةِ، ومنهُ الأصفرُ والأحمرُ والأسودُ، وقد أكثر أهلُ النَّظمِ والنَّثرِ في وصفهِ وتشبيههِ فمن قولهم في أصفر:

شَهْمٌ غدا يُزينهُ اصفرارهُ ... محمودَةٌ في صيدِهِ آثارهُ
طائرهُ لم ينجهِ فرارهُ ... ولم يَوَقَّ نفسهُ نفارهُ
كأنَّما سفكُ الدّما شعارهُ ... أو حلَّ في منسرهِ سفارهُ

وفي بازٍ أسود:

جونٌ يلاحظُ منهُ منظراً حسناً ... لهُ تصيرُ البُزاةُ البيض كالرَّخمِ
ينال حاملهُ من حملهِ تعباً ... يعودُ منهُ إلى الإعراضِ والسَّأمِ
كأنَّما بينَ هاديهِ ونيفقهِ ... تلهُّبُ النارِ في دقٍّ من الفحمِ

وفي بازٍ أشهب:

وأشهبٍ كبياضِ الثَّلجِ ما سمحتْ ... بمثلِ صورتهِ بيضُ الأعاصيرِ

= ما أهلُ خُوارزم سلالة آدم
ما هم وحق الله غير بهائم
أبصرت مثل حفائهم ورؤوسهم
وثيابهم وكلامهم في العالم
إن كان يرضاهم أبونا آدم
فالكلب خير من أبينا آدم

كــأنَّ حمــرةَ عينيــهِ وهامتــهِ ... سلافةٌ فضلتْ في كاس بلّوْرِ
وانظرْ إلى نقَطٍ في جؤجؤ لُطِفَتْ ... كأرجُلِ النّملِ في تمثالِ كافورِ

وفي بازٍ أحمر لمؤلفهِ:

وبازٍ غريبِ الشَّكْلِ قد فاقَ منظراً ... بحمرتـهِ قـد فـاقَ أبنـاءَ جنسـهِ
لـهُ حـدقٌ كالنّـارِ ترمـي لهيبهـا ... على جسمهِ فاحمرَّ منهـا بلمسـهِ
وما أحرقتـهُ النّـارُ لكـنْ تمرَّشتْ ... بهاءً بمسـودٍ على ثـوبِ لبسـهِ
لـهُ الفخـرُ فـي إطلاقـهِ ودعائـهِ ... ولا غروَ أن يأتي الفخارُ بنفسهِ
يطيـرُ فيصطـادَ الطّيـورَ وينثنـي ... فوا عجباً من عودهِ نحوَ حبسـهِ
تـأنّسَ بالإحسـانِ لـم يـزلْ بـهِ ... يُستـرقُ الحُـرُّ كـلٌّ بأنسـهِ

وأمّا الباز النيّم فإنّهُ قصيفُ البدنِ قليلُ الصَّيدِ. وأمّا الزُّرّق فهو في خِلقةِ الباز يصيدُ الحجلَ وما فوقهُ، ولا يبلغُ الكركي لكنّهُ قويُّ النفسِ فيه جراءةٌ وشهامةٌ وحدّةٌ دون قوة البازِ. وأمّا الباشقُ فإنّهُ دونَهُمْ وصيدهُ على مقدارهِ ويسمَّى الساق. وأمّا البيدَن ويسمَّى العَقصي وهوَ أصغرُ الجميعِ، وصيدهُ السُّمانَى[1] والعصافير.

---

(١) قال الزَّبيدي ــ هو بضم السين وفتح النون على وزن الحبارى، اسم لطائر يلبد بالأرض، ولا يكاد يطير إلا أن يطار، والسماني طائر معروف ولا تقل سماني بالتشديد والجمع سمانيات، ويسمى قتيل الرعد من أجل أنه إذا سمع الرعد مات، ويقال ان فرخه عندما يخرج من البيض يطير من ساعته، ومن عجيب أمره أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع يصيح ويغتذي بالبيش وهو سم ناقع قاتل، وهو من الطيور القواطع، لا يدرى من أين يأتي حتى إن بعض الناس يقول: إنه يخرج من البحر المالح فإنه يرى طائراً عليه وأحد جناحيه منغمس فيه والآخر منشور كالقلع، ولأهل مصر به عناية ويتغالون في ثمنه.

والسماني: تدل رؤيته: على الفوائد والأرزاق من جهة الزرع والفلاحة، وهو لمن يقصد سماعه دليل على الأرزاق من الشبهات، وربما دلّ على اللعب واللهو والتبذير، وربما دلت رؤيته على الجرم بما يوجب الحبس والصلب. والله أعلم.

فصلٌ
في علاماتِ الجيّد منها وعلامات أصنافِها وصفاتِها

فأمّا الجوارحُ من الطّيرِ ذاتِ المناسرِ، إناثُها أنبلُ من ذكورها وذواتُ المناقيرِ بالعكس.

وأصلحُ البُزاةِ الجُرجانيّةُ(١)، وفيها نوعٌ غريبٌ، وهو الّذي في وسطِ ظهرِهِ خطٌّ أسودُ، وإن كانَ البازُ أشهب فهو كذلك، والمدبَّجُ بالحمرةِ يدلُّ على الفراهةِ، ويستحبُّ أن تكونَ رُكبتا الباز محدَّدتين، ويكونُ السّوادُ غالباً عليهِ وأن يكونَ ضخم المنسرِ، واسع العينينِ، رحبَ دائرةِ الأذنينِ، واسع الشّدقينِ، غليظ العُنقِ، واسع الحوصلةِ، تامّ الأجنحةِ. وعيبهُ قصرُ قوادمه، ولهذا كانَ الحجلُ والدُّرّاجُ والسُّمانُ قليل الطّيرانِ، وإذا وجدَ أسوَد الظّهرِ أكحل العينينِ فهو من العلاماتِ الجيّدةِ، وفيها ما تكونُ صفر الأرجُلِ، وفيها ما يكونُ أكحلَ العينِ ويحمرُّ بعدَ القرنصةِ أو يتغيّرُ عن لونها. والبزاةُ كبارُ الرُّؤوسِ غِلاظُ الأعناقِ، وكثيرةُ الرّيشِ، وشرُّ البُزاةِ الحبشيّةُ.

---

(١) هو اسم لقصبة إقليم خوارزم، مدينة عظيمة على شاطىء جيحون. وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم « كركانج » فعربت إلى الجرجانية، وكان يقال لمدينة خوارزم في القديم قبل ثم قيل لها المنصورة، وكانت في شرقي جيحون فغلب عليها جيحون وخرّبها، وكانت (كركانج) هذه مدينة صغيرة في مقابلة المنصورة من الجانب الغربي فانتقل أهل خوارزم وابتنوا بها المساكن ونزلوها فخربت المنصورة جملة حتى لم يبق لها أثر وعظمت الجرجانية. (راجع معجم البلدان ص ١٢٢ ــ ١٢٣).

فصلٌ
في وصايا تتعلّقُ بالصَّيدِ

قالَ أهلُ ذلكَ لا ينبغي أن يُضَرَّى الباز على الدّجاج دائماً، فإنَّهُ يكسلُ وتقلَّ فراهيَّتهُ لسهولةِ ذلكَ عليهِ، بل يُعوِّدُ أصنافاً من الطَّيرِ.

قالَ السّنجريُّ[1] في كتابهِ ينبغي أن يُستجاب الباز على اللّحمِ أيّاماً، ثمَّ بالطُّيورِ من الأرضِ ثمَّ من العلوِّ وأنتَ على الأرضِ ليحبَّ النزولَ إليكَ، ثم من اليدِ إلى اليدِ، ثم من الأرضِ إلى العلوِّ ويدرّجهُ في البعدِ، ولا يخالفُ عليهِ الأصوات فيتحيَّرُ وكذلكَ ضربُ الطَّبلِ باز ليكنْ على نسقٍ واحدٍ وهو يحبُّ الحمامَ الأبيضَ فإذا أبطأ عليكَ فلوِّحْ له بهِ، أو يحتاج أن يكونَ معكَ تَشُدُّهُ في خيطٍ وتلوّح بهِ.

وقالَ خاقانُ: يكونُ عدمُ استجابةِ الطَّيرِ من أسبابٍ أوّلها سوء حملهِ أو قلّة تأنيسهِ ووحشتهِ أو من وجعٍ يعتريهِ فينظرُ في ذلكَ وتزاحُ علّتهُ

---

(١) هو محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري، ويعرف بابن الأكفاني أبو عبدالله، طبيب باحث عالم بالحكمة والرياضيات. ولد ونشأ في « سنجار » وسكن القاهرة فزاول صناعة الطب، وتوفي بها عام ٧٤٩ هـ.

له تصانيف منها (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد) والدر النظيم في أحوال العلوم والتعليم، ونخب الذخائر في أحوال الجواهر. وغير ذلك كثير.

(راجع الدرر الكامنة ٣: ٢٧٩/ والبدر الطالع ٢: ٧٩/ والفهرس التمهيدي ٥٣٣).

فيستقيمُ. وقالَ بعضُ أهلِ التَّجربةِ: إذا كانَ الجارحُ بَطيء الاستجابةِ فيُدهنُ منقارهُ بشحمِ سُرَّةِ اكديش فإنَّهُ يأخذهُ من الحرصِ عليهِ كهيئةِ الجنونِ. وقيلَ إذا أُخذَ أنجَدان ودار صيني وسحقًا ولُطِخَ طعمهُ بعسلٍ وذُرَّ عليهِ من ذلكَ، وأُخِّرَ عن عادتهِ ساعةً وأُطعمَ، استقامتْ أحوالهُ وحَسُنَتْ استجابتهُ، وإذا أردتَ أن تُنشِّطَ البازَ فأطعمهُ فرخَ حمامٍ قد أوجرتهُ بخلٍّ حتَّى يتشرَّب في لحمهِ وعروقهِ، أو تنقعهُ فيهِ ثم تطعمهُ فيصبحُ ضامراً نشيطاً، وكلَّما صادَ شيئاً فأطعمهُ منهُ، فإنَّهُ يعودُ إليهِ نشاطهُ. وإذا غابَ البَازي مع صيدهِ ولم ترهُ فاقصد مكاناً عالياً واصغ هل تسمع نعيقَ الغرابِ[1] أو تنظر إلى كثرتِها واجتماعها، فاعلمْ أنَّ البازَ هناك فأمضِ لهُ. وقيلَ إذا رأيتَ البازي يحومُ على رأسِ صاحبهِ ولا يعلُو في الجَوِّ فإنَّها علامةُ حُسنِ التَّعليمِ، وإن حلَّقَ ناحيةً ولم يطلبْ جهةَ الصَّيدِ وفتلَ ذنبهُ ونشرهُ وصعَدَ في الجوِّ فهوَ علامةُ الهروبِ، وقد يكونُ توحُّشُهُ من جارحٍ يظهَرُ أكسرَ منهُ أو من شبعٍ أو من تعبٍ ليسمَنٍ، فيُصبَرُ عليهِ ويُتتبَّعُ ويُلوِّحُ لهُ بالجناحِ ويُستدعى فيعودُ ثم يُداريهِ.

---

(١) الغراب: معروف وسمي بذلك لسواده، ومنه قوله تعالى ــ وغرابيب سود، وهما لفظان بمعنى واحد، ومن أحاديث راشد بن سعد أن النبي ــ ﷺ قال: إن الله تعالى يبغض الشيخ الغربيب فسره راشد بن سعد بالذي يخضب بالسواد، وجمعه غربان وأغربة، وأغرب وغرابين وغرب وقد جمعها ابن مالك في قوله:

بالغـرب أجمـع غرابـاً ثـم أغربـة وأغـــرب وغرابيــــن وغربـــــان

وكنيته أبو حاتم وأبو جحادف وأبو الجراح وأبو حذر وأبو زيدان وأبو زاجر وأبو الشؤم وأبو غياث وأبو القعقاع وأبو المر. قال الشاعر:

إن الغراب وكان يمشي مشية
فيما مضى من سالف الأجيال
حسد القطاة ورام يمشي مشيها
فأصابه ضـرب مـن العقـال
فأضـل مشيته وأخطأ مشيها
فلـذاك سمـوه أبـا المرقـال

قالَ والجوارحُ تهيجُ في الرَّبيع للسفادِ وتطلبُ أوكارها فينبغي أن تحفظ في ذلك الفصل سيما الَّتي عُلِّمت بعد القرنصة. وإمَّا الَّتي علِّمت وهي فراخٌ فما يصعب أمرها.

وصفُ الشَّواهين: وهي جنسٌ تحتها أنواعٌ على أخلاقِها وطباعها. أوَّلها الشَّاهينُ(١) المعروفُ وهو أجلُّها، وبعدهُ الأُفقي وهو دونهُ، ثُمَّ اليويو، ثُمَّ القطَّامُ، ثم الكرج. وقد يُسمَّى الحلم لخفَّةِ جناحهِ. وفي الشَّاهين خفَّةُ الطَّيرانِ وشجاعةٌ وحسنُ تحليق وانكفاف وحرصٌ شديدٌ، وربَّما رمى بنفسهِ على الصَّيدِ في سن جبلٍ أو في شوكٍ أو شجرٍ مُحَدَّدٍ، فيُهلك نفسهُ لأنَّهُ يضربُ بصدْرهِ. وأجودُ الشَّواهينِ البحريَّةِ البلبكريَّة وهي سودُ الظُّهورِ، غائرةُ العينِ، حادَّةُ النَّظرِ، قصارُ الظُّهورِ، طوالُ الخوافي، لطافُ الأذنابِ. وفيها الصُّفرُ والحمرُ والشُّهبُ. وإذا كان الشَّاهينُ سبطَ الكَفِّ أخضرهُ، دقيق الذَّنبِ، قليلُ الرِّيشِ، فهو سريعٌ لا يفوتهُ طيرٌ. وأنشدَ بعضهُمْ في شاهينةٍ شهباء:

بيضاءُ كافوريَّةُ اللَّوْنِ ما تنجو سباعُ الطَّيرِ من كَيْدِهَا
ان أُطلقتْ فالطَّيْرُ من جوفها حاصلةٌ بالرَّغم في قيدها
وكلَّما يعلوهُ ريشٌ ففي قبضتها كرهاً وفي صيدِها

---

(١) جمعه: شواهين وشياهين، وليس بعربي، لكن تكلمت به العرب، قال الفرزدق:

حتى لم يحط عنه سريع ولم يخف
نويره يسعى بالشياهين طائره

ويروى بالشواهين. وقال عبدالله بن المبارك:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره
وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلا غلق
تبتاع بالدين أموال المساكين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به
وليس يفلح أصحاب الشواهين

وفيها:

وبحريَّةٍ زُمجيَّةِ اللَّونِ طَرَّزَتْ ... بأفعالِها المُستحسناتِ نُعوتَها
إذا أُرسِلَتْ رامَتْ عُلُواً كأنَّما ... أُعدَّ لها في منتهى الجوِّ قوتُها
فإن نحنُ أقلعنا الطُّيورَ تحدَّرَتْ ... كصاعقةٍ حرصاً عليها تُميتُها

وفيها:

بحريَّةٌ أربَتْ على العِقبانِ ... جلَّتْ عن الأشكالِ والأقرانِ
ترقى فما تُدرَكُ بالعيانِ ... تنقضُّ كالنَّجمِ على الشَّيطانِ
والطَّائرُ القاصي لها كالدَّانِ

وصِنفُ الصَّقرِ(1) دونَهُ جوارح من طبعهِ فمنها الكَونَجُ ويُسمَّى السَّقاء، يصيدُ الدِّقَّ من الطَّيرِ، ورُبَّما صادَتِ الأرنبَ والسَّنك وتفسيرهِ بالفارسيَّةِ الحجر، وهي زرقُ العيونِ، صَبورةٌ خفيفةٌ تصيدُ صيدَ الباشقِ. والزُّمَّجُ أحسَنُها لكنَّهُ ضعيفُ الجسدِ وفيهِ فشلٌ ويصيدُ الكروان. ومن العلاماتِ الجيّدةِ في الصَّقرِ أن يكونَ أحمرَ اللَّونِ، عظيم الهامةِ، تامّ المنْسَرِ، طويل العنقِ، رحب الصَّدرِ، ممتلىء الزَّورِ، عريضُ الوَسطِ، قصير السَّاقينِ، طويل الجناحينِ، قصير الذَّنبِ. والحُمْرُ منها سَهليَّةٌ، والشُّهْبُ جبليَّةٌ، والسُّود بحريَّةٌ، والصُفْرُ قويَّةٌ تصيدُ الظباء.

وصفُ العقبانِ: يقالُ: إنَّ الزُّمَّجَ من أجناسهِ. والعُقابُ يصيدُ الغزلانَ

---

(1) الطائر الذي يصاد به قاله الجوهري. وقال ابن سيده: الصقر كل شيء يصيد من البزاة والشواهين، والجمع أصقر وصقور وصقورة وصقار وصقارة.

قال سيبويه: إنما جاءوا بالهاء في مثل هذا الجمع تأكيداً نحو بعولة والأنثى صقرة وصقر هو الأجدل، ويقال له القطامي، وكنيته أبو شجاع، وأبو الأصبع، وأبو الحمراء، وأبو عمرو، وأبو عمران.قال النووي في شرح المهذب، قال أبو زيد الأنصاري المروزي يقال للبزاة والشواهين وغيرهما مما يصيد: صقور، وأحدها صقر والأنثى صقرة.

قال ابن المقري: رؤية الصقر تدلّ على العزّ والسلطان والنصر على الأعداء، وبلوغ الآمال والرتبة والأولاد والأزواج والمماليك والسراري ونفائس الأموال.

والثّعالبَ[1] والوحشَ وأمّا الزُّمّج فالجَيّدُ منهُ يصرعُ الكركي وما دونَهُ. والعُقابُ الجبلي جيّدٌ والّذي يُؤتَى بهِ من جزائرِ المغربِ فارهٌ كاسرٌ صَيّادٌ، والمائلُ إلى الحمرةِ والغائرُ الحملاقُ جيّدٌ، وكذلكَ الأغبرُ المائلُ إلى الشُّهبةِ. والأصقَعُ هو الّذي على رأسهِ أو ظهرهِ بياضٌ، وإذا انقرضَتْ تناقضتْ أفعالهُ بخلافِ غيرهِ. وقد يُربّى فرخُ الحدأةِ فيستجيبُ ويصيدُ.

---

(١) الثعلب معروف، والأنثى ثعلبة. والجمع ثعالب وأثعل، روى ابن قانع في معجمه عن وابصة ابن معبد قال: سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول: شر السّباع هذه الأثعل يعني الثعالب وكنية الثعلب أبو الحصين، وأبو النجم وأبو نوفل وأبو الوثاب والأنثى أم عويل والذكر ثعلبان وأنشد الكسائي عليه:

أربٌّ يبـــول الثعلبـــان برأســـه　　لقـد ذل مــن بـالت عليـه الثعـالب

ويقال إن هذا الشعر لغاوي بن ظالم الذي سماه الرسول ـــ ﷺ ـــ راشد بن عبد ربه وقبل هذا:

لقد خاب قوم أملوك لشدة
أرادوا نزالاً أن تكون تحارب
فلا أنتَ تغني عن أمور تواترت
ولا أنت دفاع إذا حل نائب

فصلٌ
في القرنصةِ وهو سقوط الرّيشِ عنها

كما يطرأ لبعضِ الحيوانِ من سقوطِ الشّعرِ والاستبدالِ بهِ وكالحيَّةِ في نزعِ جلدها، فإذا شرعت الجوارحُ في القرنصةِ فينبغي أن يُعدّ لها بيتاً كِنًّا لا يدخلهُ الدُّخانُ ولا الغُبارُ والرِّياحُ ولا يسمَعُ جلبةً فيهِ، ويُفرَشُ حولهُ ورقُ الصُّفصافِ والسوسن والرَّيحانُ، ويُبدَّل كل ثلاثةِ أيّامٍ ويوضعُ بينَ يديّ كلّ طيرٍ إجانة من ماءٍ، ويُجَدَّدُ لهُ في كلّ يومٍ، ويُطعم المخاليف بدمائها سبعةَ أيّامٍ بدُهنِ الجوزِ، ثم يُطعم لحم الضّأنِ، وإن أمكنَ أن ينقعَ في لبنِ الاتنِ والسُّكَّر كان أنفعُ لهُ، ويُعادُ عليهِ الفراخ في بعضِ الأوقاتِ، وممّا يسرعُ برمي ريشهِ لحمُ القنفُذِ بغير شحمٍ ولحم الفأرِ[1] البرّي بدُهنِ بنفسجٍ أو بعسلٍ، ويُطعمُ لحم جمل يوماً واحداً ولحم بقر يوماً آخر ينقى من عروقهِ وشحمهِ ويُطعمُ. وإذا أصابهُ الرَّبو فيُطعم لحم

---

(١) الفأر — بالهمز —: جمع فأرة، ومكان فئر أي كثير الفأر وأرض فئرة أي ذات فأر وكنية الفأرة: أم خراب وأم راشد وهي أصناف. وروى الطحاوي في أحكام القرآن بإسناده عن يزيد بن أبي نعيم أنه سأل أبا سعيد الخدري — رضي الله عنه: لم سميت الفأرة الفويسقة؟ فقال: استيقظ النبي — ﷺ — ذات ليلة وقد أخذت فأرة فتيلة السراج لتحرق على رسول الله — ﷺ — البيت فقام إليها وقتلها وأحل قتلها للحلال والمحرم.

وفي صحيح مسلم وغيره: «أن النبي — ﷺ — أمر بإطفاء النار عند النوم، وعلل ذلك بأن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم ناراً»

مَنْوْرٍ فإنَّهُ ينفعهُ ويسمّنهُ ويُصفّي بهاراتهُ. ولحمُ اليربوعِ جيّدٌ للقرنصةِ، وإذا أردتَ أن تسهلهُ فادلُك لحمَهُ بدُهنِ البنفسجِ أو بالزُّبدِ، وممّا يسرعُ سقوطَ ريشهِ فيُطعَم الغُدَدَ الّتي تكون في حلقِ الشّاةِ موضع الذّبح تحت الجلدِ يُطعمُ منها ثلاثة أيّامٍ، وكذلكَ لحمُ السّلاحفِ.

فصلٌ
في بعضِ أمراضِها وعلاماتها وعلاجاتها

فمن ذلكَ **الرَّمدُ** وعلامتهُ أن ترِمَ عيناهُ وتحمرُّ وتدمعُ. **علاجهُ**: أن يُشوى الجبنُ ويُطعمُ ثلاثة أيّامٍ، وإذا شُويَ يُقرّبُ بخارهُ إلى عينيهِ.

الزُّكامُ علامتهُ أن يحمرّ منخراه، وتسيلُ الرُّطوبةُ من فمهِ، وتدمعُ عيناه، **علاجهُ**: يُدقُّ نوى الزّعرورِ اليابسِ، ويُصَبُّ عليهِ زيتٌ، ويُحبَّبُ مثل الحمّص، ويُغسَل بها حنكهُ، ويوقَفُ في الشّمسِ ساعةً، ويُطعَمُ بعدَ ذلكَ حمامة حارَّة، وان كان في الشّتاء يُسحقُ فلفلٌ وينفخُ في منخريهِ، ويُطعم طيراً شديد العصبِ وقويّ اللحمِ حتىَّ ينتف عصبهُ وريشهُ فتخرجُ الرُّطوبةُ من منخريهِ.

البردُ والكُزاز علامتهُ أن يكون ضاماً لجناحيهِ بائن الرّيش قائمهُ، يرفَعُ رجلاً ويضعُ أخرى، وينتفضُ ويتقاعس. **علاجه**: أن يُدنَى من جمرٍ لا دُخانَ فيهِ، وتُقَطرُ في حلقهِ قطراتُ دهنِ بانٍ أو يمسحُ بهِ ظهرهُ وتحت أفخاذهِ، وبعضهمْ يلفّهُ في قطعةِ فروٍ بعد أن يدهنهُ ببعضِ الأدهانِ الحارّةِ، فيدفأ ويحسنُ حالهُ.

الجَحصُ علامتهُ أن يُغمِض عينيه، ويمسحها بمنكبيهِ، ويتحرّك العرقُ الّذي عند عينيه، فهوَ دليلٌ على أنّ المرض في رأسهِ، وإنْ كانَ يجدُ الألمَ عندَ الذَّرْقِ فعلامتهُ يمدُّ منسرهُ إلى مؤخرهِ، فذلكَ دليلٌ على أنّ الدّاءَ في بطنهِ،

وأكثر ما يطرأ مِنَ الرّيحِ أو من التُّخمةِ. **وعلاجهُ** أن يُطعمَ الفانيدَ، فإنَّهُ يكسر الرّيحَ ويُليّنُ البطن، ويُطعم الرّشاد والزّنجبيل والوَجّ، ويُطعَم لحوم العصافير[1] والقنابر منقوعةً في دهنِ الجوز، وإذا أغليتَ العسلَ على النّارِ جيّداً، ونزعتَ رغوتهُ وعقدتَهُ، ثمَّ أطعمْتَ الطَّيرَ بقدرِ الجوزةِ نفعهُ للجصّ والرّيحِ، وإن كانَ الألمُ في رأسهِ ولم يهدأ بالطُعمِ فأكوهِ بقصبِ آسٍ في ثلاثةِ مواضع عن يمينِ أصلِ منسرهِ وعن يسارهِ وفي وسطِ رأسهِ، واجعلْ في طعمهِ الرّشاد.

الأكلةُ علامتهُ إذا ابيضّتْ لهاةُ الطَّيرِ بعدَ سوادِها وإذا أكلَ اللَّحمَ يُدخلُ مخاليبهُ في منسرهِ ويَحُكُّهُ حتّى يسيلَ منهُ الدّمُ، وربّما امتنعَ من الأكلِ فاعلمْ أنَّ في حنكهِ الأكلةَ، وربّما كانتْ في بطنهِ وأصلُها من الجصِّ وصعود البخار إلى رأسهِ وحلقهِ. **علاجهُ:** أن يُطلَى بشيء من سمنِ البقر[2] والفلفل ثلاثة أيّامٍ، ويؤخذُ نشادرُ درهَمينَ وزَرنيخ أصفر درهم،

---

(١) العصفور ــ بضم ــ: وحكى ابن رشيق في كتاب الغرائب والشذوذ عصفر بالفتح والأنثى عصفورة، قال الشاعر:

كعصفـورة فـي كـف طفـل يسومهـا ... حيـاض الـردى والطفـل يلهـو ويلـعـب

وكنيته: أبو الصعو، وأبو محرز، وأبو مزاحم، وأبو يعقوب.

قال حمزة: سمي عصفوراً لأنه عصى وفرّ، وهو أنواع منها ما يطرب بصوته وحسنه، والعصفور الصرار وهو الذي يجيب إذا دعي من الصيرورة، وعصفور الجنة، وهو الخطاف.

وروى الإمام مسلم عن عائشة ــ رضي الله عنها أنها قالت: حين توفي صبي من الأنصار بين أبوين مسلمين «طوبى له عصفور من عصافير الجنة فقال النبي ــ ﷺ ــ: إن الله تعالى خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم».

(٢) البقر اسم جنس يقع على الذكر والأنثى وإنما دخلته الهاء للواحدة، والجمع بقرات، قال الله تعالى ــ ﴿سبع بقرات سمان﴾ قال المبرد في الكامل إذا أردت التمييز قلت هذا بقرة للذكر وهذه بقرة للأنثى كما تقول: هذا بطة للذكر وهذه بطة للأنثى، وأهل اليمن يسمون البقرة باقورة، كتب النبي ــ ﷺ ــ إليهم كتاب الصدقة في كل ثلاثين باقورة بقرة.

واشتق هذا الاسم من بقر إذا شق لأنها تشق الأرض بالحراثة ومنه قيل لمحمد بن علي =

وبورَقُ أرمني نصفُ درهم، يُدَقُّ ويخلطُ بشيرجٍ وتُطلَى لهاتهُ وحلقهُ منهُ، ثم يغسلُ بخلٍّ وإن دهنتهُ بدُهنِ المشمشِ المسخَّنِ حتَّى ينكوي به نفعهُ، وإن اشتدَّ مرضهُ فسعِّطهُ بالزَّرنيخ، وإذا كَوَيْتَ جانب منسرهِ بعودِ شيحٍ كان أماناً لهُ منَ الأُكلةِ.

وأمَّا الآفاتُ الطَّارئةُ عليهِ من الظاهرِ فمنها الصَّدمة، فإذا أصابتهُ يضطربُ في الطَّيرانِ وعلى الكندرةِ، ويصقعُ ويكونُ ذرقهُ مختلطاً بدمٍ. **علاجهُ**: يدقُّ كزبرة البيرِ ويستخرجُ ماؤُها، وينقعُ طعمهُ، ويكون من لحم طيرٍ حارٍّ، ويؤخَذُ بعرِ الغنمِ وورق الصَّفصافِ ويُغلَى في ماءٍ، ثم يُنَزَّلُ ويُكَبُّ عليهِ غربالٌ ويوقَفُ الطَّيرُ عليهِ حتَّى ترتفعَ إليهِ البُخارُ فينفعهُ.

الجِراحَةُ وإن أصابَ الطَّيرَ جُرحٌ وانقطعَ جلدهُ فخيطهُ بخيطِ صوفٍ رَفيعٍ، ويَذُرِّ عليهِ كزْبرةُ بيرٍ يابسة، وإن كانت متوغِّلةً فَذُرّ عليهِ الزَروتَ حتَّى يبرأ، وإن زال من جلدهِ قطعةٌ فضَع في مكانها من جلدِ فرخ حمامٍ حارٍ وذُرّ فوقَها كزبرة بيرٍ وخيّطهُ، وإن جعلتَ تحتهُ شَحْمَ بقرٍ كانَ أصلح وأسرع لبُرئهِ.

وعلاجُ الشُّواهين مثل علاجِ البُزاةِ وكذلكَ سائرُ الكَواسرِ، إلاَّ أنَّ مُداراة كُلّ نوعٍ على حدَةٍ، فيحتاجُ من يشتغلُ بذلكَ يكونُ لهُ دُرْبَةٌ ومعرفةٌ، وإذا انقصفَ من ريشِ الجارحِ شيء فليوصَل بإبرةٍ لطيفةٍ تدخلُ بينَ الريشتين، ويُجعلُ على رأسها مري فيه صمغٌ ومصطكَى مدقوقين. وفيما ذكرناهُ كفايةٌ واللهُ أعلم.

= زين العابدين الباقر، لأنه بقر العلم، أي شقه، ودخل فيه مدخلاً بليغاً. وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ــ « ذكر فتنة كوجوه البقر » أي يشبه بعضها بعضاً ذهبوا إلى قوله تعالى (إن البقر تشابه علينا).

وفيه أيضاً: « رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ».

القسم الرَّابعُ

في الحروبِ وهو عشرةُ أبوابِ

الباب الأوَّلُ

في وصفِ أجناسِ النَّاسِ واختلافِ أصنافهمْ وأطوارهمْ

اعلمْ أنَّ النجدة والفروسيَّة من أهمِّ المصالحِ الدينيَّةِ وإقامةِ الدينِ ونظامِ العالمِ، وبها تُحرَزُ الأموالُ وتصانُ الحُرَمُ والنعمُ الدُّنياويَّةِ، وتُنالُ الدَّرجاتُ الأُخراويَّة وبها تكونُ العِزَّةُ للنفوسِ الأبيَّةِ وهي نتيجةُ النَّخوةِ والحميَّةِ، حثَّتْ عليها الشَّرائعُ والدّياناتُ، وانتظمتْ بها ضوابطُ السّياساتِ، وقَدْ وردَ في القرآنِ الكريمِ والخبرِ الصَّحيحِ في فضلِ الجهادِ والمجاهدينَ والحثّ على الغزاةِ وتحريضِ المُؤمنينَ ما يكثر تعداده.

وللفروسيَّةِ ثلاثةُ أصولٍ **أحدُها**: إحكامُ الرُّكُوب. **الثَّاني**: حذقُ أخذِ السِّلاحِ واستعمالهِ والمقابلة به. **والثالثُ**: الشَّجاعةُ وتدبيرُ اللّقاءِ والتَّقدُّم والتأخُّر والثّبات وأصنافُ ذلكَ وتصرُّفاتهِ.

فلنُقدّم قبلَ الشُّروعِ في ذلكَ وصفَ أجناسِ النَّاسِ وطبقاتهمْ ومبلغهُمْ من ذلكَ، وما اختصَّتْ بهِ كلّ أمَّةٍ من أهلِ الأقاليمِ.

الفرسُ[1] ذَوُو شهامةٍ ونجدةٍ وصبرٍ وحُسنِ سياسةٍ، كان لهمُ الملكُ

(١) الفرس: تنقسم إلى إحدى عشرة مقاطعة عاصمتها طهران مساحتها ١٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع =

ودامَ فيهمْ، ودانتْ لهمُ البلادُ واستمرَّتْ رئاستهمْ على الممالكِ ألوف سنينَ، وفيهم الرَّمي بالنُّشَّاب. وأهلُ جبالهمْ رحَّالةٌ شجعانٌ مثاقفون، يرمونَ بالحجرِ الصَّائبِ، والمنجنيقِ من استنباطهمْ، ويُقالُ: إنَّهُ ظهرَ في زمَنِ النَّمروذ، وهو من نبطهمْ وأعقابِ دولتهمْ بالعراقِ. وقد جاء في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُم لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1]. قالَ بعضُ الصَّحابةِ من هُمْ هؤلاءِ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «هذا وقومُهُ» وأشارَ إلى سلمانَ الفارسيّ[2].

العربُ أهلُ ركوبٍ وخفَّةٍ في الكرِّ والفرِّ، وفيهم شجاعةٌ وليسَ لهمْ ثباتٌ، وهم يجتمعونَ بالإطماعِ والآمالِ، وتؤثّرُ فيهم الخطابةُ والأشعارُ في كلّ فنٍّ، حتّى إنَّهُمْ يقعونَ في الأخطارِ أو يتركونَ من الأموالِ ما لهُ مقدار ببيتِ شعرٍ أو كلمةِ سجعٍ. ومن خصائصهم حفظُ الجارِ والنَّزيلِ والذَّبُّ عنهُ، وفي بعضهم كرمٌ. وليسَ لهمْ من أنواعِ إلاَّ الرُّمحُ، ورمي القوس العربي في بعضِ طوائفهمْ، وهو كالنَّادرِ فيهم.

= أي نحو ثلاثة أضعاف مساحة فرنسا. ديانة الفرس الإسلام على مذهب الشيعة وفيهم عدد قليل من أهل السنة.

ثغورها على الخليج الفارسي بوشير وبندر عباس ولنغة. (راجع دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ١٧٣).

(١) سورة محمد (آية رقم ٣٣).

(٢) هو **سلمان** الفارسي صحابي من مقدميهم، كان يسمي نفسه سلمان الاسلام، أصله من مجوس أصبهان، عاش عمراً طويلاً، واختلفوا فيما كان يسمى به في بلاده، وقالوا نشأ في قرية (جيان) ورحل إلى الشام فالموصل فنصيبين فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب استعبده ركب من بني كلب واشتراه رجل من قريظة فجاء به إلى المدينة، أعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه، أسلم وحسن إسلامه، دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، قرأ الكتاب الأول والآخر، جعل أميراً على المدائن حتى توفي عام ٣٦ هـ له في كتب الأحاديث ٦٠ حديثاً. (راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٥٣، ٦٧/ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٨٨/ والإصابة ت ٣٣٥٠/ وحلية الأولياء ١ : ١٨٥/ وصفة الصفوة ١ : ٢١٠).

الترك ذوو شجاعةٍ وحميَّةٍ وغلظةٍ وقساوةٍ على غير جنسهمْ، وفيهم انقياد لمشائخهمْ وكبرائهمْ مع أنَّهُ ليسَ فيهمْ عصبيَّةٌ كما في الكُردِ، وأخلاقهمْ عسِرَةٌ. وأشرفهُم الخطا ثم الحتن ثم الجُّكَل ثم التُّبكت ثم القجَق. والخَطا والحتن أجملهمْ وأصبحهمْ، والجُّكَلِ أعجزهُمْ، والتَّتر أطوعهُـمْ، واليـمَك أسقطهمْ. ولهُمْ في الفروسيَّةِ رمي النُّشَّابِ والضَّربِ بالدَّبُّوسِ والنَّسف. ولهم الصَّبرُ فينبغي أن يُوَسَّعَ عليهم في الإنفاقِ، وتُزاحِ عللهُمْ في ذلك، ويُمَكَّنوا من عاداتهمْ ولا يرفُّهونَ، فإنَّهمْ ينقادونَ إلى كلّ أمرٍ يُدعَوْنَ إليهِ ويتَّبعونَ.

الرُّومُ[1] أهلُ صنائع وحرفٍ وحكمٍ وفيهم صبرٌ وخدمةٌ، ولهمْ حِيَلٌ في السِّياساتِ ووضعِ آلاتٍ حربيَّةٍ. وحظُّهُمْ في الفروسيَّةِ قليلٌ. ولهمْ ضربٌ بالسَّيفِ ورمْي الجرخ والزنبورك. وميلهمْ إلى المكائد في الحروبِ أكثر. وفيهمْ صبرٌ وحرصٌ على جمعِ المالِ ومحبَّةِ الذَّهبِ والفضَّةِ والتَّنعُّمِ.

الدَّيْلَمُ[2] أهلُ طَبرستان والجبال. فيهم الفروسيَّة والشَّجاعة والصُّوَر الهائلة والأصوات المفزعة. وهمْ يرمونَ بالمزاريقِ، فتنفُذُ حيثُ أصابتْ ولا تكادُ تخطىء وهم أطوَعُ النَّاسِ لكبرائهمْ، إلاَّ أنَّ آراءهُمْ مضطربةٌ ما استراحوا قطّ إلاَّ بطرُوا، ولاَ ينبغي أن يُولَّى عليهم غيرهُمْ، فإنَّ نفوسهمْ أبيَّةٌ، وينبغي

---

(١) هم مؤسسو دولة الرومانيين في تاريخهم عبرة للمعتبرين وبلاغ للناظرين، بل هم بما أصلوا الأصول وسنوا الشرائع وفتحوا الأمصار كانوا مقدمة لعظمة أوربا الحالية ومدنيتها المادية.
وكان مقر الرومانيين مدينة إيطاليا الحالية قال المؤرخون: أول من سكن ايطاليا قومٌ يقال لهم: البلاجيون، ثم قبائل تسمى الأتروسك، ثم قبائل اللاتين.
وكان الشعب في دولة الرومان ثلاث طبقات: الأولى طبقة الأشراف والأمراء، والثانية طبقة الفرسان والمحاربين، والثالثة: عامة الشعب. (راجع دائرة معارف القرن العشرين جـ ٤ ص ٤٢٩، ٤٣٠).

(٢) الديلم: هم من الدول التي تفرعت عن الدولة العباسية، أصلهم مهاجرون هاجروا إلى علي ابن أبي طالب — رضي الله عنه، ثم صار لهم ملك في القرن الثالث في كيلان ومازندران، وتغلبوا على الخليفة العباسي إلى سنة ٤٢٠ هـ ثم تغلبت عليهم ملوك غزنة. (المرجع السابق جـ ٤ ص ١٠٦).

لواليهمْ أن يغضي عن بعضِ هفواتِهمْ، ويمسح باليسير من جناياتهمْ. وفيهمْ عنتٌ وعسفٌ لمنْ وليهم من غيرهمْ، وكذلكَ البربرُ والعربُ بالضدّ.

الكُردُ[1] هم في جبالِ الفرس وديارِ ربيعة. فيهم الشّجاعةُ والنّجدةُ والحميّةُ، فرسانهمْ ورجّالتهمْ. وهمْ يتعصّبونَ لبعضهمْ بعض على كلّ حالٍ كما تفعلهُ العربُ في بعضِ الأحوالِ. وليسَ فيهم حِيَلٌ ولا مكرٌ. وينقادونَ للدّياناتِ والأماناتِ، وربّما كانَ فيهمْ غَدْرٌ في بعضِ الأوقاتِ، ولا يكونُ سببهُ إلاّ التّعصُّبُ والحميّةُ.

البربرُ فيهم الصّبرُ على الشّقاءِ، والإقدامُ على الموتِ، والحروب. وهمْ أهلُ غلظةٍ وجفاءٍ وجهلٍ، وتأليفُهمْ بالمواعظِ والخطب والانقياد لمشائخهم، والانقياد لكبرائهم، وتؤثّرُ فيهمِ النّواميسُ غايةَ الأثرِ. وهمْ خِفافٌ على الخيولِ، خفافٌ في الجَري. ومنهمْ رجّالَةٌ يلحقونَ الخيل. ويعملُ فيهم الإرهابُ. ويعظّمونَ شيوخهُمْ. وفيهم قبيلةٌ تعظّم النّساءَ وتحكّمها، وتنسبُ الأولاد إليهنّ. ويتنقّبُ الرّجالُ وتسفرُ النّساء في الغالبِ، وهي قبيلةٌ مُسَوَّفَةٌ. وسياساتهمْ بالقهرِ والإرهابِ، واستعمال السّيفِ مكانَ السّوطِ.

الأرمنُ فيهم صبرٌ وخدمةٌ، وقد يكونُ فيهمْ جمالٌ، وفيهم ملاحةٌ وذكاءٌ وحسنُ تأتٍّ في الأعمالِ مع فسادٍ وقلّةِ أمانةٍ.

الهندُ[2] أهلُ الحكمةِ والذّكاءِ والفطنةِ. وفيهم الحيَلُ والمكرُ والوهمُ

---

(١) الأكراد: شعب فيهم عنصر تركي، وأما من جهة اللغة فهم يلتحقون بالشعوب الإيرانية، وهم يسكنون جماعات جماعات على حدود آسيا الصغرى وبلاد الفرس، ويشاهدون مكونين لجماعات متفاصلة من أول شهوب التركمان بشمال بلاد الفرس إلى أواسط آسيا الصغرى. (راجع دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١١٦).

(٢) الهند: هي أحد أشباه الجزائر الثلاث التي توجد في آسيا الجنوبية وهي بانحصارها بين شبه جزيرة العرب وشبه جزيرة الهند الصينية تشبه إيطاليا من أوربا، ولكنها بشكلها الجملي يمكن تشبيهها بأفريقيا، فهي عبارة عن مثلث غير منتظم السيقان، قاعدته جبال هيمالايا ورأسه رأس كومورين، يغمرها من جهة الغرب خليج العرب، ومن الشرق خليج بنغال، ويحيط بها من =

والخداعُ. ولا يقاتلونَ إلاَّ بأمرٍ دينيٍ. وأمَّا الحميَّةُ والأنفةُ والغيرةُ فعندهُمْ قليلةٌ. ومنهمْ طائفةٌ تنتَسِبُ إلى الشَّجاعةِ يسكنونَ في جبالِ الهندِ وهمْ عُراةٌ.

الحُبشُ هم أشفقُ أصنافِ السُّودانِ وأحسنهمْ. وفيهم أمانةٌ. وشجاعتهمْ نادرةٌ. وهم أهلُ جدٍّ وصبرٍ. وأصناف السُّودان كثيرةٌ: أشجعهمْ أهلُ غانة ثم كوكو والنوبَة. وأضعفهُمُ الزَّيلَعُ ثم كانم.

وبالجملة إنَّ أهلَ البلادِ الباردةِ أشجعُ من أهلِ البلادِ الحارَّةِ لتلَزُّزِ أبدانهمْ واكتنازِ أعضائهم وقوَّتهمْ. إلاَّ أنَّ أهلَ البلادِ الحارَّةِ أخفُّ وأرشقُ، وربَّما كانوا أركب، وأهلُ الجبال أشجعُ وأصبحُ من أهلِ السَّهلِ. وكذلكَ أهلُ المشرقِ أشجعُ من أهلِ المغربِ، وأهلُ الشَّمالِ أشجعُ من سكَّانِ الجنوبِ، والوسط وسط.

قالَ أهلُ الفِراسةِ: من صفةِ الشُّجاعِ أن يكونَ متلزِّزَ الأعضاءِ، قويَّ العصبِ، شديدَ اللَّحمِ، قائمَ الشَّعرِ سبطَهُ كأنَّهُ إبرٌ مغروزةٌ، عريضَ الصَّدْرِ، غليظَ العنقِ، جهوريَّ الصَّوتِ، أخمصَ البطنِ. وهذهِ الصِّفاتُ مأخوذَةٌ من الأسدِ. ولو شرحنا سائرَ أجناسِ النَّاسِ لطالَ الكتابُ، ولكن اختصرنا لا يفوتُ الغرضُ.

= جهتين نهرا الأندوس وبراهما بوترا، وهي تتاخم من جهة الغرب الأراضي التي تسكنها القبائل الأفغانية. (راجع دائرة معارف القرن العشرين جـ ١٠ ص ٥٤٠).

الباب الثاني

في الشَّجاعةِ وحدّها وفضلها وصفاتها

الشَّجاعةُ إقدامٌ على أمرٍ مخوفٍ غالباً مع توطينِ النَّفسِ على الظَّفرِ. وأمَّا معَ استشعارِ العطبِ فهو التَّهوُّرُ وإلقاءُ النَّفسِ في التَّهلُكةِ.

وقيلَ: الشَّجاعةُ أمرٌ بهِ يُدفعُ المكروهُ، ويجلبُ المحبوبُ. وعلى الجملةِ إنَّ الشجاعةَ أمرٌ تقتضيه الفحوليَّةُ والهممُ العليَّةُ، وهو للمُلوكِ ألزمُ ولا يلزمُ أنَّ الملكَ اشجَعُ بل يكفي أن يكونَ شجاعاً متدرّباً عارفاً بالطَّعنِ والضَّربِ والحملةِ والإقدامِ ومواقعهِ ومواضعهِ والثَّباتِ وموانعهِ فإنَّهُ إذا أحكمَ هذه الأمورَ كانت فيهِ فوائد عظيمةٌ منها هيبتهُ في القلوبِ، وعظمتهُ عند أعدائهِ وأوليائهِ، ومنها معرفتهُ بحقيقةِ الفروسيَّةِ ومقدارِها، فيضعُ كلَّ أحَدٍ في الرُّتبةِ الَّتي يستحقّها، ومنها أنَّهُ وإن كانتْ لهُ عساكِرُ وأعوانٌ لكنَّهُ رُبَّما اضطرَّ في بعضِ الأحوالِ إلى مباشرةِ الحربِ بنفسهِ لانتهازِ فرصةٍ أو لدفعِ شدّةٍ، فإن لمْ يكُنْ شجاعاً ولا لديهِ معرفةٌ فإنَّهُ يَهلكُ ويُهلكُ.

والشَّجاعة على أنواعٍ منها السَّبُعيَّةُ ومنشؤُها من الغضبِ والفزعِ، وقد تكونُ طبعاً ولا مادَّةَ لها، ومنها البهيميَّةُ وهي الَّتي تكونُ لطلبِ مأكلٍ

أو منكَحٍ. ومنها مصلحيَّةٌ وهي المكتسبةُ يتدرَّبُ عليها من يُزاولها حتَّى إذا تمهَّرَتْ فيها ارتزقَ بسببها وهي طريقةُ الجند.

والشَّجاعةُ أمرٌ محمودٌ وفضيلةٌ وهي وسطٌ، والإفراطُ فيها تهوُّرٌ، والتَّفريطُ جُبنٌ، ومثالُ التَّهوُّرِ مقاومةُ ضعيفٍ أعزلٍ لِقويٍّ شاكٍ، والجبنُ بالعكسِ أو الهروبُ قبلَ المناوشةِ والحربِ، وإنَّما ينبغي أن يثبتَ موضِعَ الثَّباتِ وينتهز عند إمكانِ الفرصة ولا يرتاع إن رأى غيرهُ أصيب، فلعلَّهُ من السالمين الظَّافرينَ.

فصلٌ
في فضلِ الغزاةِ في سبيلِ اللهِ تعالى

قالَ اللهُ عز وجلَّ: ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوْصٌ﴾[1] وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوا فِي سَبِيْلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2] الآيةَ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ ما أوردهُ النَّسائي عن عبدِاللهِ بن أبي أوفى أنَّ النبيَّ عليهِ السَّلامُ قالَ: « اعْلَموا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ »[3] وفيهِ عن مُعاذٍ[4] بن جَبَلٍ أنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: « من قاتلَ في

---

(١) سورة الصف (آية رقم ٤).

(٢) سورة آل عمران (آية رقم ١٦٩) وتكملة الآية ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٧٠.

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ٢٢ باب الجنة تحت بارقة السيوف.
٢٨١٨ حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن موسى ابن عقبة عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتبه قال: كتب إليه عبدالله ابن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله — ﷺ — قال: وذكره. ورواه الإمام مسلم في كتاب الجهاد ٢٠ وكتاب الإمارة ١٤٦ وأبو داود في الجهاد ٨٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٥٤، ٣٩٦، ٤١١ (حلبي).

(٤) هو **معاذ** بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي جليل كان أعلم الأمة بالحلال والحرام وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي — =

سبيلِ اللهِ فواقَ ناقةٍ حُبِيبَتْ لهُ الجَنَّةُ، ومنْ سألَ اللهَ القتلَ من عندِ نفسهِ ثُمَّ ماتَ أو قُتِلَ، فلهُ أَجْرُ شهيدٍ، ومن جُرِحَ جُرحاً في سبيلِ اللهِ أو نُكِبَ نكبةً فإنَّها تجيءُ يومَ القيامةِ كأغزرِ ما كانتْ لونُها كالزَّعفرانِ وريحُها كالمسكِ(١).

= رضي الله عنه، أسلم وهو فتى وآخى النبي ـ ﷺ ـ بينه وبين جعفر بن أبي طالب وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ ـ بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. توفي عام ١٨ هـ. (راجع ابن سعد ٣ : ١٣٠/ والإصابة ت ٨٠٢٩/ وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦/ وحلية الأولياء ١ : ٢٢٨).

(١) الحديث رواه ابن ماجة في كتاب الجهاد ١٥ باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى. ٢٧٩٢ ـ حدثنا بشر بن آدم ثنا الضحاك بن مخلد ثنا ابن جريج ثنا سليمان بن موسى ثنا مالك بن يخامر ثنا معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: وذكره. ورواه أبو داود في الجهاد ٤٠ والدارمي في الجهاد ٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤٤٢، ٥٢٤، ٤ : ٢٨٧، ٥ : ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤٤ (حلبي).

فصلٌ

والشَّجاعةُ في العربِ مشهورةٌ في جاهليّتها وإسلاميّها، وقد كثُرَ تعدادُ ذلكَ في وقائعها، وتكرَّرتْ في الكتبِ والتَّواليفِ أخبارُها. والشَّجاعةُ أيضاً في الفرسِ مشهورةٌ وفي تواليفهمْ وأشعارهمْ مذكورةٌ.

منهمْ بهرامُ جور الملكِ كانَ يصيدُ السِّباع، وكان في الحربِ يقبضُ على الرَّجلينِ فيدُقُّ أحدَهُما بالآخرِ حتَّى يسقُطا قتيلينِ ومن قصَّتهِ في ابتداءِ ملكهِ أنَّ والدهُ يزدْجرد الأثيمَ سلَّمهُ وهو صغيرٌ إلى المنذرِ[1] بنِ النُّعمانِ ملكِ العربِ ليتولَّى تربيتهُ ويخرِّجهُ، ففعلَ ذلكَ، فلمَّا كَبُرَ علَّمهُ الفروسيَّةَ، واللهُ تعالى قد رَكَّبها فيهِ وهيَّأهُ لبلوغِ غايتها، ثمّ جاءَ بهِ إلى والدهِ وعرضَ عليهِ فروسيَّته ورميه وحذقه لحملِ السِّلاحِ، ثمَّ استنطقهُ فوجدهُ فصيحاً فاضلاً بارعاً[2] في الألسُنِ المتداولةِ فأُعجبَ بهِ.

---

(١) هو المنذر بن النعمان، أول المناذرة ملوك الحيرة والعراق تولى بعد أبيه نحو سنة ٤٣١ م، وبنى دير « حنة » في الحيرة، وكان ديراً عظيماً، وفي أيامه حاصر الروم مدينة نصيبين فقهرهم المنذر وزحف إلى سورية فأوغل في أراضيها، ثم زحف يريد القسطنطينية فحدث اضطراب في عسكره فعقد الصلح مع الروم وعاد إلى الحيرة مقر ملكه. توفي نحو ١٥٤ ق. هـ. (راجع ابن الأثير ١ : ١٤٠ ومعجم البلدان « دير حنة »).

(٢) في (ب) كريماً بدلاً من (بارعاً).

وانصرفَ المُنذرِ فبقي بهرامُ عندَ أبيهِ لا يُصرّفهُ[1] في أمرٍ ولا يُوسّعُ عليهِ في نفقةٍ ويحجبهُ ويقصيه ويغضُّ منهُ، فصبرَ حتَّى وردَ رسولُ الرُّومِ إلى يزدجُرد فسألهُ بهرامُ أن يشفعَ لهُ عندَ والدهِ أن يُطلقَ سراحهُ ليعودَ إلى العربِ، فإنَّهُ قد اشتاقَ إليهِمْ، فأذنَ لهُ، فانصرفَ فأقامَ مكرَماً عندَ المنذرِ حتَّى ماتَ والدهُ يزدجُرد، فاجتمعتْ عظماءُ الفرسِ على رجلٍ من أهلِ بيتِ المملكةِ يسمَّى كسرَى فولوهُ عليهمْ لكراهيَّتهم[2] في يزدجُرد لسوءِ سيرتهِ، ولم يريدوا بقاءَ الملكِ على ولدهِ.

فلمَّا بلغَ المُنذرُ ذلكَ أعلمَ بهرامَ وقالَ لهُ: هل تنهضُ لآخذ الملك لك، فإنيّ أجمعُ العربَ وأسيرُ معكَ، فقالَ: إنْ تفعلَ تجزيه، فجمعَ عساكرَ العربِ وسارَ حتَّى أناخَ[3] بمدينةِ ملكِ الفرسِ، فخرجَ إليهِ المرازبةُ والعظماءُ وقالوا لهُ: نحنُ قد أنعمَ اللهُ علينا بالخلاصِ من يزدجُرْد وظلمهِ وعسفهِ[4]، ونخشى أن يكونَ ولدهُ على سيرتهِ، وقد قلَّدنا هذا الملكَ أمورنا، فلا يكُنْ من قِبَلِكَ إلينا شَرٌّ.

فقالَ لهم: اجتمعوا إلى بهرامَ واسمعوا كلامهُ واشرطوا عليهِ ما تريدونَ، فإن اتَّفقَ ما يرضيكمْ وإلاَّ عدتُ، فوعدَهُمْ ليومٍ اجتمعوا فيه لذلكَ، وكانَ المنذرُ قد صنعَ لهمْ طعاماً وشراباً وأجلسَ بهرامَ على تختٍ من وراء حجابٍ[5]، ثم تكاملَ جمعهمْ وفرغَ أكلهُمْ، أمرَ برفعِ الحجابِ والسَّلام عليهِ، فأحسنَ الرَّدَّ عليهم وخطبَهُمْ خطبةً بليغةً فارسيَّةً، ووعدَهُمْ فيها بالجميلِ والخيرِ والفضلِ واتِّباعِ الشرْعِ، ثم قالَ: وأمَّا طلبي المُلكَ فليسَ بمجرَّد

---

(١) في (ب) لا يشركه بدلاً من (لا يصرفه).
(٢) في (ب) بغضهم بدلاً من (كراهيتهم).
(٣) في (ب) نزل بدلاً من (أناخ).
(٤) في (ب) طغيانه بدلاً من (عسفه).
(٥) في (ب) ستار بدلاً من (حجاب).

الإرثِ بل يوضَعُ التَّاجُ والحلْةُ والخاتم بين يدي أسدين ضاريين، وأحضُر أنا وملككم الذي قلَّدتموه، فمن[1] انتزعَ آلةَ المُلكِ استحقّ الولايةَ عليكُمْ فأعجبهمْ ما سمعوهُ من فصاحتهِ وشاهدوهُ من صباحتهِ مع مواعيدهِ الجميلةِ[2]، فاتَّفقوا على أن يفعلوا ذلكَ، فأخذوا التَّاجَ والخاتَمَ والحُلَّةَ ووضعوها بينَ يدي أسدَين مُجَوَّعين معَ خروفٍ مسلوخٍ.

واجتمعَ العظماءُ والمرازبةُ والموابذةُ وأركانُ الدَّولة لمشاهدةِ ذلكَ، فقالَ بهرامُ لكسرى تقدَّم لأخذِ التَّاج فرأى الآسادَ وهيَ تزأرُ فارتاعَ لذلكَ، بل تقدَّمْ أنتَ، فقالَ: نعمْ على خيرةِ اللهِ، وتقدَّمَ وبيدهِ الكُرز الذَّهَب، فقصدَ إلى الحُلَّةِ وأطلق الأسدان من السَّلاسل[3] فقصدهُ أحدُهما، فلمَّا قرُبَ منهُ راوغَهُ ثمَّ وثبَ على ظهرهِ فركبَهُ وعصرهُ بفخذيهِ حتَّى كادَتْ أضلاعهُ تندَقُّ، فقصدهُ الأسدُ الآخرُ فبادرهُ بالكرزِ على أُمِّ رأسهِ فأشغلهُ بنفسهِ، ولم يزلْ ذلكَ الأسدُ الَّذي تحتهُ يقعُ ويقوم، وهو لا يفكُّ فخذيهِ عنهُ ويضربهُ بالكرزِ في دماغهِ حتَّى قتلهُ[4] ثمَّ عطفَ[5] على الآخرَ فقتلهُ فارتفعتِ الضجَّاتُ، واستبشرَ النَّاسُ ودعوا لهُ، ووضعَ التَّاجَ على رأسهِ وجلسَ على تختِ الملكِ باستحقاقٍ.

وكذلكَ قِصَّتُهُ لمَّا مضى إلى الهندِ وقتلَ الفيلَ الَّذي كانَ قَدْ هاجَ واغتلَمَ، وقطعَ الطَّريقَ ولم يَقْدِرْ أحدٌ عليهِ، فخرجَ إليهِ وحدَهُ وضربهُ بسهمٍ بين عينيهِ غلغلهُ في دماغهِ، ثمَّ لم يزلْ يرميهِ حتَّى أجهزَ عليهِ.

ومنهمْ رستُم زال ورماياته المشهورة.

---

(١) في (ب) بزيادة (فمن قدر).
(٢) في (ب) الدقيقة بدلاً من (الجميلة).
(٣) سقط من (ب) لفظ (السلاسل).
(٤) في (ب) قضى عليه بدلاً من (قتله).
(٥) في (ب) هجم بدلاً من (عطف).

ومنهمْ هرمز وأصفهبذ زوبين وبهرام جوبين الَّذي بعثهُ هرمز لحربِ شابة ملك التُّركِ، وقد توغَّل في[1] بلادِ الفرسِ في أربع مائة ألف مقاتل ما بينَ فارسٍ وراجلٍ، فلمَّا انتهى إليهِ واصطفَّتْ عساكرُ الفريقينِ، تقدَّمَ إليهِ بهرامُ متنكِّراً حتَّى قابلهُ، ورماهُ بسهمٍ في جبينهِ خرجَ من دماغهِ، ووقع على الأرضِ، فانكسرَ العسكرُ بذلكَ، وكانتْ رميةٌ مشهورة عجيبة حتَّى زعمتِ الفرسُ أنَّ الملائكة حملتْ نُشَّابةَ بهرام، والتُّرك زعمت أنَّ الجنَّ حملتها لأنَّها رميةٌ خارقةٌ للعادات. وأما هذا فإنَّهُ من عين الغلطِ فإنَّ الملك ما ينبغي له أن يغرِّر بنفسهِ وإن كان أصاب دفعة، فرُبَّما يقع الخطأ دفعات.

وأمَّا هذا المعنى فإن في البلاد الاسماعيليَّة رجال الدَّعوة معدُّونَ لمثلِ هذا، فإنَّ الرَّجلَ منهمْ أو الرَّجلين يُغني عن حركاتِ الجيوشِ الكثيرةِ، ويقالُ لهمْ في بلادهم الإسماعيلية[2]، وفي بلادِ الفرنجِ يسمُّونهمْ الحشيشيَّة، وعند أهلِ الأقاليم الفِداويَّة، وهم قومٌ على دينِ الإسلامِ. وقد كانتْ للملوكِ الإسلاميَّةِ بهم عنايةٌ كبيرةٌ، وفي زماننا عني بهم الملك الظَّاهر رحمهُ الله وسيَّرهم في الأشغال الكبار قضوها مع الفرنج والتَّتار. وكذلك عني بهم الملك الأشرف[3] رحمهُ اللهُ بن الملك المنصور قلاون تغمَّدهُ اللهُ برحمتهِ، وسيرهم أيضاً في مهمَّاتٍ قضوا فيها الأشغالَ وفرَّقوا الجموعَ،

---

(١) سقط من (أ) حرف (في).

(٢) كانت الاسماعيلية هي المنحنى الأكبر الخطير للشيعة الإمامية وإحدى الضربات القاصمة التي وجهت للمذهب الإمامي المتطور إلى اثني عشري.

حقاً إن الاسماعيلية كانت تجد مادتها من الأتباع من شيعة الأثني عشر الذين كانوا يفضلون إماماً حياً ذا حجج ودعاة ويعمل للدنيا عن إمام مختفي في سرداب ينتظرون قيامه بدون أمل كبير، كما كانوا يفضلون عقائده السرية ونظامه الغنوصي أكثر من عقيدة في معظمها ظاهرية تقترب في عباداتها وطقوسها من عقائد أعدائهم اللدد أهل السنة والجماعة (راجع الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢ ص ٥ على هامش كتاب الفصل لابن حزم ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٢ ص ٣٤٧).

(٣) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء.

وذلكَ أنّهُمْ كانوا إذا نُدبوا لأمرٍ بذلوا أرواحَهُمْ فيهِ، وسمحوا بنفوسهمْ، وتلذَّذوا بالموتِ أو السلامة على ما قُدِّر وكان لهم الرَّواتبُ والإنعاماتُ والافتقاد[1] وغير ذلكَ. وكانوا في قلاعهم لا يخرجون منها، ولا يعرفهمْ أحد إلاَّ بعد قضاء الأشغال. وهؤلاء الرِّجال معدُّونَ لمثل هذا الأمر فإنَّ أي جمع اجتمع من الأعداء توجَّه إليهم نفران أو ثلاثة هجموا على مقدّم ذلك الجمع فتلوهُ، فيتحلُّ عقدُ نظامهمْ ويتبدَّدُ شملهمْ، فما عسى أن يكونَ مقدار هؤلاء الرِّجال وبم يجازَوا، فهذا كان بهرام جوبين وفي قلاع الإسماعيلية في زماننا هذا ألفَ بهرام، فيجبُ على الملكِ النظر التامّ إلى هؤلاءِ الطائفةِ والإحسانِ اليهمِ وأجراهم على عوائدهم وندبهُمْ للمهمَّاتِ العائدِ نفعُها على الملكِ والممالكِ.

وأمَّا أصنافُ الشُّجعانِ فكثيرٌ، وقد قيلَ من الأشعارِ في الشَّجاعةِ كثيرٌ بسائرِ الألْسُنِ، فمن ذلكَ بالعربي على سبيل العرضِ قول الشاعر:

أكُـرُّ علـى الكتيبـةِ لا أبالـي ‏ ‏ ‏ ‏ أحتفـي كـانَ فيهـا أم سواهـا

وقولُ عنترة العبسيّ[2]:

وأنـا المَنيَّـةُ حيـنَ يشتجـر القنـا ‏ ‏ ‏ ‏ والطَّعـنُ منّـي سابـقُ الآجـالِ

---

(١) سقط من (ب) لفظ (والافتقاد).

(٢) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد، أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها، وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، وكان مغرماً بابنة عمه (عبلة) فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها، اجتمع في شبابه بامرىء القيس، وشهد حرب داحس والغبراء وعاش طويلاً، وقتله الأسد الرهيص أو جبار بن عمرو الطائي، ينسب إليه ديوان شعر أكثر ما فيه مصنوع. وكان قتله نحو ٢٢ ق. هـ. (راجع الأغاني ٨ : ٢٣٧/ وشرح الشواهد ١٦٤/ وآداب اللغة ١ : ١١٧/ والشعر والشعراء ٧٥/ وصحيح الأخبار ١ : ١٠ و٢١٤).

وكقول السَّموألِ بن عادياء:

وما ماتَ مِنَّا سيّدٌ حتفَ أنفهِ ... ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كانَ قتيلُ
تَسيلُ على حدِّ الظُّباةِ نفوسُنا ... وليسَ على غيرِ السُّيوفِ تسيلُ

وقالَ في الإقدامِ:

ولسنا على الأعقابِ تُدمى كلومُنا ... ولكنْ على أقدامِنا تَقطرُ الدِّما

وقالَ:

ومن عجبي أنَّ السُّيوفَ لديهمْ ... تحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذكورُ
وأعجبُ من ذا أنَّها في أكُفِّهمْ ... تأجّجُ ناراً والأكُفُّ بُحورُ

أخذهُ النّامي[1] فقالَ:

خُلِقْتَ كما أرادَتكَ المعالي ... فأنتَ لمنْ رجاكَ كما يريدُ
عجيبٌ أنَّ سيفكَ ليسَ يَروَى ... وفي حبلِ الوريدِ لهُ ورودُ
وأعجبُ منهُ رمحُكَ حينَ يُسقى ... فيصحُو وهو سكرانٌ يميدُ

---

(١) هو أحمد بن محمد الدارمي المصيصي أبو العباس المعروف بالنامي شاعر رقيق الشعر من أهل المصيصة (على ساحل البحر المتوسط قريبة من طرسوس) نسبته إلى دارم بن مالك (وهو بطن كبير من تميم) اتصل بسيف الدولة بن حمدان فكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والمرتبة، وكان واسع الاطلاع في اللغة والأدب، وله «أمالٍ» و«ديوان شعر» وكانت له مع المتنبي معارضات اقتضاها اجتماعهما في حلب وقربهما من سيف الدولة. مات في حلب عام ٣٩٩ هـ. (راجع ابن خلكان ١ : ٣٨/ ويتيمة الدهر ١ : ١٦٤).

الباب الثالثُ

في الفروسيَّةِ والرُّكوبِ

ينبغي لمنْ أرادَ الفروسيَّةَ إذا كانَ مبتدئاً أن يتدرَّبَ عليها، فأوَّلُ ما يبتدىء بالخفَّةِ في الوثوبِ والنُّزولِ، ثم يتدرَّبَ على ركوبِ الفرسِ العربي العُري بلا عُدَّةٍ سوى الرَّسن، فانَّهُ إذا لم يحكم ذلكَ رُبَّما دهمهُ أمرٌ يعجلهُ عن الإسراجِ والإلجامِ، وتكونُ الخيلُ عندهُ فلا يقدرُ على ركوبها، فيؤخذُ أو يُقتَلُ، فمن عزمَ على ذلكَ فليتَّخذ فرساً عربياً مرتاضاً، فيطرح عليهِ جُلاً ويوثق رباطه في المحزم واللَّببِ، حتَّى لا يميلَ إلى جانبٍ، وليقف عندَ يسارِ الفرس ويضع يدهُ على رأسِ منكبه عندَ طرفِ المعرفة وقد أخذ بها العنان ويثب عليهِ وثوباً مستوياً، ويمَيّلُ ظهرهُ ويجعلُ اعتمادَهُ على شدِّ الفخذينِ، فهو أصلُ الثباتِ. ومن كانَ لا ينهض للوثوبِ فيثبُ على فرسٍ قصيرٍ أياماً حتَّى تخفَّ نهضتهُ، أو يجعلَ الفرس في وهدةٍ ثم يتدرَّج على أعلا من ذلكَ حتَّى يتدرَّبَ ويسهُلَ عليهِ.

ورأيتُ كثيراً من الفرسانِ يثبون على الفرسِ وعليهم الدُّروع أو الجواشن مُلْبَس، فإذا أحكمَ رشاقة الوثوبِ واستواء الجلوسِ حتَّى يبقى كما قالَ المتنبي[1]:

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة (وافية).

فكأنَّها خلقتْ قِياماً تحتهمْ وكأنَّهمْ ولِدُوا على صهواتِها

فلْيتعوَّد المسير ثُمَّ الخبب[1] ثم الجري ثم الطّراد، ويحفظ نفسه عند أوَّلِ جري الفرس وخروجهِ وعند آخر جريهِ ووقوفهِ، فإنَّهُ رُبَّما جمحَ أو جمزَ ورمى بهِ، ولا ينبغي لراكبِ العربيّ أن يركبَ على التّمازينَ ولا على شيءٍ غير مَشدودٍ فإنَّهُ يميلهُ ولا يثبت ويقلق في ركوبهِ، وينبغي أن طرف مقود الفرسِ مشدودٌ إلى عروةٍ في المردِّ الذي على الجُلِّ، وإن كانَ في الحربِ فيجعلها الفارسُ في وسطهِ حتّى إذا سقطَ على الأرضِ بقي الفرسُ معهُ لا ينفلتُ منهُ.

وأمّا الملوكُ وأصحابُ الحربِ فلا تزالُ لهم خيولٌ مسرجةٌ ملجمةٌ[2] بالنَّوبةِ دائماً حذر هجوم أمرٍ بغتةً لا يمكنُ معهُ التّأني. والملوكُ تفعلُ ذلكَ في اللَّيلِ والنّهارِ والحربِ والسّلمِ والسَّفرِ والحضرِ[3]، وهي عادةٌ مستمرةٌ وتُسمّى خيلُ النَّوبةِ، وتوقَفُ في أقربِ المواضعِ من الملكِ.

وأمّا أهلُ الحربِ واليزكيَّةِ والعربِ والتركمان إذا نزلوا في أرضٍ ورعوا خيولَهُمْ وعلموا أنّها شبعتْ ألجموها وأوقفوها ومنهمْ من يتعانى اللّيوان وهو أنفعُ، ولا يمنعُ الرَّعي.

وسمعتُ أن الفارسَ سالمَ بنَ غانم الزّعبي أنَّهُ كانَ يُعلّمَ النّاس الفروسيَّةَ، فيأخذُ جُلاً[4] من شعرٍ فيربِّعهُ على ظهرِ الفرسِ ويشدّ عليهِ حزامَهُ ولَببهُ،

---

(١) الخب ــ بالفتح والكسر ــ: الرجل الخدّاع تقول منه خببت يا رجل ــ بالكسر ــ خِبّاً ــ بالكسر أيضاً ــ والخبب: ضرب من العدو، وبابه رد وخبباً وخبيباً أيضاً.

(٢) سقط من (ب) لفظ (ملجمة).

(٣) في (ب) الإقامة بدلاً من (الحضر).

(٤) الجُلّ: واحد جلال الدواب وجمع الجلال (أجلة) وجُل الشيء معظمه، ويقال ما له دق ولا جل أي ما له دقيق ولا جليل، وجلال الله عظمته، وقولهم: فعلته من جلالك أي من أجلك، والجلالة البقرة التي تتبع النجاسات وفي الحديث:

ثم يقف على يسار الفرسِ والمخصرةُ معلَّقةٌ في يدهِ اليُسرى والعنان أيضاً، ويضع يدهُ اليُمنى على أعلى جاركِ الفرس عند طرف الجُلّ والمعرفةِ، ويتقاصر ويثبُ على ظهر الفرسِ، ويضربُ بيدهِ اليُمنى صفحةَ رقبةِ الفرسِ اليمنى، ثم ينزل ويركب مداراً، ثم ينزل ويضربُ بيدهِ على ظهرِ الفرسِ كالتَّوطئة ويجمزُ فيحصُلُ على ظهرهِ، ثمَّ يغيّر أنواعاً منَ الوثوبِ.

وقيلَ إن التَّقدُّم على ظهرِ الفرسِ خيرٌ من التأخُّرِ، والانحناءَ اليسير عندَ السوقِ خيرٌ من الانتصابِ والميلِ إلى ورائهِ، وليكُن الفارس كأنَّهُ ينظرُ إلى إبهامَي رجليهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ الفروسيَّةِ: من أرادَ الرُّكوبَ بالسَّرجِ فليتَّخذهُ واسِعَ البحرِ أي المجلس، والرِّكاب قصير القرابيسِ واطئة، ولا يمكّن رجليهِ منَ الرِّكابِ، إلى مؤخرها ولا يطرّفها بحيث لا تثبت، بل يتوسَّط ذلك، فإنَّ من انتشبَ ركابه وسقطَ لا تخلصُ رجلاه، رُبَّما كانَ هلاكهُ منهُ، ومَنْ كان متطرّفاً فأيسر حركةٍ تُخرجُ رجلَهُ فيستعدّ بردّها فيضطربُ ركوبهُ، وليقوّ توطئةَ السَّرجِ أعني التَّمازيمَ، ويُقوي لهُ حزامين جياد وثيقينِ ولبباً وبزدنباً جيداً، وإن أمكنهُ تخريم وطاء الرّكاب فليفعَل أو يُلبّدهُ خشيةَ أن تُزلق رجلاه من نعومةِ الحديدِ، أو يصنع عليهِ خشباً فهو أصلح[1]. وينبغي أن يكونَ الرِّكابُ ثقيلاً وسيرهُ عريضاً حتّى لا يتقلقلَ[2] من مكانهِ، وإذا خرجت رِجلُ الفارسِ منهُ لا يزوغُ فعادتْ إليهِ سريعاً بغير طلب.

وأمَّا ركوب الفرس المسرج فيقف الفارسُ على يسار الفرس متأخّراً

= « نهى عن لحم الجلالة » والجليل العظيم.

وفي الحديث « إن قارون خرج على قومه يتبختر في حلة، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيه إلى يوم القيامة ».

(١) في (ب) احفظ بدلاً من (أصلح).

(٢) في (ب) يتنقل بدلاً من (يتقلقل).

عن الرّكابِ، ويضعُ طرفَ[1] قدمهِ اليُسرى في الرّكابِ، ويمسكُ طرفَ معرفةِ الفرسِ بيدهِ اليُسرى، ويدهُ اليمنى في قربوسِ السَّرجِ القُدامي، ويثب راكباً، وبعضهمْ ينسَلّ سلاًّ في الرُّكوبِ والوثبةِ، ويستوي في ظهرِ السَّرجِ جالساً على مقعدهِ سَواءً، ويشدّ فخذيهِ وأوراكهُ. والميلُ في ظهرِ الفرسِ يُعقبُ العقدَ.

وأمّا معائب الرُّكوبِ فمنها قلقُ الفخذينِ في المشي والجري. ومنها الضربُ في أجنابِ الفرسِ في الجري والرفس بالكعبينِ فإنَّهُ يشغلُ الفرسَ عن جريهِ، وانّما الهمزُ أو الضَّربُ عندَ أوَّلِ الإطلاقِ مثل التَّنبيهِ محمودٌ. وأما كثرةُ الانحناءِ والانقعاصِ إلى خلفهِ إلاَّ اليسيرُ منهُ عندَ الإمساكِ وجذبِ العنانِ وتواترُ الضَّربِ فعيبٌ غير محمودٍ، ولا يجبُ فتح المرفقين والاضطراب والالتفات.

(١) سقط من (ب) لفظ (طرف).

فصلٌ
في فضلِ الخيلِ وصفاتِها وشياتها وعلاماتها

قال اللهُ تعالى: ﴿وأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وِالْبِغَالَ وَالحَمِيْرَ لِتَرْكَبُوْهَا وَزِيْنَةً﴾[2] وعن النَّسائي عن ابنِ وهبٍ الجُشمي قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ « ارتبطوا الخيلَ وامسحوا بِنَواصيها وأكفالها وقَلِّدوها ولا تقلِّدوها الأوتارَ، وعليكُمْ بكُلِّ كُمَيتٍ أغرَّ محَجَّلٍ أو أشقر أغرَّ محَجَّلٍ أو أدهَم[3] أغـرَّ محجَّلٍ ». وفي الترمذي عن أبي قتادةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: « خيرُ الخيلِ الأدهَمُ الأرْثَمُ المحجّلُ طلقُ اليمين، فان لم يكُنْ فكُمَتٌ على هذهِ[4] الشِّية. وفي صحيحِ مسلمٍ عن جرير بن عبداللهِ قالَ: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَلوي ناصِيَةَ فرسهِ بأصبعهِ وهو يقولُ: « الخيلُ معقود في نواصيْها

---

(١) سورة الأنفال (آية رقم ٦٠).

(٢) سورة النحل (آية رقم ٨).

(٣) الحديث رواه أبو داود في الجهاد ٤٥ والنسائي في كتاب الخيل ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٤٥ (حلبي).

(٤) الحديث رواه ابن ماجة في كتاب الجهاد ٢٧٨٩ حدثنا محمد بن بشار ثنا وهب بن جرير، ثنا أبي قال: سمعت يحيى بن أيوب يحدث عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح عن أبي قتادة الأنصاري ان رسول الله — ﷺ — قال وذكره.
ورواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٣٠٠ (حلبي).

الخيرُ إلى يوم القيامة الأجرُ والغنيمة»[1]. وعن أبي هريرةَ قالَ: كـانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَكرَهُ الشّكالَ من الخيلِ، والشّكالُ أن يكونَ الفرسُ في رجلهِ اليُمنى بياضٌ وفي يدهِ اليُسرى أو بالعكسِ.

وقد اختُلفَ في الأرجل الّذي يَتطيّرُ منهُ فقيلَ هوَ الّذي يدهُ الواحدةُ بيضاء وهوَ الأشهرُ، وقيلَ: هوَ الّذي رجلهُ بيضاء واللّفظُ يقتضيهِ.

والأعصمُ هوَ الّذي يدُهُ بيضاء. ومن محاسنِ الخيلِ وَشِياتِها ما قالهُ صعصعةُ[2] بن صوحان حينَ سألهُ معاوية بنُ أبي سفيان عن أجودِ الخيلِ فقالَ: طويلُ الثّلاثِ: الأذنُ والعنقُ والحزامُ، قصيرُ الثّلاثِ: الصُّلبُ والعَسيبُ والقضيبُ، عريضُ الثّلاثِ: الجبهةُ والمنخَرُ والوركُ، صافي الثّلاث: العينُ والأديمُ والحافِرُ.

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ١٤ باب ارتباط الخيل في سبيل الله.
٢٧٨٨ حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ثنا عبد العزيز بن المختار ثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره.

(٢) حدث أبو الهيثم قال: حدثني أبو البشير محمد بن بشر الفزاري، عن ابراهيم بن عقيل البصري قال: قال معاوية يوماً وعنده صعصعة بن صوحان العبدي وكان قد قدم عليه بكتاب علي وعنده وجوه الناس: الأرض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي فقال صعصعة:

تمنيك نفسك ما لا يكون جهلاً معاوي لا تأثم

فقال معاوية: يا صعصعة: تعلمت الكلام.
قال: العلم بالتعلم ومن لا يعلم يجهل.
قال معاوية: ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك.
قال: ليس ذلك بيدك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها.
قال: ومن يحول بيني وبينك..؟
قال: الذي يحول بين المرء وقلبه.
قال معاوية: اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير.
قال اتسع بطن من لا يشبع، ودعا عليه من لا يجمع.

وقيلَ: خيرُ الخيولِ ما لا يتعبُهُ شوطٌ ولا يبعثهُ سوطٌ. وقالَ آخرُ يصفُ فرسَهُ فقالَ: لا يفوتهُ طِرفٌ ولا يسبقهُ طَرفٌ.

والأشعارُ في أوصافِ الخيلِ كثيرٌ، والاختصارُ هُنا أجزَلُ.

فممّا قيل في ذلكَ المعنى:

ولقَدْ ركبتُ على أغرّ محَجّلٍ　　　ماءُ الدّياجي قطـرَةٌ مـن مائـهِ
وكأنّمـا لطـمَ الصّبـاحُ جبينـهُ　　　فاقتصّ منهُ فخاضَ فـي أحشائـهِ
لا تعلَقُ الألحـاظُ فـي أعطافـهِ　　　إلاّ إذا كَفكَفْتَ فـي غلوائـهِ
لا يكمُل الطِّرفُ المحاسنَ كلّها　　　حتّى يكونَ الطِّرفُ من أسرائهِ

الباب الرَّابعُ

في الأسلحةِ واستعمالها في الحربِ وصفاتِ الرَّمي وفضلهِ والطَّعنِ والضَّربِ للغزاةِ والحثِّ على الجهاد

قال اللهُ تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقِيْنَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(١) الآية. وقالَ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظةً واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مع المُتَّقِيْنَ﴾(٢) وفي صحيحِ مسلمٍ عن عقبةَ ابنِ عامرٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ على المنبرِ يقولُ: «وأعِدُّوا لهُمْ ما آستَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ألاَ هوَ الرَّميُ، يُكَرِّرُها ثلاثاً »(٣). وفي البخاريِّ عن سلمةَ بن الأكوعِ قالَ: « مرَّ النبيُّ عليهِ السلامُ على نفرٍ من أسلمَ يتناضلونَ،

---

(١) سورة التحريم (آية رقم ٩).

(٢) سورة التوبة (آية رقم ١٢٣).

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ١٩ باب الرمي في سبيل الله ٢٨١٣ حدثنا يونس ابن عبد الأعلى أنبأنا عبدالله بن وهب أخبرني عمرو بن الفرات عن أبي علي الهمداني أنه سمع عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله ـــ ﷺ يقرأ على المنبر وذكره.
ورواه الإمام مسلم في الإمارة ١٦٧/ وأبو داود في الجهاد ٢٣/ والترمذي في التفسير سورة ٨/ والدارمي في الجهاد ١٤/ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٥٧ (حلبي).

فقالَ: ارمُوا بني اسماعيلَ فإنَّ أباكُمْ كانَ رامياً وأنا معَ بني فُلانٍ، قالَ فأمسكَ أحدُ الفريقينِ بأيديهمْ فقالَ عليهِ السلامُ ما لَكُمْ لا تَرمُونَ؟ قالُوا: كيفَ نَرمي وأنتَ معهُمْ؟ قالَ عليهِ السلامُ: ارمُوا وأنا معكُمْ[1] كُلُّكُمْ » وكانتِ المسابقةُ في الرَّمي بسهمٍ واحدٍ ويُحْسَبُ بهِ الإصابةُ فجُعِلَتْ في زَمنِ النَّبيِّ عليهِ السلامُ ثلاثاً يعني السَّابق في الإصابةِ إلى الثَّالثِ هوَ الفائزُ، ثمَّ بَعدَ ذلكَ صارتْ في أربعة إلى أوَّلِ دولةِ بني العبَّاسِ فصارتْ تُحسَبُ بخمسةٍ.

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ٧٨ باب التحريض على الرمي وقول الله عز وجل ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ٦٠ سورة الأنفال.

٢٨٩٩ حدثنا عبدالله بن سلمة حدثنا حاتم بن اسماعيل عن يزيد ابن أبي عبيد قال: سمعت سلمة بن الأكوع ـــ رضي الله عنه قال: وذكره.

ورواه أيضاً في كتاب الأنبياء ١٢ وكتاب المناقب ٤.

فصلٌ
في المراهنةِ وهي في الرّمايةِ وسباقِ الخيلِ أمرٌ مشروعٌ

ولذلكَ صفاتٌ وشروطٌ هي مستوعبةٌ في كتبِ الفقهِ؛ فأمّا صِفَةُ الرَّمي فقالَ مرزَبانُ الرَّامي في كتابهِ: ينبغي للرَّامي إذا قامَ للرَّمي أن يكونَ بينَ رجليهِ من السَّعَةِ بمقدارِ الذِّراعِ، ثم يأخذُ قوساً ليّنةً عليهِ يحكُمُ عليها ويخرجُ منكبيهِ فيمدُّها من غيرِ سهمٍ حتَّى يبسُط شمالَهُ ويُثبّتَ يدهُ اليُمنى على منكبهِ ويُعدّلُ سهمَهُ ويُهدّىء يديهِ، فإذا فعلَ ذلكَ مدَّ بالسَّهمِ الطَّويلِ المجاوزِ لمقدارهِ ليعرف مقدارَهُ منهُ، ويكونُ قيامهُ على رجلهِ اليُسرى عندَ مدّهِ، وتكونُ قبضَتُهُ اليُمنى في الوترِ حذاءَ قبضته اليُسرى في القوسِ، ويكونُ خروجُ منكبهِ الأيمنِ حِذاء خروج منكبهِ الأيسرِ، فإذا أرادَ مدَّ السَّهم من فوقِ شاربهِ الأيمنِ بعدَ بسطِ شمالهِ، وتكون رجلُ القوسِ خارجةً وأعلاها قائمةً، ويكون غمزهُ على وسط القوسِ، ويكونُ إفلاتهُ من جوفِ الوترِ، ويكونُ أصلُ مفصَلِ إبهامهِ عندَ الاستيفاءِ متمكّناً على منكبهِ، فإنَّهُ أقوَى لَهُ على فتلةِ الوترِ عندَ الإفلاتِ وتُسمَّى الغمزَةُ، ويكونُ خروجُ يدهِ اليُمنى مع القبضةِ إلَى فوق فإن استعملَ الخطرةَ بشمالهِ مع النَّفضَةِ بيمينهِ كانَ أصحّ وأصلح.

وينبغي أن يكونَ وضعُ سبّابتهِ على يدهِ معتدِلاً وهو أنْ يكونَ حدُّ

المفصَلِ الأوَّلِ على وسطِ الظُّفُرِ منَ الإبهامِ في أصلهِ من كفِّهِ اليُمنَى، ويكون فوقَ السَّبَّابةِ مع المجرى الَّذي فوقَ اليدِ اليُسرى وزنا بوزنٍ، ويحترزُ الرَّامي أن يضعَ الفوقَ على موضعِ فتلةِ الوتر، فإنَّ النُّشَّابَ يقلقُ ولا يصحُّ، وسبيلُ الرَّامي أن يطلقَ الوتر بفركةٍ معَ تصحيحِ نظرهِ إلى موضعِ الغرضِ، ويجمعُ نظرَ عينيهِ جميعاً من النَّصلِ إلى موضعِ الغرضِ ثم يطلقُ فيُصيبُ ان شاءَ الله تعالى.

فصلٌ
في صفةِ القسيِّ والنُّشابِ

أجودُ القسيِّ ما كثُر قرنُها، وقلَّ خشبُها، وصحَّ لحامُها، واشتدَّ جفافُها، وثقل وزنُها، وقوي حيلُها. والدمشقيَّةُ أجودُ من غيرها، وقدْ يُتَّخَذ من الخشبِ المفرَدِ والقنا قسيٌّ عربيَّةٌ وهي نوعٌ يُحسِنُ الرَّمي بها طائفةٌ[1] من العربِ وقبائلُ السُّودانِ، وكذلك الفرسُ والرُّوم قسيُّهم على أنواعٍ مختلفةٍ. والمغاربةُ والفرنجُ يُعانونَ قسيَّ الجرخِ، وهي أكثرُ نفعِها من داخلِ الصُّور أو في مراكبِ البحرِ، والقسي الجروخ القرن تُصلح للقلاع والعقاقير جميعها خشبَ ما تصلحُ إلاَّ في البحرِ لأنَّ هواء البحر يضرُّ القرن ويفسدهُ والعقاقير الخشب ما تتغيرُ فيهِ. وقليلٌ أن تخطئَ سهامُ الجروخ إذا كانَ الرامي بها عارفاً حاذقاً[2].

وأمَّا النُّشَّابُ فيجبُ أن يكونَ صحيحَ الاعتدالِ والاستدارةِ والفتلِ والثِّقَةِ والخفَّةِ، وطولهُ وقصرهُ على حسبِ مقاديرِ الرَّامي، والرِّيشُ المربَّعُ أو المثلَّثُ، والجناحُ الأيمنُ أخفُّ من الأيسر، والمثلَّثُ التريش أسرع والمربَّعُ أعدَلُ وأصحُّ[3] لكن فيه بطءٌ، وريشُ الذَّنبِ لا خيرَ فيهِ فان اضطرَّ إليهِ فليُخلط مع غيرهِ، ولا يصلحُ إلا للأماجِ والصَّيدِ لليابسِ خاصَّة.

---

(١) في (ب) رجال بدلاً من (طائفة).
(٢) في (ب) بصيراً بدلاً من (حاذقا).
(٣) سقط من (ب) لفظ (وأصح).

فصلٌ في السُّيوفِ

وهي أصنافٌ أجودُها العتيقُ وأصنافُها اليَمانيَّةُ ثم القلعيَّةُ ثم الهنديَّةُ ثم السُّلَيْمانيَّةُ. ومنها الشَّاميَّةُ والخُراسانيَّةُ والآن الَّتي يعانيها النَّاسُ القَلاجوريَّةُ، ومنَ السُّيوفِ اللَّيِّنَةُ الفرنجيَّةُ وهي على أصنافِ اللَّمانيَّةُ وبُرْدَلِيَّةُ وانكَبَرْدِيَّةُ وغير ذلكَ.

ومن علاماتِ السُّيوفِ اليمانيَّةِ العُتُق الَّتي طُبعتْ في الجاهليَّةِ ثقبان في سُنْبلِ السَّيَلانِ، وثُقْبُ السُّنْبلِ من إحدى جهتَيْهِ أوسعُ أو متَساويتانِ، ووسطهُ أضيقُ، ومنها المحفورةُ وهوَ الَّذي شطبةٌ شبيةٌ بالأنهارِ وقد حُفِرَ بمبرَدٍ مُدَوَّرٍ، ومنها حَفْرٌ مُرَبَّعٌ، ومنها ذُو شُطبٍ، وقَلَّما تسلَم اليمانيَّةُ من العروقِ المفتوحَةِ، وقدْ توضَعُ عليها تماثيلُ أو يُكْتَبُ عليها ويُصَوَّرُ عليها صورَةٌ لتُخْفي ذلكَ، وهذهِ السُّيوفُ أكثرُ قطعها في اللَّينِ فإذا صادَفَت الحَديدَ أو اليابسَ انقصفَتْ بخلافِ السُّيوفِ الإفرنجيَّةِ فإنَّها تقطَعُ الصَّلابَ من العظامِ وتبري الحديدَ على قدر جودَتِها وجودَةِ سقايتها.

فصلٌ في التُّرْسِ

ولا ينبغي أن يَدخُلَ في حربٍ بسيفٍ إلاَّ ومعهُ تُرس إلاَّ عن ضرورةٍ. والتُّرسُ على أصنافٍ، كلُّ صنفٍ منها يصلحُ لشيءٍ، فمنها المسطَّحُ والمستطيلُ المحفَّرُ الوسط، ومنها المقبَّب المنحني الأطرافِ إلى خارجٍ، وهذا النَّوعُ لا يُلقى بهِ الرُّمحُ لأنَّهُ متى طُعِنَ ثبت الرُّمحُ فيهِ وصرعَ صاحبهُ، وإنَّما يصرعُ النُّشَّاب والحجارة والسَّيف والمستطيل يُلقى بهِ النَّاشِب لا رأسَهُ يستر رأسَ الفارس وطولهُ يقيه لأنَّهُ ينظر بإحدى عينيه من التحصيرِ، ولا يكشفُ رأسهُ والمسطَّح يلقى بهِ الرُّمح، ويكون نظرُكَ من جانبِ التُّرس الى العدوّ واحذر من كثرةِ الضَّرب في غير وقتهِ، ولا يضربِ من الخصمِ إلاَّ الموضع الَّذي لا سلاحَ فيهِ، وعليك بالأطرافِ، فقليلُ الجراحِ منها كثيرٌ، ولا يضعُ الضَّربَ في الدَّرقِ والتِّراسِ، فرُبَّما نبا السَّيفُ أو نُشب أو التوى، ولا تبدأ الأعسر بالضَّربِ فيظهر عليكَ إن أخطأتَ، بل اصبر حتى يبدأكَ ثم الحقهُ واعلمَ أنَّ أصلَ المثاقفةِ الرَّوغان فأحكمه، وقد قيلَ: يحتاجُ المثاقفُ أن يكونَ أروغَ من ثعلبٍ، وأثقف من هرٍّ، وأحملَ وأحذرَ من سلحفاةٍ[1]، وأخطف من حدأةٍ. وإذا قابلتَ فاجعل الَّذي يقاتلكَ عن

---

(١) السلحفاة: ــ بفتح اللام ــ واحدة السلاحف قاله أبو عبيدة، وحكى الرواس سلحفية مثل بلهنية وهي بالهاء عند الكافة، وعند ابن عبدوس السلحفاة بغير هاء، وذكرها يقال له غيلم، =

يمينك واقطع ما تجري معهُ يدكَ إليكَ وأنفذهُ ما تردُ يدكَ إلى خلف قبله.

= وهذا الحيوان يبيض في البر فما نزل منه في البحر كان لجأة، وما استمر في البر كان سلحفاة، ويعظم الصنفان جداً إلى أن يصير كل واحد منهما حمل جمل، وإذا أراد الذكر السفاد والأنثى لا تطيعه يأتي الذكر بحشيشة في فيه من خاصيتها أن يكون صاحبه مقبولاً، فعند ذلك تطاوعه، وهذه الحشيشة لا يعرفها إلا قليل من الناس، وهي اذا باضت صرفت همتها إلى بيضها بالنظر إليه، ولا تزال كذلك حتى يخلق الله تعالى الولد منها. وربما تقبض السلحفاة على ذنب الحية فتقطع رأسها وتمضغ من ذنبها قال الشاعر في وصفها:

لحا الله ذات فم أخرس
تطيل من السعي وسواسها
تكب على ظهرها ترسها
وتظهر من جلدها رأسها
إذا الحذر أقلق أحشاءها
وضيق بالخوف أنفاسها
تضم إلى نحرها كفها
وتدخل في جلدها رأسها

فصلٌ في الرُّمح

طرائقُ حركاتِ الرُّمحِ وتصرُّفاته كثيرةٌ وكتبُ السِّياسةِ والفروسيَّة مشحونةٌ بذلكَ، واللّعبُ به في الميادينِ وبين يدي الملوكِ غير التَّحرُّكِ بهِ في الحروبِ. أمَّا المواجهةُ فهيَ أن تحملَ على مبارزكَ وقد أخذتَ الرُّمح تحت إبطكَ وجعلتهُ بينَ أُذنَي فرسكَ وتقصدَهُ مستوياً حتَّى تقربَ منهُ، فإن رأيتهُ قد طرحَ رمحهُ يمنةً فاطرح رمحكَ يسرةً، وإن طرح يسرةً فاطرح رمحكَ يمنةً، واجهد أن تبدأ بالحملِ عليهِ وأنت مسدّدٌ، وتحوّلُ الرُّمحِ يمنةً ويسرةً كي تدهشهُ فلا يدري من أينَ تجيئه، فإذا دنوتَ منهُ دخلتَ عليهِ من الخللِ الَّذي لا يكونُ رمحهُ فيهِ، وإذا أردتَ أن تبتدىء بالخروج فتأخذ أسفلَ الرُّمح بيدكَ اليمنى ورأسهُ إلى الهواء وهو على عاتقكَ الأيمن، وتحملُ على قوَّتكَ وأنتَ كذلكَ، وإن شئت قربت منهُ حتَّى لا يدري من أيِّ وجهٍ يلقاك، ثم تنظرُ من أين يطرح رمحَهُ فتطرح أنتَ منَ الجانبِ الخالي، وإيَّاك أن تطرحَ رمحكَ وتسدّدهُ من جانبهِ إلاَّ إن علمتَ أنَّ رمحكَ أطولُ، ويسمَّى المواصلةَ، وهي خطأٌ في العمل فاحذرهُ.

والمواجهةُ الخراسانيَّةُ أن تحملَ فإذا دنوتَ من مبارزكَ فاجعلْ أسفلَ الرُّمحِ تحتَ إبطكَ الأيمن، وأبشر بيمينكَ وارفعها حتَّى تصيبها الرُّمح قدَّام يدكَ اليسرى فتوهمهُ أنَّكَ تنقل، ثم تَرُدُّ يدكَ سرعةً إلى أسفل الرمحِ فإنَّهُ ينقلُ إلى ميامنهِ، فتلقاهُ بسرةً، وإنَّما يتهيأ لكَ هذا المكرُ بحذقكَ بعنانِ فرسكَ.

وإن خرجتَ إلى فارسين وتفرَّقا فاحملْ على الأدنى وإذا كانا قريبين فأري أحدهُما أنّكَ تريدُ رفيقهُ واحملْ عليهِ ولا تتم حملتك، ثمّ اعدلْ على الآخر فاصدقهُ الحملةَ وإن حذقا ورأيتهما يفترقان عليك فتطرَّف، ولا تتوسَّط، واحمل على الأدنى إليكَ، فإنْ تساويا فأدهِش الأضعفَ واحملْ على الأقوى، فإن تساووا وكانوا جماعةً فامتدّ أمامهم حتّى يتبعوك، ثم تكرّ على الأدنى منكَ فتطعنهُ.

وان دخلتَ مضيقاً فيلقاكَ فارسٌ برمحٍ فإيّاكَ والمصادمةَ بل انزل إلى الأرض واطعنه، وإن كان خلفكَ فارسٌ وقدّامكَ في مضيقٍ فانزلْ وتحيَّل، واقصُد أقربهما إليكَ وتترّس من الآخر بدابَّتكَ، واربُطْ في طرفِ اللّجامِ مستعاناً طويلاً تحفظ بهِ الفرس إلى حين حاجتك إليهِ، واحذق التَّعطيلَ وهو أن تعارضَ رمحهُ عندَ دنوّهِ منكَ فتعطّلهُ عن الطَّعنِ، واجعل رمحكَ فوقَ رمحِ خصمكَ، وإذا تمكَّنتَ فاضربهُ وبطِّلهُ، وإن كانَ رمحكَ تحتهُ وأخطأتَ صار رمحكَ إلى الأرضِ وتعطّل.

والفتلُ أن تفتلَ الرُّمحَ وتدفعه برمحكَ وتدخلُ فتطعنهُ. وبعضهمْ يعطِّل الرُّمحَ بالمقرعةِ وبالدَّبوسِ، وإذا كانَ في رمحكَ علمٌ فاحذر أن يغطّي وجهك أو وجهَ فرسكَ، فإنَّ الرّيحَ يفعلُ ذلكَ فتدبّرهُ أولاً واجعلهُ من ناحيةٍ لا يضرُّكَ، فان غلبكَ الرّيحُ فاطرحهُ على عاتقكَ وافتلَ العلمَ عليهِ فإنّهُ يُنقّص قوّتهُ، وبالجملةِ إنّهُ معوّق غيرَ مفيدٍ، وإذا أراد الوثوبَ يأخذ رمحهُ بيدهِ اليمنى وقربوسَ السّرجِ بيُسراهُ، ويتّكئُ على الرُّمحِ ويثب يصيرُ في السَّرجِ مستوياً.

الباب الخامس

في ولاية المدن والأمصار

ولاية المدينةِ هي الرُّتبةُ الأُولى من السِّياسةِ العُظمى فيجبُ على والي المدينة أو صاحبها أن يكونَ فيهِ منَ السِّياسةِ والحفظِ والضَّبطِ وحسن التَّدبير ما هو مذكورٌ في الآدابِ الملوكيَّةِ ثم يصرفُ همَّتهُ إلى التَّحصين(١) والاشتغال بهِ، وهو الأهمُّ من تعليةِ الأسوارِ وحفرِ الخنادقِ وسدِّ الثُّغرِ، وقطعِ المواضعِ المشرفةِ عليها، وسدِّ المساربِ النَّافذةِ نحوها، وترتيب الرِّجالِ بأبراجها والحُرَّاسِ على أسوارها، والطَّوف بطرقاتها وحفظ أبوابها، وتوكّل الثِّقات بحفظها. وإن كانَ البلدُ صغيراً فيقلّل أبوابها كيفَ أمكنَ ويحفظُ دروبها ورباعها ولا يهملُ أمرها، فإن الملكَ في مدينتهِ أو قلعته كالرَّجُلِ في منزلهِ، ولا ينبغي أن يتركَ في المدينةِ أهلَ التعصُّبِ والأهويةِ فمنهُ منشأ الفتنِ.

وكانت ملوكُ الفرسِ تمنعُ من الانتسابِ إلى القبائلِ لهذا السَّببِ، وكان أكثر غرضهم تأليفَ أهلِ المدينةِ على نظامٍ مستقيمٍ وهو الأسوسُ والاصلحُ،

---

(١) في (ب) إقامة الحصون بدلاً من (التحصين).

فإنَّما يحتاجُ الى التجَمُّع وأمَّا انتسابُ أهلِ البراري والفلواتِ فلحماية بعضهم عن بعضٍ وتعطُّف بعضهم على بعضٍ. والعصبيَّةُ في المدنِ تؤدّي إلى خرابها والاستيلاءِ على ملوكها وكثيراً ما خرُبتْ بلادٌ بالمشرقِ مثلُ أصبهان[1] والريّ وغيرها بالتَّعصُّبِ في المذاهبِ والآراءِ.

وقالَ بُزُرجُمهُر[2]: كلُّ جمعٍ غير جمعِ السُّلطانِ وكلّ سيفٍ غير سيفهِ فهو عليهِ لا لهُ، وعليهِ قهرهُ وزوالهُ.

وكذلكَ يمنعُ أهلَ البلدِ من البطالةِ فإنَّها تدعو إلى الشُّرورِ والإفساد، بل يجبُ أن كل طائفةٍ تنعكفُ على شغلٍ من الأشغال أو فنٍّ من المصالحِ العائدة نفعها عليهم وعلى المدينة. قيلَ لمَّا فتح كسرى أنو شروان[3] مدينة

---

(١) منهم من يفتح الهمزة وهم الأكثر، وكسرها آخرون منهم السمعاني وأبو عبيد البكري الأندلسي. وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها.

قال ابن دريد: أصبهان اسم مركب لأن الأصب البلد بلسان الفرس، وهان اسم الفارس، فكأنه يقال بلاد الفرسان، وقال عبدالله: الأصب بلغة الفرس هو الفرس وهان كأنه دليل الجمع، فمعناه الفرسان، والأصبهاني الفارس، وقال حمزة ابن الحسن: أصبهان اسم مشتق من الجندية. والله أعلم.

(٢) كان وزير أبرويز، والغالب عليه، والمدبر لأمره، حكيم من حكماء الفرس والده (البختكان) فلما علا من ملكه ثلاث عشرة سنة اتهمه بالميل إلى بعض الزنادقة من الثنوية، فأمر بحبسه وكتب إليه: كان من ثمرة علمك ونتيجة ما أداك إليه عقلك أن صرت أهلاً للقتل، وموضعاً للعقوبة.

وأغرى أبرويز ببزرجمهر فدعا به وأمر بكسر أنفه وفمه، فقال بزرجمهر: فمي لأهل لما هو شر من هذا.

فقال أبرويز: ولم يا عدو الله المخالف..؟

فقال: لأني كنت أصفك لخواص الناس وعوامهم بما ليس فيك وأقربك من قلوبهم، وأرفع من محاسن أمورك ما لم تكن عليه اسمع مني يا شر الملوك نفساً وأخبثهم فعلاً أتقتلني بالشك وترفع به اليقين الذي قد علمته مني من التمسك بالشريعة من ذا الذي يرجو عدلك ويثق بقولك ويطمئن إليك...؟ فغضب أبرويز وأمر به فضرب عنقه.

(٣) هو كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز ملك ثمانياً وأربعين سنة، وقيل سبعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر.

انطاكيةَ أحضَر المهندسينَ وأمرهُم بالنَّظر إليها وتصويرها، ثم أمرَهُمْ ببناءِ مثلها بالعراقِ، فبنوها بالنَّهروانِ بالقربِ من باذرايا، ثمَّ لمَّا حملَ السَّبيَ إليها انطلقَ كلُّ واحدٍ إلى مثلِ منزلهِ ودُكَّانهِ لم يتغيَّر عليهِ شيءٌ، وكانت هذه من عجائبِ أعمالِ كِسرى.

ويجبُ على والي البلدِ من المصالحِ أن ينظرَ في تحسينها وتزيينها فيأمرُ بعمارِ ما فيها من خللٍ وخرابٍ، فالخرابُ موتٌ والعمارةُ حياةٌ، فينبغي لواضعها ومرتِّبها أن يُفردَ كلَّ سوقٍ على جدَّتهِ حتَّى لا تتجاوزَ الصَّنائعُ الخسيسةُ مع الصنائعِ النَّفيسةِ، وإن كانت المدينةُ كبيرة فلا بدّ من تفرقةِ بائعِ الطعامِ على مواضع كثيرةٍ لأن الحاجةَ إليهِ متكرِّرةٌ فيشُقُّ على أهلها التَّردّدُ إلى ذلك.

ويتقدَّمُ بأن تكونَ أربابُ الصّناعاتِ القذرةِ في أطرافِ البلدِ بمعزلٍ عن المواضعِ المتوسّطةِ منها، وذلكَ مثلَ المسالخِ والمدابغِ ومسابكِ الزُّجاجِ والحديدِ وأتاتين الجيرِ والآجرّ وعمل الصَّابون وما أشبهَ ذلكَ.

وينظر في توسعةِ رحابها وتعليةِ ساباطاتها وسقائفها ولا يمكّن أحداً من تضييق الطُّريقِ وإحداثِ ما يضرُّ بالمارَّةِ.

ويولّي الحسبةَ لمنْ يثقُ بدينهِ وأمانتهِ وهيبتهِ، فينظرُ في أمرِ الموازين والمكاييل، ويضبطُ أمورَ الرّعيَّةِ من الباعةِ وأصنافِ السُّوقةِ، ولا يمكّنهمْ من ظلم أحدٍ، ويعاقبُ من اطّلعَ لهُ على غشٍّ أو وَكسٍ.

وينظرُ في تنظيف الطُّرقِ والرّحابِ منَ الأوساخِ والأقذارِ إن كانت

= وقد كان قباذ خلع من ملكه وأجلس بدله أخ له يقال له جاماسب نحواً من سنتين لأمر كان من مزدك وأصحابه، فظاهر أنو شروان بزرجمهر بن سرخو حتى أعيد قباذ إلى ملكه في خبر طويل.

ولما ملك أنو شروان قتل مزدك وأتبعه بثمانين ألفاً من أصحابه وذلك بين جاذر النهروان من أرض العراق، فسمي من ذلك الوقت أنو شروان، وتفسير ذلك جديد الملوك.

وجمع أهل مملكته على دين المجوسية ومنعهم النظر والخلاف والحجاج في الملل.

من بيتِ المالِ أو يأمر كلَّ قومٍ بإصلاحِ ما يليهم، ويتفقَّدُ حالَ المياهِ وصيانتها، ولا يمكِّن من إفسادها بالأرواثِ ولا بالمصبَّاتِ والقُنى والأسرابِ، لأنَّ الماءَ مادَّةُ الحياةِ، فإذا فسدَ فسدتِ الأجسادُ لما تكسبُها من الأمراضِ وتغيُّرُ الأنفسُ والأخلاقُ على ما يذكرهُ أربابُ الطبِّ والطَّبائعِ. ويتبعُ فسادَ المياهِ فسادُ الأبخرةِ والأهويةِ المحيطة بالأجسامِ.

ويتقدَّم بإصلاحِ القناطِرِ وفتحِ المسالكِ وحفظِ ظواهرها وضواحيها وأمنِ مسالكها من القُطَّاعِ والسُّرَّاق. كلُّ هذا من الحقوقِ اللازمةِ على الملوكِ في مدنهم.

ويتقدَّم بإصلاحِ المساجدِ وعماراتها، والقيامِ برواتبها ومصالحِ قومتها ومجالسِ الذِّكرِ وينظرُ في فنادقِ السُّبيلِ وقنيهِ والبيمارَسْتَان ومنازل الفقراء.

ويتقدَّم بإصلاحِ ما فسدَ وتجديدِ ما دثرَ ويتفقَّدُ حال الضُّعفاء والفقراءِ والعاجزينَ عن التَّكسُّبِ والبطَّالين، فيُفرضُ لهمْ ما يقوم بأودهِمْ.

كلُّ هذا بعد ترتيبِ الولاةِ وتقليدِ الكفاةِ مثلَ القاضي والوالي والمحتسب وعرفاء الأسواق وأُمناء الصُّناعات والمقدمين وشيوخ الدُّروب وأصحابِ أرباع. كلُّ ذلكَ من ضوابطِ البلدِ ولوازمها.

الباب السَّادسُ

في ولايةِ الثُّغور وحفظها

قد وردَ في الرِّباط والمثاغرةِ من الفضل والثَّوابِ ما يَطولُ بشرحهِ الكتابُ.

في البخاري عن سهلِ بن سعدٍ أنَّ النبيّ ﷺ قالَ: «رباطُ يومٍ في سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدُّنيا وما عليها»(١) وذكرَ باقي الحديثِ. وفي الترمذي عن فضالة بن عبيد عن النبيّ ﷺ: «كلُّ ميّتٍ يُختمُ عملهُ إلاّ الّذي ماتَ مرابطاً في سبيلِ اللهِ فإنَّهُ ينمي عملهُ إلى يومِ القيامةِ»(٢).

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الجهاد ٧٣ باب فضل رباط يوم في سبيل الله وقول الله عز وجل ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اصْبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا واتَّقوا اللهَ لعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٢٨٩٢ حدثنا عبدالله بن منير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله بن دينار عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال وذكره. وباقي الحديث (وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها).

ورواه الإمام مسلم في الامارة ١٦٣/ والإمام النسائي في الجهاد ٣٩/ وابن ماجة في الجهاد ٧/ والدارمي في الجهاد ٣١/ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٦٢، ٦٥، ٩٦ (حلبي).

(٢) الحديث رواه الإمام الترمذي في كتاب فضائل الجهاد ٢ باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً ١٦٢١ ــ حدثنا أحمد بن محمد أخبرنا عبدالله بن المبارك أخبرنا حيوة بن شريح =

والَّذي يجبُ على الملكِ الفاضلِ أن يصرفَ معظمَ عنايته الى حفظِ الثّغورِ وضبطها؛ فإنَّ من أهملَ ذلكَ دخلَ على ملكهِ ورعيَّتهِ الخللُ والهلاكُ.

وكانَ بعضُ ملوكِ الفرسِ يقول لحاجبهِ: « لاَ تحجُبْ عنّي رسولَ الثّغرِ(1) وإن كنتُ نائماً أيقظني ليلاً أو نهاراً ».

وليُكثر في الثّغرِ من الشُّجعانِ وذوي البصائرِ في القتالِ وأهلِ الحميَّةِ والأنفةِ والدّينِ المتين؛ فبمثل هؤلاءِ تُصانُ الثّغور، ثم يُكثرُ لهم الدُّروعَ والخوَذَ والرِّماحَ والسُّيوف والقِسيَّ والجروخَ والدَّرقَ والتِراسَ وجميعَ آلاتِ الحربِ والزياراتِ والمناجنيق، ويُرتِّبَ الحُرَّاسَ على الأبراجِ والحُفّاظَ للشُرفاتِ ليلاً ونهاراً، ويحتاطُ في فتحِ الأبوابِ وفي غلقها، فلا يكون في وقتِ الغَلسِ، ولا يهملُ أمرَ ظواهرهِ وضواحيهِ منَ الطّلائعِ وإرصادِ العيونِ من جهَةِ العدوِّ لئلاَ يهجم عليهِ ويطرقُ ثغرهُ وهو غافلٌ.

ثم يُوسِّعُ في نفقاتهم، ويدخرُ أقواتَهُم، ويزيح أعذارهمْ في ذلكَ، وكذلكَ الكسواتِ وجميعِ الآلاتِ. ويحسنُ إلى واليهمْ ومقدّميهمْ، ويرفعُ قدرهمْ، ويؤلّفُ بينَ كلمتهمْ على المصالحِ العائدة نفعها في حراسةِ ثغرهمْ وحفظهِ.

كانَ كسرى أنو شروانَ لا يوَلّي الثّغورَ إلاّ لمنْ جاوزَ الأربعينَ من ذوي الشُّهامةِ والرأي والشجاعةِ والحميَّةِ، ويخلع عليهمْ في كل سنةٍ مرَّتينِ ليُعلمُ مكانتهمْ عندَهُ، فتنفُذُ أوامرُهُمْ وخلعتهُ كسوةٌ تامّةٌ وسلاحٌ تامٌّ وقوسٌ وعلمٌ وخيمةٌ.

= قال أخبرني أبو هانيء الخولاني أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال: وذكره.

قال الترمذي: وفي الباب عن علقمة بن عامر وجابر وحديث فضالة حديث حسن صحيح.

ورواه أبو داود في كتاب الجهاد ١٥/ والدارمي في الجهاد ٣٢/ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٤٦، ١٥٠، ١٥٧، ٦ : ٢٠ ه (حلبي).

(١) الثغر ما تقدم من الأسنان، وهو أيضاً موضع المخافة من فروج البلدان. والثغرة: الثُلمة.

وينبغي أن يتفقّدَ السِّلاحَ في كلِّ سنةٍ، فيرمُّ منهُ ما تشعَّث، ويجدّدُ ما عتُقَ، ويعوّضُ ما نقصَ، وكذلكَ جميعَ الآلاتِ، ويتفقّدُ أهلَ الثّغرِ بالكسواتِ، والنّفقاتِ، ويرتّبُ لهم الأطباءَ والجراحينَ وما يحتاجونَ إليهِ من الأدويةِ والأشربةِ والذخائرِ من سائرِ الأصنافِ. ويحذَرُ كل الحذرِ أن يكسر لهمْ جامكية شهرٍ وشهرٍ يدخل عليهِ الخَلَلُ ويفسدُ حالُ أهلِ الثّغرِ ويعاملوا عليهِ إن كانَ.

الباب السّابع

في الحروبِ وصفاتِها وما ينبغي لأهلها ووُلاتِها وصفةِ المصافّ

الحروبُ هي عوارضُ من حوادثِ الزّمانِ كالأمراضِ، كما أنَّ الأمنَ والسّلامةَ كالصحّةِ للأجسادِ، فيجبُ حفظُ الصحّةِ بالأمورِ السّياسيّةِ، وفي وقعِ المرضِ بالأمورِ الحربيّةِ والاشتغالِ بحفظِ الصحّةِ حتّى لا يؤدّي إلى مرضٍ أولى من إهمالِ ذلكَ.

وأحزمُ الملوكِ مَنْ لم يلتمسْ أمرَ عدوّه بالقتالِ ما وجدَ إلى غيرهِ سبيلاً فإنّ النفقةَ في القتالِ من الأنفُسِ والأرواحِ وهو عسيرٌ غير مستخلف. وغيرهُ النّفقةُ من الأموالِ والأعمالِ والعلومِ، فليكُنْ أمرُ السّائس على ما ذكرناه.

قالَ معاوية بنُ أبي سفيانَ: « إنّي لا أضعُ سيفي في موضعٍ يقومُ فيهِ سوطي، ولا أضعُ سوطي في موضعٍ يقومُ فيه كلامي مقامهُ ».

والإقدامُ على الحروبِ تكونُ لسبعةِ أغراضٍ:

أوّلُها لإنشاءِ دولةٍ.

والثّاني لتقريرِ دولةٍ نشأت.

والثَّالثُ وثوبُ دولةٍ عادلةٍ على دولةٍ جائرةٍ، وهو قتالُ البغاة والخوارج.

والرَّابعُ حربُ بينَ أهلِ الملَّتينِ وهو الغزاةُ.

والخامسُ ضمّ دولةٍ ومملكةٍ إلى دولةٍ أخرى كانتا عادلتين أو جائرتين.

والسَّادس حربُ فتنةٍ وسلبٍ من غير تقريرِ ملكٍ ولا نظام أمرٍ ولا تحيُّزٍ إلى فئةٍ.

والسَّابع حروبٌ تقعُ بينَ القبائل وأهل العصبات على أسبابٍ ضعيفةِ المبنى مجهولةِ الغرضِ، مثل الحروبِ المتقدمةِ في الجاهليّةِ على فرسٍ أو ناقةٍ، وحروب أهلِ الجبالِ والكردِ والتُّركمان، ولكلّ واحدٍ من هذهِ الحروبِ قوانينُ وصفاتٌ وأوضاعٌ، نشرحُ منها ما يمكنُ الاختصارُ فيهِ في صفةِ حروبِ الغُزاةِ والخوارجِ والبُغاةِ.

فصلٌ

والَّذي يجبُ تقديمهُ أنَّ الملكَ أو والي الحربِ يجبُ أن يتخيَّرَ ذوي الشَّجاعة والحميَّةِ وأهلِ الدِّينِ والعصبيَّةِ، فيُوظِّفَ لهمْ الوظائفَ، ويوسع عليهم النَّفقات، ويحسن إليهم بما يقومُ بصالحِ شأنهمْ ونفقاتهمْ لعيالهمْ ودوابهم، والقيامِ بمصالح خدمهم وأتباعهمْ وسلاحهمْ وكراعهمْ، ثم يؤمّر عليهمْ من أهلِ لغتهمْ من جادت سياستهُ وحسُنتْ سيرتهُ وأُمنتْ غائلتهُ، ثمَّ يزيدُ تقديمهُ وإحسانهُ لمن ظهرتْ شهامتهُ ورجحتْ بسالتهُ، وكان صبرهُ وثباتهُ أكثرَ من تهوُّرهِ وإقدامهِ، فإنَّ ذوي الجُرأةِ والإقدامِ يتورَّطونَ في المهالكِ والأهوالِ، فيجبُ أن يكونوا تابعين لا متبوعينَ. قالَ المتنبّي:

الـرأيُ قبـلَ شجاعـةِ الشُّجعـانِ ... هـوَ أوَّلٌ وهـي المحـلُّ الثَّانـي
فـإذا هُمـا اجتمعـا لنفسٍ حُـرَّةٍ ... بلـغتْ مـن العليـاءِ كـلَّ مكـانِ

وينبغي للملكِ أن ينصبَ لأهلِ الحربِ قصَّاصاً وخطباءَ يذكّرونهم الحربَ والوقائعَ الماضية، والغزوات السَّالفة، ومواقع الشُّجعانِ ومصارعَ الفرسانِ، وما وعدَ اللهُ للشهداءِ والمجاهدينَ من الثَّوابِ في دارِ النَّعيمِ، وإن أمكنَ الوالي أن يفعلَ ذلك بنفسهِ فلا بأس فإنَّهُ ممَّا يؤلِّفُ الهمم ويُقوّي العزائمَ ويشدُّ نفوسَ أهلِ الحربِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلى الْقِتَالِ﴾[1].

وقلَّما كانَ عليهِ السلامُ يعزمُ على حربٍ إلاَّ ويخطبُ أصحابهُ، وكذلكَ الصحابَةُ والتَّابعينَ وإن خرجَ الملكُ بنفسهِ إلى الحربِ فليبعث الجواسيسَ ويحقّق أمرَ العدوِّ وما هو عليهِ، ليقدمِ على خبرةٍ وبصيرةٍ، فإذا فهمَ أمرَ عدوّه واطّلعَ على كنهِ حالهِ ومدارِ سياستهِ وتدبيرهِ، فليُقابلْ ذلكَ بما يقتضيهِ، وإن أمكنهُ السَّعي في تفريقِ كلمةِ أصحابهِ فليجتهدْ في ذلكَ فهو الأصلحُ، فإن عجز عن استصلاحهمْ أو تفريقهمْ واقتضى الحالُ الحربَ، فليُرتِّب أصحابَهُ وليُعبّىء جيوشه ويأمر كلَّ أميرٍ بحفظِ مركزهِ وصيانةِ طلبهِ، ويرتّب الطَّلائعَ من جهةِ العدوِّ ويتقدَّم على تعبئتهِ، فإذا قربَ اللّقاء فلا يهمل أمرَ الشَّمسِ ويجتهد أن تكونَ في وجهِ أعدائهِ، وكذلكَ الرّيحُ.

كان النبيُّ عليهِ السلامُ يفعلُ ذلكَ في حروبهِ، وقد انتظرَ زوالَ الشَّمسِ في كثيرِ غزواتهِ، ثم قاتل، وإن أمكنهُ أن يتجنَّبَ المواضعَ الكثيرةَ الغبارِ والسّباخِ والمواحلِ والوعرِ فعل، ويتحرَّزُ من قربِ المواضعِ الّتي يتوقَّعُ منها خروجُ الكمينِ إلاَّ بعدَ البحثِ والكشفِ، فإنَّ الكمينَ وإن قلَّ عددهُ إذا خرجَ على عسكرٍ كثيرٍ بدَّدهُ.

ويجبُ على الملكِ قبلَ الحربِ الفحصُ عن الأرضِ ومكامنها وحفائرها ومخايضها وطرقها ومناهلها ومعاطشها، ليكونَ على بصيرةٍ بمن معهُ إن كانت الكرَّةُ لهُ أو عليهِ، وإذا دخلَ إلى أرضِ العدوِّ فليتحفظ مِن المضائق والدَّربَنْدات فربَّما مُسكتْ لهُ أواخرُها أو أوساطُها. أمَّا أوّلها فلا يُمسكُها ويَسُدُّها إلاَّ الضَّعيفُ العاجزُ الَّذي غايةُ مقصودهِ ردّ خصمهِ وكفاية شرّهِ وضرّهِ.

فإن دعتِ الضَّرورةُ إلى ذلكَ وجازَ المضائقَ بعدَ كشفها وإحاطةِ العلم

(١) سورة الأنفال (آية رقم ٦٥) وتكملة الآية: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾.

بخلوّها عمنْ يحاربُ بها، فينبغي للملكِ أن يشحنها بالرّجالِ الأنجادِ ويتركهمْ بها يحفظونها إلى حين عودهِ كاسراً أو مكسوراً، إلاّ أنْ يكونَ لهُ مسلكٌ آخر فلا يحتاجُ إليها.

ثم يجتهد في دخولهِ أرض العدوّ منَ التّهجُّمِ على شربِ مياهِ الآبارِ والغُدرانِ والأحواضِ، فربّما كانت مسمومةً، ولذلك علاماتٌ يُعلمُ بهِ من تغيير لونهِ أو طعمهِ أو ريحهِ أو صعودِ هالةٍ على وجههِ كالقشرةِ أو غليانٍ وحركةٍ تكونُ فيهِ، فإذا أحكمَ ذلكَ وعلمهُ فليبادر إلى المنهل قبلَ سبق عدوّه إليهِ فيظماً، وربّما كان العطشُ أحد أسباب الهلاكِ، وكذلكَ يحتفظُ بالمناهلِ إذا كانَ عودهُ إليها لئلا يعقبهُ بعدهُ من يفسدُها، فإذا عادَ وهو ظمآن لا يجدُها. وكما قلنا أنّهُ يحترزُ من قلّةِ المياهِ ومضرّتها، فكذلك يحترزُ من كثرتها، فربّما كانتِ الطّريقُ على سباخٍ وأرضٍ رخوةٍ وفتحتِ المياهُ إليها فيهلكُ من يتوسّطها. كلُّ هذا ينبغي لوالي الحربِ أن يفعلهُ وينظر فيهِ ويعلم تفاصيلهُ، كما يجب على المريض تقدمةُ المعرفةِ بموادّ تفاصيل المرضِ وأسبابهِ وبحارينهِ والعوارض الّتي تتوقّعُ فيهِ وإنذاراتهُ قبلَ علاجهِ ومُداواتهِ.

فصلٌ
يتضمَّنُ نصائح حربيّة سياسية من كلام ملوكِ الفرسِ واليونانِ وحكمائهمْ.

قال **ماجاسَبُ**: أُصلُ الحربِ استشعارُ الظَّفرِ وتقريرهِ في النَّفسِ حتّى إنَّ الفريقينِ إذا استشعروا ذلكَ اشتدَّت الحربُ وتكافأتِ، فليقُل الملكُ لخواصّهِ وأركانِ جيشهِ ما يُقوّي بهِ مُنَّتهُمْ، ولينصب الوعّاظ والمذَكّرينَ لخطابتهم، بما تقوى بهِ نفوسُهُمْ، ويُشعرهُم النّصر، فيتشجّع الجبانُ وينشط الكسلان ويُقوّي عزيمةَ الشّجاعِ. وإذا كانَ العدوّ من أهلِ الترفُّه والتّنعُّمِ، كانَ قتالهمْ أسهلُ، ويُسلّطُ عليهم الأشقياء أهلُ الجفاء والجوعِ والتّعبِ، فالقليلُ فيهم يُبيدُ الكثير سيما أن أُطمعوا بالاستيلاء على أموالهم ونعمهم، فإنَّ ذلكَ يزيدُ في حرصهم وتسلُّطهم. وإذا كانت الحربُ بقربِ جبلٍ أو بحرٍ أو نهرٍ فمل إليهِ. أمّا الجبلُ فلعلَّكَ أن تستظهر بهِ لحصانتهِ. وأمّا النّهرُ فللعطشِ أو لمنعِ العدوّ منهُ إذا كانَ النّهرُ فيهِ مسلكٌ أو مخاضةٌ أو مركبٌ أو قنطرةٌ، وإلاّ فالبعدُ عنهُ وعن البحرِ أولى لأنَّ الاضطرار إليهِ أحدُ الهالكين، ومن دخلَ إلى أرضِ العدوّ فليكثر منَ الزّادِ والماءِ وان لم يحتجْ إليهِ، فإنّهُ على غررٍ من حصولِ شيءٍ منهُ، وقد يضطرُّ إلى المقامِ بها والتوغُّل فيها، وإذا رأيتَ الرّقّةَ والضَّعفَ من العدوّ فانظُر هل يُمكن أن يكونَ وراءهُ قوّةُ كمينٍ أم لا..؟ ثم اجعلْ الحملةَ عليهِ واصدمهُ لتخلِّلهُ عن موضعهِ فإذا أردتَ جذبهُ إليكَ فأضعف موضعاً من عسكركَ وكمّن

لهمْ وجنّح، فإذا صدموهُ فأطبق عليهم، وقد يتحيَّل مقدّمُ الجيشِ بأن ينصبَ أعلاماً على رؤوس الجبالِ والرَّوابي وحولها من سواد العسكر ودوابهم ممَّا يوهمُ أنّ وراءها مدَداً كثيراً، فيقعَ الرُّعبُ في قلبِ العدوِّ، ولا يقدرُ على الدُّنُوِّ من تلكَ النَّواحي.

وهكذا فعلَ طاهر بنُ الحسين[1] لمَّا لقيَ علي بن عيسى[2] أخذَ قافلةً صحبتهُ من التّجار، واستدعى جماعةً من الفلاحينَ وأهلِ القرى، فوكَّل بهم من يحفظهمْ ويرتّبهمْ على رؤوس الجبالِ، ونصبَ عليهم الأمراءُ ومعهم الأعلامُ والكوساتُ، فلمَّا عاينتْ أصحابُ علي بن عيسى ذلكَ ضَعُفت نفوسهم، وتقدَّمَ إليهم طاهرٌ فصدمهمْ وكسرهُمْ، وقتلَ عليّ بن عيسى وظفِرَ بسوادهِ وسارَ إلى بغدادَ، وكانَ من أمرهِ ما كانَ.

وقالَ أهلُ السِّياسةِ إذا حضرتِ الحربُ ولم يكنْ منها بُدٌّ فالمبادرةُ إليها أولى من الاشتغالِ بالدّفعِ.

---

(١) هو **طاهر** بن الحسين بن مصعب الخزاعي أبو الطيب وأبو طلحة من كبار الوزراء والقواد أدباً وحكمة وشجاعة وهو الذي وطد الملك للمأمون العباسي. ولد في بوشنج من أعمال (خراسان) وسكن بغداد فاتصل بالمأمون في صباه، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد، ولما مات الرشيد وولي الأمين، كان المأمون في مرو، فانتدب طاهراً للزحف على بغداد فهاجمها وظفر بالأمين وقتله سنة ١٩٨ هـ وعقد البيعة للمأمون فولاه شرطة بغداد ثم ولاه خراسان سنة ٢٠٥ هـ. وكان في نفس المأمون شيء عليه لقتله أخاه « الأمين » بغير مشورته ولعله شعر بذلك فلما استقر في خراسان قطع خطبة المأمون يوم جمعة فقتله أحد غلمانه في تلك الليلة، وقيل مات مسموماً عام ٢٠٧ هـ. (راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٣٥/ والبداية والنهاية ١٠ : ٢٦٠/ وابن الأثير ٦ : ١٢٩/ والطبري ١٠ : ٢٦٥/ وشذرات ٢ : ١٦).

(٢) هو **علي** بن عيسى بن ماهان من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين العباسيين. وهو الذي حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير وولاه إمارة الجبل وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد فخرج من بغداد في ٤٠ الف فارس، فلقاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الري فقتل ابن ماهان، وانهزم جيشه عام ١٩٥ هـ. (راجع النجوم الزاهرة ٢ : ١٤٩/ والبداية والنهاية ١٠ : ٢٢٦/ والكامل لابن الأثير ٦ : ٧٩).

ومن استقرأ أحوالَ الماضينَ وحروبَ المتقدّمينَ علمَ أن البدرةَ لمن بدرَ في أغلبِ الأحوالِ.

من ذلكَ قصّةُ بهرام[1] جور وهي من عجائبِ السِّيَرِ، لمّا قصدهُ خاقانُ الأكبرُ ملكُ التُركِ في مائتي ألف فارس، ودخلَ أرضَ الفرس يستبيحها ويطوي ممالكها، بعثَ إلى بهرامَ جور وهو يومئذٍ بالعراقِ أن أصلح ما قبلكَ من الطُّرقِ والجسورِ والأنهارِ فإنّي أريد الوصولَ إلى العراقِ، وكان بهرامُ مشتغلاً باللّهوِ واللّذّةِ معَ ندمائهِ وجواريهِ، فاجتمعت عظماءُ الفرسِ إليهِ مرّةً بعدَ مرّةٍ ينهّضونَهُ ويحرّكونَهُ ليتداركَ ما دهمهُ وهوَ لا يزيدهمْ غيرَ الوعد والتّسويفِ، ويقولُ في أثناء كلامهِ: إنّ ديننا هو دينُ الحقّ، وإنّ اللهَ تعالى عوّدنا النّصرَ ووعدنا أن لا يخذلنا، ثم ينعكفُ على شأنهِ ولذّتهِ، فاجتمعَ العظماءُ وتشاوروا وقالوا: هذا رجلٌ نائمٌ مغرورٌ ولا مطمعَ في فلاحهِ، ومن المصلحةِ أن نكاتبَ هذا الجبّار خاقان ونصانعهُ على خراجٍ نحملهُ إليهِ من بلادنا ونستكف شرّهُ وتسلم البلادُ من مضرّتهِ، فإنّهُ ان وطىء البلادَ أخربها بممرّهِ فيها، فضلاً عن أخذِ أموالها وسبي ذراريها وهلاكِ أهلِها، ففعلوا ذلكَ وبعثوا إليهِ بالهدايا والتُّحفِ وبمن يقرّرُ لهمْ ذلكَ معهُ، فطمعَ خاقانُ وتوسّطَ بلاد الفرسِ، وأطلقَ خيلهُ ترعى في المروجِ، وجلسوا

---

(١) كان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: تسع عشرة سنة، وملك وهو ابن عشرين سنة.

وقد كان خرج في أيامه خاقان ملك الترك، وشنّ الغارات في بلاده، فجيش الجيوش إليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد، فهابته الملوك، وهادنه قيصر وحمل إليه الأموال.

وكان نشوءه مع العرب بالحيرة، وكان يقول الشعر بالعربية، ويتكلم بسائر اللغات، وكان على خاتمه مكتوب: بالأفعال تعظم الأخبار.

وله أخبار في أخذه الملك بعد أبيه وتناوله التاج والراية وقد وضعا بين سبعين، ومن شعره:

أقول له لما فضضت جموعه
كأنك لم تسمع بصولات بهرام
فإني حامي ملك فارس كلها
وما خير ملك لا يكون له حام

يأكلونَ ويشربونَ، والرُسلُ تردُ عليهمْ، والأموالُ والهدايا والإقاماتُ تتواصل إليهم.

ثم إنَّ بهرامَ أظهرَ أنَّهُ يريدُ الخروجَ إلى الصَّيدِ في البريّةِ، وأنّهُ يغيبُ عشرةَ أيامٍ وما يزيدُ عليها بنواحي أذرنجان، ثم يريدُ أن يزورَ بيتَ النار التي بها وهي لهمْ حجٌّ، فتخيَّلَ للنَّاسِ أنَّهُ يريدُ الهروبَ ويعلّلُ بهذهِ العللِ، فاختارَ من عسكرهِ تسع مائة فارسٍ، وجعلهم ثلاثةَ أقسامٍ: قسمٌ هو فيهِ، وقسمٌ وراءهُ، وقسمٌ أمامهُ. وأخذَ معهُ من الجوارحِ وآلاتِ الصَّيدِ ومن الزَّادِ والأطعمة وأخذ معهُ صناديقَ وفيها من الأسلحةِ والدُّروعِ ما لم يشعر بهِ أحدٌ.

وظنَّ النَّاسُ أنَّ أموالهُ فيها وتحقَّقوا هروبَهُ، واستخلفَ مكانه أخاهُ نرسي، وسارَ بهرامُ مع عسكرهِ المنتخبِ، والأدلاء في غيرِ الطَّريقِ المعروفةِ، وجدَّ في السَّيرِ لا يلوي على شيءٍ، حتَّى قربَ من الأرضِ الّتي فيها خاقانُ على غير الجادّةِ، وهو غاوٍ غافِلٌ قد طغى ولها بما طمعَ من الاستيلاءِ على البلادِ، وببذل الفرس لهُ الخراجَ والهدايا، فضمَّ بهرامُ أصحابهُ وخطبهمْ خطبةً بليغةً، قالَ فيها: إنّي لم ادّخرْتكمْ لهذهِ الحالةِ واعلموا أن بيننا وبينَ الترك كذا وكذا، وإني مبيِّتُهُم فإنَّهم باغين علينا عاصين لربِّنا، فاركبوا على اسمِ اللهِ وخيرتهِ، وسيروا على أطلابكمْ مع أدلّائكمْ، والعلامةُ بيننا كذا وكذا، فاحملوا بحملتي، واظهروا بعلامتي، واصدقوا القتالَ، فالنَّصرُ وعدهُ صادقٌ.

ثمَّ سارَ في جماعةٍ من البازداريَّة وأمرهمْ أن يترقَّعوا على رؤوسِ الجبالِ، فإذا سمعوا الوقعةَ نشروا الأعلامَ وضربوا الطبول ليظنّوا أنّها عساكر أقبلتْ، وأخلى لهمْ ناحيةَ الهروب، فصبّحهم قبل السّحر وهم نيامٌ عراةٌ، ودوابُّهمْ سارحةٌ في مراعيها، فوضعَ فيهم السَّيفَ والقتلَ، فقاموا مذعورينَ وتهاربوا على وجوههم، وهربَ خاقانُ، واستولى بهرامُ على أموالهِ وأثقالهِ ومن كانَ

معهمْ من الحريمِ، والَّذينَ هربوا تاهوا في الطرقِ، وهلكَ أكثرهمْ في المعاطشِ وبالجوعِ، وعادَ بهرامُ إلى بلادهِ مظفَّراً منصوراً، والفرسُ في خجلٍ منهُ، وكانتْ هذه تُعدُّ من عوالي الهممِ وعجائبِ السَّعاداتِ.

فحقيقٌ لمنْ تكلَّفَ أمراً من أمورِ الحربِ أن يتركَ اللَّذَّةَ واللَّهوَ، ويشتغلَ فيما هو بصددهِ حتَّى ينقضي أمرهُ.

كانَ المنصورُ(١) في مدَّةِ خروجِ أولادِ الحسنِ عليهِ قطعَ اللذَّةَ والشَّرابَ، وكذلكَ الرَّشيدُ والمأمونُ والمعتصمُ وجميعُ الحزمةِ من الملوكِ إذا دهمهمْ أمرٌ اعتزلوا ذلكَ حتَّى النِّساءَ كما قيلَ:

قومٌ إذا حارَبُوا شَدُّوا مآزِرَهُمْ   دونَ النِّساءِ وَلَوْ باتتْ بِإِظهارِ

وأمَّا امرؤ القيسِ(٢) فأخذ على نفسه عهداً ألا إنَّهُ لا يشربُ خمراً ولا

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن علي العباسي أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان عارفاً بالفقه والأدب مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء. ولي الخلافة بعد أخيه السفاح سنة ١٣٦ هـ، وهو باني مدينة بغداد وجعلها دار ملكه، وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وكان بعيداً عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، وله تواقيع غاية في البلاغة. وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً. توفي ببئر ميمون من أرض مكة محرماً بالحج عام ١٥٨ هـ. يؤخذ عليه قتله لأبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ.

أمه بربرية تدعى سلامة. وكان نقش خاتمه (الله ثقة عبدالله وبه يؤمن). (راجع ابن الأثير ٥ : ١٧٢/ والطبري ٩ : ٢٩٢/ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٢٤ و٣٢٩).

(٢) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الاطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد نحو ١٣٠ ق. هـ. كان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر.

ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب، فقال: رحم الله أبي ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر، ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد. مات نحو ٨٠ ق. هـ. (راجع الأغاني ٩ : ٧٧/ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ١٠٤/ والشعر والشعراء ٣١).

يغسلُ رأسهُ حتّى يأخذَ بثأرِهِ من بني أسدٍ، فلمّا جمعَ لهمْ وكسرهمْ ونهبهم وقتلهمْ قال:

حلّتْ لي الخمرُ وكنت امرأً عن شربها في شغلٍ شاغلِ
فاليومَ أشربْ غيرَ مستحقبٍ إثماً من اللهِ ولا واغلِ

فصلٌ
في المصافّ وتعبئةِ العساكرِ للحربِ

يستحبُّ لوالي الحربِ أن يكونَ في عسكرهِ جماعةٌ من الشُّجعانِ، غرضهمْ لغرضهِ وسرورهمْ بالظّفرِ كسرورهِ، متدرّبينَ عارفين بالأمورِ الحربيَّةِ، وأنفسهمْ من القتلِ والهربِ في غايةٍ من البعدِ، فيعوّلُ على هذه الطائفة ويقدّمهمْ ويجعلهمْ مقدّمي أجنحته واطلابهِ، فإن الملكَ الحازم كثير المنفعةِ. وأكثر ما أتيت العساكر من نقصِ رؤسائها والتجربةُ في ذلكَ كثيرةٌ.

ثم إنّ العساكرَ لا تخلو من الأوباشِ والجبناءِ وهمْ بمنزلةِ الحشوِ، والقليلُ منهم يكثّرُ السّوادَ ولا يضرُّ، والكثيرُ يعودُ على الجيشِ مضرّتهمْ لأنهمْ بأوّلِ صدمةٍ يهربونَ ويكسرونَ من جاورهمْ ومن وراءهمْ لا محالة، ويعجز الشُّجاعُ عن الثّباتِ على تلكَ الحالةِ.

فينبغي أن يكونَ الى جانبِ الملكِ العسكر المعوَّلُ عليهِ وفي القلبِ والملكُ والأعلامُ والأثقالُ على جنبٍ، ثم إنَّ الواجبَ أن يخفي الملك مكانهُ يوم الحربِ حتّى لا يقصدهُ العدوُّ ولا يقع الفتك بهِ، بل ينتقل من موضعٍ الى آخرَ ويرتّب أصحابهُ، والأخبارُ والرُّسل تأتي إلى نائبهِ تحتَ العصائبِ، وهو يردف كلّ مكانٍ كثر العدوّ فيها بطائفةٍ من عساكرهِ.

وأمّا الأجنحة فتكونُ أهلَ دربةٍ ومخبرةٍ بالحروبِ، والطّلائعُ تكونُ أصحابُ الخيولِ السُّبقِ والرّمي والخفّةِ في الطّرادِ والمقابلةِ، والسّاقةُ وأهلُ القلبِ

يجبُ عليهم الثّباتُ والصّبرُ والجَدُّ، وأهلُ الحربِ يتناصحونَ فيها بهذهِ الأسبابِ أو لبعضها، وهي الدّين والحميّةُ والتّعصُّبُ أو القرابةُ أو الصحبَةُ المتقدّمةُ أو النعمةُ الوافرةُ والإحسانُ والإطماعُ لبعضِ الناس، وأمّا بالخوفِ أو بالتّكليفِ أو بالأجرةِ الغير مرضيّةِ، فلا يكادُ تكونَ مناصحة.

وينبغي أن يحتاط في تكثير السّلاحِ واستعدادِ الجنائبِ وكثرةِ السّهامِ، ولا يهملُ أمرَ المياهِ والأشربةِ، فإن العطش ليسَ معهُ صبرٌ ولا حربٌ، وكثيرٌ ما كُسِرَت العساكرُ بسببهِ، من ذلك كسرة حطّين حينَ نصر اللهُ الإسلامَ على الكافرينَ، كانَ من أقوى أسبابهِ العطش؛ فإنَّ المسلمينَ حالوا بينهم وبين بحيرة طبريّة(١) والوقتُ صائفٌ وهم مليسينَ، فعطشوا وفُني ما كانَ معهمْ من الماءِ فأُخذوا بأسرهمْ.

ولا يهملُ أمرَ العلوفاتِ وتسهيلَ الطُّرقِ والإقاماتِ وترتيبها في المنازلِ وحملِ ما تدعو الحاجةُ إليهِ منها، فرُبّما أمكن المطاولةَ في الحربِ فيحتاجُ أن يكونَ معهُ ذخائر.

وأمّا تسميةُ العسكرِ بالكتيبةِ فلانتظامِ بعضهِ على بعضٍ كالكتابةِ، وقد ذُكر في الكتاب العزيز: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾(٢).

وإذا كثُرَ في العساكرِ الأثقالُ والحشو والضُّعفاء فينبغي أن يُفردوهمْ

---

(١) قال الأزهري: هي نحو من عشرة أميال في ستة أميال، وغور مائها علامة لخروج الدجال، وروي ان عيسى عليه السلام إذا نزل بالبيت المقدس ليقتل الدجال عندها يظهر يأجوج ومأجوج وهم أربع وعشرون أمة لا يجتازون بحي ولا ميت من إنسان إلا أكلوه ولا ماء إلّا شربوه، فيجتاز أولهم ببحيرة طبرية فيشربون جميع ما فيها، ثم يجتاز بها الأخير منهم وهي ناشفة فيقول: أظن أنه قد كان ههنا ماء، ثم يجتمعون بالبيت المقدس...الخ. (راجع معجم البلدان جـ ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢).

(٢) سورة الصف (آية رقم ٤).

عن الجيشِ في مكانٍ بعيدٍ من التّناولِ قريب من التّحصينِ ويوَكّلُ بهمْ من أُمرائهِ من يُدبّرهمْ ويَحفظهمْ.

ولا ينبغي للملكِ العظيمِ أن يباشرَ الحرب بنفسهِ ففيهِ خطرٌ عظيمٌ، فإن ظفرَ كان متهوّراً وان ظُفِر بهِ هلكَ بسببهِ خلقٌ كثيرٌ بأيسرِ تعبٍ، وخرِبت البلادُ واتّسعَ الفسادُ لأنّهُ كالرّأسِ للجسدِ بل كالرُّوحِ لها، ولهذا قالَ أفلاطن[1]: « الملكُ هو نفسٌ لجسدِ الجيشِ فينبغي أن تكونَ إليهِ الأُمورُ النّفسانيّةُ من التّدبيرِ في نظامِ الجيوشِ، فيكون إليها ما يتعلّقُ بهِ من السّعي والبطشِ والحركات الجسدانيّةِ، ويكون هو المحرّكُ لها ».

وكانَ بعضُ الملوكِ يجلسُ على السّريرِ والنّاسُ حولهُ يقاتلونَ بين يديهِ.

صفةُ تعبئةٍ للحربِ: الفرسُ تَصُفُّ الجيشَ صفًّا وبينهُ مواضع مفتوحةٌ كالدُّروبِ، وتكونُ الرجّالة أمامهُ، والنّاشبةُ تتقدّمُ للمناوشةِ فيصلُ الى العدوّ ثم يعود وقد كرّت عليها، فإذا وصلت الجماعة خرجت عليها تلك ثمّ تتدانى الصُّفوفُ وتترامَى وتتطاعنُ، ثم يشتدّ القتال والضّربُ فيتجالدونَ بالسُّيوفِ.

تعبئةٌ أخرى يرتّب الطُّليعة أمامَ الجيشِ ثمّ يقسمهُ على ستّةِ أقسامٍ متباعدة عن بعضها بعضٍ متميّزةً، منها جناحانِ عن اليمينِ وجناحانِ عن الشّمالِ، والقلبُ في الوسطِ، ووراءهمُ السّاقةُ، وفيهِ من السّوادِ والطُّبولِ وما لا بُدّ

(١) أفلاطون: أحد أساطين الحكمة من اليونانيين وكان فيهم كبير القدر، مقبول القول، أخذ الحكمة عن فيثاغورس، وشارك سقراط في الأخذ عنه إلا أنه بقي خامل الذكر الى أن مات سقراط، وحينئذ نبه ذكره وذاع صيته وصنف كتباً كثيرة مشهورة ذهب فيها إلى الرمز والاغلاق، وقد ظهر جماعة من تلاميذه الذين تخرجوا على يديه وساروا بانتسابهم إليه، وكان يعلم الفلسفة وهو ماش فسمي الناس فرقته (المشائين). وعنه أخذ أرسطو وخلفه بعد موته. ويقال إن أفلاطون توفي في السنة التي ولد فيه الاسكندر، وكان ملك مقدونية يومئذ فيلبس والد الإسكندر. وعاش أفلاطون احدى وثمانين سنة (تاريخ الحكماء ١٧).

منهُ من الأثقالِ، وإن أمكنَ أن يكونَ أمامَ كلِّ طلبٍ رجّالتهُ فلا بأسَ بهِ أوّلاً، فإنَّ موضعهمْ أمامَ القلبِ، وتتقدّمُ الاقجيّةُ ويتأرّش القتالُ ثمّ الرّامحةُ ثم المجالدةُ بالسُّيوفِ.

تعبئةٌ أخرى: تصطفُّ الرَّجّالةُ وراءها ثلاثةُ صفوفٍ من الخيّالةِ، وبعضهمْ يجعلها سبعة، والآخرةُ همْ الرُّماةُ بالنُّشابِ، ويكونُ كل صفٍّ كالسُّورِ المانعِ لمنْ أمامهُ، فيشتدُّ القتالُ ولا يمكنُ الهروبُ. وهذا تفعلهُ بعضُ قبائلِ التُّركِ.

والغلبةُ والنّصرُ يكونُ بالتّدبير الإلهيّ، وقد سبّبَ لهُ أحدَ الأسبابِ: إمّا كثرةُ العددِ والعُدَدِ، أو جودةُ النيّةِ والفروسيّة وحسن المعرفةِ بها، والشّجاعةُ وهي الكيفيّةُ، أو الصّبرُ والثّباتُ أو الحيَلُ والمكايدةُ، وقد نطقَ القرآن بفوائدِ الصّبر قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ﴾(1) الآية.

ومتى كانَ جيشُ العدوّ كثيراً وصفوفهُ ممتدّة فمنَ الرأي بمحاربتهِ تفريق عسكرهِ أطلاباً تحيطُ بهِ من جهاتٍ متفرّقةٍ وتواعدهُمْ على الحملةِ أن اقتضتْ أو المزاحفة أو المصابرة حسبَ ما يقتضيهِ رأي الوقتِ، فإنّهُ يؤدّي إلى انتقاضِ ترتيبِ عسكرِ عدوّهِ، وذلكَ، أنَّ الصفَّ الواحدَ أو الصفّينِ لا يفي بمقابلةِ طلْب يكونُ قبالتهُ فيضطربُ لذلكَ، وفي الأطلابِ والكراديسِ لا تظهرُ القلّةُ وفي الصفوفِ يظهرُ، ثم عندَ اللقاء يضربُ الطُّبولَ والكوسات والأبواقَ، وينشرَ الأعلام.

وقد كانَ ملوكُ اليونانِ يتحيّلونَ بطبولٍ مفزعةٍ وقماقم صَيّاحةٍ صياحاً منكراً موحشاً، وبأعلام فيها تماثيل هائلةٌ وألوانٌ مختلفةٌ تدخلُ فيها الريحُ فتجفلُ الخيلُ منها.

ولمّا كسرَ ملكُ الهندِ لذي القرنينِ في أوّل حروبهِ لم يكنْ سببهُ سوى

---

(1) سورة الأنفال (آية رقم 65) وتكملة الآية: ﴿وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذينَ كَفَروا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهونَ﴾.

هروب الخيلِ من الأفيلةِ، فلمَّا عادَ الإسكندر أمرَ أن يصوّرَ في عسكرِهِ صور الأفيلةِ من اللُّبودِ السُّودِ وغيرِهَا، وقرّبَ الخيل إلى تلكَ الصُّوَر وأنَّسها بها وبحركتها، ثم عاد إلى قتالِ الهندِ فكسرهمْ. وينبغي أن يتّخذ الكُمناء ويحترز منهمْ أن يكونَ لهمْ كمينٌ، فاذا تبعهمْ خرجوا عليه.

قالَ أرسطاطاليسُ[1]: « حبِّب إلى أعدائكَ الهروب ولا تتبعهمْ ». وقالَ في وصاياه الحربيَّةِ: « احذرْ من انتقاصِ التَّعبئةِ وكيدِ المُستأْمنةِ ».

وقالَ أبو مسلم الخُراساني[2]: « عوّل على ثلاثةٍ من رجالِ الحربِ: إمَّا محامٍ عن دينهِ متعصّبٌ في اللهِ، وإمَّا غضّ الدَّولةِ موقوراً، وإمَّا محامٍ عن الحريمِ ».

وقالَ عُتبةُ[3] بنُ ربيعةَ لأصحابهِ لمَّا رأى قتالَ أصحابِ النبيِّ ﷺ: « أما تَروهمْ خُرساً يتلمَّظونَ تلمُّظ الحيَّاتِ ».

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الأول.

(٢) هو **عبد الرحمن** بن مسلم مؤسس الدولة العباسية وأحد كبار القادة. ولد في ماه البصرة عام ١٠٠ هـ عند عيسى ومعقل ابني ادريس العجلي ورباه إلى أن شبّ، فاتصل بابراهيم ابن الإمام محمد من بني العباس فأرسله ابراهيم إلى خراسان داعية، فأقام بها واستمال أهلها ووثب على ابن الكرماني (وآل نيسابور) فقتله واستولى على نيسابور، وسلم عليه بإمرتها فخطب باسم السفاح العباسي (عبد الله بن محمد) ثم سيّر جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد (آخر ملوك بني أمية) وانهزمت جيوش مروان الى الشام وفر مروان إلى مصر فقتل في بوصير، وزالت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ، وصفا الجو للسفاح إلى أن مات. وخلفه أخوه المنصور فرأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع بالملك فقتله عام ١٣٧ هـ. (راجع ابن خلكان ١ : ٣٨٠/ وابن الأثير ٥ : ١٧٥/ والطبري ٩ : ١٥٩/ وميزان الاعتدال ٢ : ١١٧/ ولسان الميزان ٣ : ٤٣٦).

(٣) هو **عتبة** بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل خطيباً نافذ القول. نشأ يتيماً في حجر حرب بن أمية، وأول ما عرف عنه توسطه للصلح في حرب الفجار (بين هوازن وكنانة) وقد رضي الفريقان بحكمه، وانقضت الحرب على يديه. أدرك الإسلام وشهد بدراً مع المشركين، وقتله علي بن أبي =

والصّياحُ المختلف وهنٌ، وفي بعضِ الأوقاتِ يؤثّرُ. وكان شبيبُ الحروريّ لهُ صِياحٌ هائلٌ عندَ الحروبِ. وللفرسِ في حروبها أصواتٌ هائلةٌ مزعجةٌ تفزعُ لمن لا يعهدها إذا سمعها. ولبعضهم في وصفِ عظمِ الصّوتِ:

إنْ صاحَ يوماً حسبت الصّخرَ منحدراً والرّيح عاصفة والموج يلتطمُ

وإيّاكَ أن تقلّدَ الأمرَ جباناً ولا تجعلهُ على الأجنحةِ فإنّهُ يخذلُ أصحابهُ بما يشاهدونه من هلعهِ وجبنهِ.

وفي البُخاري عن أنسٍ قالَ: كان النبيّ عليهِ السلام يقولُ: «اللّهُمّ إنّي أعوذُ بكَ منَ الهمّ والحزنِ والكسلِ والجُبنِ وضَلعِ الدّينِ وغلبةِ الرِّجالِ»[1].

وفي سُنَنِ أبي داوُدَ عن أبي هُريرةَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «شَرُّ ما في الرَّجُلِ شحٌّ هالعٌ وجبنٌ خالعٌ»[2].

وينبغي أن يقرّرَ مع أصحابهِ علامةً يفهمونَ بها بعضهم من بعض غيرهم.

= طالب والحمزة وعبيدة ابن الحارث عام ٢ هـ. (راجع الروض الأنف ١ : ١٢١/ ونسب قريش ١٥٢).

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الدعوات ٣٦ باب التعوذ من غلبة الرجال.

٩٣٦٣ حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا اسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبدالله بن حطب أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله — ﷺ — لأبي طلحة: التمس لنا غلاماً من غلمانكم يخدمني فخرج أبي طلحة يردفني وراءه فكنت أخدم رسول الله — ﷺ — كلما نزل، فكنت أسمعه يكثر أن يقول: وذكره. ورواه الإمام مسلم في الذكر ٤٩ — ٥١، ٧٣/ وابن ماجة في الدعاء ٣/ وأبو داود في الوتر ٣٢/ والترمذي في الدعاء ١١٣/ والنسائي في الاستعاذة ٣، ٥، ٨، ١٢، ١٣، ٣٥، ٣٧/ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٢، ٥٤، ١٨٣، ١٨٦ (حلبي).

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد ٢١/ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٢، ٣٢٠ (حلبي).

وفي النّسائي عن علي بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنهُ قالَ: كان سيمانا يومَ بدرٍ الصُّوفُ الأبيضُ. وفي موطنٍ آخرَ قولهمْ: يا منصورُ أمِتْ.

وينبغي أن ينهى أصحابهُ عن النّهبِ، فربّما غفلوا بسببِ ذلكَ عن التوقّي والاحترازِ، فكانَ فيهِ هلاكهمْ.

والقتالُ معَ الرَّجّالةِ صعبٌ لأنّهُمْ إن ظفروا خرّبوا وسبَوا وأتلفوا، وإن كُسِروا هربوا، وكذلكَ دأْبهُمْ، وقلَّ أن يُربحَ عليهم إلاّ أن يحاطَ بهم.

ولما كتبَ الحجّاجُ إلى قتيبةَ[1] بنِ مسلمٍ يحرّضهُ على قتالِ التركِ بما وراءَ النّهرِ، فكتبَ إليهِ: « إنّها طائفةٌ شديدةُ الطّلبِ، قليلةُ السّلبِ ».

---

(١) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي أبو حفص، أمير فاتح من مفاخر العرب، كان أبوه كبير القدر عند يزيد بن معاوية، ونشأ هو في الدولة المروانية، فولي الري في أيام عبد الملك بن مروان وخراسان في أيام ابنه الوليد، ووثب لغزو ما وراء النهر فتوغل فيها وافتتح كثيراً من المدائن، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية. قتله وكيع بن حسان التميمي بفرغانة عام ٩٦ هـ (راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٢٨/ وابن الأثير ٥ : ٤/ والطبري ٨ : ١٠٣).

فصلٌ
في الغاراتِ والسَّرايا

إذا نزلَ والي الحربِ بمكانٍ يركنُ إليهِ وجاءتهُ الجواسيسُ بأخبارٍ صحيحةٍ عن عدوِّهِ قبلَ الحربِ أو بعدها، ورأى من المصلحةِ إنفاذ سريّةٍ إلى بعضِ النَّواحي، فليؤمّر عليهمْ من يرى نجابتهُ وصلاحهُ لذلكَ، وليَكْتُمَ ذلكَ جهدَهُ، وليُوَرِّ عنهُ بغيرهِ، فقدْ روي أنَّ النبيَّ عليهِ السَّلامُ قلَّما كانَ يخرجُ إلى غارةٍ إلاَّ ورَّى عنها بغيرها[1].

وفي صحيحِ مسلمٍ عن أنس قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ يُغيرُ إذا طلعَ الفجرُ، وكان يتسمَّعُ الأذانَ، فإن سمعَ أذاناً أمسكَ[2]، وإلاَّ أغارَ.

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ١٠٣ باب من أراد غزوة فوري بغيرها من أحبّ الخروج يوم الخميس.
٢٩٤٧ ــ حدثنا يحيى بن بكير، حدثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب ــ رضي الله عنه، وكان قائد كعب من بنيه قال: سمعت كعب بن مالك حين تخلف عن رسول الله ــ ﷺ ــ ولم يكن رسول الله ــ ﷺ ــ وذكره.
ورواه أيضاً في المغازي ٧٩/ ورواه الامام مسلم في التوبة ٥٤/ وأبو داود في الجهاد ٩٢/ والدارمي في السير ١٤/ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤٥٦، ٤٥٧، ٦ : ٣٨٧ (حلبي).

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ١٠٢ باب دعاء النبي ــ ﷺ ــ الناس إلى الاسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ٢٩٤٣٠ حدثنا عبدالله =

وينبغي لوالي الحربِ أن لا يهجم عليها هجماً، ولا يقاتلَ الأعداءَ إلاّ بعدَ الإنذارِ، وكذلكَ كان يفعلُ رسولُ اللهِ ﷺ.

وفي سننِ أبي داوُدَ عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ النبيُّ عليهِ السلامُ: « أمرتُ أنْ أقاتلَ النّاسَ حتَّى يشهدُوا أن لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسولهُ، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا؛ فإذا فعلوا ذلكَ حرُمَتْ علينا دماؤُهُمْ وأموالُهُمْ إلاّ بحقّها، لهُمْ ما للمسلمينَ وعليهِمْ ما على المسلمينَ »[1].

ولا ينبغي أن يمثّلَ ولا يعذّبَ ولا يقتلَ الصّبيان ولا النّساء ولا الشُّيوخ ولا المرضى ولا الضُّعفاء.

وفي البُخاري عن عطيَّةَ القرظيِّ قالَ: عُرِضْنا على النبيِّ عليه السلامُ يَوْمَ قُرَيظةَ فكانَ منْ أنبتَ قُتِلَ ومن لم يُنبِت خُلّي، فكنتُ فيمنْ لم يُنبتْ فخُلّي سبيلي[2].

وفي النّسائي عن أبي هريرةَ قال: بَعثنا رَسولُ اللهِ ﷺ في بعثٍ، وقالَ: « انْ وجدتُمْ فلاناً وفلاناً لرجلينِ من قريشٍ فاحرقوهما بالنّارِ »، ثم قالَ

= ابن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو اسحاق عن حميد قال: سمعت أنساً رضي الله عنه يقول وذكره.

ورواه أيضاً في الأذان ٦/ ورواه الإمام مسلم في الصلاة ٩/ وأبو داود في الجهاد ٩١/ والترمذي في السير ٤٨/ والدارمي في السير ٩.

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في إيمان ٣٢ ــ ٣٦/ والإمام البخاري في إيمان ١٧، ٢٨/ والصلاة ٢٨/والزكاة ١/ والاعتصام ٢، ٢٨/ وأبو داود في الجهاد ٩٥/ والترمذي في التفسير سورة ٨٨/ والنسائي في الزكاة ٣/ وابن ماجة في الفتن ١ ــ ٣/ والدارمي في السير ١٠/ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨ (حلبي).

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في الحدود ٤ باب من لا يجب عليه الحد ٢٥٤١ ــ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا ثنا وكيع عن سفيان عن عبد الملك بن عمير سمعت عطية القرظي يقول وذكره.

عليهِ السلامُ حينَ أردنا الخروجَ: «إني كنتُ أمرتكمْ أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإنَّ النّار لا يُعذّبُ بها إلاّ اللهُ، فإنْ وجدتموهما فاقتلوهما»[1].

وفي صحيحِ مسلمٍ عن بُرَيْدَةَ بن حصيبٍ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أمَّرَ أميراً على جيشٍ أو سريَّةٍ وصَّاهُ في خاصَّتهِ بتقوى اللهِ وبمنْ معهُ من المسلمينَ خيراً، ثمَّ قالَ: «اغزوا بسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتلوا من كفرِ باللهِ، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغتدروا ولا تمثّلوا ولا تقتُلوا وليداً. وإذا لقيتَ عدوّكَ من المشركينَ فادعُهُمْ إلى احدى ثلاثِ خصالٍ أو خلالٍ، فأيَّتهنَّ ما أجابوكَ فاقبلْ منهمْ، وكُفَّ عنهمْ ثم ادعُهُمْ من التحوُّلِ من دارهمْ إلى دارِ المُهاجرينَ وأخبرهُمْ أنَّهُمْ إن فعلوا ذلكَ فلهمْ ما للمُهاجرينَ وعليهمْ ما على المهاجرينَ، وإن أبوا أن يتحوّلوا منها فأخبرهمْ أنَّهُمْ يكونونَ كأعرابِ المسلمينَ يجري عليهمْ حُكمُ اللهِ الّذي يجري على المؤمنينَ، ولا يكونُ لهمْ في الغنيمة شيءٌ إلاّ أن يجاهدوا معَ المسلمينَ فإن أبو فاسألهم الجزيةَ فان أجابوكَ فاقبلْ منهمْ وكُفَّ عنهمْ، وإن همْ أبوا فاستعنْ باللهِ وقاتلهمْ». وذكرَ[2] باقي الحديثِ فيما يتعلَّقُ بالحصار.

ولا ينبغي أن يقتُلَ النّساء ولا الصّبيانَ، فقد وردَ في الصّحاحِ عن أبنِ عمرَ قالَ: وجدتُ امرأةً مقتولةً في بعضِ تلكَ المغازي فنهى النبيَّ ﷺ

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في كراهية حرق العدو بالنار.

٢٦٧٣ ـــ حدثنا سعيد بن منصور ثنا مغيرة بن عبد الرحمن الحزامي عن أبي الزناد حدثني محمد بن حمزة الأسلمي عن أبيه، أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمره على سرية قال: وذكره.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ٣٨ باب وصية الإمام ٢٨٥٨ حدثنا محمد بن يحيى ثنا محمد بن يوسف الفريابي ثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن أبي بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ـــ ﷺ إذا أمَّر رجلاً على سرية، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً فقال: وذكره.

ورواه أبو داود في الجهاد ٨٢/ والترمذي في الديات ١٤/ والسير ٤٧/ وفضائل القرآن الكريم ١٧/ والدارمي في السير ٥/ وصاحب الموطأ في الجهاد ١١/ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٥٢٤، ٤ : ٢٤٠، ٥ : ٣٥٢ (حلبي).

عن قتلِ النّساءِ والصّبيانِ[1] ولا يُقتلُ من أعطي الأمانَ. وفي البخاريّ عن عبدالله بن عمرَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ من قتلَ معاهداً لم يَرُحْ رائحة الجنّةِ، وإنّ ريحها ليوجَدُ من أربعينَ سنة[2]. وفي الصّحاحِ عن أمّ هانيء لمّا شَكَتْ إلى النبيّ عليه السلام عام الفتحِ فقالتْ يا رسولَ اللهِ زعمَ عليٌّ أنّهُ قاتل رجُلاً قد أجرتهُ فلان بن هبيرة، فقالَ عليهِ السلامُ: « قد أجرنا من أجرتِ »[3] وفي النّسائي عن عائشةَ قالتْ ان: آأنتِ المرأةُ لتُجير العهدَ على المُسلمينَ، وفي روايةٍ أخرى الوَليدَة.

---

(١) الحديث رواه ابن ماجة في الجهاد ٣٠ باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان ٢٨٤١ — حدثنا يحيى بن حكيم ثنا عثمان بن عمر، أنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر. أن النبي — ﷺ — وذكره.

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجزية والموادعة ٥ باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.
٣١٦٦ — حدثنا قيس بن حفص حدثنا عبد الواحد حدثنا الحسن بن عمرو، حدثنا مجاهد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي — ﷺ — قال: وذكره.
ورواه في الديات ٣٠/ وأبو داود في الجهاد ١٥٣/ والترمذي في الديات ١١/ والنسائي في القسامة ١٥/ وابن ماجه في الديات ٣٢/ والدارمي في السير ٦١/ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٦، ٣٨، ٤٦، ٥٠، ٥٣ (حلبي).

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجزية والموادعة ٩ باب أمان النساء وجوارهن.
٣١٧١ حدثنا عبدالله بن يوسف أخبرنا مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبدالله أن أبا مرة مولى أم هانيء ابنة أبي طالب أخبره أنه سمع أم هانيء ابنة أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله — ﷺ — عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره فسلمت عليه فقال: من هذه...؟ فقلت: أنا أم هانيء بنت أبي طالب فقال: مرحباً بأم هانيء، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمان ركعات ملتحفاً في ثوب واحد فقلت يا رسول الله. وذكره.
ورواه الإمام مسلم في المسافرين ٨٢/ وأبو داود في الجهاد ١٥٥/ والدارمي في الصلاة ١٥١/ وصاحب الموطأ في السفر ٢٨/ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٤٣،٢٤١ (حلبي).

فصلٌ
في ذكرِ بعضِ ولاةِ الحربِ

لم يكُنْ في الدَّولةِ الأمويَّةِ أعظمُ من حروبِ الأُزارقةِ[1] بعدَ حروبِ الصَّحابةِ والَّذي تولَّى معظم حربهم المهلَّب[2] بن أبي صفرةَ. ولا في الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ أعظمُ من حربِ البابكيَّةِ المحمَّرة، والَّذي ظفرَ ببابكَ هوَ الأفشين التُّركي ومن اطَّلعَ على ما جرى في هذينِ الحَربَيْنِ اطَّلعَ على كثيرٍ من التحيُّلاتِ والمخادعاتِ وأنواعِ المقاتلاتِ والمصافاتِ والحيلِ الحربيَّاتِ ما تفيدُ كثيراً من التَّجارُبِ والمُخادعاتِ.

وأمَّا المُخادعاتُ النامُوسيَّة فهي أخبارُ الخوارجِ مثل القرامطَةِ والحُروريَّةِ.

---

(١) هم أصحاب نافع بن الأزرق قالوا: كفر علي رضي الله عنه بالتحكيم وابن ملجم محق، وكفرت الصحابة ــ رضي الله عنهم وقضوا بتخليدهم في النار. (راجع التعريفات للجرجاني ١٢).

(٢) هو **المهلب** بن أبي صفرة أبو سعيد، أمير بطاش جواد قال فيه عبدالله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. ولد في دبا عام ٧ هـ، وتوفي بخراسان عام ٨٣ هـ. ونشأ بالبصرة وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه. وولي إمارة البصرة لمصعب بن عمير، وانتدب لقتال الأزارقة. ولاه عبد الملك ولاية خراسان فقدمها سنة ٧٩ هـ ومات فيها، كان شعاره في الحرب (حم لا ينصرون) (راجع الإصابة ت ٨٦٣٥/ والوفيات ٢: ١٤٥/ والطبري ٨ : ١٩).

نُقِلَ أنَّ ابن بابك الخُرَّمي كانَ يوهمُ أصحابَهُ أنَّهُ يعلمُ ما في باطنهم، ويفهمُ وَليَّه وناصحهُ من عدوّهِ وغاشّهِ، وأنَّهُ تقدَّمَ يوماً إلى من يريدُ الفتكَ بهِ فقالَ لهُ: أريدُ منكَ أن تلبسَ غداً أحصنَ السِّلاحِ وتخرج من ليلتِكَ فتصيرَ في الكهفِ الفُلاني أو الخربةِ الفلانيَّةِ، فإني مبكرٌ عليكَ في أصحابي، فإذا حاذيتُ موضعكَ فاخرُجْ شاداً عليَّ كأنَّكَ تريدني حتَّى أعلم من أصحابي أيُّ أشدُّ نصرةً لي، فإنَّهُمْ إذا ابتدَروا إليكَ نهيتهُمْ، فمضى ذلكَ في سلاحهِ إلى حيث أمرهُ.

ثم قالَ لأصحابهِ إن فيمنْ أحسن إليهِ من أصحابي وأحنُو عليهِ من يغُشّني ويريدُ هلاكي، وأنا أعلمُ ذلكَ وأُغَضّي عنهُ، فتبرَّموا من ذلكَ وقالوا: معاذَ اللهِ أن يُضمِرَ لكَ أحدٌ من أصحابكَ سوءاً أو مَكْروهاً، فقالَ: بلى ومن جملتهِمْ فلانٌ. ثم عزمَ على الخروجِ إلى الصيدِ فخرجَ معهُ أصحابُهُ مبكراً، ومرَّ بذلكَ الموضعِ فخرجَ عليهِ ذلكَ الشَّخصُ الَّذي أعدَّ لهُ ما أعدَّ فتبادرتْ إليهِ أصحابُ بابكَ بالسُّيوفِ والدَّبابيسِ وهو معهُمْ، فقُتِل قبلَ أن يتكلَّم، فعَظُم خوفُ أصحابهِ منهُ وتوهَّموا أنَّهُ يعلمُ ما في ضمائرهم.

وقالَ كسرَى في خطبتهِ الكُبرَى: معاشِرَ الجُنْدِ والمرازبةِ، إن فيكم قوماً يضمرونَ الغشّ لنا والحقدَ، ونحنُ لا يخفَى ذلكَ علينا، فإنَّنا نلمحهُ في أسارير الوجوهِ، فإذا دخلَ علينا كارهُنا ظهر لنا من لمحاتهِ ونظراتهِ وفلتاتِ لسانهِ فنتقبضُ عنهُ لنُخبرَ صحَّة ذلكَ، فلا تزالُ شواهدُهُ تظهرُ حتَّى نقطعَ بصحَّتهِ ونبُتَّ الحكمَ فيهِ، فأوهمَ أصحابَهُ أنَّهُ يَطَّلِعُ على بواطنهم فلا يراهُ أحدٌ قد انقبضَ عنهُ إلاَّ توهَّمَ وخافَ، وإنْ كانَ على حالةٍ رجعَ عنها.

ويُحكَى أنَّ نصر بنَ نوح السَّاماني كانَ قد اتَّخذَ جماعةً من الجُندِ والرَّعيَّةِ فأحسنَ إليهمْ سرًّا، ووسَّعَ عليهمْ في النَّفقاتِ، وأظهرَ عنهم الإعراضَ، وحجبهمْ وودَّ من يشفع لهُمْ، فإذا كانَ لَهُ غرضٌ في بلدٍ من البلادِ أظهرَ شدَّةَ الغضبِ عليهمْ ونفاهُمْ، فينصرفونَ إلى تلكَ النَّاحيةِ الَّتي يريدُ فيبلّغونَهُ

غرضَهُ: إما بانهاءِ أخبارٍ أو بتضريبٍ أو بإعانةٍ في موعدٍ وقد فتحَ قلعةً وبلاداً كثيرةً على جيحونَ[1] بهذهِ الحيلةِ.

وقد كانَ بعضُ الملوكِ يحبسُ قوماً ويقيّدُهمْ ويشهرُ ذلكَ، ثمَّ يتغافَلُ عنهمْ ليهربُوا، وقد رتَّب ما يفعلونه فيتالُ بهم غرضهُ.

ويُحكَى أن خالدَ بن ملكانَ كان في بعضِ أسفارهِ مع قحطبة فنزلَ في صحراء يتغدَّى، والعسكرُ قد نزعوا ثيابهمْ، وسرَّحوا في المرجِ خيولهم، وشرعوا في الطَّبخِ، إذ صاحَ قحطبةُ: معاشرَ النَّاسِ اركَبُوا فالخيلُ تدرِكُكُمْ، وركبَ وألحّ على خالدٍ فما تكامَلوا على خيولهمْ إلاَّ والغبرةُ قد ظهرتْ من صدْرِ البريَّةِ، ثم ظهرَ سرعانُ الخيلِ فصادفهمْ على يقظةٍ وأُهبةٍ، وكانَ ذلكَ سبب سلامتهمْ والانتصار عليهمْ، فسئلَ عن معرفتهِ بذلكَ، فقالَ رأيتُ الوحشَ قد أقبلتْ من البريّةِ جافلةً ملتامّةً من أصنافٍ، فعلمتُ أنَّها مطرودةً جافلةً من عسكرٍ قد راعها، فكانَ كما ظننتُ وكثيراً ما جرّبتُ.

ونظير هذهِ الحكاية ما قالتْ حذامِ لقومِها، وقد نزلوا في فلاةٍ من الأرضِ، وكانوا قد تحاجَزُوا مع محاربينَ لهمْ من بني عمّهمْ، فلمَّا كانَ في اللَّيلِ مرَّتْ بهمْ أسرابُ القطا، فخرجتْ حذامِ ابنةُ الرَّيَّانِ وقالتْ:

---

(١) جيحون ــ بالفتح ــ وهو اسم أعجمي، وقد تعسف بعضهم فقال: هو من حاجة إذا استأصله، ومن الخطوب الجوائح، سمي بذلك لاجتياحه الأرضين. قال حمزة: أصل اسم جيحون بالفارسية هرون، وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان، فنسبه الناس إليها وقالوا: جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ.

وقال ابن الفقيه: يجيء جيحون من موضع يقال له ربو ساران وهو جبل يتصل بناحية السند والهند وكابل، ومنه عين تخرج من موضع يقال له عندميس.

وقال الاصطخري: فأما جيحون فإن عموده نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخّاب من حدود بذخشان، وينضم إليه أنهار في حدود الختل ووخش، فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم، وينضم إليه نهر يلي جرياب يسمى بأخش، وهذا النهر يجمد لمدة شهرين من شهور الشتاء.

ألاَ يا قومَنا ارتحلوا وسيرُوا فلو تُركَ القطا ليلاً لناما

فلم يتحرّكوا من تعبهمْ ولم يقبلوا منها، فخرجَ دُسَيمُ بنُ طارقٍ وصاحَ:

إذا قالتْ حذام فصدِّقوها فإنَّ القولَ ما قالتْ حذام

ثمَّ ألزمهمُ الرّحيل فثاروا وولجوا إلى وادٍ بالقربِ منهمْ واعتصموا بهِ حتّى امتنعوا من القومِ وبينهم العساكرُ فلم يظفروا بطائلٍ وكانَ كما قالتْ.

ومن حذقِ الملوكِ ما يُحكَى أنَّ أحمد بن طولون[1] كانَ في متصيَّدٍ لهُ، وقد نزلَ يتغدّى فرأى فقيراً يدورُ حولَ خبائهِ ويتعرّضُ للطَّلبِ والتَّصَدُّق، فأمرَ الغلامَ فدفعَ لهُ دجاجةً وبعض لوزةٍ بينَ رغيفينِ، فناولهُ وهو ينظرُ إليهِ من سجفِ الخيمةِ، ثمَّ أمر بإدخالهِ إليهِ وسألهُ من أينَ أقبلَ، واستنطقهُ، ثمَّ قالَ: هاتوا المقارعَ أنتَ صاحبُ خبرٍ، فاعترفَ ثمَّ ضربهُ يسيراً فأخرجَ الكتبَ الّتي صحبتهُ، فتعجّبَ النّاسُ من فطنتهِ كيفَ استخرجَ ذلكَ، وسألهُ خواصُّهُ عن ذلكَ فقالَ: علامةُ فقرهِ ظاهرةٌ والحاجةُ في الطَّلبِ، ولمّا ناولهُ الغُلامُ الطَّعامَ لم يهُشَّ لهُ، ولم يظهرْ فيهِ سُرورٌ يُناسبُ فقره، فعلمتُ أنَّهُ متصنّعٌ لذلكَ مستغنٍ، وأن قصدهُ غير الصَّدقةِ.

وحكي أنَّ الشيخَ عبداللهِ بن ياسين صاحب دولةِ الملثَّمينَ والمتملّكَ على البلادِ، كانَ يوماً جالساً في خيمتهِ مع خواصّهِ فرأى حجّاماً يَدورُ

(١) هو **أحمد** بن طولون: أبو العباس الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، تركي مستعرب، كان شجاعاً جواداً حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه، موصوفاً بالشدّة على خصومه وكثرة الإثخان والفتك في من عصاه. بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة. ومن آثاره قلعة يافا بفلسطين. كان أبوه مولى لنوح بن أسد الساماني (عامل بخارى وخراسان) وأهداه نوح في جملة من المماليك إلى المأمون، فرقاه المأمون وولد له أحمد (صاحب الترجمة) في سامراء فتفقه وتأدب وتقدم عند الخليفة المتوكل إلى أن ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم مصر سنة ٢٥٤ هـ. توفي عام ٢٧٠ هـ. (راجع الولاة والقضاة ٢١٢ ـــ ٢٣٣/ والنجوم الزاهرة ٣ : ١/ وبدائع الزهور ١ : ٣٧/ وابن خلدون ٤ : ٢٩٧).

حولَ خيمتهِ ويُعرِّض بصنعتهِ فأمرَ بإدخالهِ وسألهُ عن موضعهِ، وكان غريباً، فلم يزل يستنطقهُ حتى أمرَ بأن يخرجَ محاجمهُ ومشارطَهُ وأمرَ بأن يُشرَطُ بها، فقالَ: لا حاجةَ لي بالحجامةِ، فمُسكَ وحُجِمَ، فَوَرِمَ موضعُ الحجامةِ بعد قليلٍ، وكانت المشارطُ مسمومة، فتعجَّبَ من حَضَرَ من فطنتهِ، وسُئل عن ذلكَ فقالَ: الرِّيبةُ ظاهرةٌ، وذلكَ أنّه غريبٌ، ويومٌ صائفٌ، وآخِرُ النَّهارِ، وهو يلحُّ ويدورُ حولنا، واستدعاهُ غيرُنا فلم يلتفت إليهِ، علمتُ أنَّ القصدَ لنا، فقُرِّرَ فكان دسيسةً من عندِ علي بن يوسفَ[1] وهو نائبهُ على البلادِ وخليفتهُ بها.

---

(١) هو علي بن يوسف بن تاشفين أبو الحسن: أمير المسلمين بمراكش، وثاني ملوك دولة الملثمين المرابطين. ولد بسبتة عام ٤٧٧ هـ، وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ بعهد منه بمراكش. قال السلاوي: ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، لأن البلاد كانت ساكنة والأموال وافرة، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه في جميع أموره. وقال ابن خلكان: «كان حليماً وقوراً صالحاً عادلاً». مات غماً بمراكش بسبب ظهور (ابن تومرت) عام ٥٣٧ هـ. (راجع الاستقصا ١ : ١٢٣ — ١٢٦/ والحلل الموشية ٦١ — ٩٠/ وفي جذوة الاقتباس ٢٩١ توفي عام ٥٣٩ هـ).

الباب الثامن

في الكسرِ والهزيمةِ وما يفعلهُ الهازِمُ والمهزومُ

الحربُ سجالٌ وتاراتٌ، والكاسِرُ لا يغترُّ والمكسورُ لا يَيأسُ، ففي الوصايا الحربيَّةِ إذا كسَرْتَ جيشاً فلا تترك أصحابَكَ يشتغلونَ بالنَّهبِ والغارَةِ، فكمْ قد كرَّ العدوّ المخذول المكسورُ وخصمهُ بالنَّهبِ غاوٍ غافلٍ فأوقعَ بهِ، فعادتِ الكسرةُ لهُ، وإنْ لم يَكُنْ بُدٌّ من ذلكَ فليَكُنْ مع الاحترازِ وحفظِ المظهورِ والاجتنابِ من جهةِ العدُوِّ.

لمَّا هزمَ أخْشُوارُ لفَيْروزِ ملكِ الفرسِ وأسرَ أصحابهُ، وسقطَ هو عن فرسهِ في خندقٍ فماتَ، وأُخذت ابنتهُ وأموالهُ، فبلغَ ذلكَ نائبهُ سُوخُذا، فجمعَ نخبة من بقي من عسكرهِ، وسارَ مجِدًّا، وضمَّ معهُ من وجدَ من الفلِّ حتَّى أطلَّ على عسكر اخشوَار وقد أمنوا وتفرَّقوا بالغنائمِ واستراحوا، فصدَقَهُم القتالَ وكسرهُمْ واستعاد غنائمهم.

ولمَّا قاتلَ الملكُ رضوان لمجموعِ العربِ من بني كلابٍ وغيرها، فكسرهُمْ واستولَى على حللهم وأخذَ نساءَهُمْ وأموالَهُمْ وباتُوا في موضعهمْ مع جواريهمْ وقَدْ نَحَروا جزورَهُمْ وأغنامَهمْ، وأكلوا وشربوا وفرشوا وناموا وغفلوا واغترُّوا، فتجمَّعتْ فلولُ العربِ وصبَّحتهمْ صباحاً في دارهم، فقتلتْ منهم القتلةَ الذَّريعةَ،

وكسرَتهُمْ الكسرةَ الشّنيعة، واستردُّوا أموالَهُمْ وحرمهُمْ، واستضافوا أموالَ الغُزِّ وأثقالَهُمْ، وكانَ سبَبُ ذلكَ مع تقديرِ اللهِ تعالى غرّتهمْ وطمأنينتهمْ.

فينبغي لمنْ قَدِرَ وملكَ وانتصرَ أن لا يتبّع فإنَّ ذلكَ رديءُ العاقبةِ ولا يمثّلْ ولا يعذّبْ. قالَ عليهِ السّلامُ: «إذا قَتلتُمْ فاحسِنوا القتْلَةَ»[1] وأمّا الخوارجُ والعُفاةُ فلا يجوزُ أن يتبّعَ مهزومَهُمْ ولا يجهز على جريحهم ولا يدلّ على مختفيهم. ومن حقّ الغالبين التناصُف فيما بينهُمْ، واستعمال الأمانةِ فيما يغنَمُوهُ، ولا يخونُ أحدُهُمْ صاحبهُ.

وقد وردت المناهي الشّرعيّةُ بذلكَ، والتّشديدُ على من غلَّ بلْ يُجمَعُ ويقسمهُ الإمامُ أو السلطانُ أو والي الحربِ بينَ الغانمينَ على حكمِ اللهِ تعالى. والسّلبُ للقاتلِ ويُنَفّلُ من يشاء بشيءٍ من الغنائمِ إذا ظهرَ منهُ النّجابة وجودة المحاربةِ والاجتهادِ، ثمَّ يشتغلوا بشُكرِ اللهِ تعالى وحمدِهِ على ما أنعمَ عليهمْ وبما نصرهُمْ، ولا يغترُّونَ بقوّتهمْ ولا بكثرتهمْ ولا بشجاعتهمْ، فإنّهُ رديء العاقبةِ ألا ترى أنّ أصحابَ النّبيّ عليهِ السلام لمّا قالوا يومَ حُنَيْن وهمْ في اثني عشر ألف مقاتل، قالوا: لن نُغلَب اليومَ من قلّةٍ، فغفلوا عن الأصلِ وهوَ النّصرُ الربّانيُّ والتأييد السّماوي واغترُّوا بالعددِ والعُدَدِ. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] فكانَ عاقبةُ ذلكَ أنّهُمْ كُسِروا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[3] الآية.

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الذبائح ٣ باب إذا ذبحتم فاحسنوا الذبح ٣١٧٠ حدثنا محمد بن المثنى ثنا عبد الوهاب ثنا خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي الأشعث عن شداد ابن أوس أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: إن الله عز وجل كتب الاحسان على كل شيء: وذكره. ورواه أبو داود في الأضاحي ١٢ والترمذي في الديات ١٤ والنسائي في الضحايا ٢٢، ٢٦، ٢٧ والدارمي في الاضاحي ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥ (حلبي).

(٢) سورة البقرة (آية رقم ٢٤٩).

(٣) سورة التوبة (آية رقم ٢٥).

وإذا أرادَ استيفاء البلدِ فليأمرهمْ بعمارةِ ما خُرِّبَ وغرْسِ ما قُطعَ من الأشجارِ ويعينُهم على ذلكَ ويحُطُّ عنهمْ بعضَ الكلفِ، وإن كانَ يريدُ إخرابَ البلدِ لعجزهِ عن حفظِها فلينقُلِ الرَّعيَّةَ إلى بلدٍ آخر، ويسبِّب لهمْ ما يعيشونَ بهِ أو يوصلهمْ إلى مأمنهم.

وأمَّا الأسراءُ فيتعيَّن الإحسانُ إليهمْ والشَّفقةُ عليهمْ. فهو من المروءةِ والدِّين. قالَ عليهِ السلامُ: «مَن أمنَ رجلاً على ذمَّةٍ ثمَّ قتلهُ، فإنَّهُ يحملُ لواءَ غدْرٍ يوم القيامةِ»[1] وقالَ تعالى في الحثِّ على الإحسانِ إلى الأسيرِ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[2].

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الديات ٣٣ باب من أمن رجلاً على دمه فقتله ٢٦٨٨ حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، ثنا عوانة عن عبد الملك بن عمير عن رفاعة ابن شداد القتباني قال: لولا كلمة سمعتها من عمرو بن الحمق الخزاعي لمشيت فيما بين رأس المختار وجسده سمعته يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، لأن رفاعة بن شداد أخرجه النسائي في سننه ووثقه، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال الإسناد على شرط مسلم.

(٢) سورة الانسان (آية رقم ٨).

فصلٌ

ومن كانَ مهزوماً فليرجع إلى الصَّبرِ والجلدِ ويتحفَّظ بما بقي ويجمعُ إليهِ من أمكنهُ من المنهزمينَ ويتراجعونَ على حميَّتهمْ ويجعلونَ من جهةِ العدوِّ أكثرهمْ وأشجعهمْ فيلقى عن المنقطعينَ ويلحق المتخلّفينَ وينبغي أن يقصدوا أقربَ المواضعِ المانعةِ الحصينةِ.

قيلَ إن بعضَ ملوكِ الفرسِ حضرَ في حربٍ كُسرَ فيها وانهزمَ وأدركتهُ الخيلُ فنثر دنانيرَ كانتْ معهُ وجواهرَ فاشتغلَ الَّذينَ أدركوهُ بجمعها حتَّى فاتهمْ. وبعضهمْ من رمى بمنطقةٍ وتعاليقها فاشتغل عنهُ بها ونجا. ولمَّا انهزمَ خُرابنداه الخُرَّميّ وتبعتهُ الخيلُ انتهى الى مضيقٍ في غيضةٍ ملتفَّةٍ، فصاحَ بأسماءِ جماعةٍ من أصحابهِ وقالَ: اخرجوا إليهم يوهمُ أنَّهُ انتهى إلى كمينٍ لهُ، فتوقَّفَ الطَّلَبُ عنهُ حتَّى فاتَ، وجدَّ في السَّيرِ.

وأمَّا من قصدُهُ الغزاةَ لا غيرَ فما يلتهي بكسبٍ ولا مناطق ولا اغترَّ بشيءٍ منه ولا غرضهُ إلاَّ طلب الغريم لا غيرَ كما جرى في فتحِ مصر لمَّا فتحها عمرو بن العاص(١) رضيَ اللهُ عنهُ، فمن ذلكَ أنَّه لما كانَ

---

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبدالله فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام وأسلم في هدنة الحديبية. وولاه النبي ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل وأمده بأبي بكر وعمر =

المسلمونَ يحاصرون الحصنَ كان عُبادةُ بنُ الصَّامتِ[1] رضيَ اللهُ عنهُ في مُصَلاَّه يصلّي وفرسهُ عندهُ، فرآهُ قومٌ من الرُّوم فخرجوا إليهِ وعليهمْ حلية وبزّة، فلمَّا دنوا منهُ سلَّمَ من صلاته ووثبَ على فرسهِ ثم حملَ عليهم، فلمَّا رأوهُ غيرَ مَكْذوبٍ عنهمْ وَلَّوا راجعينَ واتّبعهُمْ فجعلُوا يَلقونَ مناطِقَهُمْ ومتاعَهُمْ ليُشْغِلوهُ بذلكَ عن طلبهم، وهو لا يلتفتُ إليهِ حتَّى دخلوا الحصنَ، ورُمِيَ عُبادةُ من فوقِ الحصنِ بالحجارِ فرجعَ ولم يلتفتِ إلى ما طرحوهُ ولا تعرّضَ لشيءٍ منهُ، ورجعَ إلى مُصلاّهُ الَّذي كانَ بهِ، واستقبلَ الصَّلاةَ وخرجَ الرُّومُ إلى متاعهمْ يجمعونهُ.

وأمَّا هِمَمُ الملوكِ العليَّة في جمعِ العساكرِ والحشودِ إذا دهمهم العدو الثّقيلُ فما ثمَّ أعمرَ من ديارِ مصرَ ولا أكثرَ من أهلِها ولا أسرعَ من جمعِ جيوشِها. ومما نُقِلَ في التَّواريخِ أنّهُ لمَّا أوحَى اللهُ إلى موسَى عليهِ السلامُ: ﴿أن أسرِ بِعِبَادِي لَيلاً﴾[2] الآية. ممَّا رواهُ الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عبّاسٍ قالَ: كان بنو اسرائيلَ استعاروا من قومِ فرعونَ حلْياً وثياباً، وقالوا إنَّ لنا عيداً نخرجُ إليهِ، فخرجَ بهمْ موسَى عليهِ السلامُ ليلاً وهمْ ستُمائة ألف وثلاثةُ آلافٍ وسبعينَ رجُلاً ليسَ فيهم ابنُ ستّينَ ولا ابنُ عشرينَ سنةً

= ثم استعمله على عمان، ثم كان من أمراء الجيش في الجهاد بالشام في زمن عمر وهو الذي افتتح قنسرين وصالح أهل حلب، وولاه عمر فلسطين ثم مصر فافتتحها. وعزله عثمان وولاه معاوية مصر مرة أخرى. له في كتب الحديث ٣٩ حديثاً. توفي عام ٤٣ هـ. (راجع الاستيعاب ٢ : ٥٠١/ والإصابة ت ٥٨٨٤/ وتاريخ الإسلام للذهبي ٣ : ٢٣٥ — ٢٤٠).

(١) هو **عبادة** بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد صحابي من الموصوفين بالورع شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وبدراً وسائر المشاهد، ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، ومات بالرملة أو بيت المقدس، وروى ١٨١ حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة منها. وكان من سادات الصحابة. توفي عام ٣٤ هـ. (راجع تهذيب التهذيب ٥ : ١١١/ والإصابة ٤٤٨٨/ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ٢٠٦).

(٢) سورة طه آية رقم ٧٧.

فذلكَ قولُ فرعونَ: ﴿إنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ[1] قَلِيلُونَ ، وإنَّهُمْ لنا لغَائِظُونَ﴾[2] فخرجَ فرعونُ في أثرهِمْ ومعهُ خمسُ مائةِ ألفٍ سِوَى المُجَنبتين والقلبِ. وفي روايةٍ أخرى عن عمرو بن ميمون[3] قالَ: خرجَ موسى عليهِ السلامُ ببني إسرائيلَ، فلمَّا أصبحَ فرعونُ أمرَ بشاةٍ فأُتيَ بها، فأمرَ بذبحها ثمَّ قالَ: لا يُفرَغ من سلخِهَا حتَّى يجتمعَ عندي خمسُ مائة ألف من القبطِ، فاجتمعُوا إليهِ، فقالَ لَهُمْ فرعونُ: إنَّ هؤلاءِ لَشِرذمةٌ قليلونَ، وكان أصحابُ موسى ستمائة ألف وسبعينَ ألفاً. وأمَّا أصحابُ فرعون فما كان فيهم من بلغَ الأربعينَ سنة فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[4] فملكُ مصر لا يوزَنُ بهِ ملكٌ إلاَّ رجَح عنهُ، فيجبُ عليهِ إذا دهمهُ أمرٌ بذلَ الأموالِ في الجمعِ من الرِّجالِ والحمايةِ عن الدِّينِ والحريمِ تُرفَعُ لهُ الدَّرجاتُ في الدُّنيا وفي دارِ النَّعيمِ، فاللهُ يؤيدهُ بنصرهِ وتوفيقهِ ويَسلكُ بهِ مناهجَ العدلِ وطريقه.

---

(١) سورة الشعراء (آية رقم ٥٤).

(٢) سورة الشعراء (آية رقم ٥٥).

(٣) هو عمرو بن ميمون الأودي أبو عبدالله أدرك النبي ـ ﷺ ـ وكان مسلماً في حياته وعلى عهده ﷺ قال عمر بن ميمون: قدم علينا معاذ الشام فلزمته فما فارقته حتى دفنته، ثم صحبت ابن مسعود وهو معدود من كبار التابعين من الكوفيين، وهو الذي رأى الرجم في الجاهلية من القردة إن صح ذلك. وقد ذكر البخاري عن نعيم عن هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون الأزدي مختصراً قال: رأيت في الجاهلية قردة زنت فرجموها يعني القردة فرجمتها معهم. ورواه عباد بن العوام عن حصين كما رواه هشيم مختصراً، وهذا عند أهل العلم منكر إضافة الزنا إلى غير مكلف، وإقامة الحدود في البهائم، ولو صح لكانوا من الجن لأن العبادات في الإنس والجن دون سواهما، وقد كان الرجم في التوراة. وروي أن عمرو بن ميمون حج ستين ما بين حج وعمرة. ومات سنة خمس وسبعين. (راجع الاستيعاب ٣ : ١٢٠٦).

(٤) سورة الزخرف (آية رقم ٥٤).

البابُ التَّاسعُ

في الحصارِ وفتحِ القِلاعِ وما ينبغي أن يفعلهُ الحاصِرُ والمحصورُ

البلادُ العظامُ تؤخذُ بتفريقِ الكلمةِ، وكذلكَ الجموعُ الكثيرةُ. والبلادُ الصِّغارُ والقِلاعُ تؤخَذُ بالحربِ أو بالمكيدةِ. فمنها مواضعُ لا تُرام بأصلِ الخلقةِ مثلَ الجبالِ الشاهقةِ المنقطعةِ ذواتِ المسلكِ الصَّعبِ، ومثل الجزائر التي لا مراسي حولَها، ومثلَ الشعاري الملتفةِ الكثيرةِ الَّتي لا يُطمَعُ في إحراقها واستئصالها، فأهلُ هذهِ المواضعِ يُقْنَعُ منهمْ بالمُسالمةِ وكفِّ الأذى ويُحْسَنُ إليهمْ على ذلكَ، ويُتَفَقَّدونَ بالبِرِّ والإطلاقِ والإلطافِ؛ فإنَّ التَّعبَ عليهمْ كثيرٌ والظَّفَر بهمْ عسيرٌ.

وأمَّا المواضعُ الَّتي حَصُنَتْ بالأسوارِ والخنادقِ وشُحنت بالرِّجالِ ووُعِّرَتْ طرقاتُها، فكُلُّ ذلكَ يُمكنُ مقاومتهُ بآلاتِ الحصارِ وبالحِيَلِ والمصابرةِ في الحربِ، فالأسوارُ المحكمةُ تقابَلُ بالمنجنيقاتِ إذا كانتْ مرتفعةً، وإذا كانت مرَجَّلةً فبالكِباشِ والدَّبَّاباتِ، وإن كانتْ حصانتها بالمضائقِ ووعرِ المسالكِ فيجتهدُ في توسُّعِ الطُّرقِ وتسهيلِها، وشرحُ ذلكَ يطولُ ووالي الحربِ يقاومُ كلَّ شيءٍ بما يشابهُ ويقاومهُ.

أمّا التحيّلات والمكائد في تفريقِ الكلمةِ وفتحِ البلادِ الكبارِ فهو أن يبحثَ أولاً عن أهلِ البلدِ بحثاً جيّداً، فلا بدّ أن يكونَ فيهم اختلافٌ من جهةِ الدّينِ أو من جهةِ الدُّنيا أو من جهَةِ النّسبِ، ولا يخلو مع هذا أن يكونَ بينهُمْ تحاسُدٌ وتباغضٌ وتنافسٌ فيدُسُّ إليهمْ من يُؤلّب بينهمْ ليفرّق جمعهمْ، وإن كانَ لهمْ زعماء دسَّ إلى زعمائهمْ وليقْصُد الطائفة الضّعيفة أو المقهورة فإنّها تلبّي كلَّ داعٍ.

وبعضهمْ ينثرُ رقاعاً فيها كلامٌ يرمي بينهمْ. وبعضهمْ يلقي على مسامعِ النّساءِ والصّبيانِ كلاماً ليكونَ مبدأ الاشتهارِ والإرجافِ. وإن كانت البلد صغيرةً فالحصارُ كما ذكرنا.

وقد تحيَّلَ بعضُهُمْ بأنْ قطعَ أخبارَ جماعةٍ من الجندِ، وأظهرَ جفوَتهُمْ وأبطنَ الإحسانَ إليهمْ وطردهُمْ، فيسيرونَ إلى القلعةِ الّتي يريدُ حصارها، ويكونونَ لهُ هناكَ ليومِ قصدهِ.

وبعضهُمْ دسَّ التجّارَ وأعطاهُمُ الأموالَ وبعثهُمْ إلى النّاحيةِ الّتي يقصدُها. وقريبٌ من ذلكَ ما ذُكِرَ أنّ جنكس خان ملك المُغْلَ حاصرَ قلعةً مدّةَ سنتينِ فلم يقدرْ عليها، فعظمَ ذلكَ عليهِ فضربَ مشورةً مع وزرائهِ وأركانِ دولتهِ، فأشارَ بعضُهُمْ بأنْ يرحلَ عنها الآن وهو يُدبّرُ أمراً أنّهُ إذا رجعَ إليها بعد هذهِ الكرّة تُفتَحُ لهُ في ساعتها، فرحلَ عنها واستبشرَ أهلُ القلعةِ ودقّوا البشائرَ. وأمّا ما كانَ من المُشيرِ على جنكِس خان بالرّحيلِ فإنّهُ استدعى بأولادِ المُغلِ تقدير خمس مائة صبي دون العشرين سنة وفوقَ الخمسَ عشرة أعمارهُمْ، ودسَّ إليهمْ: «إنّكُمْ بتروحُوا إلى القلعةِ الفلانيّةِ تبيعُكُم التّجارُ بها فإذا استقرّيْتُمْ هناكَ ورأيْتُمْ الملك جنكس خان قد أقبلت جيوشهُ إليكمْ فلا يكون لكمْ أمرٌ إلاَّ وضعَ السّيفِ في أستاذيْكُمْ وتفتحوا باب القلعةَ وتخرجوا إلى آبائكم بعدَ أن تقتلوا المقاتلة، ولكم عندَهُ اليد البيضاء وأوعدهُمْ بما يسرهم، واستحضرَ التّجارَ ودفعَ لهمْ أولئكَ» وقالَ: «رُوْحوا بيعوْهُمْ في القلعةِ الفلانيّةِ على كلّ من فيها بالنّقدِ والأجلِ» ففعلوا

ذلكَ ثم إنَّهُ أغفلهمْ سنةً وقالَ لجنكس خان: ما تعزم حتّى تأخذ القلعة الّتي حاصرتَها، فتوجَّه ببعضِ عساكرِهِ فلمَّا أقبلَ على القلعةِ تأهَّبَ أهلُها ولبسوا آلةَ الحربِ وألبسوا أولئكَ المماليك ليُقاتِلوا معهُمْ، فلمَّا استقرَّ حالُهُمْ ورأوا الجيشَ قد احتاطَ بالقلعةِ صرخوا صرخةً واحدةً ووضعوا السَّيفَ في أستاذيهمْ واشتغلوا بذلكَ، وتوجَّهَ بعضُهُمْ إلى البابِ ففتحوهُ وحملوا المُغل فلم يجدُوا مانعاً فدخلوا القلعةَ واستملكها وأوفى بما وعدَ، وشكرَ المشير على حسنِ تدبيرِهِ وضاعفَ الإحسانَ إليهِ.

وأمَّا من جادَ بنفسهِ في مصالحِ النَّاسِ وردَّ عنهُمْ ما ليسَ لَهُمْ بهِ طاقة فكما فعلَ أهلُ هراة(1) لمَّا قصدَهُمْ فيروزُ ملكُ الفرسِ، فتبرَّعَ شيخٌ من شيوخهِمْ بنفسهِ وفداهُمْ بها، وذلكَ أنَّهُ قطعَ أنفَهُ وأُذنيهِ وأظهرَ أثرَ الضَّرْبِ بظهرِهِ، وألقى نفسهُ على طريقهم حتّى مرُّوا بهِ فرحموهُ ورفعوهُ معهُمْ، وقدْ هالهُمْ ذلكَ، فقالَ: إنّي أدُلكُمْ على طريقٍ مختصرةٍ تَصِلونَ في أيّامٍ قلائلَ ولا يشعرونَ بكمْ، ولكنْ تحملونَ الماءَ معكُمْ ثلاثةَ أيّامٍ ففعلُوا، وسارَ بهمْ وتوسَّط بهم البرَّ، فلمَّا كانَ في اليومِ الرّابعِ اشتد بهم

---

(1) هراة — بالفتح —: مدينة عظيمة مشهورة من امهات مدن خراسان. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وبحيرات كثيرة، محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء قال أبو أحمد السامي الهروي:

هـراة أرض خصبهـا واسـع
ونبتهـا اللفـــاح والنــرجس
مـا أحـد منهـا إلـى غيرهـا
يخـرج إلا بعـد مـا يفـلس

ويقول فيها الأديب البارع الزوزني:

هـراة أردت مقامـــي بهـــا
لشتـــى فضائلهـــا الوافـــره
نسيـــم الشمـــال وأعنابهـــا
وأعيـــن غزلانهـــا الساحـــره

راجع معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٩٦، ٣٩٧.

العطشُ وهو يعدُهُمْ ويقولُ وصلتُمْ حتّى كانَ أوّلُ اليومِ الخامسِ، قالَ لَهُمْ: اعلموا أنّ أقربَ المياهِ إليكم الماء الّذي تركتموهُ وراءكُمْ فاصنعوا ما شئتُمْ، وهذا الّذي أرَدْتُ منكُمْ فسقطَ في أيديهم وقتلوه، وساروا حيارى حتّى هلكوا همْ ودوابهُمْ ولم ينجُ منهم إلاّ اليسيرُ.

وقد تحيَّلَ بعضُهُمْ بإنفاذِ كتبٍ معَ جواسيس إلى أعيانِ البلدِ أو الحصنِ كأنّها أجوبة كتُبٍ وصلتْ منهم ليوقع الشكَّ فيهمْ والتّوحّش بينهُمْ والرّيبةَ بهم. وبعضُهُمْ كتبَ ذلكَ في السّهامِ ورمَى بها، تتضمَّن الوعود الجميلة وإسقاطَ الكلفِ الّتي يكرهونها، وربّما تضمَّنت التّهديدَ والتّخويفَ بسبي الذَّراري وقتلهمْ وإخرابِ الدّيارِ وقطعِ الأشجارِ.

وينبغي أن يَقصُدَ إلى المواضعِ المستضعفةِ فيُشدّد في قتالها، وإذا رأى قطعَ الشّجرِ وإحراق الدُّورِ فليَفعَل ذلكَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوْهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِيْنَ﴾[1] وقد قطعَ النبيُّ عليهِ السَّلامُ نخْلَ بني النَّضير. وإن أمكنَ أن تُقطع عنهم الميرةُ والأقواتُ فقد استغنى عن الحصارِ، وكلّ موضعٍ يمكنُ قطع الماء والميرة عنهُ فهو مأخوذٌ لا محالة. وإن كان لَهُمْ في القلعةِ أو البلدِ صهاريجُ فيُدَسُّ إليهمْ من يفسدُها ويُلقي فيها الزّرنيخَ وغيره حتّى يطلبوا الأمان.

وقد تحيَّل بعضُ الملوكِ على فتحِ مدينة بأن جاءَ إلى مَهَبِّ الرّيحِ ودخَّنها بالكبريتِ والجِيفِ حتّى فسدَتْ أهويتهمْ ومرضوا، ومنهم من يطرحُ ذلكَ في المياهِ الداخلةِ إليهم.

---

(١) سورة الحشر (آية رقم ٥).

فصلٌ
في آلاتِ الحصارِ

أعظمُها نكايةً وأشدُّها المنجنيقُ، وهو من وضعِ الفرسِ، ويقالُ إنَّ أوَّلَ من اتَّخذَهُ النّمرودُ بنُ كنعانٍ. وهو على أصنافٍ كثيرةٍ، وفيهِ صغيرٌ وكبيرٌ، منهُ ما هو بلوالب، ومنهُ ما هو بدائرةٍ وفيها ثقّالاتٌ من الرّصاصِ، إذا دار فيها الرّجالُ رفعت السّهمَ، فإذا تُركَتْ رمَتْ فلم تحتج إلى رجالٍ كثيرةٍ، وقد يُتّخذُ بقسيٍّ كبارٍ مَوتورةٍ، وتُجعَلُ قبضاتُها إلى الأرضِ مشدودةً في قواعد المنجنيقِ، وفي أوتارها حبالٌ مشدودة إلى حلقةِ المنجنيقِ، وتحرَّك بزيارٍ قائمٍ حتّى تنفتح أوتارُها، ويحرّك الحجرُ في الكفّةِ، ثمَّ يرمي فتخرجُ أشدَّ ما يكونُ.

وإذا أراد الرّمي بقدورِ النّفطِ أو العقارِب أو ما شاءَ فعلَ، فإنْ كان خفيفاً ثقّلهُ بالرّصاصِ والأحجارِ، وإن كانَ من النّفطِ والنّارِ اتّخذَ لهُ كفّةً منَ الزّردِ وحبلاً بسلاسل.

وأمّا الدبّابةُ فهي آلةٌ ساترةٌ تُتّخذ من الخشبِ الثّخينِ المتلزّز، وتُغلّفُ باللّبودِ أو الجلودِ المنقّعةِ في الخلّ لدفعِ النّارِ، وتركّبُ على عجلٍ مستديرةٍ وتحرّك فتنجرُّ، وربما جعلتْ بُرجاً من الخشبِ ودبّر فيها هذا التّدبير، وقد يدفعُها الرّجالُ فتندفع على البكرِ. وإمّا فليُتّخذ أعلا من السُّورِ ويُدبَّر حركتهُ إمّا بلولبٍ أو بمشاقص يدفعُ بها، لأنّهُ يكونُ من أسفل عريضٌ

دقيقٌ أعلاهُ، مربَّعُ الشَّكْلِ مضلَّعٌ، وفي أسفلهِ بَكَرٌ يركَّبُ عليها وأضلاعٌ على البكرِ، فيأتي الرَّجلُ بالمشقاصِ فيُدخلُها بينَ تلكَ الخشبِ، ويدعمُها على عوجٍ، ثم يقيمُها بمرَّةٍ فتندفعُ وتجري على سهولةِ العجلِ الّتي رُكِّبَتْ عليها، ويصعدُ الرِّجالُ في أعلاهُ وقد أُديرتْ حولهُ السَّتائرُ والطُّوارقُ، ويُستَعلى على السُّورِ ثم يدنيهِ إليهِ فلا يلبثُ أن يأخذه ويحكم على المدينةِ.

والخنادق إن كانتْ قليلة العرضِ فيُطرحُ عليها الأخشابُ كالجسورِ، والرِّجالُ أمامها بالجفاتي تحفظُ صانعها وإن كان عريضاً فيُطرَحُ فيهِ حطب حُزَمٌ وزَرجون وورق وتُراب حتَّى يمتلىء ثم يُطرَحُ عليهِ التُّرابُ أيضاً ليمهِّدَهُ، فإذا انتهى ذلكَ فَلْيَنْقب السُّورَ ويُعَلَّق بالأخشابِ كالدَّعائمِ ثم يُطرحُ فيهِ النَّار فيَسقطُ، وإن لم يُمكن ذلكَ استرقَ موضعاً من السُّورِ بعدَ طمِّ الخندقِ، فيكشفُ شرفاته من الرِّجالِ بالنّشابِ، ثم ينصبُ عليهِ السلالم العراض ويصعدُ فيها الرِّجالُ. وإن كانَ في الخندقِ ماءٌ فيجمعُ لهُ فروعَ الشَّجرِ والحشيش والزرجون كما ذكرنا، وتُثَقَّلُ بالأحجارِ حتَّى تَرسُبَ ثمَّ تكاثر حتَّى تعلو وتُطَمُّ بالترابِ، وإن تعذَّرَ طَمُّ الخندقِ من ظاهرِ فليُبعد عنِ السُّورِ ويحفر تحتَ الأرضِ سرابٌ إلى أن ينتهي إلى حائطِ الخندقِ، فيَطُمّ أو ينقب السورَ فهو آمنٌ.

فصلٌ
في ما يفعلهُ المحصورُ

فينبغي أن يحترزَ أوَّلاً من المستأمنينَ من جميعِ ما قدَّمنا ذِكرهُ لئلا يتم عليهِ حيلةٌ أو غلبةٌ أو تفريقُ كلمةٍ أو فسادُ جماعةٍ، وليَكُنْ بينَ صاحبِ الحصنِ وأهلهِ إشارةٌ وعلامةٌ يعلمونَ بها صحَّة قولهِ إذا كان ممسوكاً ومحبوساً فكثيرٌ ما أُخذت الحصونُ بهذهِ الأمور.

ولا ينبغي أن يُفتحَ بابُ الحصنِ بالليلِ ولا لصاحبهِ لاحتمالِ أن يكونَ معهُ العدوُّ وهو مضطرٌ إلى ذلكَ القولِ مُكرَهٌ عليهِ.

في التاريخِ أنَّ أهلَ حمصَ لمَّا عصَوْا على مروانَ بن محمَّدٍ واتَّفقَ أن قبضَ على صاحبِها معاوية السَّكْسَكيّ فارسِ الشامِ وألزمهُ بتسليمِ الحصنِ والبلدِ فقالَ: احملوني ودعوني أُكلّمهمْ لعلَّهمْ يطيعونني، فوكَّلَ بهِ من يحفظهُ وأتاهُمْ تحتَ السُّورِ وكلَّمهمْ في تسليمِ الحصنِ والبلدِ فانتهروهُ ومنعوهُ، فقالَ: إذا أبيتُمْ: فابعثوا لي غُلامي الأسودَ ميسرةَ ومعهُ ثيابي كلّها آخذُ منها حاجتي وأردُّهُ، ثمَّ رجعَ فسأل مروان للموكلينَ بهِ عمَّا جرى فأخبروهُ، ففطِنَ وقالَ: ويلَكُمْ إنَّهُ أمرَهُمْ أن يُبيِّتوكُمْ وإنَّهُ قالَ إذا أمسَيتُ واسوَدَّ الليلُ فالبسُوا السّلاحَ واحملوا على الميسرةِ وارجعوا، فتأهَّبَ مروانُ[1] لذلكَ فلم

---

(١) سبقت الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية.

يشعرْ إلاَّ والخيلُ قد أقبلتْ وهم مستيقظينَ، فلم ينالوا منهمْ غرّةً ورجعوا خاسرين وأمرَ مروانَ بقطع يدي معاوية ورجليه وينبغي ان يجتهدَ في إرضاءِ أصحابهِ وتأليفِ قلوبهم واجتماعِ كلمتهم مع اشتغالهِ بتفريقِ أعدائهِ وتغيُّرهمْ والتضريبِ بينهم.

يُحكَى أنَّ الأمينَ(١) لمَّا كانَ محصوراً سمعَ ضجّةَ أصحابهِ في القتالِ مع أصحابِ ابنِ طاهرٍ فقالَ: قبحَ اللهُ الفريقينِ هؤلاءِ يطلبون دمي وهؤلاء يطلبونَ مالي، ولم يزل مهملاً لذلكَ حتّى انفلّت أصحابهُ ولحقتْ بابنِ طاهرٍ.

وأمَّا ما يدفعُ بهِ آلاتُ الحصارِ فالمنجنيقُ أشدُّها، فمن أرادَ التّوقّي منهُ يُخرجُ من أعلا السُّورِ أخشاباً طوالاً يُظْهرُها كالجناحِ المطلّ ويُدَلّي منها البُسط والأكسية والشّباك من الحبالِ الغلاظِ واللّبود ما أمكَنَ، فلتكُنْ مُرخاة بعيدةً من السُّورِ فيجيء الحجرُ وقد ضعف فعلهُ وبطلتْ قوّتهُ، وكذلكَ النُّشّابُ والجرخ والزّيارُ لا يتجاوز تلكَ السّتائر.

وأمَّا البرجُ فليُقابَل باتّخاذِ برجٍ آخر فوق القلعةِ أو السُّورِ أعلا منهُ ليحكُم عليهِ.

وأمَّا الدبَّابةُ فدفعُها بمنجنيق بغير وزنهِ عليها فإن كانت برجاً خسفها، وإن كانت بستائر فُرّقَتْ من خلفها وإن غفلوا عن الجلودِ واللّبودِ المبلولةِ بالخلّ والنّفطِ يلقى في جميعِ ذلكَ.

وينبغي أن يحفرَ حولَ البلدِ حفايرِ وتُغطّى بقصبٍ وقضبانٍ فوقهُما تُرابٌ، فإنَّ الخيلَ تُعْثَرُ فيها وتتقنطرُ براكبها في الحُفَرِ. وكذلكَ يُطرَحُ في الأرضِ الحَسَكُ الحديدُ المُثلَّثُ وهو بأربعِ أصابع وهذهِ صورتُهُ  فإنَّهُ

---

(١) سبقت الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية.

كيفَ ما وقعَ على الأرضِ كانَ منهُ سنٌّ مرتفعٌ تعطَبُ بهِ الخيلُ وغيرها.

وإن كانت الأرضُ ليّنةً وأمكنَ تغريقُها بالمياهِ لتتوحّل فهوَ مانعٌ من دخولها. وإن كانتِ الارضُ صلبةً فزِدْ في توعيرها بالصَّخرِ والحجرِ وأفسِد المياه الّتي حَوْلَ البلدِ إن لم يكُنْ لكَ بهِ انتفاعٌ، وقابلَ النُّفطَ بالخلِّ وبالمُغرَةِ وبالشَّبِّ المخلوطينَ المبلولينَ، وكذلكَ بالتُّراب.

وادّخر في الحصنِ من الأقواتِ والحطبِ والملحِ ما أمكنَ، واللّبودِ المَطبوخةِ واللّحومِ المُقدَّدَةِ والحبوبِ الّتي يَطولُ مكثُها مثلَ الدُّخنِ والّذي لا يدومُ ففي سنبلهِ وأصلُ جميعِ ذلكَ الماء فمنهُ مادّةُ الحياةِ، فما لا ماء فيهِ لا حيوان فيهِ ولا مقامَ بهِ.

الباب العاشر

في حروبِ البحرِ

قال ﷺ في حديثِ أمّ حرامٍ بنت ملحان: «عرضَ عليَّ قومٌ غُزاةٌ من أمّتي يركبونَ ثبجَ هذا البّحرِ» فقالت ادعُ اللهَ أن يجعلني[1] منهم.

والحربُ في البحر شديدٌ صعبٌ عسرٌ وذلكَ أنَّ المجالَ ضيّقٌ فلا تكادُ السّهامُ والأحجارُ تخطىء وكلّ رشقٍ يُنكيء ومنها اختلافُ الرّياحِ بما يضرُّ أو سكونِها عندَ وقتِ الحاجةِ إليها، ومنها أنّهُ لا يمكنُ فيهِ الهربُ والفرارُ إن اقتضتِ المصلحةُ ذلكَ وإلاَّ الاستتارُ.

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد ٣ باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ٢٧٨٨ ــ ٢٧٨٩ حدثنا عبدالله بن يوسف عن مالك عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه أنه سمعه يقول: كان رسول الله ــ ﷺ ــ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ــ ﷺ ــ فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ــ ﷺ ــ ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله..؟

قال: وذكره.

ورواه أيضاً في الاستئذان ٤١ والتعبير ١٢ ورواه الإمام مسلم في الإمارة ١٦٠، ١٦٢ والترمذي في فضائل الجهاد ١٥ والنسائي في الجهاد ٤٠ وصاحب الموطأ في الجهاد ٣٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٤٠ (حلبي).

قال جاماسبُ: إنَّ الشطرنجَ وضعَ لتمثيلِ حربِ البرِّ، والنردُ وضعَ لتمثيلِ حرب البحرِ، فإنَّ صاحبَ النَّردِ وإن وضعَ المهارِكَ في المواضعِ الجيّدةِ واحترزَ فإذا جاءت الفصوصُ بما لا يوافقُ الغرضَ ثمَّ لم ينتفعْ احترازهُ وبطلَ عليهِ تدبيرهُ كاختلافِ الرّيحِ واضطرابِ البحرِ قالَ المتنبّي في المعنى:

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركهُ   تجري الرِّياحُ بما لا تشتهي السفنُ

وبالجملةِ يجبُ على والي حرب البحر أن يستجيد المراكب ويستجدّها ويكثِّر تقويتها وادخارِ آلاتها، حتّى إذا تلفَ شيءٌ من ذلكَ وجدَ ما يخلفهُ، ويحتاطُ في تقييرها وإحكامِ ما لا يلاقي الماءَ منهُ فإنَّهُ الأصلُ الّذي يعوِّلُ عليهِ، ويستنخب القوّاد والرؤساء العارفين بمسالكِ البحرِ ومراسيهِ وعلاماتِ الرِّياحِ وتغيُّراتِ الأنواءِ والحركات البحريّة من المدّ والجزرِ وغيره، وقد صُنِّفت الكتبُ في ذلكَ واستقصي الشّرحُ فيها، ثم يشحنها بالزّردِ والخُوَذِ والدَّرقِ والتّراس والرِّماحِ والقسيّ والكلاليبِ والباسليقاتِ وهي بسلاسل بعصيّ في رؤوسها رمّانة حديدة.

وقد يتّخذُ في بعضِ المراكبِ العرادة وهي صورةُ منجنيقٍ لطيفٍ ويستعدُّ من الأحجار ما يرمى بها وكذلكَ من الحجارِ الصّغارِ الكفيَّةِ الّتي ترمى من التّوابيتِ في أعلا الصّواري وهي صناديق مفتوحةُ الرّأسِ يصعدُ الرُّماة فيها إلى أعلا الصّاري قبلَ دنوِّ العدوِّ كيلا تنالهُ سهامهمْ، فإنَّ دهموهُ صعدَ مترِّساً، ثمَّ إذا حصلَ فيها وضعَ قدميهِ على أضلاعٍ معارضةٍ في أسفلِ الصّندوقِ فيقف وهو ساترٌ لهُ ويدلّي مخلاةً، يملؤها حجارةً ويرفعُها إليهِ ويقاتل بها، وكذلكَ يُرمي بقواريرِ النِّفطِ.

ويرمى في المراكبِ جرارِ النورةِ المدقوقةِ غيرِ المطفأةِ فإنَّها تعميهمْ بغبارها وتلهبُ عليهم إذا تبدَّدتْ، ويُرمَى عليهم النُّفطُ وقدور الحيَّاتِ والعقاربِ وقدورُ الصّابونِ اللّينِ، فإنَّهُ يزلِّقُ اقدامهُمْ، وقدورُ السِّدْرِ والخطمي المضروبينِ، ويعلّقُ حولَ المراكبِ الجلودُ واللُّبودُ المبلولة بالخلِّ أو الماءِ

لدفعِ النِّفطِ، ويحترسُ من هجومِ العدوِّ عليهِ في اللَّيلِ، فلا يتّخذْ في المراكبِ ناراً ولاَ يشعلُ مصباحاً، ولا يتركُ فيهِ ديكاً. وإن اشتدَّ الخوفُ عليهِ وأرادَ الاختفاء فليجدّ لهُ قلوعاً زُرقاً كيلا تظهرُ من بعدٍ.

وينبغي أن لا يهجمَ على المراسي لئلاَّ تكونَ مراكبُ العدوِّ بها كامنة، ولا يتقدَّمُ إلى البرِّ إلاَّ بعد المعرفةِ بهِ والاحترازِ من الأحجارِ والشّعابِ والأحارشِ الّتي تتكسرُ عليها المراكب، ويُكثِرُ من الماء والزّادِ ليستظهرَ على طولِ المدَّةِ إن دعتِ الحاجةُ إليها كادّخارِ أصحابِ الحصونِ. وإن كانَ القتالُ بقربِ البرِّ والسواحل والجزائرِ فليجعلْ عيونهُ وطلائعهُ على الجبالِ والمراقبِ ليعلمَ قصدَ العدوِّ لهُ وقربَهُ من بُعدهِ، فيتأهَّبُ لذلك، ويفعلُ مقدّمُ المركبِ من تأليفِ أصحابهِ ووعدهمْ واستمالتهمْ وتحريضهمْ قبلَ الحربِ كما يفعلُ والي البرِّ وأبلغُ من ذلكَ، لأنَّ هذا لا منجى منهُ ولا مخلصَ إلاَّ بصدقِ القتالِ إمَّا كاسرٌ أو مكسورٌ.

والمراكبُ الكبارُ إن سكنَ الرّيحُ عنها جذبتها الشّواني إلى موضعِ القتالِ والمراكب الصّغارُ والشّواني لا ينبغي أن تأتي خلفَ البُطسِ والمُسَطّحاتِ، فإنّها تغرقُ في واديها، وأمّا من جانبها فلا يمكنها الالتصاقُ بها بل تقابلها عن بعدٍ وتنطحُها بالفأسِ الّذي يقال لهُ اللّحامُ وهي حديدةٌ طويلةٌ محدَّدةُ الرّأسِ جداً وسفلُها مجوَّفٌ كسنانِ الرُّمحِ يدخلُ عندَ الحربِ في أسطامِ المركبِ، وهي الخشبةُ التي في مقدّمِ الشيني، وإذا أمكنَهُم الفرصة تأخَّرُوا بهِ قليلاً، ثم قذفوا قذفةً واحدةً قويّةً فينطح المركب فيخرقهُ ويدخلُ الماءُ فيهِ فيطلبونَ الأمانَ، وإذا تقرَّبَ الشّينيُ من الشّيني طُرِحَتْ فيهِ كلاليبٌ كبارٌ من الحديد فيها سلاسل معقودةٌ الى المركبِ فتوقفهُ، ثم يطرحُ الألواحَ بينهما كالجسرِ ويدخلونَ إليهِ ويقاتلونَ، وليسَ في حربِ البحرِ شيءٌ أصعبُ من النِّفطِ بسببِ الزّفتِ والقيرِ الّذي يُطلى بهِ المركبُ، فيحتاطُ لدفعِ ذلكَ باللُّبودِ المبلولةِ بالخلِّ والشّبِّ والنطرونِ ومما يدفعهُ الطينُ المخلوطُ بالبورقِ والنّطرونِ والخطميّ المعجونِ بالخلِّ، كلُّ ذلكَ يُقاومُ النّفطَ. والأصلُ

فِي قتالِ البحرِ معرفةُ الرِّياحِ وتحرُّك المراكبِ بالأَرْجُلِ حتَّى يتقدَّمَ مركبَ خصمِهِ أو يعلو عليهِ فوقَ مهبِّ الرِّيحِ. وأمَّا القولُ في الخُلجانِ والأنهارِ الصِّغارِ فهو دونَ هذا، وهو قريبٌ من قتالِ البرِّ لإمكانِ الهروبِ والصُّعودِ إلى البرِّ في كلِّ وقتٍ، وإنَّما يصعبُ فيهِ السُّلوكُ في الدَّحالِ والمضائقِ، ويكونُ العدوُّ على البرِّ فيجذبُ بالكلاليبِ والخطاطيفِ ويرمي بالسِّهامِ والحجارِ. فأمَّا الكُلاَّبُ فيُضربُ بفأسٍ ثقيلٍ فولاذٍ يقطعهُ. وأمَّا الدِحالُ والآجامُ فلا سبيلَ إلى دخولها إلاَّ بدليلٍ من أهلِها، ويتوقَّى المواحلَ الَّتي فيها والمضائق ويقصدُ الأطرافَ وإن كانَ متولي الحربِ كثير التَّجربةِ والتَّدبيرِ ظَفِرَ بعدُوِّهِ إذا ساعدَتْهُ المقاديرُ.

واللهُ تعالى يُديمُ أيّامَ مولانا السُّلطان الملكِ المظفَّرِ ركنِ الدُّنيا والدِّينِ سيِّد الملوكِ والسَّلاطينِ بيبَرس المنصوري في سعادةٍ مستقرَّةٍ وسيادةٍ على ممرِّ الزَّمانِ مستمرَّةٍ، فالعدوُّ يسالمهُ من خوفِ سطوتهِ، والملوكُ تخدمهُ لشمول نعمتهِ، والكتبُ تخلِّدُ بمحاسنِ سيرتهِ، والألسنُ والأقلامُ تتوافقُ على فضائلِ دولتهِ، جعلها اللهُ للعدلِ مواسم وللجود مباسم.

لا خابَ أملُهُ، ولا خبَّ الرَّدى يوماً إليهِ، ولا خَبَتْ نيرانهُ، واللهُ يحرسهُ ويحفظُ ملكَهُ ويُديمُ دولتهُ ويعلي شأنهُ.

تمَّ الكتابُ المباركُ بحمدِاللهِ وعونهِ المسمَّى **بآثارِ الأُولِ في ترتيبِ الدُّولِ**. ممَّا جمعهُ ونسخهُ وأذهبهُ العبد الفقير إلى اللهِ تعالَى الرَّاجي عفو ربه الحسنُ بن عبدِاللهِ أبي محمَّدٍ بن عمر بن محاسنَ بنِ عبدِ الكريمِ بنِ عبدِ المحسن بن عبدِ الكريمِ بن محمَّد بن هرون بن محمد بن هرون ابن محمد بن عبد اللهِ بن محمد بن علي بن عبد اللهِ بن العبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ.

ووافقَ الفراغُ منهُ في يومِ الثلاثاء ثامن عشر شهر ربيع الأوَّلِ من شهورِ سنة تسع وسبع مائة الهلاليَّةِ أحسنَ اللهُ خاتمتها.

فالحمد للهِ رب العالمين وصلوا على سيِّدِ المرسلين وآله وصحبه وسلم

الأطراف وإن كان متولي الحرب كثير التجربة والتدبير
ظفر بعدوه إذا ساعدته المقادير والله تعالى
يديم أيام مولانا السلطان الملك المظفر ركن الدنيا
والدين سيد الملوك والسلاطين بيبرس المنصوري في سعادة
متسقة وسيادة على ممر الزمان مستمرة فالعدو
يسأل الله من خوف سطوته والملوك تخدمه لشمول
نعمته والكتب تخلد محاسن سيرته والألسن
والأقلام تتوافق على فضائل دولته جعلها الله
للعدل مواسم وللجود مباسم ٥
لا خاب آمله ولا أخطأ الردى يوماً إليه ولا أخبت نيرانه
والله يحرسه ويحفظ ملكه ويديم دولته ويعلي شانه.
تم الكتاب المبارك
بحمد الله وعونه المسمى بآثار الأول في ترتيب

الجزء الأول ه تم جمعه ونسخه وأذهبه
العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي غفرانه
الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عمر بن محاسن بن
عبد الكريم بن عبد المحسن بن عبد الكريم بن محمد بن
هرون بن محمد بن هرون بن محمد بن عبد الله بن
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه
ووافق الفراغ منه في يوم الثلثا
ثامن عشر شهر ربيع الأول من شهور
سنة تسع وسبع مائة الهلالية
أحسن الله خاتمتها
الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم

فهارس كتاب
أثار الأول في ترتيب الدول

فهرس الآيات القرآنية

عدد مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية
١	قال تعالى : « وما جعله الله إلاّ بُشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. »	آل عمران	١٢٦
٢	قال تعالى : « وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين. »	الذاريات	٥٥
٣	قال تعالى : « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء. »	البقرة	٢٤٧
٤	قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين. »	البقرة	٢٥١
٥	قال تعالى : « قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتُذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير. »	آل عمران	٢٦
٦	قال تعالى : « ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث. »	يوسف	١٠١
٧	قال تعالى : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً. »	المائدة	٢٠

رقم الآية	السورة	الآيـــة	عدد مسلسل
٤٢	يوسف	قال تعالى : « اذكرني عند ربك. »	٨
٤٠	الحج	قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. »	٩
٢٦	ص	قال تعالى : « يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق. »	١٠
١٢٩	الأعراف	قال تعالى : « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون. »	١١
٩٠	النحل	قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان. »	١٢
١٥٢	الأنعام	قال تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا. »	١٣
٢٠	ص	قال تعالى : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب. »	١٤
٢٠	ص	قال تعالى : « وآتيناه الحكمة. »	١٥
١٧	الشورى	قال تعالى : « أنزل الكتاب بالحق والميزان. »	١٦
٢٩	الأسراء	قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط. »	١٧
٢٧	الشورى	قال تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء. »	١٨
١	المائدة	قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُمٌ إن الله يحكم ما يريد. »	١٩
١١٩	التوبة	قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين. »	٢٠

عدد مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية
٢١	قال تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. »	الأحزاب	٢٣
٢٢	قال تعالى : « إذ جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون. »	المنافقون	١
٢٣	قال تعالى : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب. »	ص	٢٣
٢٤	قال تعالى : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً. »	الفتح	١٠
٢٥	قال تعالى : « يا أياه الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. »	النساء	٥٩
٢٦	قال تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. »	النور	٣٧
٢٧	قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً. »	السجدة	١٦
٢٨	قال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. »	التغابن	١٦
٢٩	قال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً. »	البقرة	٢٧٣
٣٠	قال تعالى : « إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق قال إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح. »	هود	٤٥
٣١	قال تعالى : « واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري. »	طه	١١١

عدد مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية
٣٢	قال تعالى : « وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله. »	آل عمران	١٥٩
٣٣	قال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. »	الفيل	١
٣٤	قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم. »	التوبة	١٠٣
٣٥	قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل. »	التوبة	٦٠
٣٦	قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. »	النساء	٥٨
٣٧	قال تعالى : « وزاده بسطة في العلم والجسم. »	البقرة	٢٤٧
٣٨	قال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. »	المائدة	٦٧
٣٩	قال تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم. »	النساء	١٨٩
٤٠	قال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. »	الانسان	٨
٤١	قال تعالى : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون. »	الأعراف	٢٠٤
٤٢	قال تعالى : « وإذا حللتم فاصطادوا. »	المائدة	٢
٤٣	قال تعالى : « وما علمتم من الجوارح مكلِّبين	المائدة	٤

عدد مسلسل	الآيـــة	السـورة	رقم الآية
	تعلّمونهنّ مما علمكم الله فكلوا مما أمسكْنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه. »		
٤٤	قال تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم. »	محمد	٣٣
٤٥	قال تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. »	الصف	٤
	قال تعالى : « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله. »	آل عمران	١٦٩
٤٦	قال تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل. »	الأنفال	٦٠
٤٧	قال تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة. »	النحل	٨
٤٨	قال تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم. »	التحريم	٩
٤٩	قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين. »	التوبة	١٢٣
٥٠	قال تعالى : « يا أيها النبي حَرِّض المؤمنين على القتال. »	الأنفال	٦٥
٥١	قال تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. »	الصف	٤
٥٢	قال تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. »	البقرة	٢٤٩

عدد مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية
٥٣	قال تعالى : « ويوم حنين اذا اعجبتكم كثرتكم. »	التوبة	٢٥
٥٤	قال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. »	الانسان	٨
٥٥	قال تعالى : « إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون. »	الشعراء	٥٤ـ٥٥
٥٦	قال تعالى : « فاستخف قومه فأطاعوه. »	الزخرف	٥٤
٥٧	قال تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليجزي الفاسقين. »	الحشر	٥

فهرس الأحاديث النبوية

عدد مسلسل	الحديـــث	رقم الصفحة
١	قال رسول الله ﷺ : « السلطان ظل الله في الأرض يأوي اليه كل ملهوف. »	٥٩
٢	قال رسول الله ﷺ : « أخبرني ربي أن ربك هلك البارحة. »	٦٠
٣	قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. »	٦٨ ــ ٩٤
٤	قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله إمام عادل. »	٦٨
٥	قال رسول الله ﷺ : « المؤمن لا يكذب. »	٨٤
٦	قال رسول الله ﷺ : « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا. »	٨٤
٧	قال رسول الله ﷺ : « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً إلاّ مات ميتة جاهلية. »	٩٣
٨	قال رسول الله ﷺ : « اللهم : من ولي من أمر أمتي شيئاً	٩٥

عدد مسلسل	الحديث	رقم الصفحة
	فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به. »	
٩	قال رسول الله ﷺ : « من ترك كلاً أو ضياعاً فإلىي وعليّ. »	١٠٩
١٠	قال رسول الله ﷺ : « رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه. »	١٢١
١١	قال رسول الله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء. »	١٢١
١٢	قال رسول الله ﷺ : « من أكرم قريشاً أكرمه الله ومن أهانها أهانه الله. »	١٣١
١٣	قال رسول الله ﷺ : « ارحموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر. »	١٣١
١٤	قال رسول الله ﷺ : « من مات وليس في عنقه بيعة فكأنما مات ميتة جاهلية. »	١٣٩
١٥	قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه. »	١٤٤
١٦	قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — والزبير، والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا الى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب فقالت : ما معي من كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي — ﷺ — فاذا هو من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر النبي عليه السلام. »	١٧٨

عدد مسلسل	الحديث	رقم الصفحة
١٧	قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له. »	١٨٩
١٨	قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء زكاة وزكاة الجاه بذله للضعفاء. »	١٨٩
١٩	قال رسول الله ﷺ: « اذا أبردتم اليَّ بريداً فأبردوه حسن الاسم حسن الوجه. »	١٩١
٢٠	قال رسول الله ﷺ لما دنا سعد بن معاذ : « قوموا الى سيدكم. »	٢٠٠
٢١	قال رسول الله ﷺ : « بعثت لأتم مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات. »	٢٠٠
٢٢	قال رسول الله ﷺ : « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه. »	٢٠٤
٢٣	قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك. »	٢٢٥
٢٤	قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له. »	٢١٩
٢٥	قالت عائشة : أي نسائك أحب اليك يا رسول الله..؟ فقال : « صاحبة التفاحة. » فسرَّ ذلك جميعهنّ. وكان قد أعطى كل واحدة منهن تفاحة وأمرها أن تكتم على صواحباتها. »	٢٢٥
٢٦	قال رسول الله ﷺ : « إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل ما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب، فإنّ أكل الكلب فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه وإن خالطها كلاب غيرها فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره. »	٢٦٣

عدد مسلسل	الحديث	رقم الصفحة
٢٧	قال رسول الله ﷺ : « ما أمسك عليك فكل. »	٢٦٣
٢٨	عن عدي بن حاتم قال : قلت : إني أرمي بالمعراض. فقال عليه السلام : « اذا رميت بالمعراض فخرق فكله وإن أصابه بعرضه فلا تأكله. »	٢٦٣
٢٩	قال رسول الله ﷺ : « إذا رميت سهمك فاذكر اسم الله فإن وجدته قد قتل فكل إلا أن تجده قد وقع في ماء فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك..؟ »	٢٦٤
٣٠	عن أنس قال : « نفحنا أرنباً بمر الظهران فسعوا عليها حتى لغبوا فسعيت عليها حتى أخذتها فجئت بها الى أبي طلحة فبعث الى النبي ﷺ بفخذها ووركها. فقبله. »	٢٦٥
٣١	عن خزيمة بن جرير قال : سألت النبي ﷺ عن أكل الضبع فقال: « أو يأكل الضبعَ أحدٌ. »	٢٦٥
٣٢	عن يزيد بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أكلت مع النبي ﷺ لحم حبارى. »	٢٦٥
٣٣	عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : « نهى رسول الله ﷺ عن أكل ذي ناب من السباع وأكل ذي مخلب من الطير. »	٢٦٦
٣٤	عن أسماء بنت أبي بكر — رضي الله عنهما — قالت : « ذبحنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً ونحن بالمدينة فأكلناه. »	٢٦٦
٣٥	وعن خالد بن الوليد، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. »	٢٦٦
٣٦	قال رسول الله ﷺ : « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. »	٢٩٦
٣٧	قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قاتل في سبيل الله فواق ناقة	٢٩٦—٢٩٧

عدد مسلسل	الحديث	رقم الصفحة
	حسبت له الجنة، وَمَنْ سأل الله القتل من عند نفسه ثم مات أو قتل فله أجر شهيد، وَمَنْ جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها كالزعفران وريحها كالمسك. »	
٣٨	قال رسول الله ﷺ : « ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار، وعليكم بكل كميت أغرّ محجل أو أشقر، أغر محجل أو أدهم أغر محجل. »	٣٠٨
٣٩	قال رسول الله ﷺ : « خير الخيل الأدهم الأرثم المحجل طلق اليمين فإن لم يكن فكمت على هذه الشية. »	٣٠٨
٤٠	وعن جرير بن عبدالله — قال : رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرسه بأصبعه وهو يقول : « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الأجر والغنيمة. »	٣٠٨—٣٠٩
٤١	وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : كان رسول الله ﷺ يكره الشكال من الخيل، والشكال أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى أو بالعكس. »	٣٠٩
٤٢	عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا هو الرمي » يكررها ثلاثاً.	٣١١
٤٣	وعن سلمة بن الأكوع : قال : مرّ رسول الله ﷺ على نفر من أسلم يتناضلون. فقال : ارموا بني اسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع بني فلان. قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم. فقال عليه السلام : ما لكم لا ترمون..؟ قالوا : كيف نرمي وأنت معهم..؟ قال عليه السلام : ارموا وأنا معكم كلكم. »	٣١٢

عدد مسلسل	الحديث	رقم الصفحة
٤٤	عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها. »	٣٢٥
٤٥	عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ قال : « كل ميت يختم عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمي عمله الى يوم القيامة. »	٣٢٥
٤٦	عن أنس بن مالك — رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اني أعوذ بك من الهم والحزن والكسل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال. »	٣٤٤
٤٧	وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال رسول الله ﷺ : « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع. »	٣٤٤
٤٨	عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ : كان النبي ﷺ يغير اذا طلع الفجر وكان يتسمع الأذان فإن سمع آذاناً أمسك وإلا أغار. »	٣٤٦
٤٩	قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يستقبلوا قبلتنا وأن يأكلوا ذبيحتنا وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. «وجدتموهما فاقتلوهما. »	٣٤٧
٥٠	عن أبي هريرة قال : بعثنا رسول الله ﷺ في بعث وقال : « ان وجدتم فلاناً وفلاناً لرجلين من قريش فأحرقوهما بالنار، ثم قال عليه السلام حين أردنا الخروج : « إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً وأن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما. »	٣٤٧—٣٤٨

رقم الصفحة	الحديث	عدد مسلسل
٣٤٨	عن بريدة بن حصيب قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمّرَ أميراً على جيش أو سرية وصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : « أغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله واغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً. »	٥١
٣٤٩	عن عبدالله بن عمر — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من أربعين سنة. »	٥٢
٣٤٩	قال رسول الله ﷺ : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء. »	٥٣
٣٥٠	قال رسول الله ﷺ : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة. »	٥٤
٣٥٧	قال رسول الله ﷺ : « من أمن رجلاً على ذمة ثم قتله فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة. »	٥٥
٣٦٠	قال رسول الله ﷺ في حديث أم حرام بنت ملحان : « عرض عليَّ قوم غزاة من أمتي يركبون البحر، فقالت ادع الله أن يجعلني منهم. »	٥٦

فهرس الأشعار

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
١	ترى الناس في أثوابه ورحابها كأنهم من فرط كثرتهم نمل قد ازدحموا في موارد الفضل والعطاء كل امرئ قد عمّه ذلك الفضل	٤١
٢	لله من ملك إذا ما لامست كفاه بحراً صار ذاك زلالا ملك غدت كل الملوك ببابه مستمطرين نواله افضـالا مستمسكين بحبل عروته التي أضحى غمام جميلها هطالا ملك بدايته نهاية غيره كالبدر أو ما يكون هلالا كمل الخصائل ذو المكارم والتقي فالله يكفيه الزمان كمالا	٤٢
٣	فلم تك تصلح الا لـه ولم يكن يصلح إلا لهـا ولـو رامهـا أحـد غيـره لزلـزلت الأرض زلزالهـا	٤٣
٤	قال الشاعر : لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهّالهم سادوا	٥٩
٥	قال المتنبّي : اذا استقبلت نفس الكريم مصابها بحيث تلت فاستدبرته بطيبُ	٦٥
٦	قال المتنبّي : وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلائق	٦٥

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
٧	قال المتنبي :	
	ولله سر علاك وإنما كلا ... مُ العدى ضرب من الهذيان	٦٦
٨	قالت امرأة بين يدي المأمون :	
	يا خير منتصف يهدي له الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد	٧٢
	تشكو اليك سليل الملك أرملة ... عدا عليها فلم يقو به أحد	
	فابتز مني ضياعاً بعد منعتها ... وقد تفرق عني الأهل والولد	
٩	فأجابها المأمون ارتجالاً :	
	من دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... مني ودام به في قلبي الكمد	٧٢
	هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي ... واحضري الخصم في اليوم الذي أعد	
	والمجلس السبت إنه يقضي الجلوس لنا ... انصفك فيه والمجلس الأحد	
١٠	قال المتنبي :	
	كالبحر يقذف للقريب جواهراً ... أبداً ويبعث للبعيد سحابا	٧٤
١١	قال السموّال بن غريض :	
	إذا سيِّد منا خلا قام سيد ... قؤول لما قال الكرام فعول	١٣٠
	وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول	
١٢	قال الشاعر :	
	لا تحقرن الرأي وهو موافق ... حكم الصواب إذا أتى من ناقص	١٤٨
	فالدر وهو أجل شيء يقتنى ... ما حط قيمته هوان الغائص	
١٣	قال نصر بن سيار :	
	أرى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون لها ضرام	١٨١
	فإن النار بالزندين تورى ... وإن الحرب أوله كلام	

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
	وإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام أقول من التعجب ليت شعري ايقـــاظ أميـــة أم نيـــام	
١٤	قال سلمة بن الأكوع :	
	أنـــا ابـــن الأكـــوع واليـــوم يـــوم الرضـــع	١٨٤
١٥	قال الشاعر :	
	كم ملك تحمد أخلاقه وترغب الأحرار في خدمته قد أكثر الحاجب أعداءه وسلط الذم على دولته	١٨٨
١٦	قال الشاعر :	
	إن أسيافنا العضاب الدوامي صيرت ملكنا قرين الدوام واقتسام الأموال من وقت سام واقتحام الأهوال من وقت حام	٢٠٣
١٧	قال الشاعر :	
	لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد	٢٠٣
١٨	قال معاوية :	
	ليس الغبي بسيِّدٍ في قومه لكن سيد قومه المتغابي	٢٠٥
١٩	قال محمد الباقر :	
	لصلصلة اللجام برأس طرف أحب اليَّ مما تغمزيني أخاف بأن يمر بنا مضيق فيمنعك الردى أن تلحقيني	٢٢٥
٢٠	قال الشاعر :	
	رحلنا وخيلنا على الأرض زادنا وللطير في زاد الكرام نصيب	٢٤٠
٢١	قال الشاعر :	
	وإذا أتـاه طعامـه لغذائـه رفعت له الأستار والأبواب وتهاتف الغلمان في جيرانه فتسامع المعتز والمهتـاب	٢٤١

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
٢٢	قال الشاعر : يود وداداً أن أعضاء جسمه إذا أنشدت شوقاً اليها مسامع	٢٥٢
٢٣	قال الشاعر : جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن غنت فلم يبق فيّ جارحة الا تمنت لو أنها أذن	٢٥٢
٢٤	قال الشاعر : تا الله لو أنصف الأقوام أنفسهم أعطوك ما ادخروا منها وما صانوا ما أنت حين تغني في مجالسهم الا نسيم الصبا والقوم أغصان	٢٥٣
٢٥	قال الشاعر : اذا اختلجت أنامله لرقص نزت حب القلوب إليه نزوى حبيبي أنت أحسن من تثني علي وتر وأحسن من تلوى	٢٥٣
٢٦	قال الشاعر : لما تبدت بين أترابها مطربة عيل بها صبري شبهتها والدف في كفها شمس الضحى تلعب بالبدر	٢٥٣
٢٧	قال الشاعر : وكأنه في حجرها مسترضع ضمته بين ترائب ولبان طوراً تدغدغ بطنه فإذا هفا عركت له اذن من الأوذان	٢٥٣
٢٨	قال الشاعر : سقى الله أرضاً أنبتت عودك الذي زكت منه أعراق وطابت مغارسُ	٢٥٣
	تغني عليه الطير والعود أخضر وغنى عليه الناس والعود يابس	٢٥٣

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
٢٩	قال الشاعر :	
	في كف جارية كأن بنانها من فضة قد قمِّعت عنابا	٢٥٣
	وكأن يمناها إذا نطقت بها ألقت على يدها الشمال حسابا	
٣٠	قال علي بن جهم في وصف الشطرنج:	
	أرض مربَّعة حمراء من أدم ما بين جيشين مصفوفين بالكرم	٢٦٠
	تذاكر الحرب فاحتالا لها شبهاً من غير أن يأثما فيها بسفك دم	
	هذا يكر على هذا وذاك على هذا يكر وعين الحرب لم تنم	
	فانظر الى فِطن جاشت بفكرهما بعسكرين بلا طبل ولا علم	
٣١	وقال أبو بكر فيها :	
	إنمـا لعبك بالشطرنـــج رياضـــة	
	فاهجر الهجر لديها لا ترد يوماً حياضه	٢٦٠
	وتجنب صاحب الجهل ومن فيه فظاظة	
	لا تجالس غير ندب زانه العقل وراضه	
٣٢	وقال الشيخ رشيد الدين الفاروقي :	
	حقق مقاصد كل نقل واثنه عنه ولا خط ما على الشاهين	٢٦١
٣٣	قال الشاعر :	
	أقول لصحب ضمت الكأس شملهم	
	وداعـي صبابـات الهـوى يترنـــم	٢٦٩
	خـذوا بنصيب من نعيـم ولـذة	
	فكـل وإن طـال المـدى ينصـــرم	
٣٤	قال الشاعر في وصف الفهد والكلب :	
	كأن الريح حين يلوح سرب أعارتـه معالجـة الهبـــوب	٢٧١
	يغير فيجعل النائي قريبـاً ويسلب مهجة الظبي الربيب	
	يلاحظ منه حين يحول جسماً تدرع حالياً حب القلوب	

عدد مسلسل	البيـــان		رقم الصفحة
٣٥	وقال الشاعر في جودة صيده :		
	يشد على الطريدة ثم يهوى	فليس يرى به الا التماحا	٢٧١
	فيدربها معالجة كأن قد	تضمن كفه القدر المباحا	
٣٦	وفي صفة كلاب الصيد :		
	شمردلات واسعات الحدق	سود الزلاليم وشغل الأحداق	٢٧١
	غلب مهاريب طوال الأعناق	قب شواظ شرسات الأخلاق	
	يلثمن ترب الأرض لثم المشتاق	كأنهن يستمحن الأرزاق	
	للوحش من سلطانهن أفراق	لا عاصم منها ولا من واق	
٣٧	قال الشاعر :		
	يا جاعل العلم له بازيـاً	يصطاد به أموال المساكين	٢٧٢
	احتلت للدنيا ولذاتهـا	بحيلـة تـذهب بالديـن	
	فصرت مجنوناً بها بعدما	كنت دواء للمجانيـن	
	أين رواياتك في سردهـا	لتـرك أبـواب السلاطيـن	
	أين رواياتك فيما مضـى	عن ابن عوف وابن سيرين	
	إن قلت أكرهت فذا باطل	ذل حمار العلم في الطين	
٣٨	قال الشاعر :		
	شهم غدا يزينه اصفراره	محمودة في صيده آثاره	٢٧٣
	طائره لم ينجه فراره	ولم يوق نفسه نفاره	
	كأنما سفك الدما شعاره	أو حلّ في منسره سفاره	
٣٩	وفي باز أسود :		
	جون يلاحظ منه منظراً حسناً	له تصير البزاة البيض كالرخم	٢٧٣
	ينال حامله من حمله تعب	يعود منه الى الاعراض والسأم	
	كأنما بين هاديه ونيفقه	تلهب النار في دق من الفحم	

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
٤٠	وفي باز أشهب :	
	وأشهب كبياض الثلج ما سمحت	
	بمثـل صورتـه بـيض الأعاصيـــر	٢٧٣
	كـــأن حمـــرة عينيـــه وهامتـــه	
	سلافة فضلت في كـأس بلـــور	٢٧٤
	وأنظر الى نقط في جوجو لطفت	
	كأرجل النمل في تمثال كافـور	٢٧٤
٤١	وفي باز أحمر :	
	وباز غريب الشكل قد فاق منظراً ... بحمرته قد فاق أبناء جنسه	٢٧٤
	له حدق كالنار ترمي لهيبها ... على جسمه فاحمر منها بلمسه	
	وما أحرقته النار لكن تمرشت ... بهاء بمسود على ثوب لبسه	
	له الفخر في اطلاقه ودعاله ... ولا غرو أن يأتي الفخار بنفسه	
	يطير فيصطاد الطيور وينثني ... فواعجباً من عوده نحو حبسه	
	تأنس بالاحسان لم يزل به ... يسترق الحر كل بأنسه	
٤٢	قال الشاعر :	
	إن الغراب وكـان يمشي مشيـة	٢٧٧
	فيمـا مضـى مـن سالـف الأجيـال	
	حسد القطاة ورام يمشي مشيهـا	
	فأصابـه ضـــرب مـــن العقـــال	
	فأضـل مشيتـه وأخطـأ مشيهـــا	
	فلـــذاك سمـــوه أبـــا المرقـــال	
٤٣	قال الشاعر :	
	بيضاء كافورية اللون ما تنجو سباع الطير من كيدهـا	٢٧٨ـ٢٧٩
	وكلمـا يعلـوه ريش ففي قبضتهـا كـره وفـي صيدهـا	

عدد مسلسل	البيـــان		رقم الصفحة
٤٤	وفيها :		
	وبحرية زمجية اللون طرزت	بأفعالها المستحسنات نعوتها	٢٧٩
	اذا أرسلت رامت علواً كأنما	أعد لها في منتهى الجو قوتها	
	فإن نحن أقلعنا الطيور تحدرت	كصاعقة حرصاً عليها تميتها	
٤٥	وفيها :		
	بحرية أربت على العقبان	جلت عن الأشكال والأقران	٢٧٩
	ترقى فما تدرك بالعيان	تنقض كالنجم على الشيطان	
	والطائر القاص لها كالدان		
٤٦	قال الشاعر :		
	وما مات منا سيد حتف أنفه	ولا طل منا حيث كان قتيل	٣٠٣
	تسيل على حد الظباء نفوسنا	وليس على غير السيوف تسيل	
٤٧	قال الشاعر :		
	ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا		
	ولكن على أقدامنا تقطر الدما		٣٠٣
٤٨	قال الشاعر :		
	ومن عجبي أن السيوف لديهم	تحيض دماء والسيوف ذكور	٣٠٣
	وأعجب من ذا أنها في أكفهم	تأجج ناراً والأكف بحور	
٤٩	قال الشاعر النامي :		
	خلقت كما أرادتك المعالي	فأنت لمن رجاك كما تريد	٣٠٣
	عجبت أن سيفك ليس يروى	وفي حبل الوريد له ورود	
	وأعجب منه رمحك حين يسقى	فيصحو وهو سكران يميد	
٥٠	قال المتنبي :		
	فكأنها خلقت قياماً تحتهم	وكأنهم ولدوا على صهواتها	٣٠٥

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
٥١	قال الشاعر :	
	ولقد ركبت على أغرّ محجل ماء الدياجي قطرة من مائه	٣١٠
	وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتضى منه فخاض في أحشائه	
	لا تعلق الألحاظ في أعطافه الا اذا كفكفت في غلوائه	
	لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه	
٥٢	قال المتنبي :	
	الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني	٣٣٠
	فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان	
٥٣	قال الشاعر :	
	قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو بانت بأطهار	٣٣٥
٥٤	قال امرؤ القيس :	
	حلت لي الخمر وكنت أمرأً عن شربها في شغل شاغل	٣٣٨
	فاليوم أشرب على مستحقب إثماً من الله ولا واغل	
٥٥	قال الشاعر :	
	إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً	
	والريح عاصفة والمرج يلتطم	٣٤٤
٥٦	قالت حذام ابنة الريان :	
	ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما	٣٥٣

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

سلمان الفارسي (رضي الله عنه) : ٢٥٠، ٢٥٢، ٣١٢، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٨
سليمان بن عبد الملك : ١١٩، ٢٣٨، ٣٢٥، ٣٣١
سنقر الكمالي : ٢٣٣، ٢٥١

حرف الشين

شبيب الحروري : ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٦٦
شريك بن عبد الرحمن : ٩٧، ١٠٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٣
شونديز بن مشهلوق بن شرناق الأنطاكي : ١١٢، ١١٣

حرف الصاد

الصاحب بن عباد : ٧٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٦، ٢٤١، ٢٥٣، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٨٠
صعصعة بن صوحان : ٣٠٩، ٣١٠
صلاح الدين الأيوبي : ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٦٢، ٢٧٨

حرف الطاء

الطاهر بن الحسين : ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٢
طغرل السلجوقي : ١٠٤، ١١٥، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٤، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣١٤

حرف الظاء

الظاهر بيبرس : ١٦٧، ١٩٢، ١٩٦، ٢٠٠، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤١، ٢٤٣، ٢١٩

حرف العين

عائشة أم المؤمنين ـــ رضي الله عنها : ٩٥، ٢٢٥
عبادة بن الصامت ـــ رضي الله عنه : ٣٥٩، ٣٦٢

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الكنى

ثبت بالمراجع

عدد مسلسل	البيـــان
١	القرآن الكريم : طبعة مجمع البحوث الاسلامية ــ مصر
٢	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقي
٣	صحيح الامام مسلم ــ للامام أبي الحسين ــ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
٤	سنن الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ــ ابن ماجه، حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي.
٥	فتح الباري ــ شرح صحيح البخاري، شرحه : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مراجعة : محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبد الباقي.
٦	سنن أبي داود : الامام الحافظ المتقن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. مراجعة : محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار احياء السنة النبوية.
٧	مسند الامام أحمد بن حنبل ــ وبهامشه منتخب كنز العمال ــ المكتب الاسلامي ــ بيروت ــ لبنان ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م.

عدد مسلسل	البيـــان
٨	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ــــ للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي مكتبة القدس ــــ القاهرة.
٩	المعجم المفهرس ــــ لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب التسعة رتبه ونظمه : أ.ي.ونسنك وي.ب. منتج ــــ مطبعة بريل في مدينة ليدن ١٩٦٩ م.
١٠	الأدب المفرد للامام البخاري ــــ ترتيب وتقديم كمال يوسف الحوت عالم الكتب ــــ بيروت.
١١	الموطأ للامام مالك بن أنس ــــ رضي الله عنه ــــ صححه ورقمه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي ــــ دار احياء الكتب العربية ــــ عيسى البابي الحلبي وشركاه
١٢	شرح الجامع الصحيح ــــ مسند الربيع بن حبيب، تأليف : العلامة الشيخ عبدالله بن حميد السالمي ــــ الطبعة الثالثة لحفيدي المؤلف ــــ الناشر مكتبة الاستقامة ــــ سلطنة عمان
١٣	الاستيعاب في معرفة الأصحاب ــــ للامام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر ــــ تحقيق محمد علي البجاوي ــــ مكتبة نهضة مصر.
١٤	أسد الغابة في معرفة الصحابة ــــ محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير، المكتبة الاسلامية.
١٥	الاصابة في تمييز الصحابة ــــ للحافظ بن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى ــــ مصر.
١٦	الاعلام ــــ لخير الدين الزركلي ــــ دار العلم للملايين ــــ بيروت، لبنان.
١٧	الأنساب ــــ لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ت ٥٦٢ هـ، تصحيح وتعليق : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ط. الأولى، دائرة المعارف العثمانية ــــ حيدر آباد ــــ الهند.

عدد مسلسل	البيـــان
١٨	البداية والنهاية في التاريخ للحافظ ابن كثير ت ٧٧٤ هـ تحقيق ومراجعة وتصحيح : محمد عبد العزيز النجار ـــ مطبعة الفجالة الجديدة ـــ القاهرة.
١٩	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشيخ محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ دار المعرفة والنشر بيروت ـــ الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ.
٢٠	بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ـــ دار المعرفة : بيروت لبنان.
٢١	تاريخ بغداد ـــ لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـــ دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٢	تاريخ الجبرتي (تاريخ عجائب الأثار في تراجم الأخبار) للشيخ عبد الرحمن الجبرتي ـــ دار الجيل ـــ بيروت، لبنان.
٢٣	تاريخ جرجان للسهمي (ت ٤٢٧ هـ) الطبعة الثالثة عالم الكتب بيروت.
٢٤	تاريخ الخلفاء ـــ لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـــ الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ مطبعة السعادة ـــ مصر.
٢٥	تاريخ الطبري ـــ المسمى تاريخ الرسل والملوك ـــ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ تحقيق محمد أبو الفضل ـــ دار المعارف ـــ مصر.
٢٦	تاريخ قضاة الأندلس ـــ للشيخ أبي الحسن النباهي الأندلسي ـــ منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ـــ بيروت.
٢٧	التاريخ الكبير ـــ للامام ـــ محمد بن اسماعيل البخاري ـــ ت ٢٥٦ هـ ـــ دار الكتب العلمية ـــ بيروت
٢٨	التعريفات : لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني ـــ الدار التونسية للنشر.

عدد مسلسل	البيـــان
٢٩	تهذيب الأسماء واللغات للامام النودي (ت ٦٧٦ هـ) دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٣٠	تهذيب تاريخ دمشق الكبير للشيخ عبد القادر بن بدران ت ١٣٤٨ هـ دار السيرة بيروت.
٣١	تهذيب التهذيب — للحافظ ابن حجر العسقلاني دار صادر بيروت.
٣٢	تهذيب سيرة بن هشام — لعبد السلام هارون المجمع العلمي العربي الاسلامي.
٣٣	التيجان في ملوك حِمْيَر لابن هشام تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية — صنعاء — ط. الثانية ١٩٧٩ م.
٣٤	الجهاد : للامام عبدالله بن المبارك ت ١٨١ هـ تحقيق الدكتور نزيه حماد — ط. مجمع البحوث الاسلامية — مصر.
٣٥	جوامع السير : لأبي محمد بن حزم، تحقيق : احسان عباس وناصر الدين الأسد. طبع بفيصل آباد — باكستان.
٣٦	خطط الشام — لمحمد كرد علي — دار العلم للملايين — بيروت.
٣٧	الدررْ الكامنة في أعيان المائة الثامنة — للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الجيل.
٣٨	ذيل تاريخ بغداد لأبي عبدالله محمد بن محمود بن الحسن بن البخار ت (٦٤٣ هـ) ط. الأولى — دار المعارف العثمانية حيدر أباد. الهند ١٣٩٨ هـ.
٣٩	الشعر والشعراء (طبقات الشعراء) للامام ابن قتيبة — تحقيق مفيد قميحة — دار الكتب العلمية — بيروت.
٤٠	طبقات الشافعية الكبرى : لعبد الوهاب بن علي السبكي : ت ٧٧١ هـ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد، ط. الحلبي مصر ١٣٨٣ هـ.

فهرس موضوعات الجزء الأول

عدد مسلسل	البيـــان	رقم الصفحة
٢٧	فصل : في المشورة	١٤٨
٢٨	الباب الثالث : في كتّاب الرسائل والدواوين وما لهم من الرسوم والقوانين	١٥٢
٢٩	فصل : في ديوان الجيوش وعرضهم	١٥٦
٣٠	فصل : في ديوان الخراج	١٥٨
٣١	فصل : في ديوان النفقات وهو ديوان الأمانة والحاشية	١٦٠
٣٢	فصل : في الصدقات وديوانها	١٦٢
٣٣	فصل : في ديوان بيت المال	١٦٦
٣٤	الباب الرابع : في ولاية المظالم	١٦٨
٣٥	الباب الخامس : في أصحاب البريد والأخبار	١٧٧
٣٦	الباب السادس : في الحجاب والنقباء والحرس والأعوان	١٨٧
٣٧	الباب السابع : في ذكر رسل الملوك وصفاتها وهداياها واتحافها	١٩١
٣٨	فصل :	١٩٣
٣٩	الباب الثامن : في صحبة السلطان وشرائطها وما يحمد ويذم من ذلك	١٩٦
٤٠	**القسم الثالث :** في الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته وهو عشرة أبواب	٢٠١
٤١	الباب الأول : في هيئة الملك ولباسه وركوبه وجلوسه وخصائص يتميز بها	٢٠٣
٤٢	فصل :	٢٠٦
٤٣	فصل :	٢٠٩
٤٤	فصل :	٢١٣

رقم الصفحة	البيـــان	عدد مسلسل

فهرس موضوعات الجزء الثاني